ليلى والحب المستحيل

–أمل الروبي–

دار دريم بن للطباعة والنشر
العنوان: مدينة العبور – الحي السادس، فيلا 8، مدخل 1
هاتف: 1003288596 (0020)
بريد إلكتروني: dream.pen92@gmail.com

ليلى والحب المستحيل

أمل الروبي

الطبعة الأولى، القاهرة ديسمبر 2020
قصائد ولوحات: أمل الروبي
رسمة الغلاف: أمل الروبي | تنسيق الغلاف: عمار جمال العبد
تدقيق لغوي: هبة ممدوح
تنسيق وإخراج داخلي: لخضر بن الزهرة
رقم الإيداع: 20423 / 2020
I.S.B.N | 978-977-6794-54-2

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذنٍ خطيٍّ من الدار.

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبِّر عن رأي كاتبها، و لا تعبِّر بالضرورة عن رأي دار النشر.

رواية
ليلى والحب المستحيل
أمل الروبي

الإهداء

إلى روحِ أبي الحبيب، الذي كان في حياتي منارة للعلم والإيمان والوسطية، وإلى أمي صديقة عمري الأولى التي علمتني كيف أحترم وأقدر قيمة كل كلمة أكتبها منذ كنت طفلة في الثالثة عشر، وإلى عائلتي المبجلة المميزة أهدي هذه الرواية مع كل الشكر والتقدير للزوج الذي شجع ودعم، شكرًا لكم جميعًا. ورسالة احترام خالصة مني لكل أبطال الرواية من الواقع كانوا أو من الخيال، غائبين أو حاضرين، إنها مدرسة الحياة، نتعلم منها الكثير.

أمل عوض فهمي الروبي

فضلًا اخلع عنك عباءة التعصُّب حينما
تقرأها فالو اقعُ حافلٌ بالمتناقضات المدهشة.

في كندا، في ركنٍ من أركانِ شقتي الصغيرةِ بمدينة «تورونتو» رُحنا نتسامرُ أنا وصديقتي «منى» كعادتنا بجوارِ النافذةِ، وقد بدأت كراتُ الثلجِ القطنيةِ الشَّكلِ تتساقطُ من أمامِنا ونحن نتناولُ فناجينَ القهوةِ الساخنةِ في حالةٍ من النشوةِ الغامرةِ، فهمستْ لي منى قائلة:

– أنا كييفة قهوة الصراحة.

فعلَّقتُ أقول:

– ما حدش بيحب القهوة قدي!

ورحتُ أرتشفُ رغوةَ مشروبي المفضل «اللاتيه» بينما تتمعن هي في قراءةِ إحدى قصائدي مرددةً:

– حلوة أوي القصيدة دي «حب ممنوع»، يا ترى إيه حكايتها؟

فتبسمتُ لوهلةٍ لأردد:

– يااه دي حكاية طويلة.

فقالت والشغفُ يشتعل في عينيها:

– طب احكي لي إحنا ورانا حاجة، أنا عن نفسي بموت في الحكايات.

فتجددت البسمةُ على شفاهي ورحتُ أسألها:

– تحبي أحكيها لك باختصار يعني، ولّا أقرأ لك الحكاية من مذكراتي؟

لتجيبني بدهشةٍ وقد بدت اللهفةُ في عينيها:

– مذكراتك انتِ كاتبة مذكرات! لأ لو كدا بقى يبقى نقراها من مذكراتك طبعًا؛ هتبقى ممتعة أكتر.

أضحكتني لمعةُ الفضولِ في عينيها فرحتُ أقول:

– خلاص أقرأها لك زي المسلسل التركي كدا، كل يوم شوية، إيه رأيك؟

فبدا عليها الحماسُ لتنتفضَ قائلةً:

– ممتاز يلاّ هاتي المذكرات وخلينا نبتدي الحكاية.

فقمتُ أُحضر لها دفتري وعُدتُ أفتحهُ فقالت:

– هتقرأي انتِ ولا أقرأ أنا؟

– لأ هقرأ أنا.

تبادلنا البسمةَ بعدما أسرعت تنهي رشفتها الأخيرة للفنجانِ لتنصت لي وأنا أقصُّ عليها ما كتبت.

وبدأت في القراءة.

***

الفصل الأول

عالمي الخاص

كان عامَ ألفين عامًا مميزًا للعالم كله، ولكنه كان بالنسبة إليَّ عام ميلادي الجديد، في هذا العامِ في بيتنا بالخليج وبنظرة شاردة تتخللها الحيرة ويُخيَّم عليها القلق سألني أبي:

– تحبي تدخلي الجامعة فين يا ليلى يا بنتي في مصر ولا في كندا؟

وكانت إجابتي الحاسمةَ بدونِ أي ترددٍ:

– في مصر طبعا يا بابا!

فتدخلَ أخي يوسف بحدةٍ قائلًا:

– كندا أحسن يا بابا أجمل، ومستقبلها أحسن.

ولكنني رحتُ ألحّ عليه بنبرةِ إصرارٍ قوية:

– لأ يا بابا مصر طبعًا!

فردت والدتي:

– يا فريد هو إحنا ناقصين! ما كفاية اللي حصل مع أختك هناك ما انت عارف، خلينا ندخلهم الجامعات في مصر أريح وأحسن!

فردَّ أبي:

– اسمعي بس يا رقية، ما هو كدا كد الفلوس موجودة، وخير ربنا كتير وممكن أوي ياخدوا دعم دراسي على حساب الحكومة هناك...

فأدارت أمي رأسها متنهدة فسكت.

ليأخذني الشرودُ إلى ذكريات جراحٍ عميقةٍ، مرت بي كشريطٍ موجعٍ بلقطاتٍ لي وأنا على الأرض باكيةً أكتبُ لعمتي التي تربيتُ على يديها رسائلَ حبٍ واشتياقٍ، أعرف أنها لن تصل إليها أبدًا، لتتساقطُ دموعي على الحبرِ فيصبحُ كالغمامِ الأسود، أكتبها بالعربيةِ وأعرف أنها لا تجيدُ قراءتها، ولو قرأتها لما فهمتها، ولقطاتٍ أخرى لأبي يصيح قائلًا:

– أختي ضاعت خلاص أعمل إيه بس! أختي الوحيده الأمانة اللي سابوها لي أبويا وأمي الله يرحمهم أعمل إيه يا رقية بس! حاولت معاها وآدي آخرتها

ما فيش فايدة!

وردت أمي:

– خلاص يا فريد اهدى اهدى بقى كفاية! ما تعملش في نفسك كدا أنا فاهمة والله يا فريد بس كفاية أوي عمتهم ما احناش ناقصين بقى وجع قلب!

ليستقرَ في ذهني أخيرًا هذا المشهدُ الذي عايشتُه في زيارتنا الأخيرةِ لكندا، حين انهارت عمتي التي كانت أحبَ الناس إلى قلبي واقعة في الأرض وسط الصياح والذعر.

وأخيرًا قطعَ شرودي الطويلَ صوتُ أبي وهو يقول:

– ها يا بنتي قلتوا إيه انتِ وأخوكي؟

فأجبتُه بحسم:

– كندا لأ يا بابا هنروح مصر قرار نهائي.

أمنّت أمي على حديثي:

– هو دا الكلام.

فردّ أبي:

– طيب يبقى تروحوا مصر على بركة الله.

شعرَ يوسف بالإحباطِ، ولكنه مضى مستسلمًا.

بينما تذكرتُ أنا لوهلةٍ عشقي القديمَ لكندا التي أحمل جنسيتَها، والتي كانت مسقطَ رأسي أنا ويوسف، أمضيتُ فيها أولَ وأجملَ ثمانِ أعوامٍ من عمري مع عمتي القاطنةِ هناك، تذكرتُ كيف تسببَ هذا العشقُ في انعزالي عن زميلاتي في مدرستي بالخليج، وتذكرتُ هذه الإجابةَ التي كنتُ أجيبُ بها معلماتي حين يسألنني عن جنسيتي فأكتفي بكلمةٍ واحدةٍ:

«كندية».

هكذا ببساطةٍ كنتُ أجيبهن فينتابهنّ الاستغراب، ليس فقط لأنها كانت رغبةُ والدي الذي ظنّ أنه بهذا يرفع من شأني ويحميني من التمييز؛ بل لأنني كنتُ في الحقيقةِ أعبّرُ بهذه الإجابةِ عن رفضي لكل ما يفرق بيني وبين عمتي التي كانت لي أختي وصديقتي ومثاليَ الأعلى في الحياة، فأنا ببساطةٍ لا أنتمي إلا لتلك الأرض التي تعيش هي عليها مهما بَعُدت، كنتُ أشبهها في الملامح كثيرًا، ولم تكن تكبُرُني إلا بتسع أعوامٍ فقط، هي أسمتني ليلى، ولطالما مشطتْ لي شعري تمامًا كعرائس «الباربي» التي ملأتْ صندوقَ ألعابي بها، ولقبتني بأميرتي الجميلة بينما توجتُها أنا ملكةً على قلبي لسنوات عدة.

وهبطنا على الأراضي المصرية ومضى نسيمُها العليلُ يلاطفُ خصلاتِ شعري تحت الحجاب، يبدو كل شيء هنا مختلفًا، حتى رائحةُ الهواءِ مميزة، وحمرةُ قرصِ الشمس ساحرةً لا مثيل لها، إنها مصر أصلي ومنبتي الحقيقي، ولكن تلك الزياراتِ القليلةِ التي جمعتني بها لم تكن لتزرعَ في وجداني بذورَ الانتماءِ إليها، فهي مصرُ التي طالما أبدا أبي أسفَه على أوضاعها السياسيةِ والاقتصاديةِ العقيمةِ، منذ حقبة عبد الناصر وحتى مبارك، ولطالما عانت فيها أمي من ويلات الغِشّ والتدليسِ وصراعاتٍ لا تنتهي.

في شِقةٍ مفروشةٍ متوسطةِ الحالِ كان مستقرُنا في البدايةِ على أطرافِ القاهرة، بجوار إحدى الجامعات الخاصةِ الحديثة، لم يزل ينتابني الخوفِ من المجهولِ القادم، فأصبّر نفسي باستحضارِ كلمات طبيبتي النفسية:

– انتِ لا محتاجه أدوية ولا حاجة وقفي الدوا.

– بس يعني.

– صدقيني انتِ لما تروحي الجامعة في مصر هتبقى في حاجات جميلة في حياتك تفكري فيها ألوان لبسك.. أصحابك الجداد حاجات كتير، وهتبقي أحسن كتير.

طفولتي الضائعة

لم أعتد اختيار شيء في حياتي؛ لا جامعتي، ولا كليتي «كلية الإعلام». تمنيتُ أن ألتحقَ بكليةِ الفنونِ الجميلة كأي فتاةٍ تهوى الرسمَ منذ نعومةِ أظافرِها، أو حتى ألتحقُ بكليةِ الآدابِ قسمِ اللغةِ العربية كشاعرةٍ صغيرة، ولكنني فوجئت باعتراضٍ صريحٍ من أبي المحبِّ لكل أشكالِ الفنون، أبي ذلك الأستاذِ الأزهريّ المولعِ بالقراءة والمعروفِ بأسلوبه الأدبيّ الرائع، لتكون هذه وببساطةٍ إجابته المبررة:

– الرسامين والكتاب والشعراء دول يا بنتي معظمهم فقراء وغلابة، وكتير منهم مش بيلاقوا فلوس حتى عشان ينشروا كتبهم أو يعملوا معارض لنفسهم، انتِ عايشة في الوهم فهميها يا رقية بقى فهميها!

كنتُ في السادسةِ عشرَ، وكان أخي يوسف في الثامنةِ عشر حين انتقلنا للعيش في مصر، سبقني يوسف بعامٍ والتحقَ بكليةِ الطب، والتحقت أنا من بعده بكلية الإعلامِ في الجامعةِ الخاصةِ نفسِها، بينما ظلَّ أبي في عمَلِهِ كأستاذٍ للفقه المقارنِ في إحدى جامعاتِ الخليج وبقيتْ أمي معنا في مصر.

***

مرت الأيامُ، وحان الموعدُ واجتزتُ بوابةَ الجامعةِ الحديديةِ الشاهقةِ وأنا في حالةِ انبهارٍ تامٍ كأنني أدخل عالمًا جديدًا؛ صرحٌ ضخم، مبانٍ فاخرةٍ، تصميم عمراني فريد، إنها جامعتي الخاصة الجديدة. كانت معظمُ الأراضي من حولِها لا تزالُ صحراءَ جرداء، تشبه خبرتي في الناس وفي الحياة كلها، ولكنها تظل رائعةً مميزةً أيضًا كهذا القلب الذي أحمله بين أضلعي، قَطَع شرودي فجأةً صوتُ أخي قائلًا:

– كلية الإعلام أهه يلا روحي سجلي، وأنا هأخلص على الساعة تلاته وآجي أخدك عشان نرَوّح.

هوّن يوسف عليّ رهبة المكان، لقد كان على درايةٍ بكل أماكن الجامعة التي أمضى فيها عامًا كاملًا وحده، بينما كنت أنا في بيتنا أعاني من شبح الثانويةِ العامةِ في حالةٍ من الوحدة والكآبة.

أنا ويوسف وعالم الجامعة

وبنظرةٍ ثاقبةٍ إلى مبنى كلية الإعلام رنّت في أذني كلماتُ أمي وهي تحاولُ إقناعي قائلةً:

– انتِ مش بتحبي كاظم الساهر وليل ونهار بترسميه ومشغلة أغانيه مش نفسك تشوفيه؟

– طبعا بتمنى أشوفه، بس دا علاقته إيه بالموضوع؟

– خلاص لما تتخرجي من كلية الإعلام هتقدري تقابليه وتعملي معاه لقاء تلفزيوني كمان، ومش بس كدا هتقدري تنشري أشعارك ورسوماتك في الصحافة والإذاعة أو حتى التلفزيون.

أفقتُ من شرودي على مبنى الكلية المهيبِ يطالعني، وبابتسامة ناعمةٍ وعينينِ لامعتينِ يملؤهما الأمل، دخلتُ كليتي الجديدة ودخلتُ معها عالمَ الأحلام.

لم أكن أعبأ أو أهتمّ بمظهري كثيرًا، ولا تشغلني أمورُ الفتياتِ المعتادةُ في سني، فقط أضعُ حجابي ليغطي شعري كاملًا، وأرتدي ملابسي التي أراها تتناسبُ معه، بينما أمشي في الجامعة فأجدُ من حولي يطيلون النظر إليَّ دون مبرر؛ فأتعجب لماذا يرشقونني بهذه النظرات! هل أبدو أنيقة أم غريبة؟ لا أدري.. ولكن لا يهم، فقد كان همي الشاغل وقتها أن يصبح لدي أصدقاء؛ أصدقاء كثيرون، أعوض بهم حرماني من الصداقةِ في غربةٍ وطفولةٍ بائسةٍ عشتها بين مدرستي وبيتي بالخليج، أصدقاء بلا تشدد، بلا حرام وحلال «وما يجوز» باللهجة الخليجية.

انتهت أول محاضراتي ورحتُ أتجولُ تحتَ أشعةِ الشمسِ المصريةِ الحانية لأمرر عيني بين الناس، ألوان في كل مكان، أخيرًا أجد فتياتٍ يرتدين ملابسًا جميلةً جذابة، حجابٌ مبهجٌ وألوانٌ ربيعيةٌ تعكسُ نضارتهن وتتناسبُ مع أعمارهن، «إنها مصر؛ حيث الوسطية الدينية والحرية الفكرية» همستُ بها في نفسي.

هكذا تراءى لي موطني لأولِّ وهلة، فهنا أرى الفلسطينيين يرتدون الجينز والوشاح الفلسطينيّ حولَ أعناقهم، وأرى المحجباتِ وغير المحجبات، لا أحد في هذه الأرض يجبرك على ارتداءِ لونٍ محددٍ أو زيٍّ بعينه وإلا كان مصيرك الوعيدَ في الدنيا والعذابَ في الآخرة، دارَ للحظةٍ بخاطري مشهدُ مشرفةِ البوابةِ في مدرستي وهي تصيح في وجهي:

– ما في خروج إلا لما تغطي وجهك!

– بس بابا برا واسمي نادوا عليه وأنا عيانة ماقدرش أغطي وشي عشان النفَس.

– لا أنا قلت ما راح تخرجي إلا لما تغطي وجهك، الرجال برا واقفين ما يصير، والله ما راح أخرجك إلا إذا غطيتي وجهك!

لتمر عليَّ دقائقٌ من القهرِ والذلِ حتى اضطررت أخيرًا إلى غطاءِ وجهي لدقيقةٍ ثم كشفه فورًا، فأنا أعاني ضيقِ التنفس من جراءِ الحساسية ولكنها لا تعبأ.

وجال بخاطري مشهد أكثرُ مرارةٍ، ولكن ليس بالخليجِ هذه المرة، كان في كندا مع عمتي التي كانت حبيبةَ عمري، وقفت بشعرها الأجعدِ وبنطالها الجينزِ الواسع القصير تنظر إليَّ وتصرخُ في وجهي بعد ارتدائي الحجابَ بأشهرٍ لتقول:

– اقلعي الهبابة اللي على دماغك دي، إحنا هنا في كندا يعني ما حدش بيبص على شعر الستات هنا، انتِ مش في مصر ولا في الخليج!

– أنا عارفة، بس أنا لابسة الحجاب عشان ربنا مش عشان الناس، مش هقلعه عشان سافرت كندا.. حرام.

رفعت يداها صائحةً تقول:

– هو الناس هيغمى عليها لو شافت شعرك يعني! ما كل الناس عندها شعر، بلاش هبل انتِ إيه اللي جرالك بقيتي خليجية خلاص!

لتحادث صديقتَها الأمريكيةَ باللغة الإنجليزيةِ قائلة:

– لست أدري ما الذي دهى هذه الفتاة! لماذا تتصرفُ بهذا الغباء؟ إنها ابنةُ أخي وربيتها على يدي، ولكنني أكادُ أجزمُ الآن أنني لم أعد أعرفها!

لترد صديقتها شارمن قائلة:

– دارين، إن عليكي تقبّل الأمر يا عزيزتي، فهي لا تزال صغيرةً، وقد تربت على عاداتٍ وتقاليدٍ شديدة الاختلاف.

وللأسف الشديد كانت شارمن الصديقة الأمريكية الشقراء أكثر احترامًا وتفهمًا لي من عمتي نفسِها، عمتي التي تدركُ جيدًا أنني أفهم اللغةَ الإنجليزيةَ وأدرك كلَّ ما تقول، ولكنني آثرتُ التظاهرَ بعدمِ الانتباه فهي أقربُ المقربين إليَّ، ولن يقوى قلبي على مهاجمتها.

وأفقتُ من شرودي وأنا أتنفسُ النسيم المصري، أخيرًا سأكون نفسي، سأخلعُ رداءَ الغربةِ الشرقي والغربي وأتذوق طعمَ الانتماءِ وسط أشباهي، فلونُهم هو لوني: لونُ القمحِ المصري الأصيل، ونفس الطول والملامح، نفس اللهجة، ونفس طريقة التفكير، أخيرًا بدأتُ أشعرُ بمعنى حضنِ الوطن.

جلستُ على أحدِ المقاعدِ في ساحة الجامعة، كنتُ أحمل في يدي كيسًا بلاستيكيًا به بعضُ لوحاتي، عصارةُ إبداعي بين جدرانِ غرفتي المنزويةِ في بيتنا في الخليج، وها أنا أنتظرُ أي فرصةٍ للتعرفِ على صديقاتٍ جُدد؛ فلربما تكونُ هذه اللوحات كما قالت لي أمي فرصةً لاجتذابِ الصديقات، فهي أفضل وسيلة للتعبيرِ عني كإنسانة، فلم تكن مجردَ خطوطٍ أو ألوانٍ أستعرضُ فيها موهبتي، بل كانت رسائلَ إنسانيةً حيةً يستطيع كل من يمتلكُ إحساسًا ثاقبًا أن ينفذَ إلى عيونِ بطلاتِ البورتريهات فيها، فيرى كل ما أودُّ إيصالَه منها جليًا واضحًا كقرصِ الشمس.

وتصفحتُ لوحاتي وقد لمحتُ فتاتينِ يجلسانِ بجواري، فالتفتا إليَّ وقد اجتذبت اللوحات أنظارهما ليحدثاني:

– الله إيه دا! حلوة أوي اللوحة دي، سوري معلش ممكن أتفرج.

– طبعًا اتفضلي!

لتسألني الأخرى:

– مين اللي راسمها انتِ؟

– أيوة أنا.

– بجد والله!

ابتسَمتُ من دهشتِها وأجبتُها:

– آه والله أنا.

وبسعادةٍ غامرةٍ بدأتُ أعرضُ عليهما لوحاتي، فتأملاها في دهشةٍ وانبهارٍ، ليأخذنا الحديثُ إلى عالمِ الرسم بجمالياته حتى مرت دقائقٌ معدودة وأنا في سعادةٍ غامرة، فاستبشرتُ خيرًا أخيرًا سأبدأ في تكوينِ صداقاتٍ جديدة، لن أصبح وحيدةً بعد اليوم. لم تمضِ دقائقٍ حتى استأذنتنا مني للذهاب فتصافحنا لتسألاني والبسمةُ لم تزل على الوجوه:

– صحيح اسمك إيه؟

لتردد الأخرى ضاحكةً:

– آه صحيح ما اتعرفناش لحد دلوقتي!

فأجبتهما:

– ليلى وانتو؟

فأجابت إحداهما:

– كرستين.

وأجابت الأخرى:

– وأنا أنجيل، إحنا الاتنين سنه أولى برضه، بس صيدلة.

وتوترتُ قليلًا فأنا لم أقابل أقباطًا أبدًا في حياتي من قبل، ولكن شيئًا لم يطرأ على ابتسامتي العريضة ونحن نتبادل عبارة: «أهلا وسهلا فرصة سعيدة».

وذهبتُ شاردةَ الفكرِ أتمتمُ في نفسي: «مسيحيتان هما ومن كليةِ الصيدلة، وأنا مسلمة محجبة ومن كلية الإعلام؛ كيف لنا أن نتصادق إذن؟ ياله من حظ عاثر! انتهى أول يوم دراسي وأنا لم أعثر بعد على صديقتي المرتقبة!»

وذهبتُ أروي لأمي في البيت خلاصةَ ما شاهدته في يومي كما اعتدت منذ الصغر فعلقت تقول:

– وماله يا بنتي لما يبقى عندك صاحبات مسيحيات؟ ما أنا كان عندي زمان صاحبات مسيحيات في مصر وكندا وكنا بنعز بعض جدًا ما داموا كويسين معاكي إيه المشكلة؟

شردتُّ وأنا أتذكرُ لمعةَ الصلبانِ الذهبيةِ على صدريهما حينَ ودعتهما كيفَ لم ألاحظ؟ وهل أخطأتُ في أي كلمةٍ دون قصد؟ استرجعتُ الحوار كله في لحظةٍ ثم تنهدتُ أخيرًا: «لا أظن؛ فلا داعي للقلق»، ثم أجبت أمي:

– عادي يا ماما، بس برضه مش هينفع أنا عايزة صاحبة زيّي كدا؛ مسلمة، ومحجبة عشان ناخد راحتنا في الكلام.

– إن شاء الله هتلاقي يا حبيبتي الصبر بس الصبر.

***

في فجرِ اليوم التالي أفقت مفزوعةً وصوتُ أمي يتخللُ مسامعي وهي تنادي:

– ليلى مالك يا حبيبتي انتِ كويسة!

فأجبتها وأنا أحاول استجماعَ أنفاسي:

– آه، آه، كويسة يا ماما، مفيش حاجة الحمد لله.. الحمد لله.

– كابوس برضه.

– آه صعب أوي.

–معلش يا حبيبتي استهدي بالله وقومي سبّحي وصلي الفجر.

ترامت إلى مسامعي أصداءُ صوت الإقامة، فقمتُ على تمهلٍ للوضوء وأنا أفرك وجهي بأصابعي مسترجعة ذلك الكابوس الذي رأيته، لقد كان صوت «أبلة هدى» مشرفة التوجيه الديني وهي تصيح في وجهي بملامحٍ عبوسة تكاد تخترق عقلي وهي تقول:

– تحبين مطرب وتكتبين فيه أشعار، والله إنك ما تستحي! راح تُحشري معه هيصير مصيرك نفس مصيره هدا الفاسق راح تصيري معه... معه... معه!

ليعلو صوتي وأنا أردد:

– أنا ما عملتش حاجة... ما عملتش حاجة!

ليسعفني صوت أمي أخيرًا فأستفيق.

أنهيتُ وضوئي ثم صليتُ الفجرَ وأمي على مقعدِها المعتاد لا تزال ترتدي خمار الصلاةِ الأبيضِ وتسبح، لترمقني بنظرةٍ شفقةٍ وحزن، دخلتُ بعدها غرفتي ثم بدّلت مكان الوسادةِ علّي أنسى فأغفو، وغفَوتُ بالفعل ولكن بعد طولِ معاناة.

لم يكن هذا الكابوسُ حُلمًا عاديًا، بل كانَ واقعًا عايشتُه في الثانوية، واقعاً تسببَ في تركي للمدرسة كلها بعد تعاطف أمي وأبي معي، كان ذلك بعدما حبستني أبلة هدى لساعة كاملة صبّت عليّ فيها جمّ الوعيدِ والتهديدِ بعذابِ النار حتى انهرتُ تمامًا، وبالرغم من إن إدارةَ المدرسةِ قد قامت باستبعادِها على إثر شكوى أبي فيها، لكن حالَ باقي معلماتِ المدرسةِ لم يكن ليختلفَ عنها كثيرًا، كان فقط أقل حدة.

قمتُ إلى جامعتي وأنا متفائلةً مستبشرة، فلماذا أشغلُ بالي بالماضي ما دمتُ الآن في حضنِ الوطن، أستنشقُ عبيرَ الحرية والحب والدفء، فلأستمتع على الأقل بنهاري ويكفيني ما أراهُ من كوابيسِ الليل.

تعرفتُ في كليتي أخيرًا على ندى؛ فتاة مكتنزةٌ، قصيرةٌ، جميلة، عيناها كالياقوتِ الأخضر، مفعمة بالحيويةِ وحبِ الحياة، بالكاد تفارقُ الضحكةُ شفاهَها، تضعُ على رأسِها حجابَ رأسٍ صغيرًا مزركشًا أعجبني، فأنا لا أريد منتقباتٍ ولا مختمراتٍ، ولا أريد توجيهاتٍ ولا مواعظَ على الأقل في هذه الفترة المعقدةِ من حياتي، كانت ندى كوخي الصغيرَ الذي وجدتُ فيه خلاصي من الهم والغم، كانت عيناها الخضراوان لا تكفان عن الأمل، ولابتسامتها اللامعةُ حمرةٌ صاخبةٌ تمامًا كشخصيتها الشعبية المتوهجة، لها قاموسٌ شعبيٌّ شبابيٌّ مميزٌ لطالما استهواني، رغم إنني لم أكن أفهم معظم مصطلحاته فأجلس بصحبتها مندهشةً وهي تقول:

– مالك مزبهلة كدا ليه يا بنتي!

– مز...مزبهلة يعني إيه مش فاهمة؟

– إيه يا بنتي فيه إيه! مندهشة يعني!

– أصلي ما فهمتش الكلمة اللي قلتيها قبلها.

– «رِوِش» قصدك؟

– آه «رِوِش طَحْن» دي يعني إيه روش؟

– يعني مدردح كدا.

– مي... إيه!

– لا دا انت في الضياع خالص!

نظرت تقهقه لزميلة أخرى لتجيبني أخيرًا:

– روش يعني حِرِك وظريف كدا.

– وطحن؟

– طحن يعني يعني فَحْت.

– إيه! إيه فحت دي كمان!

لتضحك طويلًا ثم تقول:

– لا دا انتِ لسه بدري عليكي أوي بكرة تفهمي بقى.

فنظرتُ إليها ضاحكةً أردد:

– لا بجد قولي لي.

– لا دا سر المهنة.

– لا بجد معناها إيه بجد عشان خاطري!

– طب اعزميني على حاجة طيب وأنا أقولك.

ورحنا نتمازحُ بضرباتٍ خفيفةٍ فقالت ضاحكة:

– إيدك تقيلة يا بت روحي كدا!

لندمع سويا من الضحك بينما لا نعرف على ماذا نضحكُ من الأساس، كانت هذه هي ندى التي عشقتُ روحها المرحة إلى أبعد الحدود، تبدو للبعض تافهة، ولكن تفاهتها هذه كانت بالنسبة إليَّ الدواء.

«أنا مش عارف إيه اللي عاجبك في ندى دي! بنت مرووشة ولبسها غريب وماكياجها فلاحي أوي»، بهذه الجملة شاكسني يوسف كعادته وهو يدرك تمامًا أنني سأرد عليه سهامه المارقة بأشد منها، فرحت أقول:

– يعني صحابك يعني اللي عدلين خليني ساكتة!

– مالهم صحابي؟

– انت مش كل شوية تحكي عنهم؛ فلان بتاع البنات، وفلان اللي بيتخانق معاك على أتفه الأسباب، ومسميينك الشيخ يوسف؟

– ماشي بيهزروا معايا عشان مربي دقني دي فيها إيه يعني!

فتدخلت أمي قائلةً:

– يا ابني ما تحلق دقنك دي هنا في مصر غير الخليج ماحناش ناقصين وجع دماغ! اللي بيربي دقنه هنا بيفتكروه تبع الجماعات.

فقاطعها يقول:

– ماما أنا مش لوحدي اللي مربي دقني، فيه كذا ولد زيي. وبعدين فيها إيه لما أربيها؟ أنا إيه علاقتي بالسياسة أصلًا عشان يفتكروني تبع أي حاجة!

أنا مربيها سنة عن الرسول عليه الصلاة والسلام.

– عليه الصلاة والسلام.. يا حبيبي أنا فاهمة، بس انت هنا في مصر وأي حد بيشتبهوا فيه هنا بيتاخد في قانون كدا هنا اسمه قانون الـ..

فقاطعها أخي بحدةٍ يقول:

– خلاص يا ماما سيبيني في حالي مش هحلقها ريحي نفسك.

فرحتُ أتمتم في سري: «يلّا كويس أهو انشغل في الدقن ونسي ندى».

في غرفتي جلستُ أرسُمُ بقلمي الرصاصِ كعادتي، فنادتني أمي عن بعدٍ تقول:

– ليلى.. يا ليلى الأكل خلص قومي كلي.

وكالعادةِ أريتها اللوحة قبل أن تكتمل، فعلقت تقول:

– البنت حلوة والولد دا مين؟ كاظم برضه؟

– لأ يا ماما دا واحد من خيالي والله، هو برضه شبهه؟

غمرت البسمةُ وجه أمي الخمسيني بملامحِها الناعمةِ التي لم تغير التجاعيد الخفيفةُ شيئًا من براءتها، لترفع خصلةً من شعرها المحنىّ وهي تضع أطباقَ الطعامِ على السفرةِ بعد جهدٍ مرددة:

– وهو انت عمرك رسمتي راجل من خيالك قبل كدا وطلع مش شبهه!

– يوووووه يا ماما!

– ما هو عشان متأثرة بيه حاولي ترسمي أي حد تاني عشان تخرجي من ملامحه شوية.

وجلست تأكلُ بينما عدتُ أكمل لوحتي فعادت تنادي فأجبت:

– حاضر يا ماما جايه أهو!

***

في صباح اليوم التالي استيقظتُ بنشاطٍ مُفعمٍ بالحيوية، ثم ارتديت ملابسي، ووضعتُ قليلًا من الحُمرةِ والكحلِ على عجلٍ فسألتني أمي:

– مش هتفطري؟
– لأ هافطر هناك يا ماما.
– هي محاضرتك مش الساعة تسعة؟
لأ، الساعة 12 الظهر بس هفطر مع ندى ونقعد مع بعض شوية.

وانفرجت أساريرُ أمي وهي تردد:

– طيب يا بنتي، المهم بس ركزي في المحاضرة واكتبي مع الدكتور كلمة بكلمة.

– حاضر يا ماما.

وانطلقتُ مسرعةً كغزالةٍ شاردةٍ في الصحراء، أحمل بداخلي طاقةً مشعةً لا مثيلَ لها، وعلى شفاهي ابتسامةُ أملٍ لامعة، أتكئ بذراعي على شُبّاك الحافلةِ الصغيرة، ويلاطفُ نسيمُ الهواءِ العليلِ خدي فيشاغبُ خصلاتِ شعري تحت الطرحةِ كعادته.

***

في قاعة المحاضراتِ ختمَ الأستاذ محاضرتَه قائلًا:«ويعتبر توجيه الرأي العام من أهم وظائف الإعلام ، والوظيفة دي بيظهر دورها أكتر في دول العالم الثالث. ومن خلالها الإعلام بيمارس دوره القيادي وبيمثل السلطة الناعمة وهنتكلم عن الوظيفة دي المحاضرة الجاية».

بابتسامتي المعهودةِ نظرتُ إلى ندى بجواري أحدثها:

– يلا بينا نفطر.
– انتِ ما فطرتيش؟
– لا قلت أفطر معاكِ وانتِ بتحكيلي عن سي أحمد بتاعك.

فابتسمتْ ثم قالت:

طيب لحظة بس أسلم على لينا وداليا وأجيلك.

– ماشي يا ستي مستنياكي.

وجلسنا نأكلُ شطائرَ «الهوت دوج» على السلالم وهي تحكي:

– إمبارح اتكلمنا كتير كان بقاله يومين ما كلمنيش ما انتِ عارفة.

فأجبت وصلصة «الكاتشب» على فمي:

– آه طبعا كنتِ هتتجنني!

– قال لي وحشتيني أوي بس ما كانش معايا فلوس أجيب كارت وأكلمك.

– هو للدرجادي ظروفه صعبة؟!

– ما هو بيصرف على نفسه وانت عارفة بقى مواصلاته وسجايره وكدا.

– طب يا بنتي هتعملوا إيه بعد كدا؟

– أنا ما يهمنيش أنا وهو هنشتغل وهنساعد بعض، إحنا متفقين على كدا من زمان وأنا بقول له أنا هعيش معاك إن شاء الله ناكل عيش حاف.

– يا عيني يا عيني!

– أيوة يا بنتي، دا حب عمري من إعدادي ما أنا قلت لك.

– أيوة.. أيوة، فكرتيني بأفلام الأبيض والأسود أكلها معاك بدقة يا حبيبي.

ودندنتُ لها ضاحكةً: «أهواك.. وأتمنى لو أنساك.. وأنسى...».

فشاكستني بضربةٍ خفيفةٍ تقول:

– انتِ بتتريقي! ما هو انتِ لو حبيتِ كنتِ فهمتي يا أختي!

– طب ماهو أنا بحب فعلًا.

– آه هتقولي لي كاظم الساهر حرام عليكِ بقى جبتي لي كالّو في نافوخي من كتر كلامك عنه يا شيخة، دا أنا كرهته بسببك!

– بقى كاظم الساهر ولا أحمد بتاعك دا، وبعدين افرضي حد من أهلك اكتشف الموضوع.

– اسكتي يا ليلى أنا مش ناقصه كركبة بطن هو الهوت دوج دا فيه إيه أنا بطني مغّصِت.

فرددتُ ضاحكة:

ندى

– لا هي سيرة أهلك بس الهوت دوج سليم وحلو أهو، هو ماله صحيح شكله غريب فعلًا، اسكتي بقى لأحسن أنا كمان هتعدي منك ويجيلي مغص دلوقتي!

علت ضحكاتنا كالعادة ثم ودعتها، ورحت أتجول في الجامعة حتى لمحتُ يوسف بعد قليل مرتديًا معطفه الأبيض ضاحكًا كعادته بين حلقةٍ من أصدقائه، وما إن لمحني عن بعدٍ حتى تركهم وأقبل إليَّ مسرعًا قبل أن أصلَ إليه، كأنما يحاول تجنُبَ لقائي بهم، ليدور بيننا حديث فيسألني:

– فيه إيه؟

– إيه مالك جيت بسرعة وسبت صحابك؟

– جيت أشوفك عايزة إيه في حاجة مهمة؟

نظرتُ إليه باستغرابٍ أقول:

– لا ما فيش، قلت أقول لك إني هاروَح لوحدي النهاردا.

– ليه؟

– عندي محاضرة وهتأخر وهاروّح بعدك، ماتقلقش أنا اتعلمت أركب مواصلات لوحدي خلاص.

– بس جايز بابا يتضايق.

فعلقتُ بحدة:

– يتضايق ليه؟ ما هو مش لازم نيجي ونرَوّح مع بعض على طول، دا البيت على بعد عشر دقايق من الجامعة يعني مش معضلة!

– ماشي خلاص سلام.

كنتُ بالنسبة إلى أخي عورةً يجبُ ألا تنكشفَ على أصدقائه، كنتُ العهدة التي تسلمها من أبي، وعليه أن يبقى الحارسَ الأمين عليها، هكذا كنتُ أرى نفسي في عيونِ يوسف بل وعند ذكور العائلة عمومًا، يشبه حالي حالَ كثيرٍ من الفتياتِ في مجتمعاتنا العربية، ومشيتُ وحدي أردد في نفسي: «أنا هنا في بلدي، أخيرًا هخرج وهمشي وهتحرك لوحدي، مش

مضطرة أمسك إيد حد ولا تبقى رجلي على رجل حد»، استحضرتُ أبيات قصيدتي التي نظمتُها في الثانويةِ العامة: «بلا رأي»

بلا رأيٍ بلا أنفاس
موئودةُ الإحساس
مهما تغيرَ العالم
لستُ كباقي الناس
ليسَ من حقي السؤال
أو حتى الالتماس
بيتي حولي علبة
وجعلوني كالماس
لكنِ الجواهرَ كلَها
عديمةَ الإحساس
فلِمَ لم يدركوا الفرقَ
في هذا المقياس؟!
لقلبي أجنحة
ومن حولي حراس
وعقلي عدّاء
ينشدُ الكاس
ءأنوثتي تعني
التجردَ من الحواس؟
أن ترسموا عمري
ما بين الأقواس؟
وما أدري يا عمرُ
متى تدق الأجراس؟

***

على وقع أنغام أغنية محمد منير الساحرة: «نعناع الجنينة»، تراقصت أناملي على المائدة في الكافتيريا في نشوةٍ، وأنا أنتظر ندى حتى تُكملَ حديثها مع بعض الأصدقاء، وإذا بفتاتينِ أنيقتين يبتسمان لي فتقول إحداهما:

– ليلى صح؟

لتجيبها الأخرى:

– أيوة هي يا بنتي.

فدققت فيهما إنهما أنجيل وصديقتها، فوقفتُ أصافحهما مبتسمة:

– أيوة أنا.. إزيكم عاملين إيه أنجيل مش كدا و...

فأجابت الأخرى:

– كرستين شفتي بقى أنا لسه فاكرة اسمك أهو.

– معلش والله ذاكرتي في الأسامي تعبانة، أخباركم إيه وأخبار كلية الصيدلة معاكم؟

فضحكت كرستين وأجابت صديقتها بابتسامتها الناعمة:

– تمام يا حبيبتي بنشكر ربنا، وانتِ أخبارك إيه؟ وأخبار إبداعاتك؟

– الحمد لله مستمرة في الرسم والشعر وهأشارك بقصيدة في حفلة الجامعة الجاية إن شاء الله.

– طب حلو يا حبيبتي، انتِ مبدعة وموهوبة بصراحة.

ألقت أنجيل هذه العبارة الرائعةَ على مسامعي ووافقتها كرستين ثم استأذنتا، حتى جاءت ندى بضحكتِها المعهودةِ لنتناولَ طعامَنا سويا فرُحتُ أحدثها:

– ها إيه الأخبار؟

– زي الأهرام والجمهورية انتِ أخبارك إيه؟

– كلمت كريم الصيرفي رئيس اتحاد الطلبة، واتفقنا هأشارك بقصيدة في حفلة الجامعة الجاية، بس لسه محتارة فيها أكيد هتحضري مش كدا؟

– طبعًا يا حبيبتي.

في أثناء حديثنا مرت بنا إحدى الزميلات، كانت شقراءَ جعداءَ الشعر، بدت غريبة الطابعِ في مظهرها ولكنتِها المتأمركة، وشكرت ندى على إعارتها دفترَها لتدونَ منه ما فاتها من المحاضرات حتى استوقفتها ندى قائلة:

– اقعدي احكي لي بقى عن رامز إيه النظام؟

فرددت الفتاة بابتسامة عجب:

– قصدك رامز بسيوني؟ ماله؟

فغمَزَتْها ندى بعينِها قائلةً:

– أيوة رامز يا ستي.. إيه الموضوع بقى؟

قلبّت الفتاة رأسَها يمينًا وشمالًا بسخريةٍ تقول:

– رامز صديق عادي أصدقاء زي الأخوات على فكرة أنا اتربيت في (American School) وطول عمري معظم صحابي ولاد عادي يعني إيه المشكلة!

نظرتُ إليها في عجبٍ ثم تدخلتُ في الحديثِ مرددة:

– معظم صحابك ولاد!

فردت:

– أيوة عادي يعني، وعلى فكرة بقى الولاد في الصداقة أحسن من البنات، الولاد بيحفظوا السر ومش عندهم الغيرة اللي عند البنات دي ورامز (Is actually my best friend).

يعني الانتِم بتاعي زي ما بتقولوا كدا، دا هو أساسًا لما بيعجب ببنت بييجي يحكيلي على طول وبنفضل نهزر، وحتى بأقول له أنا اللي هخطبها لك!

فبدا الحرج على ندى وعلقتْ تقول:

– ماشي يا ستي خلاص ما تزعليش أنا بس افتكرت حاجة تانية.

وانصرفت الفتاة لتتركني شاردةً في مدى صحةِ ما تقول، لأستحضر حديثي البارحة مع إحدى الفتيات المختمراتِ حين أجابت سؤالي عن سببِ ارتدائها للقفازين رغم الحر ورغم أنها ليست منتقبة فأجابت: «عشان ما يجييش ولد يستهبل ويمد إيده عشان يسلم وأنا ماباسلمش على ولاد ولا باتكلم معاهم أساسًا إلا للضرورة القصوى يعني لو عايزة حاجة ضرورية جدًا جدًا وماقداميش غير ولد أكلمه يبقى أنا كدا مضطرة، إنما غير كدا مستحيل!»

إحداهن تتعامل مع الشبان تعامل المضطرِّ مع لحمِ الميتة؛ للضرورة فقط وعلى مضضٍ، والأخرى تتخذ منهم صديقًا مقربًا كأنه فتاة مثلها ترى أيهنّ أصح؟ وأي طريقٍ أسلك؟

قطعَ شرودي صوتُ ندى وهي تناديني:

– سرحتِ في إيه!

– ما فيش.. قولي لي بقى انتِ وأحمد أخباركم إيه؟ إيه الجديد؟ احكيلي.

جلست تروي لي عن لقائها بأحمد، وكيف كاد الشوقُ يفتك به، ثم وصفت لي هذه اللحظةَ التي شربا فيها عصير البرتقال من كأس واحد، وكيف دفأ يدها في لحظةِ شوقٍ عارمة فشردتُ معها وكأنني أقرأ رواية حبٍ خالدة، أو أشاهدُ فيلمًا لعماد حمدي وفاتن حمامة، كم كانت حكاياتُها دافئةً ممتعةً تمامًا كطعمِ فطائر الصباح! ورائحة الكابتشينو المنبعثةِ من كافيتريا الكلية، وزخاتِ المطر الناعم في خريف القاهرة، ككل شيء أحببتُهُ في مصر، وفي الجامعة، وفي عالمي الجديد كلِه، تعلقتُ بندى كثيرًا إلى حد الإدمان، حتى بدأتُ أقلدُ لفةَ طرحتِها البسيطة، بل وحتى ألوان مساحيق تجميلها الصاخبة، إلى مررت ذات يوم بدورة المياه، فرأتني إحدى معارفي المختمرات فراحت ترمقني من حين لآخر حتى سألتها بابتسامةٍ بسيطة:

– إيه رأيك في البلوزة حلوة؟

ففاجئتني بصيحة اشمئزازٍ قائلة:

– بلوزة إيه اللي انتِ لابساها؟ دا أصلا مش حجاب.. انتِ بتضحكي على مين؟ أنا عايزة أفهم قولي لي بصراحة هو انتِ لابسة الحجاب عن اقتناع أساسًا ولا لأ؟

فنظرتُ إليها بحزنٍ أقول:

– آه والله لابساه من صغري عن اقتناع.

فصاحت:

– أمّال إيه الروج البني الفاقع دا والطرحة اللي مبينة رقبتك دي انتِ فاكرة نفسك كدا محجبة!

– دي رقبة يعني مش حاجة مهمة؟

– رقبة إيه اللي مش مهمة! طب ما تطلعي القُصّة بالمرة طلّعيها يا حبيبتي من الطرحة بالمرة واصبغيه أشقر كمان عشان تبقى حلوة كدا وأمورة.. صحيح حجاب آخر زمن!

وذهبتُ ولا تزالُ نظراتِ الاشمئزازِ تُطلّ عليَّ من عينيها، فعدتُ للمنزلِ محبطةً تساورني الذكرياتُ، أكاد أسمع في خاطري صوتَ معلّمةِ الدينِ تصيحُ قائلة: «البنت اللي تطلع من بيتها عيونها باينين وفاكرة نفسها محجبة، هادي بنت رخيصة.. الوجه كله عورة، وصوت المرأة عورة، المرأة كلها عورة»، وصوت أبي قائلًا: «الإسلام ما فرضش على الست زيّ محدد ولا لون محدد، ولو كان وجه المرأة عورة زي ما بيقولوا ما كانش الرسول (صلى الله عليه وسلم) أمر بعدم تغطية الوجه والكفين في الحج، الستات كانوا بيسألوا الرسول أسئلة شرعية في أمور كتير في حياتهم وكان بيسمع لهم، ونزلت آيات بالرد عليهم وكانوا بيطببوا الجرحى وبيرووا الأحاديث كمان».

لتتسلل إليَّ أصداءُ صياح عمتي وهي تقول:

«I can’t imagine! why are you wearing this thing?»

«الحجاب مش فرض أصلًا!»

ليجيئني الرد من أبي: «اللي بيقولوا الحجاب مش فرض دول بيضللوا الناس وبيتجاهلوا كل الآيات والأحاديث اللي بتأكد إنه فرض، فاكرين إنهم لما يلغوا جزء من الدين هيرضوا الغرب العلماني. الحجاب يا بنتي موجود في التلات ديانات، اليهوديات المتدينات بيلبسوا البونيه في أمريكا وأوروبا، والراهبات في المسيحية بيغطوا شعرهم برضه وماحدش ساعتها بيعترض».

وأغمضتُ عينيّ طويلًا ثم تنهدتُ بعمقٍ ورحت أبحثُ في دولابي عن أغطيةِ شعرٍ ساترة.

***

حل صباحِ اليوم التالي التقيت ندى، فلاحظت تغيرًا ما طرأ عليَّ فسألتني:

– إيه دي طُرح جديدة، أمّال فين الأشربات المشجرة؟

فأجبتها في توتر:

– ما بقيتش أحب ألبس الأشربات الصغيرة عشان بتبيِّن الرقبة.

– ماشي يا ستي براحتك بس مالك متغيرة كدا شكلك مش ولابد؟

– لا ما فيش حلمت حلم الصبح كدا ضايقني شوية.

– إيه حكاية الكوابيس دي؟ دي مش أول مرة تقولي لي بتحلمي أحلام مش تمام؟

– ما تشغليش بالك.

ورحنا نتجولُ كعادتِنا ليمر بنا شابٌ خمري اللون، أجعد الشعر، صعيدي الملامح، قاهريّ اللهجة، يرتدي ملابسًا غريبة تبدو على أحدث صيحاتِ الموضة، فنادته ندى:

– سمير.. سمير إزيك؟ تعالى أعرفك بليلى صاحبتي.

تبسَّم لي سمير ومدّ يده يعرفني بنفسه:

– أهلًا وسهلًا.. أنا سمير رابعة هندسة.

مددتُ يدي في ترددٍ وصافحتُه بارتباك ووجل؛ فأنا لم أحادث شابًا

في حياتي من قبل، وكيف لي وقد كانت دراستي في مدارس البنات طيلة حياتي، ولكنني فكرت لبرهة ما المانع؟ لمَ لا؟ إنني سوف أصبحُ إعلاميةً يومًا ما، وسوف أتحدث مع كلّ أجناسِ وأصنافِ البشر، وسأفرض على الكل احترامي بالتأكيد، فلأكسر هذا الحاجزَ النفسي إذن، وبالفعل تحدثنا سويًّا لتبدأ صداقتي بسمير منذ ذلك اليوم، وبالرغم أنها لم تكن بالصداقةِ القوية إلا أن سمير كان شخصيةً مثيرةً للانتباه، بل ومستفزةً بالنسبة إليّ أحيانًا، فلم تكن السيجارة لتفارقَ يدَه، وكذلك بدا لي مظهرهُ الشبابي المبالغُ فيه مستهجنًا بهذا البنطالِ الجينزِ الباهت كأنما نُقع سهوًا في الكلور لأيام، وهذا القميص الضيق المجسم وذلك الشعر الواقف متشمعًا فوق رأسه كأنها رأس قنفذ، ولا أفهم ما الذي يستهويه في المظهر العجيب!

***

مرت الأيامُ لأفيقَ على كابوسٍ جديد، ولكنه هذه المرة لوجه زميلة الصفِّ الحسناء، التي رسمتُ ملامحها بالحبرِ الجاف، ظننتُ أنني بهذا أهبُها هديةً قيمة، لأفاجأ بها تقول:

– إيش سويتِي! كيف ترسميني بدون إذني؟ هدا حرام.. انتِ بتضاهي خلق الله وما راح تقدري تقلديه أبدًا!

– بس أنا مش قصدي أضاهي خلق ربنا زي ما بتقول لي أنا بس كنت...

– قطعيها الحين وإلا راح أقطعها أنا!

كان وجهها الغاضبُ وتأنيبها المرير، وصوتُ تقطيع الورقةِ التي كاد قلبي يتقطع معها كفيلًا بإيقاظي من منامي، إن هذا المشهد الحقيقي لم يغب عن خيالي أبدًا حتى يغيب عن كوابيسي، كانت هذه الذكرياتُ الحزينةِ لا تزال تلاحقني، وبالرغم من أن كوابيسي المفزعة بدأت تنحصرُ تدريجيًا بعد انتقالي إلى مصر وصداقتي بندى إلا إنها لم تزل تؤرقني.

رحتُ أمسكُ بسماعة الهاتف لأتصل بندى، كان حديثي معها يخففُ عني وطأةَ الكوابيس، ونظرتُ إلى ساعةِ الحائط، إنها الحادية عشر ولكنها

لحسن الحظ لم تنم بعد، وأمضينا بعضًا من الوقت نضحكُ كعادتِنا.

كانت فترة صداقتي بندى من أجملِ فتراتِ عمري، كانت فتاةً مميزةً بما يكفي لاجتذابي وتكليلي بالبهجةِ والسعادة، حتى مرت خمسة أشهرٍ وبضعة أيام، ليأتي ذلك اليوم الذي لم ولن أنساه في حياتي أبدًا، جائتني فيه ندى والحيرةُ تكاد تغلبها لتقول:

– ليلى كنت حابة أحكي لك عن حاجة حصلت لي وقلت آخد رأيك.

– خير احكي.

– كنت في البنك باسحب فلوس وكدا، واتعرفت على شاب لطيف زي القمر وشكله في البدلة حاجة إيه ما حصلش! اسمه عُمر وأعجب بيا وبصراحة كدا كان بيتلكك عشان ياخد رقم موبايلي فاديتهوله.

فنظرتُ إليها لبرهةٍ في ذهولٍ أكاد لا أصدقُّ ما أسمع، ثم قلت:

– وأحمد!

تهتهتْ في ارتباكٍ شديدٍ ثم قالت:

– ما هو أصل أنا قلت آخد رأيك.

تحشرجَ صوتي قليلًا وأنا أرد:

– تاخدي رأيي! تاخدي رأيي في إيه بالضبط!

– في الموضوع دا.. يعني أحب مين فيهم؟

فأجبتُها بدهشة:

– تحبي مين فيهم!

واستسلمت للصمتِ، بينما لم تطِل الحديثَ معي وانصرفت لتتركني مع صدمتي أحدثُ نفسي وأتساءلُ

طويلًا: «كيف ولماذا؟ كيف استطاعت؟ ولماذا بهذه البساطة خانت»؟!

وجرفت بي المشاعرُ وانتابتني حالةٌ شعريةٌ نادرة لأكتب فيها قصيدتي:

«لا تعرفين الحب» وانتهيتُ من القصيدة، فرحتُ كعادتي ألقيها على مسامعِ أمي لتردد:

– رائعة يا ليلى من أجمل ما كتبتِ، بس اوعي.. اوعي توريها لندى!

– ليه يا ماما؟

– هتخسريها.

رنت كلمةُ أمي في أذني كثيرًا وعشتُ لحظات من التردد: «هل أُسمعُها رأيي بصراحة أم أستسلم لحديثِها الجديد عن حبيبها الجديد الغنيّ الأنيقِ كما تصف لي، لكنني لم أحتمل الصمت أمام مبادئي، لقد خانت أحمد وأخلفت عهدَ السنين معه لمجردِ أنه فقير رغم أنها ارتضتهُ من البداية، لقد كسرت قلبَه، كيف أشاركُ في هذا الذنب إذن؟ ولكنني لم أرَ أحمد هذا في حياتي قط، كان لي رمزًا فقط، بطلًا لقصةٍ جميلةٍ مزيفة، هل أصمت إذن؟ لا لا أستطيع». هكذا دارت الخواطر في رأسي ليحين اليومُ الحاسم، اليوم الأخيرُ في صداقتي بندى تمامًا كما توقعت أمي.

رحتُ ألقي على مسامِعها أبياتي مع مقدمةٍ من كلمتين: «اوعديني ماتزعليش».

ووعدتني فبدأت أردد من الدفتر: «لا تعرفين الحب».

أهكذا يضيعُ كل شيء
كما تضيعُ ذرات الغبار
والحبُ الذي كان يومًا
إعصارًا أكله الإعصار!
الحب الذي كان العمرَ
الجديدَ والانتحار
ما كنتُ أظنه يومًا
يعترفُ بكلمةِ أسوار
ما كنت أظنُ أن يردم

وكيفَ تُردمُ البحار؟!
أهكذا القلوبُ يا قلبي
أهكذا الناسُ والتيار؟!
كم قلتِ أنَّه يستيقظُ
في جفنيكِ كلّ نهار
وأن حبَّه يدفئ يدك
في البردِ والأمطار
ورددتِ اسمَه مئاتِ
المراتِ وأعياني التكرار
كم خاصمتني والدموعُ
في عينيكِ تنهار!
وصالحتك وفي الصدرِ
لك احترامٌ وإكبار
يا قصةً أحيَت داخلي
قصصًا يعشقُها الصغار
أسمعتني كيفَ يخلدُ
الحبُ بألفِ شعار
ثم أريتني كيف يكون
أثرًا بين الآثار!
كيف استطعتِ صديقتي
أنّى يكون لك اختيار!
أم كان أسكركِ الحرمانُ
ففرحتِ بحبٍ مستعار
وكتبتِ الرواية ثم
صدقتِ الأبطالَ والأدوار
ءالآن إذن قررتِ

أن تسدلي الستار!
ونسيتِ أنك لستِ
وحدك صاحبةَ القرار
والغدرُ إلى أين ستجدين
من شبحهِ فرار؟
عن أي حبٍ جديدٍ
تسألي في احتيار؟!
في الحب كيفَ أُستشار؟
والحب مُلك للأقدار!
صديقتي انتِ لا تعرفين
الحب ولكِ الاعتذار.

وما إن انتهيتُ من قصيدتي حتى لمعت في عينيها الدموع، وارتجفت أصابعها، وبدأت ملامحُها تتجمدُ من الصدمة، لم تستطع ندى أن تنظر في عيني بعدَها أبدًا، لقد تحققَ ما قالته لي أمي، لقد خسرتها وإلى الأبد.

ولكن ندى لم تكتفِ بقطيعتي، بل أرادت وصممت على الانتقامِ مني بكل السبل، وكان لها ما أرادت، ودفعتُ أنا ثمنَ صراحتي وتمسكي بمبادئي.

ومرضتُ فلم تسأل عني، بل رفضت حتى مساعدتي في تحصيلِ ما فاتني من المحاضراتِ قبل الامتحان، ولم تكتفِ بذلك بل كونت لنفسها «شِلّة» كاملةً من معارفي حتى لا تترك لي أي مجالٍ لصداقةٍ أخرى، فكلما اقتربتُ من زميلةٍ في الدفعة اقتنصتها لنفسها لتنأى بها عني، لم تكن لتتوقف عن وصلات الضحك القهقهة كلما مرَّت بي لتجدني وحيدةً وهي تتسامر برفقةِ صديقاتها، فتحولت أيامُ الجامعةِ الورديةِ في عيني إلى جحيمٍ لا يطاق، فما عدتُ أحتملُ رؤيتَها ولا ضحكتَها العالية، ولا مكائدَها المستمرة.

حاولت مرارًا أن أستوقفها، وأبدأ معها أي حوارٍ علّها تعطيني فرصةً أخرى أوضحُ فيها موقفي، ولكن لا حياةَ لمن تنادي، فلم تعد ندى تتحمل

رؤيتي، لقد أصبحتُ في نظرها شاهدًا يذكرها دائمًا بأنها الحبيبة الخائنة، لتبدأ من هنا مأساتي بقصيدة.

ومضت الأيامُ وندى على عهدِها معي حتى بدأتُ أكره كليتي وكلَ شيء يذكرني بها، لأعودُ كل يوم من الجامعة منطفأةً بائسة حائرةً، أشكو لأمي ما ألقاه منها، فتنصحني بالتعرفِ على الأخريات فأردد:

– أتعرف على مين يا ماما؟! البنات اللي لبسهم ملزق وعريان ومرتبطين بشباب الدفعة؟! ولا البنات اللي لابسين خمار؟!

– ومالهم بتوع الخمار!

– ماما أبوس إيدك ارحميني هيفضلوا يقولوا لي حرام وحلال وأنا تعبت خلاص!

كان سمير الشابَ «الروِش» ذو الأصولِ الصعيدية قشتي الأخيرة التي تمسكتُ بها قبل الغرق في مستنقعِ الوحدةِ والاكتئابِ من جديد، لجأتُ إليهِ ليعرّفني بالناسِ؛ علّي أجد من خلالهِ الصديقةَ البديلة المنشودةِ ولو من كليةٍ أخرى، ولكنه فاجئني برده:

– لبسك هو السبب غيري الإستايل العجيب بتاع لبسك دا!

– لبسي! وإيه علاقة طريقة لبسي بصداقاتي بالناس مش فاهمة!

فابتسم بتهكمٍ يقول:

– ليلى أنا فاهم إنك ما عشتيش هنا، بس المثل بيقول لك: «كل اللي يعجبك والبس اللي يعجب الناس».

– طيب بس الناس مالها ومال لبسي وهو إيه الغريب في لبسي مش فاهمة!

فألقى نظرةً على سترتي الفضفاضةً قائلًا:

– القميص دا سالفاه من أخوكِ صح؟

فرددتُ ضاحكةً:

– لا مش بتاع أخويا ولا حاجة، دا بناتي والله حتى الزراير أهه عكس الولادي، أنا اتأكدت بنفسي!

– اتأكدتِ بنفسك! طب والبنطالون الواسع دا موضة سنة كام! بعد التمانينيات ولا قبل!

– ما اعرفش أنا لاقيته في الدولاب.

استوقفتني ضحكاته فرحت أردد:

– سمير انت بتتريق صح!

– عرفتيها لوحدك إزاي دي!

أكمل ضاحكًا:

– فهميني طيب إيه علاقة القميص الأخضر دا بالبانطالون النبيتي؟ انتِ مين اللي بيختارلك لبسك بالضبط نفسي أفهم!

– يا سلام طب ما هو انت كمان يا سمير بصراحة لبسك غريب جدًا من غير زعل يعني.

فنظرَ إلي باستهجانٍ يقول:

– دي الموضة، بس هقول إيه! واحدة بتلبس موضة التمانينيات زيك لازم تستغرب لبسي طبعًا!

كاد دخانُ سجائره يحجبُ عني الرؤيةَ فانتابتني الكحة المتكررة وعلا صوتي مرددةً:

– ممكن تطفي السيجارة دي يا سمير؟ بجد ما عدتش قادرة أتحمل!

– دي سجاير يعني مش بانجو عشان تعملي كدا!

– باااانجو يعني إيه!

فعاد يضحكُ مرددًا ولم تزل السيجارةُ في يده:

– لا دا أخو التانجو رقصة كدا برضه بس جديدة.

– رقصة؟!

علتْ ضحكاتُه من جديدٍ فانتابني الغيظ وقد بدأت أدرك سخريته.

وهكذا كلما حدثتُ سمير عن صديقتي المنشودة حدثني عن مظهري وملابسي وكأنني كائنٌ فضائي هبط لتوّهِ على الأرض.

***

وحان موعد إجازة مُنتصف العام، لنعود إلى الخليج في زيارةٍ إجبارية لا خيار لي فيها، لا من زائرٍ هناك ولا أنيس، ليس هناك سوى لوحاتي وقصائدي وصوتِ كاظم الساهر بين جنباتِ هذه الغرفةِ البائسة، ورفعتُ رأسي لألمحَ يوسف يضحكُ ناظرًا إلى مدخل البابِ حيث اعتدتُ الجلوس دائما بجوار المذياع، لفقد كَتبِ عليه منذ سنواتٍ بمدادٍ لا يزول: «هنا الهبلة وكاظم»، وبنبرة ساخرةٍ نظرتُ إليه وهو يضحك قائلة:

– يا سلام مضحكة أوي!

فرد مقهقهًا:

– كل ما أفتكر أضحك لا وإيه قاعدة في نفس المكان برضه!

استمر في القهقهةِ بينما ابتسمتُ أنا بغيظٍ وأمسكتُ بعلبةِ ألوانٍ قديمةٍ لأتوعده مرددةً:

– بطّل ضحك وإلا هاجي أديك بالبتاعه دي على دماغك! وهقعد في نفس المكان برضه!

فمضى وقد اختلط صوت ضحكاته بصوت الساهر شاديًا:

«أبحثُ عنك بكل شجوني يا سيدتي كالمجنونِ.. أبحثُ عنك».

فشردتُ وأنا أنظرُ إلى مكتبةِ أبي الزاخرةِ بالكتبِ لأرى بين الكتب الدينية كتاب: «الحلال والحرام» وقد كساه بعض الغبار، فراحت الذكريات تراودني من جديد، فمِن سنواتٍ قليلة كان هذا المشهد بيني وبين أبي:

– يا بابا قول لي حرام ولا حلال أنا مش فاهمة قول لي!

فأجابني أبي بحدة:

– أقول لك إيه؟ الموسيقى حلال ولا حرام رسم الأشخاص حلال ولا حرام هو دا اللي عايزاني أقولهولك!

– أيوة.

فنهضَ بعصبيةٍ متجهًا إلى مكتبته ليلقي في حِجْري ببعض من الكتبِ قائلًا:

– خدي دا كتاب للشيخ الغزالي، ودا كتاب تاني مهم اسمه الحلال والحرام، ودا كتاب تالت لـ...

فقاطعته والدموعُ ترتجف في عيني:

– يا بابا أنا عايزاك انت تقول لي انت أستاذ في الأزهر وبتدرس فقه للطلبة أنا مش قادرة أقرأ.

فاحمرت وجنتاه من الغضبِ وصاح قائلًا:

– أنا قضيت نص عمري بتعلم الدين وبعلمه للناس، قريت موسوعة كاملة من الكتب الدينية قبل حتى ما انتِ حتى تيجي الدنيا، وذاكرت وخدت الماجستير وخدت الدكتوراه في الفقه من الأزهر، عارفة يعني إيه دكتوراه من الأزهر! كتبت تلات كتب وعشرات الأبحاث عملتها عشان في الآخر تيجي بنتي تقول لي أنا مش قادرة أقرأ! اقري عشان تتعلمي دينك، اقري عشان تفهمي يعني إيه حلال وحرام ومُختلَف فيه.

بارتباكٍ همستُ أعيد كلمتَه الأخيرة:

– مختلف فيه!

– أيوة مختلف فيه عمرك ما سمعتيها قبل كدا!

فهمستُ والحيرةُ تكادُ تقتلني:

– وده لو عملناه نروح النار ولا لأ؟!

فرد أبي متنهدًا:

– يا بنتي الدين يُسر ورحمة مش نار وعذاب بس، اختلاف العلماء رحمة.. مش هأقول لك اقري لأبوكي عشان هتقولي لي انت اللي كاتبه، اقري لعلماء الأزهر الكبار، اقري عشان تفهمي يعني إيه «وسطية»، ويعني إيه «وهّابية».

فقاطعته أمي قائلةً:

– كفاية بقى يا فريد ما تجرش علينا المشاكل.

فردّ بحدة:

– لازم تفهم يا رقية!

كانت هذه أول مرة أسمع فيها هذا المصطلح الذي رددتُه باندهاشٍ هامسة:

– «وهابية!»

فاستكمل أبي حديثه قائلًا:

– الغلط يا بنتي مش إنك تسمعي أغاني وتشوفيها حلال، ولا إن غيرك ما يسمعهاش ويشوفها حرام، ولا الغلط إنك ما تغطيش وشك وغيرك تغطي وشها، الغلط اللي بجد هو انهم يقولوا لك إن دا هو الرأي الوحيد الصح وإن مفيش آراء تانية في الدين واللي يقول غير كدا يبقى مُبتدع وكافر!

وأكمل جالسًا وهو هذه يتأمل هذه الحُمرة في عينيّ الذابلتينِ من السهرِ ليقول:

– الغلط مش إنك تختلفي مع غيرك في الرأي، لأ.. الغلط الحقيقي إنك تفرضي على غيرك رأي واحد وتقولي هو دا الإسلام وغيره كفر. فهمتِي يا بنتي؟ افهمي بقى يا بنتي افهمي، زمان كنت زيك كدا، وكنت بسمع وبحتار، ولما قريت بدأت افهم اقري وانتِ تفهمي.

وتركني أبي لأقرأ ومضى، فأنهيتُ قراءتي لأجزاءٍ من كتابِ الشيخ الغزالي، ثم انتهيتُ من قراءة قسم الموسيقى والفن في كتابِ: «الحلال والحرام»،

كانت دموعي تتساقطُ على صفحاتِه، وفي رأسي هديرُ قطارٍ يسيرُ محملًا بكل المخاوفِ والهواجس، وضجيجُ قضبانِ الطريقِ لا ينتهي، وبرغم الآراءِ الوسطية المستنيرةِ التي ساقَها الشيخُ ليرد بها على الآراء الأخرى المعارضة؛ إلا إنني لم أكن لأستريحَ أبدًا من هذا الخوف المزروع داخلي، وللأسف لم تكن هذه الحقيقة لتخفف شيئًا من مرارة كوابيسي المستمرة.

وأفقتُ من شرودي ومسحتُ الغبار عن الكتابِ ثم أعدته إلى الرف في مكانه. وبعد أيام راح أبي يقصُّ شُعَيراتٍ من أطرافِ شعري تحتَ الطرحة، كما يقصُّ من شعر أخي مرددًا: «عمره مبرورة يا ولاد» كنا في الحرم المكي وتحللنا لتوّنا من العمرةِ والفرحةُ تغمرُ وجهَ أبي رغمَ التعب، فلا شيء عنده يضاهي عمرةً ميسّرةً إلا الحج الذي يهواه قلبُه، هذا القلب الذي كان عامرًا بالإيمان، إيمان لم يثنِه عن حبِه للشعر والفن، ولا عن الدندنةِ مع أغنياتِ كارم محمود وأسمهان، ليدير أبي أسطوانةً من أسطواناتِ زمن الطرب الجميل فتصيح أمي:

– كفاية بقى يا فريد وجعت دماغنا بالبتاع دا!

فينظر إليها مغتاظًا يردد:

– إيش فهمك انت في الفن بس! اسمعي نضفي ودانك شوية.

– يا فريد كفاية بقى اسمع خلينا نشوف فيصل القاسم دا اللي عمال يوقع الضيفين في بعض لما هيخليهم يمسكوا في شعور بعض في الآخر!

– ما فيش فايدة في أمك أبدا يا ليلى!

يتشاجرانِ كالعادةِ ثم يعودانِ للضحكِ بعد دقائقٍ ثم للشجارِ مرةً أخرى، ويوسف في حالةِ انبهار بعالم الإنترنت الذي يطلُّ عليه من خلفِ شاشةِ اللاب توب الجديد، أما أنا فأحلّقُ كعادتي في عالمي الخاص، عالمِ الساهر لأستمتع بأغنيته الفريدة:

«يدُكِ التي حطّت على كَتِفي كحمامةٍ نزلت لكي تشرب عندي تساوي ألفَ أمنيةٍ يا ليتها تبقى ولا تهرب! يدُكِ».

إنه نزار قباني بكلماتِه التي تقطرُ سحرًا وعذوبة، وإحساسُ القيصر الذي يلمَسُ حنايا قلبك بنعومةٍ لا مثيل لها.

***

عدنا إلى مصر، وبقي أبي في الخليج وحده سعيًا للرزق، وأخيرًا عُدتُ أستنشقُ نسماتِ الحرية كسمكةٍ أُعيدت إلى الماء من بعد شهرٍ من أسرِ أربعِ جدرانٍ نادرًا ما أتحررُ منه.

على مسرحِ الجامعةِ رحتُ ألقي قصيدتي ولكن بلا ندى، بلا تشجيعِها ولا تصفيقِها الذي حلُمتُ به طويلًا، فلم تعد بعد صديقتي ولكنها كانت حاضرةً في قلبي الجريحِ، لم أكن لأتخيل أبدًا أنها ستكون موضوع القصيدة التي سألقيتها، قصيدة «لا تعرفين الحب» وصفقت الجموعُ بحرارةٍ وأخي في الأسفل يصورني بكاميرتِه الخاصة، وما إن انتهيت حتى صادفتها ترمقني بضحكةٍ شامتةٍ مريرة.

***

مرَّ يومان وإذا بي أجلسُ وحدي على كرسيٍ من كراسي الكافتيريا أرتشفُ شايَ الأعشاب، مريضةً لا يعبأ بي أحد، تكاد الذكرياتُ تنغُزُ قلبي برماح الألم وكأنني ما زلت أسمع أصداءَ ضحكاتِها الشامتةِ تجلجلُ من حولي، فامتدت فجأة إليَّ يدٌ تصافحني، فرفعت رأسي.. إنها أنجيل ومعها كرستين أخيرًا وجدت من يسأل عن حالي!

انتابتني الفرحة المفاجئة كأنما شُفيت من السُعال والبرد، ومرت بنا الدقائقُ وأنا أقصُّ عليهما قصتي مع ندى بحزنٍ غامر، فأبديتا تعاطفًا معي، فرحتُ أسألهما في ارتباكٍ وخجل:

– أنا بفكر أبعد عن كلية الإعلام شوية، مش حابة أشوفها بصراحة، هو ممكن أبقى أقعد معاكم؟

مع أنجيل وكرستين

وجاء ردهما على الفورِ رائعًا:

– طبعًا يا حبيبتي، دا انتِ تشرفي!

لتردفَ كرستين:

– ودي عايزة سؤال برضه يا ليلى عيب عليكِي!

لتبدأ من هنا رحلتي مع الأقباط، ثقافةٌ متقاربة ولكن بفكرٍ مختلفٍ لا أفهم الكثير عنه، هكذا تجلَّت لي الصورةُ فيما بعد، كنتُ وقتئذٍ بحاجةٍ لفترةٍ هدنةٍ أبتعد فيها عن صديقتي السابقة، بل وعن كليتي حيث تتواجد، ولكن شيئًا من الفضول كان ينتابني من حين لآخرٍ فأسأل أنجيل:

– انتِ مش مخطوبة صح؟

– لا أصل الجواز عندنا بيتأخر شوية.

– ليه؟

– لأنه مرة واحدة في العمر فلازم تبقي متأكدة من قرارك.

– يعني ما فيش عندكم طلاق خالص مهما حصل.

– لا في حالة الزنا بس، ولازم إثبات عشان يتصرح بالطلاق.

– طب لو الزوج اتوفى؟

– في ناس بيتجوزوا عادي بس المفروض بحسب العادات والتقاليد لأ.

لتتوالى مني بعض الأسئلة في مختلف المناسبات من حينٍ لآخر، فأستغربُ بعضَ المصطلحات أحيانًا، وأحيانًا أخرى أضعُ نفسي في مواقفٍ لا أُحسدُ عليها، تجعلُني محطّ تساؤلٍ واستغراب، فها أنا ذاتَ يومٍ أقررُ ارتداء عباءتي المغربيةَ الفضفاضةَ وحجابي الأبيض الكبير لأسير مع أنجيل وكرستين حيث سارتا كما العادة، فأتلفتُّ من حولي فجأةً فأجد نفسي في حلقةٍ كبيرةٍ من الشبابِ والفتيات، تتلقفني الأنظار ولا أفهم لماذا نقفُ هكذا، لأفيق من شرودي على بعضِ الكلمات:

– هتحضروا اجتماع الكنيسة النهاردا؟ انت جاي يا بيشوي؟

– آه طبعًا أكيد هيبقى مهم، انت جاي مش كدا يا مايكل وانتِ يا أنجيل؟

– طبعًا أبونا هيقول كلام مهم مش عايزين نتأخر قبل ما يبتدي الوعظة.

الآن بدأت أفهم أنني في مكان يختلف عني كثيرا، وأبدو وحدي غريبة في هذا الزي، بل وطريقة أيضًا، استغربتُ نفسي ولكن ما الجديد؟ فكل أحوالي منذ جئتُ هذا البلد غريبةً بالنسبة إلى الجميع!

مضت الأيام وأنا وأنجيل وكرستين معًا، كلامنا قليل، وحديثهما الأغلب يدور بينهما حول الكلية أو الدراسة أو الكنيسة، وبدأت أشعر بالمللِ والإهمال، فلا أجد بينهما من تشبهُ ندى ولو قليلًا، لا أجد ضحكاتِها ولا حكاياتِها ولا أسئلتها الفضولية، لا شيء فيهما منها ولكنها وللأسف صفحة قد طُوَت.

كانت بعض الصديقات القبطيات تنضم إلينا من وقت لآخر، ولكن قلّما تتوجه إحداهن إليَّ بالحديث، حتى جاء اليوم الذي كدت أترك فيه هذه «الشلة» نهائيًا، حين دار بيني وبين إيفون إحدى معارفهما حوارٌ في دورة المياه بكلية الصيدلة لأسألها بعفويةٍ وأنا أهندمُ حجابي:

– طرحتي مضبوطة كدا؟

بهذا السؤالِ العفوي المعتادِ بالنسبة إليَّ يبدو أنني أثرت حفيظةَ إيفون لتتغير ملامحها ويرتفع صوتُها في حدةٍ فتجيب:

– قصدك إيه يعني وأنا مالي ومال طرحتك!

ألقت بهذه العبارة عليَّ كالقنبلة الموقوتةِ وتركتني مصدومة لا أنطق، لم أكن أقصد أي إساءةٍ أو تلميحٍ من أي نوع فلماذا ردة الفعل هذه؟

فكرتُ بعدها في الانسحاب، ولكن قتامةَ الوحدةِ وشماتةَ ندى وبالمقابلِ حفاوةِ أنجيل وكرستين المستمرةِ في استقبالي بالقبلاتِ وبكلمةِ «حبيبتي» واحتفائهما بلوحاتي الفنية، كل هذا أعادني مجددا إلى «شلةِ الأقباط» كما كنت أسميها وقتئذ.

هلَّ علينا رمضان فاستقبلتني صديقتيّ بعبارةِ: «كل سنة وانتِ طيبة يا حبيبتي»؛ لترتسمَ الابتسامةُ الحُلوةُ على وجوهنا وأنا أردُّ التحيةَ بمثلها.

***

مرت الأيامُ رتيبةً إلى حدِّ الملل، حتى جاء اليومُ الموعودُ الذي حُفِر في ذاكرتي كالنقشِ على الحَجَر، انضم إلينا فيه فجأةً شابٌ بشوشٌ لم أره من قبل، لفتَ انتباهي بحركاتِه المميزة، ونبرةِ صوتِه الساخر، فنظرتُ إليه لوهلة، كان شابًا أبيضَ البشرةِ مشربًا بحُمرةٍ جذَّاب الملامح، فاحمَ العينين والحاجبين، يرتدي نظارةَ نظرٍ تضفي بريقًا مميزًا على عينيه، اجتذب انتباهي بعبارته: «كتبت قصيدة جديدة!»

فردت أنجيل: «بجد طب كويس سمّعنا بقى».

فاستدار ليواجهنا وراحَ يرددُ بصوتٍ جهورٍ وأداءٍ مسرحيٍ مميز:

يا فايتاني لوحدي ولا سائلة
وقالولك لو تتقل تغلى
لا بقى دا انتِ تبقي هبلة
لو فاكرة هارجع أشتقلك
ملعون الحب لو أرجعلك!
اكمني بحبك لا يا شيخة!
فاكراني في إيدك شخشيخة
لو كنت بحب في بطيخة
كان بقى فيها الرجا عنك!
ملعون الحب لو أرجعلك!

ارتسمت الضحكةُ على شفاهي مُبديةً إعجابي بطرافةِ وغَرابةِ هذا الأسلوبِ الزجليّ الجديدِ على مسامعي، ودققتُ فيه فكأنني رأيتُ هذه الملامحَ من قبل، لا من أيامٍ، ولا من شهور، بل كأنها طُبعت في روحي ووجداني من قديمِ الأزل، شعورٌ غريب لم يخالجني من قبل، كأنه يهمسُ لي قائلًا:

«سيكون لهذا الشاب شأنٌ في حياتك»، إلى حد أنني همستُ في سري: «الولد دا أكيد هيطلع مسلم». لا أدري لماذا جزمتُ بها، ثم سألته بشكلٍ مفاجئ:

– هو انت اسمك إيه صحيح؟

فالتفت إليَّ مجيبًا:

– حبيب.

لا يظهرُ هذا الاسم شيئًا ولكنّه كان شاعريًّا إلى حدٍ استهواني، فرحتُ أهمسُ به شاردةً في الفراغِ دونَ وعي:

– حبيب.. حبيب.

كررتُ الاسم هامسةً بصوتٍ خافتٍ، ولكنّه كان كافيًا ليُسمعه، فالتفتُّ إليه فجأةً فإذا به يتأملني هائمًا كقطعةِ سكرٍ تدور ذائبةً في كوبٍ من الشاي، فتمتمتُ في نفسي بارتباكٍ أقول: «هو ماله بيبص لي كدا ليه يمكن صوتي كان ناعم بزيادة أو جايز بالغت في تكرار الاسم»، ارتبكتُ ورحتُ أُخشِّن من صوتي بجديةٍ وأعود لسؤاله ولكنه كان سؤالًا أكثر بلاهة هذه المرة:

– «حبيب» دا اسمك فعلا؟

فجاء رده:

– أمّال بهزر! أيوة ليه اسمي وحش يعني؟

فأسرعتُ أجيبُ بعفويةٍ:

– لا بالعكس حلو حلو جدًا.

فعاد لنظرته تلك مجددًا؛ فشعرتُ بأنني زدتُ الطينَ بِلّة، فأشحتُ وجهي موبخةً نفسي من جديد: «يعني كان لازم تقولي جدا! ما كان كفاية (حِلو)، (حلو إيه)! كنت خليها (كويس)!» وما لبث أن قطعَ سؤالُه شرودي وهو يقول:

صديقي اللدود

– وانتِ؟

– ليلى.. اسمي ليلى.

فابتسم بنعومةٍ قائلًا:

– اسمك حلو أوي.

فرددتُ بتحفظٍ واستغرابٍ:

– اسمي عادي يعني مافهوش حاجة.

فراح يُميلُ رأسه شاردًا في عينيّ بابتسامةٍ ساحرةٍ يدندن:

– «الليل يا ليلى يعاتبني ويقول لي سلم على ليلى فالحب لا تحلو نسائمه إلا إذا غني الهوى ليلى».

نزلت هذه الكلمات الأخَّاذة كبلسمٍ شافٍ على قلبي ليقترب الظن من اليقين: «لا كدا مستحيل الولد دا يطلع مسيحي»

أسررتها في نفسي بارتياح بالغ، ورحتُ أتبادل معه أطرافَ الحديثِ باهتمامٍ شديد، فحدثته عن قصائدي، وألقيت على مسامعه بعضًا من أبيات قصيدتي: «يوم الفراق»:

افتقدتُكِ يا بريقا ولد في حياتي

افتقدتُكِ وجنت عليَّ ذكرياتي.

ابتسم حبيب وهو يتأملني بإعجاب، كان أسلوبي في الكتابة والإلقاء مميزًا بالنسبة إليه، فعلّقَ على نطقي للفصحى سائلًا:

– انتِ ما كنتيش عايشه في مصر صح؟

– آه.

– في الخليج؟

– أيوة عرفت إزاي؟

– باين من لغتك وإلقائك وحتى لهجتك في الكلام إنك كنتِ عايشة في

الخليج.

– لغتي العربية مضبوطة قصدك؟

– جدًا! حتى وانتِ بتقول لي: «افتقدتُك» بتقولها بطريقة كدا مختلفة مميزة!

ومرت الدقائقُ سريعًا وأنجيل وكرستين يشاركانا الحديثِ من حينٍ إلى آخرٍ لأسأله في لهفةٍ قائلة:

– بتقرأ لنزار قباني إيه رأيك فيه؟

– نزار رائع ما فيش زي نزار طبعًا! بحب أقراله جدًا.

فارتسمت على شفاهي البسمةُ وأنا أردد:

– وأنا كمان.. طب وكاظم الساهر بتسمع له؟

– ماليش في كاظم أوي بس بحب ماجدة الرومي.

– أنا بحب لها أغنية «كلمات» جدًا.

فعلقَ قائلا:

– طبعًا جميلة جدًا، نزار مبدع بصراحة في كل أشعاره!

– طبعًا!

كان حديثًا شيقًا لا يملُّ، يتوقُ كلٌّ منا فيه لمعرفة الآخر أكثر، لم أنسجم في الحديث من قبلِ مع شابٍ بهذا الشكل.

ومرت بنا ساعتان في لمحِ البصر ونحن مسترسلين في حديثنا حتى استأذنت أنجيل وكرستين مني للذهاب إلى الكافيتيريا المغلقةِ لتناول القهوة بعيدًا عن أعينِ الصائمين؛ حرصًا منهما على مشاعرهم، فسألتني أنجيل:

– تحبي تيجي معانا؟

فأجبتها على الفور:

– طيب ليه لأ.

كنتُ في غاية الحماسِ لاستكمال حواري مع حبيب حتى نهايةِ اليوم،

وطلبا القهوة، ووُضِعَت الفناجينُ على المائدة، فاستاذنت كرستين وتبعتها أنجيل:

– بعد إذنك يا ليلى معلش تسمحي لنا نشرب.

أَسَرَت قلبي هذه اللفتةُ الرقيقةُ منهما في استئذاني لكوني صائمة فأجبتُ على الفور:

– طبعًا يا حبيبتي اتفضلوا ما فيش مشكلة خالص.

وانخرطنا في الحديث حتى وقعت عيني على فنجانٍ ثالثٍ، فدبَّ الخوفُ في قلبي فجأة؛ ورحتُ أهمس في سري: «لأ.. ما تمدش إيدك عليه أرجوك!»

وامتدت يد حبيب فجأةً إلى الفنجان ورفعه ليحتسيه، فاتسعت عيناي في رهبةٍ وبدأت نبضاتُ قلبي تتسارعُ وريقي يزداد جفافًا لألقي إليه بسؤالٍ أبلهٍ وكأنني ما زلتُ لا أصدق:

– هو انت مش صايم!

فرد قائلًا:

– لأ، أصلي عيّان اليومين دول وباخد أدوية.

فشخصت عينا كرستين في دهشةٍ مرددة:

– إيه!

فنظر إليّ ضاحكًا يقول:

– أنا مسيحي يا ليلى.

نزلت هذه العبارة عليَّ كدلو ماءٍ مثلّجٍ ألقي على وجهِ نائم حالم، لجأت بعدها لضحكاتٍ مصطنعةٍ بلهاءٍ تُظهر أكثر مما تخفي من آثار صدمتي، وابتلعتُ ريقي وقد تسلل ذلك الخدر إلى أطرافِ أصابعي الباردة، يا لي من غبية بلهاء! كان هذا وصفي الدقيق لنفسي لحظتها، ولحسنِ الحظ انتشلني أحدهم من الحرجِ وغيّر الموضوع، حتى وقعت عيني أثناء الحديث على صليبٍ صغيرٍ مُرتسمٍ على يدهِ اليُمنى، لم أكن أعرف شيئًا عن هذه

العادةِ القبطية المتوارثة، وهُنا عدتُ مرةً أخرى لصبِّ جمِّ اللعناتِ على غبائي، فلو تمهلتُ للحظةٍ لفهمت وحدي!

نظرتُ إلى ساعةِ يدي، لقد اقترب موعدُ الإفطار، إنها أفضل حُجةٍ للهرب إذن، فما عادت لي شهيةٌ للطعامِ من الأساس، وإنما هي رغبةٌ ملحةٌ لإنهاء هذا اليوم الغريبِ بأي شكل! وبالفعل استأذنت مسرعة.

وعدتُ إلى المنزل، وأنا لا آبه برائحةِ طعامِ أمي الشهي ولا بانشغالها في تحضيره، لم أشعر بنفسي إلا وأنا أصيح غاضبةً:

– إيه اللي خلاني أسأله السؤال الغبي دا بس!

فردت أمي وهي تقلبُ الطعام في القِدر بانشغالٍ شديد:

– أنا مش فاهمه إيه المشكلة؟ يعني واحد كنتِ فاكراه مسلم وطلع مسيحي، كل دا عشان سألتيه يعني انت صايم ولا لأ! طب ودي فيها إيه؟ وبعدين ما انتِ كل يوم جايّالنا بغلطه شكل، ما الكل عارف إنك بتلّبخي تلاقيهم بيضحكوا عليكِ دلوقتي ويقولوا: «البت الهبله دي!»

زادت أمي من غيظي دونما قصدٍ حتى جلسنا على المائدةِ لتردد:

– أخوكِ هيفطر مع صحابه برا، فيه إيه ما تاكلي يا بنتي؟ الأذان أذن أهو ما بتاكليش ليه؟

فأرحت خدي على قبضتي ثم ضربتُ بالملعقةَ في طبقي بعصبيةٍ مرددة:

– حاضر يا ماما هاكل أهو هاكل!

***

في طريقي إلى السوق تمعنت في ألوان الزينةِ والأنوارِ في كل مكان، ترددت على مسامعي أصواتُ برامج ومسلسلات رمضان المنبعثةِ من المحَالِ والمقاهي، كانت تلك الأجواء بالنسبة إلىّ طقوساً مبهرةً لم أعتدها من قبل في حياتي، وببسمةٍ دافئةٍ وبعبارة «كل سنة وانتِ طيبة» استقبلني البائع في المكتبة، فرددتُ التحية ثم وقعت عيني على كتيبين من سلسلةِ روايات

الجيب الشهيرة (عبير)، فتبسمتُ لوهلةٍ وأنا أتذكر وجه معلمتي وهي تهتف قائلة:

– هادي كانت أول سنة نسوّي فيها معرض كتب بالمدرسة وخلاص ماراح تتكرر تاني. وصوت الفتيات وهن يتساءلن في حزنٍ وخيبةِ أملٍ؟

– ليش يا أبلة إيش صار؟

– اكتشفنا انو في بنت اشترت رواية رومانسية.

عمّ الضجيج وسط الطالبات في دهشةٍ فأردفت:

– قصة جاتنا بالغلط لأنه ممنوع منعاً باتاً دخول مثل هادي الأشياء للمدرسة واحنا حتى ما تتبهدل البنت أخدنا الرواية منها واكتفينا بإنذارها هادي المرة بس وماعرفنا أهلها باللي سويته حتى ما تنفضح.. هادي الروايات أمثال (عبير) وغيرها كلها موبقات وأصلا أحداثها ماهي حقيقية يعني كذب.

(روايات عبير) كانت هذه أول مرةٍ أسمع عنها، لم يغب عن بالي اسمها منذ لحظتها، هنا في هذه المكتبة وجدتها فوقعتُ في حبها.

دسست يدي في حقيبتي وألقيتُ على طاولة البائع ما ادخرت من نقود ورقيةٍ مطوية لأشتري كل ما تبقى لي من كتيباتِ (عبير) ثم اعتذرت له وقد امتلأ مكتبهُ بالنقود:

– معلش أنا آسفة ما عنديش مجمد كله فكة.

فضحكَ البائع مردداً:

– دا المصروف.. صح؟

فأجبته بابتسامةِ خجل:

– أيوة عرفت إزاي؟

– واضح!!

الكل في هذا المميزِ البلد يضحكُ ويبتسمُ مهما لاقى من متاعبٍ في حياته، كان هذا أكثر ما عشقتُه في وطني القديم الجديد هذا، حتى هذه (الحِشَريّة)

في عيونِ المصريين وحديثِهم لطالما اجتذبني كثيرا.

على باب المنزل سمعتُ صوتَ أمي تجادلُ يوسف أثناء دخولي ليردَ قائلا:

– المعادلة الكندية دي عذاب يا ماما كُتُب وامتحانات وأنا مش ناقص هم كفاية اللي أنا فيه! الكلية نفسها المواد بتاعتها صعبة جدًا، لو كنت دخلت كلية تانية يمكن كان بقى أرحم لي أنا مش ناقص المعادلة كمان!

– يا ابني دي مصلحتك وأبوك عمَّال يوصيني.

ليباغتني يوسف بسؤال حاد:

– ليلى مين الواد اللي كنتِ واقفة معاه دا في الجامعة دا!

فتسارعت دقاتُ قلبي لأجيب:

– قصدك مين؟

– الواد اللي ملزق شعره بالجل دا وعمال يشرب سجاير على طول دا شفتك واقفة معاه كذا مرة!

– آه قصدك سمير ماله؟

– واد كدا لبسه غريب وبيشرب سجاير.

فأجبته بحدة:

– وأنا مالي هو أنا هناسبه! هو قالي لي هيعرفني على صاحبات بنات لأن معارفه كتير.

– هيعرفك على صاحبات بنات! رايحة جاية ما وراكيش غير التدوير على صحاب.. طبعًا ما انتِ إعلام فايقة ورايقة هيافة!

فأغلقتُ باب غرفتي بعصبيةٍ لأنهي الحوار برمته.

***

في صباح اليوم التالي نزلت على سُلّم الكلية لأمر بأحد الممرات، فسمعت صوتًا مميزًا يناديني:

– إزيك يا ليلى؟

فالتفتُّ فإذا به ذلك الشابُ العجيب حبيب ينظر إليَّ متكئًا على الشباكِ بابتسامةٍ ذات مغزى محاولًا منع نفسِه من الضحك، بينما تتراءى لي لمعاتُ عينيه الماكرتين، ووهج السلسلة الذهبية الملتفة حول رقبته، فتمالكت نفسي، وقد كادت بسمتُه الساخرة تقتلني غيظًا، فما لبثتُ أن رسمتُ ابتسامةً مصطنعةً سخيفةً على وجهي لأردَّ السلام عليه باقتضاب:

– الحمد لله.. إزيك كويس سلام.

ألقيتُ عليه بهذه الكلمات متتابعةً كالماكينةِ فتغير وجهُهُ وهو يتأملُ باستغرابٍ طريقتي التلغرافيةِ في الردِّ، ثم انصرفتُ مسرعة أتمتم في سري:

«دا ماله دا.. أصلي ناقصاك أنت كمان!»

***

في كليتي رحتُ أمررُ عينيّ بين الفتيات لوهلةٍ وقد بدأتُ ألاحظ إرتداء كثيرٍ منهن للحجاب في رمضان، ثم استمعتُ لحديثِ إحداهن وهي تقول:

– أنا كنت بسمع إمبارح درس لعمرو خالد اتكلم فيه عن الحجاب بطريقة خلتني اتأثرت أوي، وبدأت أدمع وبعدها خدت قرار إني لازم ألبسه وما اقلعهوش تاني أبدًا.

فعلقت أخرى:

– عمرو خالد دا أسلوبه حلو أوي يدخل القلب كدا أنا بسمع له جسمي بيأشعر والله.

فقالت الثالثة:

– بس هتشتغلي إزاي في الإعلام طيب وانتِ محجبة؟

– والله أنا ما فكرتش غير في رضا ربنا وبس، حسيت إن دا اللي لازم أعمله وعملته.

وانهالت عليها المباركات فوقفت أباركُ معهن ثم ذهبتُ وأنا أتساءل تُرى من يكون هذا الداعية الذي يمتلكُ هذه الموهبةَ الربانيةَ القوية في إضفاءِ

نورِ الهدايةِ على القلوب.

***

في اليوم التالي مررتُ بشلة الأصدقاء أنجيل وكرستين، لتنضم إلينا «إنجي» قبطيةً من كلية الصيدلة أيضًا، كانت حُلوةَ الملامحِ ولكنها تضعُ مساحيق تجميل كثيفةً إلى درجة مستفزةٍ بدت لي بها كعروسةِ المولد، وكذلك كانت ضحكاتُها عالية غريبة ولفتاتها شديدة التصنع، لم تكن إنجي لترتاح لي أبدًا بلا أي سبب واضح، وكذلك انضمت إلينا «فاطمة»، كانت فتاة هادئة، نادرًا ما تتكلم وغالبًا مع أنجيل فقط، وجاء حبيب لينضم إلى المجموعةِ لتتسارعَ ضرباتُ قلبي بتوترٍ غير معهود، فألقى السلامَ وألقى معه نظرةً لبرهةٍ على تنورتي الخضراءِ الفضفاضةِ المنقطّة بالأبيض بينما تعلوها سترة تجمعُ بين الأبيض والأخضر والبرتقالي الفاقع، فتأملني قائلًا:

«دا فرح ابن العمدة دا ولا إيه!»

فتعالت ضحكاتُ الجميع من حولي، بينما انتابني الارتباك ثم ضحكتُ رغم غيظي، ولكنه لم يتوقفْ للحظة عن التهكمِ من لكنتي الخليجية في النطقِ بالعاميةِ المصرية بينما لم أكن أنا أشعر بها مطلقًا، فسألتهم:

– هو بجد باين في لهجتي إني جاية من الخليج؟

فقالت أنجيل ضاحكة:

– أيوة باين أوي حتى وانتِ بتقول لي أنجيل كدا بتقول ليها بطريقة غريبة!

– ناس كتير بتقول لي كدا حتى في ناس بتقول لي شكلي مش مصري دا صحيح؟

فراحَ حبيب يتأملني شاردًا يتمتم:

– أيوة فعلًا العيون الكحيلة دي مش مصري.

فنظرتُ إليه باستغراب أردد:

– العيون الكحيلة!

فأسرعَ يقول ضاحكًا:

– ما أنا كمان عنيا كحيلة حتى بصي مكحلها قبل ما آجي!

وضحكَ فابتسمتُ وقد أدركتُ مزاحه، وما إن جلسنا حتى راح يقلّبُ في لوحاتي في شغفٍ غريب، ليضحك على رسمةٍ لفتاةٍ من خيالي ثم يغمز لبطلةِ اللوحة الأخرى طالبًا مني رقم هاتفها، فتساءلت في نفسي ما هذه الجرأة الغريبة وكأنه يعرفني منذ سنوات!

في المحاضرة استمعتُ لحديثِ الأستاذ وهو يقول: «كان لظهور قناة الجزيرةِ في أواخرِ التسعينيات عاملًا كبيرًا في رفع سقفِ الحرياتِ في الإعلام المصري وبخاصةٍ في القنوات الخاصة...»

فقلتُ في نفسي –بيمدح قناة الجزيرة– فعاد يقول:

«وكان ذلك من أجل مواجهةِ خطرِها الذي بدأ يستشري في العالم العربي، فهي بعرضِها للرأي والرأي الآخر وبتخطيّها لكل الحواجز بجرأة غير معهودة في عالمنا العربي؛ خلقت مرحلةً جديدة في الإعلام، مرحلةً أكثر انفتاحًا وحريةً وقوة».

فتمتمتُ في نفسي في عجب: «حيرتني معاك يا دكتور!» فأكمل حديثه حتى قال:

«الطبيب لو أخطأ في تشخيص العلاج ممكن يتسبب في وفاة شخص إنما الإعلامي لو ضلل الرأي العام النتيجة بتبقى ضياع أُمّه بحالها سلاح الكلمة والصورة شديد الخطورة؛ خصوصًا في الدول النامية التي بتعتمد في ثقافتها على التلفزيون والإذاعة».

فتنهدتُ مرددةً : «ويا ترى السلاح دا يا دكتور هيبقى معانا ولا علينا!»

***

مرت الأيامُ ليبدو لي حبيب طالبُ كليةِ الطب المشاكسُ الضحوكُ أكثرَ غرابةً كلَّ يومٍ عن سابقه، لتنضم إلينا إنجي أحيانًا وأحيانًا أخرى إيفون، وفاطمة معظم الوقت، جميعهنّ من كلية الصيدلة إلا أنا وحبيب، كلانا من كليتينِ مختلفتين، بدا لي حبيب أولَّ الأمرِ يُشبه في شخصيتِه ندى صديقتي السابقةَ إلى حدٍ كبير، ولكنه وبمرور الوقت حولني إلى نكتةِ الشلة، ولكنني لا أكذبُ إن قلتُ أن هذه الفكرة لم تكن لتزعِجني حينها بل على العكس، فأنا أبحثُ عن الضحكِ أينما كان لأتحرر به من ذكرياتِ أزمتي مع ندى وكوابيسي القديمة التي بدأت تتلاشى مع تغيُّرِ طبيعةِ حياتي وتبدل مِزاجي النفسي.

فقد كان لحبيب الفضل الأكبر في اجتذابي من عالمِ الأحزانِ والوحدة والكوابيس إلى عالم السخريةِ والضحك بنكهة مصرية خالصة، ولكن شيئًا ما تكون بيني وبين هذا الشابِ الغريب بمرورِ الوقت، إنها أشبه ما تكون بخصومةٍ مميزةٍ ذات طابعٍ خاصٍ لا أفهمه، ولكنها تستهويني لاستفزازه تمامًا كما تستهويه لاستفزازي الدائم بلا مبررٍ واضح، ليدور بيني وبين هذا المنبهرِ بالغربِ حوار عن الانتماءِ للوطنِ فأسأله بدهشةٍ قائلة:

– إزاي يعني ما عندكش انتماء لأي حاجة! طب وبلدك!

– خلاص يا ستي ما تزعليش نفسك لما تقوم في مصر حرب أوعدك إني هابقى أتطوع ارتحتِي!

تبسمت كرستين ثم علقت أنجيل ساخرة:

– ليه كدا يا حبيب هي البلد مزعلاك في حاجة يا ابني؟ ما عندكش انتماء ليه!

– يا ستي أنا حُر أنا كدا!

لأتعجبَ فأعلق:

– يعني انت ما عندكش انتماء لأي حاجة خالص.. خالص؟!

– خالص.

ليزدادُ استغرابي فأكرر السؤالَ بصيغةٍ استنكارية وقد بدت عليّ الدهشة:

– خالص خالص نهائيًا!

حتى باغتني بنظرةٍ ثاقبةٍ لامزًا بعينِه ليقول:

– لا مش خالص خالص يعني!

بدا لي ما يقصدُ فغرقتُ في ضحكي كالطفلةِ ثم علقت:

– لا ما أقصدش.. أقصد الانتماء للوطن، للمجتمع، لجامعتك، لصحابك.. كدا يعني.

وكأنما يرى حبيب في خِصمٍ يريدُ أن يوقع به في الحديث، أو يجتذبه بعيدًا عن هويته، لم أجد تفسيرًا منطقيًا لطريقته في التفكير، ولكن هذا التباين الثقافي بدا لي في حوارٍ آخر جمع بيننا أنا وهو وصديقتيّ الاثنتين، تحدثنا فيه عن مأساة الطفل محمد الدرة الذي قُتل غدرًا على يد الصهاينة، لأصيح في وجهه:

– يعني إيه «وأنا مالي!» إزاي شايف إننا مالناش دعوة بقضية فلسطين ما كلنا عرب!

فرد قائلًا:

– أنا مش عربي.

فاتسعتْ عيناي في دهشةٍ لأقول:

– إيه! مش عربي إزاي يعني!

– أيوة مش عربي.

– إزاي يعني مش عربي وانت بتتكلم عربي قدامي أهو ومصر دولة عربية؟!

فكدت أجنُّ من رده حين قال:

– مصر مش دولة عربية.

– نعم!

– مصر دولة قبطية.

بفمٍ مفتوحٍ وعينين شاخصتين دُرتُ معه في جدلٍ تاريخيٍ عقيم، تعالت فيه أصواتُنا كالديوكِ الشركسية، ولم نستفد شيئًا حتى تدخلت أنجيل قائلة:

– مصر قبطية أيوة.. بس عربية برضه، وإحنا كلنا نُعتبر عرب ما دام بنتكلم عربي وبنكتب عربي يا حبيب عادي يعني أنا مش شايفة أي تعارض.

فوافقتها الرأي ولكنه ما لبث أن عاد لجداله التاريخي هذا حتى استوقفتُه بعبارةٍ حاسمةٍ:

– بس أنا بقى مصرية وعربية وأفتخر.

– انتِ عربية انت حرة في نفسك، إنما أنا مش عربي أنا قبطي.

فتمتمتُ أردد:

– ما كلنا أصلنا أقباط وفراعنة كمان بس اسمنا عرب برضه.

– أنا مش لازم أبقى عربي يعني عشان أتعاطف مع حد مات ظُلم زي «الدُرة» مثلًا هازعل عليه وأتعاطف معاه وكل حاجة بس في الآخر برضه هي مش قضيتي هتعاطف معاه لأنه إنسان اتظلم بس مش لازم يعني ابقى منهم عشان أتعاطف معاهم ماهم بني آدمين زيي عادي!

لأسأله بانفعال:

– هو لما أخوك يموت يبقى زي ما حد غريب عنك في آخر الدنيا يموت!

ليتكأ بمرفقيه على الطاولةِ في مواجهتي بنظرةٍ ثاقبةٍ قائلا:

– برضه مش عربي.

فرحتُ أتمتمُ في سري: «إن شالله تطلع هندي أنا مالي أنا!» وبدت على ملامحنا آثارُ الضيق كما لو كنا في حلبة مصارعة.

***

بالبسمة والقبلات هنأتني أنجيل وكرستين بحلول العيد، كانت هذه الأجواء الحافلة بالتسامحِ تُسعدني كثيرًا، فلم أعهدها من قبل في حياتي، لترتسم لوطني صورةً مشرقة في مخيلتي، ذلك الوطنُ الذي بدأت أعشقه، وأعشق كل ما فيه، شمسُ شتائه الحانيةِ المتوارية خلفَ الغيومِ الفضية، وهذه البرودةُ الناعمة في نسيمِه الأخاذ، تلك التي ألهمتني العديد من القصائد، كانت أول مرة أتذوق فيها طعمَ الشتاءِ البارِدِ منذ كنت طفلة في كندا، لترتجفَ أطرافي وتتلونُ أظافري بالزُرقةِ فأبدو وكأنني أغوصُ في كثبانِ الجليدِ تحتَ هذا الوشاحِ الصوفي الكبير، فتضحك أنجيل على حالي وتنظرُ إلى كرستين باسمةً تقول:

– إيه يا بنتي اللبس دا كله!

فتعلقُ الأخرى وهي ترقبني باستغراب:

– لا ومتكتكة وبترتعش لسه!

فترد الأولي:

– هو إحنا في القطب الشمالي ولا إيه!

فتبسمتُ ووضعتُ أصابعي بزرقتها على خد أنجيل فصاحت تقول:

– إيه دا دي متلجة بجد!

وأخذتُ أضحك بينهما وأنا أحتسي التيليو الدافئ علّه يسعفني من لسعةِ البرد؛ لأعود للمنزل فأفرك أصابعي بجانب المدفئة فتناولني أمي حساءَ العدس باسمةً تردد:

– بكرة تتعودي على الشتاء هنا.

فرددت باسمة:

– حتى لو ما اتعودتش أنا مبسوطة بيه.. صحيح نسيت أقول لك يا ماما في حاجة غريبة لاحظتها إمبارح.

– خير؟

– كنت باكلم كريم الصيرفي رئيس اتحاد الطلبة في الجامعة اللي قلت لك إني هاخد رقم تليفونه عشان الأنشطة وكدا.

– آه وبعدين؟

– وأنا باكلمه لاقيت صوته نِعِم أوي فجأة وبيطوّل في الكلام كدا بطريقة غريبة ولما جيت أشكره عشان أقفل سكت كإنه اتصدم وصوته رجع اخشنّ تاني مش فاهمه ليه؟

– فابتسمت أمي وسألتني:

– هو في سنة كام؟

– رابعة هندسة بتسألي ليه؟

– طيب هو كويس يعني ولا أحواله إيه؟

– كويس إزاي مش فاهمة؟

– باين عليه معجب بيكي.

قطبتُ جبيني في دهشةٍ مرددةً:

– معجب! دا أنا أساسًا باتخض لما بأشوفه!

– ليه يا بنتي؟

– ضخم كدا وصوته خشن أوي إعجاب إيه وزفت إيه بس يا ماما!

فضحكت أمي من بلاهةِ ردي ثم قالت:

– خلاص انسي الموضوع!

لم أكن وقتَها أشعرُ بأن ثمة على وجهِ البسيطةِ رجل يستحقُ الإعجابَ إلا فناني المفضلَ الذي كنتُ إحدى مجنوناته، فلطالما كرهتُ جنسَ الرجال الذي تسبب لي في عقدةٍ طويلةِ الأمد، فبسبب هؤلاء الرجالِ كان عليَّ أن أرتدي عباءةً سوداءَ حتى لو كنت طفلةً في التاسعة، وعليَّ ألا أدخلَ هذا المتجرَ؛ لأنه مخصصٌ للرجال فقط، ولا يحق لي أن أستمتع كأي طفلة بالملاهي وركوب الخيل فقط؛ لأنني فتاة والكل سيتفحصُني بنظراته الفجةِ إن فعلت كما يقول أبي، وعليّ أن أحفظَ قصصَ الغدر والخساسة من

هذا الجنس المتوحش الذي تُروى لنا عنه في مدرستِنا الأهوالَ والفظائع، بينما كان يحق لأخي كل شيء لمجرد أنه ذكر، كان هذا بعضًا مما عانيتُه في طفولتي، ليزداد حرماني من الاستمتاع بطفولتي مع بلوغي المبكر، فلماذا لا أعود طفلةً لمرةٍ ثانية إذن؟

كان هذا السؤال يشغل بالي كثيرًا، لماذا لا أعوّضُ ما فاتني من صداقاتٍ وضحكاتٍ وأحلام، بل وجنونٍ ولعبٍ في وطني الحقيقي الآن؟ أيحقُّ لي أن أعود طفلةً وأنا على مشارفِ السابعةِ عشر هل سيسمح لي وطني أخيرًا باسترداد طفولتي المسلوبة ولو لبعض الوقت؟

***

في الجامعة على إحدى موائدِ الكافتيريا راح حبيب يكتُبُ لي بعض الأبيات على عجلٍ، ثم أعطاني الورقة قائلًا:

– أديني كتبتهالك أهه خدي.

أخذت كرستين تشكو لأنجيل همَّ الدراسةِ كالعادةِ بينما تناولت أنا الورقةَ منه ورددتُ الأبيات هامسة:

«أحبك جدًا جدًا جدًا
وأعرف أني تورطتُ جدًا
وأحرقت خلفي
جميعَ المراكب
وأعرف أني بغاباتِ
حبك وحدي أحارب
وأني ككل المجانينِ
حاولتُ صيدَ الكواكب
وأبقى أحبكِ رغم يقيني
بأن الوصولَ إليك مُحال»

انتهيتُ من قراءتها ورحتُ أهمس في دهشةٍ وإعجاب شديدين:

– الله! هو نزار بأسلوبه المميز أول مرة أقراها، بس أقدر أقول لوحدي إنها ليه.

– ليعلق قائلا:

– طبعا أهي هي دي بقى «أحبك جدا» اللي أنا أقصدها دي اللي كاتبها نزار.

فعلقتُ أقول:

– لا التانيه مش كدا خالص التانية بتقول:

أحبك جدًا وأعرف أن الطريق إلى المستحيل طويل..

وأعرف أنك ست النساء وليس لديَّ بديل

بستِ النساء ماذا أقول

فقاطعني قائلًا:

– إيه اللي انتِ بتقول ليه دا!

– دي أحبك جدًا اللي كتبها نزار وغناها كاظم الساهر اسمها: «الحب المستحيل».

فرد غاضبًا:

– كاظم بيغني حاجات غريبة لنزار وبيبوظ قصايده أساسًا!

فانتابني الغضب الشديد وانفجرتُ فيه قائلة:

– أولًا اسمه كاظم مش قازم يعني لما تنطق اسمه لازم ترقق الكاف وتطلع لسانك وانت بتنطق الظاء كدا كاظم.. كاظم.

فنظر إلي مغتاظًا يقول:

– أطلع لساني!

– أيوة بص هاعلمك قول كا كدا كا..

فصاح في وجهي:

- مش عايز أنطق اسمه أساسًا!

- ثانيًا بقى كاظم الساهر هو اللي بيبوظ كلمات نزار! طب إيه رأيك بقى إن ماجدة الرومي أساسًا غنت من ألحانه وكانت بتشكر فيه كمان عشان وافق يعملها لحن!

فعاد يصيح بجنون:

- وافق إيه نعم! وافق يعملها لحن!

- أيوة وافق كتر خيره يعني.

راح حبيب يكرر حديثي باندهاشٍ وكأنما أوشك على الجنون:

- كتّر خيره! دي أكيد هتطلع أوحش أغانيها.

- بالعكس دي نجحت أوي على فكرة اسمها (طوق الياسمين) نِفسي بس حد يسجلها لي.

- يسجلهالك!

- أيوة ما أنا بأسجل كل الأغاني اللي هو بيلحنها هي مش عندك ما سمعتهاش!

- ما سمعتهاش ومش عايز أسمعها!

- كاظم هو اللي حلىّ قصايد نزار ونزار مش كل قصايده حلوة على فكرة، وإذا كان في حد بوّظ قصايده فيبقى ماجدة مش كاظم.

فوجه رأسه نحوي كالمدفع، ثم اتكأ بمرفقيه على الطاولة صائحًا:

- انتِ ذوقك زفت!

- فأشحت بيدي في وجهه صائحة:

- انتَ اللي ذوقك زفت، دي لما بتغني بتصرّخ كإنها في الأوبرا!

- عشان مغنيه راقية، إنما كاظم د أساسًا مطرب فاشل!

اتسعت عيناي فجأةً ثم ضربتُ بيدي على الطاولة صارخة:

- فاشل! كاظم الساهر مطرب فاشل!

- أيوة انتِ ما عندكيش ذوق أساسًا!

– أنا اللي ما عنديش ذوق برضه أمّال انت تبقى إيه!

وتحول النقاش بيننا إلى شجارٍ عنيفٍ تمنيتُ فيه لو كان بإمكاني أن أضربَ هذا الرأسَ بحقيبتي، أو أركل هذه البطن ركلةً قويةً لأتخلص من تلك الشخصيةِ المجنونةِ وتأثيرها المريبِ الغريبِ على أعصابي، ولكنني حبستُ أنفاسي بصعوبة حتى غيّرت إحداهما الموضوعَ لدقائقٍ، لأجده ينظرُ إليَّ بعد برهةٍ شاردًا بلا سبب يدندن: «الليل يا ليلى يعاتبني ويقول لي سلم على ليلى»، فأشحتُ وجهي عنه في غيظٍ متمتمةً في سري: «بلا ليلى بلا نيلة، دا كان يوم ما يعلم بيه إلا ربنا يوم ما شفتك!»

***

علت ضحكاتُ أخي حتى وصلت إلى مسامعنا أنا وأمي فنادته أمي من الصالةِ قائلة:

– انت مش هتقوم تاكل بقى يا يوسف!

– أنا جاي أهه يا ماما.

فعلت ضحكاتُه ثانيةً فسألته أمي وهي على أعتابِ غرفته:

– انت بتضحك على إيه يا ابني؟

– دي بنت باكلمها على الشات يا ماما.

فابتسمت أمي تقول:

– من امتى وانت بتكلم بنات يا يوسف؟ دا انت عمرك ما عملتها!

فرد يقول:

– أنا قلت أجرب.

– وماله أهي فرصة تتجرأ شويه ويمكن يجي منها.

بضحكةٍ علّق يوسف قائلا:

– قصدك إيه؟ لا هالة دي بنت مسيحية دمها خفيف أوي، اتعرفت عليها على النت من كام يوم كدا.

– أيوه، أيوه، عشان كدا كنت قاعد إمبارح تضحك على الكمبيوتر طول اليوم؟

– لا دي التانية أسماء بنت غيرها.

فتبسمتْ أمي قائلة:

– طيب يا ابني أنا نفسي ربنا يرزقك بدكتورة كدا زيك؛ عشان أفرح بيك يا حبيبي.

***

في الجامعة ظهر سمير مجددًا، ياله من شابٍ غريبٍ يظهر فجأةً ويختفي فجأة! جلسنا نتحدث كالعادة عن الصداقةِ والأصدقاء، تمنيتُ لو أن سمير وجدَ لي مشروعَ صديقةٍ جديدةٍ لأخرج بها من دوامةِ حبيب التي بدأت تستقطبني وتثير استفزازي بلا تفسير، فلربما يؤول بنا الحال إلى شجار طاحنٍ ينتهي بكارثةٍ ما، فذلك المجنون أكاد أجزم أنني لا أفهمه!

وانخرطنا في الحديث حتى مر بنا عجوزٌ مريض يجرُّ ساقه اليمنى، وبالكاد يستطيع المشي، بدا وكأنه كان متوجهًا إلى كلية العلاج الطبيعي ليجري كشفًا مجانيًا على ساقه، فصاحَ فيه سمير قائلًا:

– يا عم امشي كدا هو إحنا في ديسكو جاي تترقص لنا هنا!

فنظر الرجل إليه بحسرةٍ وحزنٍ عميقينِ ليردد والألم يتسلل من صوته المتحشرج:

– انت بتعيّب عليا؟ أنا لما كنت في سنك كنت باجري أحسن منك مية مرة!

انتابتني الصدمةُ والشعور بالاشمئزازِ من فِعلةِ سمير، وانفجرتُ في وجهه ولم يزل الرجلُ عنا غير بعيد لأصيح:

– إيه اللي انت عملته دا؟ انت إزاي تقوله كدا! انت ما عندكش قلب! انت مش خايف لَحسن ربنا يصيبك بالمرض بتتريق على راجل قد أبوك

حرام عليك!

لم يستطع سمير تبرير موقفه سوى بكلمةٍ واحدةٍ: «كنت باهزر» بهذه البساطةِ وبهذه الحُجة السخيفة برر سمير ما فعل بعذر أقبح من ذنب، لتنطبعَ فِعلته في ذاكرتي، ويتأججُ غضبي منه لأيامٍ وأسابيع، بعدما أسقطَ هذا الموقف كثيرًا من قدرهِ في عيني.

***

مرت الأيام وعلى إحدى موائد الكافيتريا اجتمعنا أنا وإنجي وحبيب وباقي الشلة، لتمازح إنجي حبيب بابتسامةٍ قائلة:

– يا بختك يا عم مين قدك قاعد لوحدك مع أربع قمرات!

فرمقها حبيب بنظرةٍ تهكميةٍ يقول:

– آه انتِ عايزة تحسبي نفسك قمر معاهم بالعافية!

فكتمتُ ضحكتي وقد بدا على إنجي الحرجُ، ثم انخرطنا في الحديثِ لتسألها أنجيل عن حقيبتها الجديدة:

– حلوة أوي الشنطة دي يا إنجي جايباها منين؟

رفعت إنجي خصلةً من خصلاتِ شعرها بغرورٍ ونظراتُ الفخر تطلُّ من عينيها لتقول:

– اتفضليها دي من نص البلد دي ماركة غالية على فكرة أصلي ما باحبش أجيب غير الماركات.

فألقى حبيب نظرة عليها باستهجان قائلًا:

– نص البلد أيوة.. أيوة قصدك من الوكالة!

فبدا الغيظ الشديد على وجه إنجي بينما لم تجرأ إحدانا على الضحك فتمتمتُ في سري: «هو أنت لسانك دا زي المبرد كدا على طول! بس هي البِت تستاهل بصراحة!»

ولم تمضِ سوى أيام حتى اجتمعت إنجي «عروسة المولد» بفتياتِ الشلة

مجددًا، بدت مساحيق التجميل على وجهها أشدّ كثافةً هذه المرة وحركاتُها أشد تصنعًا، وبعد طول حديثٍ عن معجبيها من الشبانِ وكيف لا تلقي لهم بالًا على الإطلاق، بادرتنا بحكايةٍ عن حبيب، فانتبه الجميع وانصتَ لتردد:

– يا بنات تصدقوا حبيب عمل معايا حتة حركة!

فسارعت أنجيل بفضولٍ تقول:

– إيه إحكي!

– قال لي: «إيه رأيك يا إنجي فيا، أصل أنا معجب بيكي وحابب أتقدملك بصراحة وكدا»؟

سكتت قليلًا لتقلّبَ أنظارها فينا وأنجيل تحدقُ فيها بفمٍ مفتوحٍ بينما تسألُ كرستين بشغف:

– ها وبعدين!

– بس كدا قلت له مش عارفة أفكر وكدا، فراح قايل لي: «أنا كنت باهزر معاكي!» وفضل يضحك تصدقوا!

فانهالت كرستين وأنجيل بالشتائمِ عليه:

«إيه دا؟ دا قليل الذوق أوي.. غبي بصراحة.. ما عندوش دم!»

حتى قطع حديثهن صوتُ قهقهاتي العالية المتواصلة، ليقفن أمامي في حلقةٍ مندهشاتٍ وكأنني مجنونةً فتسألني أنجيل:

– بتضحكي على إيه؟!

حتى أجبتها بصوتٍ مبحوحٍ وقد زادت دهشتهن من ضحكي لأردد:

– لا ما فيش بس أصل الموقف ضحكني بصراحة!

فاغتاظت إنجي وراحت تقول متعجبةً:

– وإيه المضحك في كدا يعني!

لتبادر كرستين بسؤالي:

– يعني هو لو هو عمل معاكي كدا دا هتضحكي؟

فتمالكت أنفاسي، وابتلعت ريقي من الضحك لأجيب:

– آه عادي هاضحك.

فشخصت عيونهن في ذهولٍ شديد، بينما أردد في سري:

«إيه السؤال العبيط دا؟!»

فكيف لشاب مسيحي أن يمثل دور العريس المعجبِ على فتاةٍ مسلمةٍ مثلي، إنَّ هذا الدنجوان الساحرِ كما بدأتُ أراه لن يجدَ إلى قلبي سبيلًا من الأساسِ حتى يلعبَ به، هكذا وببساطةٍ حسمت الأمر.

***

في أثناءِ المحاضرةِ خرج الأستاذ عن الموضوع قائلًا:

– أنا طبعًا باكلمكم عن الشغل ولما تشتغلوا بس انتم عارفين طبعًا إن الشغل في الوسط الإعلامي مش بالمؤهلات ولا بالشهادات.

فعلا صوتُ إحدى الطالبات قائلة:

– بالواسطة طبعًا!

ليؤمّن الأستاذ على كلامِها قائلًا:

– بالضبط كدا، اللي معاه واسطة هو بس اللي هيشتغل؛ لأن ما فيش شغل في البلد أساسًا!

وقعت هذه الكلمات وقع الصخرةِ الثقيلةِ على قلبي، لم أشأ تصديق ما يقول، فلا يمكن أن يكون هذا هو مآل كل أحلامي، يا له من عجوزٍ متشائم! لن أستسلم لما يقول، فسوف أصبح مذيعة لامعة، أو على الأقل معدةَ برامج متميزة، سوف يسمع الجميع بأشعاري، وسيرى الكل لوحاتي، وسأصبح صحفيةً وكاتبةً تعبر عن كل أرائها بحرية، وسأحقق حلمي المنشود أخيرًا بلقاءٍ مع ملهمي وبطل أحلامي كاظم الساهر، بهذا حدثتني نفسي بعد شرودٍ طويل.

عند مبنى إدارةِ الجامعة اجتمعنا كالعادة، ليطلب مني حبيب جعبةَ أشعاري ولوحاتي فأعطيتُهُ إياها على الرحبِ والسعة، فراح يتفحص دفاترَ الشعرِ باهتمام غريب بينما أتساءل في سري: «يا ترى بتدوَّر على إيه ولا ناوي تتريق على إيه المرة دي ربنا يستر!» فبدأ يسألني عن معاني بعض المفردات الصعبةِ كعادته ويسخرُ من أخرى، حتى أمسك بأحد الدفاترِ فتذكرتُ لوهلةٍ أنني ذكرتُ فيه اسمَ الساهر في قصيدةِ مديحٍ عصماءٍ فانتابني الحرج، ورحتُ أطلب منه الدفترَ فجأةً فرفض، فأسرعتُ أحاولُ الإمساكَ بدفتري فانتزعه من يدي في لمح البصر ثم هرول به بعيدًا ليقتنص الفرصة وكأنما عثرَ لي على ذِلّةٍ أخيرًا، فأسرعتُ خلفه أقول:

– حبيب هات الدفتر دا..

فرد باسماً:

– لأ.

فكررتُ بجدية:

– حبيب لو سمحت هات الدفتر.

– لأ.

– معلش لو سمحت!

– مش هتاخديه خلاص.

فهممتُ على إنتزاعه منه ولكنه أسرع بدسّهِ في سُترته فجأةً وهو يردد ضاحكًا:

– وريني هتقدري تاخديه إزاي دلوقتي!

فاستسلمتُ للصمتِ وقد توردتُّ خجلًا لأحدثَ نفسي: «دا إيه الواد دا يا ربي! إيه الجرأة الغريبة اللي هو فيها دي!»

بدا لي اهتمامه غريبًا وطريفًا في ذات الوقت وهو يقرأ كل كلمةٍ في الدفتر بتفحص حتى وصل إلى مراده ففهم ثم راح ضاحكًا يعيِّرُني به وسط «الشِلّة»

من حينٍ لآخر، بينما أرمقُه بطرفِ عيني والعرق يتصببُ مني غيظًا وخجلًا في ذات الوقت، ولكن الضحكة كالعادةِ ما تلبثُ أن تتسلل إلى وجهي المتوردِ في النهاية.

بدت الأيام أكثر إشراقًا، والليالي أجملَ بكثير، وتحولت ذكرياتي الحزينة إلى خواطرٍ مضحكة، ومواقفٍ كوميدية؛ لأقص بعضَها على أمي، وأقهقهُ على بعضِها الآخرِ بعد منتصف الليل غير آبهةٍ بالسهرِ وأضراره، ما عادت دقاتُ الساعة تعني لي شيئًا، ولم أعد أخشى النوم، فقد صار النوم ضيفًا خفيفًا يزورني لسويعاتٍ ويرحل رافعًا الستارَ عن مسرحيةٍ جديدةٍ بطلُها الأول هو مهرجي المميز وصديقي اللدود، وخصمي المفضل حبيب.

***

أمام كلية الإعلام تصادفت بأنجيل وكرستين تتجولان، فدعوتهما لتناول بعضٍ من الحلوى معي، فراحا يتفحصان عبوةَ الحلوى ومكوناتها في القائمة الخلفيةِ بتدقيقٍ شديد، فتعجبتُ قائلة:

– في حاجة ولا إيه!

فردت أنجيل:

– لا ما فيش أصل إحنا صايمين.

– آه صيامكم بدأ، بس دا بونبوني عادي ما افتكرش فيه حاجة.

فقالت كرستين:

– ما هو جايز يطلع فيه جيلاتين حيواني.

شردتُ أتأمل حيرتهما حتى قالت أنجيل بعد برهة:

– شكرًا يا حبيبتي بلاش احتياطي.

– طيب.

ثم راحت أنجيل تقبل إحدى الفتيات مرددة: «اسم الصليب عليكي يا حبيبتي، إيه الشياكة دي»؟

لم أفهم ما تعنيه فلربما تقصدُ أن تباركها، فراحت الأخرى تسألها بلهفة:

– خسيت مش كدا؟

– مش واخده بالي بصراحة، بيتهيألي زي ما انتِ عادي.

مضت الفتاة محبطةً لتسألها كرستين:

– ليه كدا بس يا أنجيل، جبتي للبنت إحباط!

– إيه يا بنتي باقول الحقيقة: «الشاهد الأمين لن يكذب والشاهد الزور يتفوه بالأكاذيب» الكتاب المقدس بيقول كدا عايزاني أكدب عليها يعني!

– لا بس مش كدا برضه!

وانخرطا في الحديث حتى انضمت إلينا فاطمة، وأنا شاردةٌ في رذاذِ المطر التي بدأت زخاته تتوالى لتداعبَ رأسي وأناملي حتى مرّ بنا بعض الشبابِ الفلسطيني، كان أحدهم خالد، ولم أكن أعرفه من قبل، ولكنني لاحظتُ شيئًا غريبًا، فقد اقتربت أنجيل منه كثيرًا، ونظر كلٌّ منهما إلى الآخر نظرةً ترتسمُ فيها كل معاني الحب والهوى، بدا صوت همسِهما الناعم للكل كزقزقةِ العصافيرِ على الأغصان، وبسماتهما تتفتحُ كورود الياسمين، بينما اتسعت حدقتيّ وضاقت في دهشةٍ وأنا أرقبهما عن بعدٍ حتى سألتُ فاطمة بجواري عنه فأجابت:

«خالد مسلم طبعًا».

ثم عادت لصمتها المعهود وكأن سؤالًا لم يُطرح، فأعدتُ النظر فيهما برأسٍ مائلٍ وحاجبٍ مرفوعٍ، إنني لا أرى أمامي سوى حالة حب واضحة «أنجيل طب إزاي!» أسررتها في نفسي.

لم تمضِ سوى دقائقٍ حتى مر شاب ضخمُ الجثةِ عريضُ المنكبين بقامةِ مصارعٍ ليرقبَ أنجيل وخالد عن بُعدٍ مغتاظًا، حتى انصرف خالد فعلق أحدُ أصدقائه على هذا المشهد وهو يدفع به ويلمزه ممازحًا يهمس: «والله ما ينفع الكلام دا يا خالد، لا بجد مش كدا يا عم في إيه!»

سمعتُ أنا وهذا الشاب الضخم همسهم، فاتقد الغضبُ المكبوتُ في وجهِه وهو بالكاد يمنع نفسه من اللحاقِ بهم، فارتعبتُ بينما لم تسمع أنجيل شيئًا، ليتجه الشاب نحو أنجيل فينفجر فيها صائحًا بصوت شديد الخشونة:

– مش هنخلص من البلاوي اللي بتتحدف علينا دي!

ابتلعتُ ريقي بينما أشاحتْ أنجيل وجهها كأنها لا تراه حتى ولّى مدبرًا فهمست تقول:

– بني آدم مستفز بجد!

فسألتها:

– مالك في إيه؟ هو مين دا بيضايقك كدا ليه؟!

– دا ميشيل واد خنيق كدا سيبك منه!

لم يكن ليخطر لي على بالٍ وأنا أتأمله عن بُعدٍ حينها أن موقفًا ما ذات يومٍ سوف يجمعني بهذا الشاب المخيف!

في المنزل على أريكتِنا المخمليةِ الحمراء رحتُ في عجبٍ أروي الموقف كله لأمي:

– ميشيل دا يا ماما لما تشوفيه تقولي فتوة من بتوع الخناقات شكله يخوف وصوته كمان! بس اللي محيرني بجد إيه اللي يخلي أنجيل تحب ولد مسلم وهي مسيحية حاجة غريبة بجد!

– عادي بتحصل بس ما بيتجوزوش في الآخر.

– ليه يا ماما؟ مش جايز يتجوزوا مين عارف؟

نظرت إليَّ أمي بدهشةٍ تقول:

– انتِ بتقول لي إيه يا ليلى! انتِ ما عشتيش هنا ومش فاهمة حاجة، دا كانوا أهلها يقلبوا الدنيا وتقوم فتنة طائفية!

شردتُ أفكر في حالِ هذه المسكينةِ ثم رحتُ أردد:

– وهو إيه بس اللي يخلي واحدة تحب واحد من غير دين تاني ويفضلوا يعذبوا في بعض لما همَّا عارفين إنهم عمرهم ما هيتجوزوا في الآخر.. حاجة غريبة أوي!

فأجابتني أمي وهي تتأمل ملامحي بعمقٍ:

– أوقات الواحد ممكن يأذي نفسه من غير ما يقصد، ويلاقي نفسه زي اللي بيلعب بالنار والنار دي من غير ما يدرى تحرقه هو في الآخر.

وكأنني أشعر بتلميحٍ غريب من أمي، ماذا تقصد بهذه العبارة، ولكنني استبعدتُ الفكرة تمامًا.

***

في ساحة الجامعة عن بُعدٍ رأيتُ حبيب يمشي بين الطلبةِ منتصبَ القامة مرفوع الرأس كملكٍ من ملوك القرون الوسطى، تكادُ حركاتُ جسده تنطق: «يا أرض اتهدي ما عليكي قدي!» بينما أحدثُ نفسي في عجب: «دا ماله دا عامل كدا ليه!» لتنتابني رغبةٌ فضوليةٌ جامحةٌ لا تقاومُ في اكتشافِ شخصيةِ هذا البهلوان العجيب، فمشيتُ إليه وأنا أستحضرُ حديثَ صديقاتي عنه فتذكرتُ وجه كرستين وهي تقول غاضبة:

– دا نار السيجارة بتاعته حرقت خصلة من خصلات شعري، شوفي لحد دلوقتي محروقه أهه وشافني باصرّخ وشعري بيولع وفضل يضحك ولا همّه، بني آدم مستفز أنا ما شفتش كدا في حياتي!

لترد أنجيل:

– غبي بجد!

وحديث فاطمة حين خرجت عن صمتها فحكت لي عنه بغيظ تردد:

«دا أنا سلفته البالطو الأبيض بتاعي من كام يوم عشان يحضر بيه العملي بتاعه على أساس فاكراه هيرجعهولي، بعد شوية راح رجعهولي بعد يومين وماشي يتمختر كمان وأنا عندي امتحان ولما شخطت فيه لاقيته

بيبص لي مبتسم ولا هو هنا ولا على باله خالص بني آدم معندوش دم!»

فاقتربت منه وأنا أهمس في سري:

«سأكتشف هذا المهرج منعدم الشعور بأي شكل وبأي ثمن!»

ورحنا نتحدث وحدنا لأول مرة، فإذا بعينيه ذابلتينِ كأنه لم ينم منذ أسبوع، تُرى ماذا وراء هاتين العينين المرهقتين وهذا الرأس الغامض الذي يرصد كالحاسب الآلي كل هفواتِ الآخرين ليصنع منها نكاتًا لا تنتهي، ما الذي يشغل باله إلى هذا الحد! لم أستغرق سوى ثانيةٍ في التفكير حتى طرحتُ عليه سؤالي الغريب وأنا أحاولُ ممارسة هوايتي المفضلة فيه متفرسةً ملامحه:

– مالك يا حبيب! عينيك مرهقة جدا كدا ليه؟!

– أصل أنا ما بنامش كويس بقالي كام يوم.

إنها فرصتي إذن لاستدراجه للبوح بخباياه، أكملت أقول:

– تصدق أنا كمان بقالي فترة مابنامش كويس!

لم أدرك غرابة ردي هذا حتى جاء رده صادمًا:

– ما بتناميش ليه؟ بتفكري فيا ولا إيه قولي بصراحة عادي؟

صدمني رده الغريبُ بلا أي ابتسامة توحي بالمزاح فبنصف بسمةِ إستهجانٍ أجبت:

– لا بلاش هبل!

فاعتدل في وقفته وقد ارتسم الضيقُ على ملامحِه، وكأنه كان يظن أن سياقَ الحوار سيأخذنا إلى حديثٍ آخر، لم أبالِ بالانزعاج الواضحِ عليه وعدتُ أسأله عن سببِ سهره؛ علّي أفهم ما وراء هذا الرأس، فأجاب:

– ما بانامش من كتر التفكير.

– غريبة! بتفكر في إيه؟

ليجيبني والغلّ الغامضُ يكادُ ينطق من عينيه المحدقتين بي:

– الأساتذة، أصل الأساتذه تاعبني نفسيًا غايظنّي أوي!

فعلقتُ متعجبةً:

– للدرجادي يا حبيب بتكره الأساتذة لدرجة إنك بتفكر فيهم طول الليل! غريبة أوي!

فازدادت نظرته لي حدةً وتدقيقًا وهو يقول:

– جدًا جدًا لدرجة إني بآخد أدوية والله عشان أعرف أنام بالليل!

انتابني مزيجٌ من العجبُ والشفقةِ ثم تبسمتُ بوداعةٍ مرددة:

– يااااه غريبة، عارف يا حبيب أنا عن نفسي بحب الدراسة وبحب الجامعة جدا.

وأدرتُ نظري في ساحة الجامعة ثم استدرتُ إليه أقول:

– انت ما بتحبش الجامعة؟

– لا أنا نفسي أخلص منها بأي شكل!

– ليه كدا بس؟

– عشان أبتدي حياتي وأشتغل وأرتبط وأتجوز بقى.

جاء تعليقي غريبًا، ولكنه كان يعبرُ عن رأيي في الحياة وقتها، رأيي الذي لم أكن لأتصور أن شيئًا ما يمكن أن يبدله لأردد:

– وترتبط ولا تتجوز ليه؟ إيه لازمة الجواز والارتباط أصلا! ما تعمل زيي.. أنا عن نفسي شايفة إن الجواز مشروع فاشل يعني الواحد أحسن له يحقق أحلامه ويشتغل وينجح وخلاص.

كنتُ أرى في فكرةِ الزواج أو الارتباط قيدًا تقليديًا بلا معنى، فالبعدُ عن الرجالِ غنيمةً بالنسبة إلي، فلماذا تربطُ الفتاة نفسَها برجلٍ يسلبها طفولتَها وشبابها بسطوتِه وتحكمِه، زوجًا كان أو خطيبًا أو حتى حبيبا.

ولكن شيئًا من الاستغرابِ اعترى حبيب؛ فحدق بي محاولًا فكّ طلاسمي

من تفرسي هو الآخر ليردد:

– مشروع فاشل!

– آه إيه لازمة إن الواحد يتجوز أساسًا خنقة وخلاص!

– عشان أخلف وأجيب عيال للدنيا.

– وإيه لازمة إنك تخلف، إيه لازمة إنك تجيب عيال أصلا يا حبيب؟!

نظر إليَّ ثم راح يحدق في الفراغ وفي عينيه شرارةٌ من الغيظ مرددا:

– عارفه أنا لما أجيب عيال والله لأطلّع عينيهم!

فرددتُ ضاحكة:

– طب وليه، ليه تخلفهم من أساسه يا حبيب ما بلاش أحسن!

بدا حوارنا أقرب ما يكون لحوار طفلين أبلهين حتى سألني والفضول ينطقُ في عينيه:

– انتِ عمرك قد إيه يا ليلى؟

– داخلة على 17؟

فأومأ برأسِه مبتسمًا ثم ردد وهو يتأملني كصقر يتأملُ كتكوتًا خرج لتوّه من بيضته:

– عشان كدا!

– وانت؟

– 21.

مرت ثوانٍ وتبادلنا السلام ونحن نضحك، ثم مضيتُ وأنا أستحضرُ حديثه الطريف لأتجول في طرقاتِ الجامعة والضحكةُ لا تزال على شفاهي ياله من مجنون! يفكرُ في معاقبةِ أطفالٍ لم ينجبهم بعد ويمضي الليل في التفكيرِ في أساتذته! ثم همستُ أردد: «كان قلبي حاسس إن دماغك ضاربة يا حبيب مسيري أحللك واكتشف كل مشاكلك النفسية بنفسي!»

***

قُبَيل آذان المغربِ عدتُ مع أخي إلى المنزل ونحنُ في حالةِ شجارٍ متواصل، فدفع أخي بالبابِ بقوة غاضبًا، وراحَ يصيحُ بعدما سألته أمي:

– في إيه يا يوسف مالكم؟! حصل حاجة؟

فرد بغضبٍ شديد:

– أنا مش عارف إيه اللي يخليني مضطر أخدها معايا السينما والشباب يبصوا علينا؟

لترد أمي متعجبة:

– شباب مين يا ابني دي أختك وانت واخدها معاك تشوف الفيلم فيها إيه يعني؟

فصاحَ يقول:

– وتيجي ليه معايا من أساسه؟!

– هو أنا مش من حقي أروح السينما زيك يعني اشمعنى انت تروح وأنا لا؟!

فراح يصرخُ في وجهي مجددًا:

– أنا قلت لك اقفلي الزفت الجاكيت اللي انتِ لابساه دا!

فصحتُ أقول:

– ما أنا لابسة تحته بلوزة واسعه وبكُم.. إيه المشكلة لما أفتحه ما الجو حر!

صار صياحنا مدويًا بينما تحاولُ أمي تهدئتنا دونَ جدوى، فقال يوسف:

– يا ماما الناس هيفتكروها.. قصدي الناس هيفتكروني صاحبها وخارجين مع بعض! ما هو مافيش أخ بياخد أخته السينما أساسًا!

فصرختُ فيه أقول:

– هو انت مخك دا إيه! متحجِّر!

فاستشاط غضبًا وولىّ إلى غرفته ليضرب بالبابِ بقوة، حتى انتفضتُ من صوتِ ارتطامه وأنا في حالةِ ذهول، وذهبتُ إلى غرفتي أتساءل في نفسي: «لماذا يتصرفُ أخي هكذا؟ لماذا تحول يوسف الصغير الضحوكُ إلى هذا الأخ المنغلقِ الكتومِ؟ لماذا لم نعد كما كنا في الطفولةِ نلعب ونضحك بهذا الدُبّ البنيّ وتلك الأرنبة البيضاء، لطالما تشاركنا الحكاياتِ وأسمينا ألعابنا أسماءً مميزة، وصنعنا منها أبطالًا لقصص خيالية مضحكةٍ نقهقهُ عليها ليلَ نهار، كم كنا طفلين رائعين!، وكان أخي الوحيد صديقي الوحيد أيضًا ماذا دهاه إذن؟! لم يعد يسمع لي ولا يفهمني ولا يروي لي شيئًا منذ دخل في سنِّ المراهقةِ وحتى الآن، كم افتقدت ذلك الأخ الضحوكِ البشوشِ كما لم أفتقد أحدا من قبل».

***

في شلةِ الأصدقاء كنت حين جاءت إنجي فجأة تنظر إلى حبيب وهو يضحكُ بيننا مازحًا كعادته لتقول:

– باقولك إيه يا حبيب.. انت عارف الكلمة اللي بيقولوها في الأفلام الأمريكية اللي بيترجموها دايمًا: «تبا لك» و«عليك اللعنة» عارفها صح؟

بدا الارتباك الشديد على حبيب وراح يقول:

– كلمة إيه مش فاهم!

لتكمل قائلة:

– لا انت عارفها كويس حبيت أوصلهالك بس بلغتها الأصلية!

ونظرتْ إلى باقي «الشلة» ثم أكملتْ تقول:

– مش محتاجه أقولها بقى بس انت أكيد فهمتها.

وذهبت لتترك حبيبَ مصدومًا مندهشًا من جرأتها والغيظُ يكاد ينطقُ في عينيه، لترتسم علامات الذهولِ على كل الوجوه بينما أتأمل أنا وجهه المرتبك.

كانت إنجي إحدى ضحايا الوقوعِ في شِبَاكِ حبيب، ويبدو أنها لم تكن الأولى وبالتأكيد ليست الأخيرة، ولكن هذا القناصَ العجيبَ لم يكن ليبدو لي سوى طفلٍ مشاغبٍ فحسب، فلا شأنَ لي بغرامياته حتى أشغل نفسي بها، إنه في النهاية لن يكون لي أبدا سوى مجرد صديقٍ أضحكُ على نكاته، بهذا حدثتُ نفسي وقد ولّى ذاهبًا بعد قليل، لأسمع تهامسَ أنجيل مع كرستين:

– إنجي دي طلعت قليلة الأدب إيه اللي قالته دا!

– صحيح عندك حق دي بنت مش محترمة!

– أنا ما عدتش أقف معاها تاني.

– ولا أنا.

التزمتُ الصمتَ وأنا أستغرق في تحليلِ شخصية إنجي التي استفزتني للكتابةِ عنها، فرحتُ في المنزلِ أكتبُ قصيدتي «امرأة ومرآة» التي نالت استحسان أمي أيضًا، لكنني احتفظتُ بها في دفتري، فلا حاجةَ لي في المزيدِ من المشاكل.

في ركنٍ من أركانِ مبنى إدارة الجامعة حيثُ كنا نجتمع عادةً وجدتُ أنجيل وحدها هذه المرة، وقد لاحت على وجهها ابتسامةٌ فريدةٌ لا مثيل لها، فرحتُ أدعوها للتجولِ قليلًا، فردت في خجل:

– لا أصلي مستنية خالد هنقعد مع بعض نتكلم شوية.

فنظرتُ إليها ولإبتسامتها الجليةِ باستغراب يكادُ الفضول يقتلني لماذا تفعل هذا بنفسها؟! «كفاني صمتًا إذن عليَّ أن أسدي إليها النصحَ فأنا صديقتها»، بهذا تمتمتُ في نفسي لأبادرها بسؤال:

– هو انتِ بترتاحي في الكلام مع خالد، قصدي يعني شايفاه شخصيته لطيفة وكدا؟

فنظرتْ إليَّ تتنهدُ شاردةً بعينيها العسليتين مع النسيم لتداعب خصلاتُ شعرها البني ملامحها البريئة فتزيحها بأناملها محدقةً في الفراغ، وكأنها

تحلّقُ بجناحين بيضاوين في السحاب ثم قالت:

– خالد طبعاً خالد دا في حاجة كدا، حاجة مختلفة.

– حاجة إيه مش فاهمه يعني؟

– عينيه فيها حاجة كدا.

– مالها عينيه مش فاهمة؟!

– عينيه مخملية.

– إيه عينيه إيه؟!

أمضيتُ سنينًا في قراءةِ الشعر والرواياتِ ولكنني لم أسمع بهذا الوصف من قبل.

– إزاي يعني عينيه مخملية؟

– يعني فيها حاجة نعسانة كدا!

– طب إيه الحلو في عينين واحد نعسان ولاّ عايز ينام مش فاهمة!

– لا مش قصدي نعسان يعني عايز ينام يا ليلى لأ ما اقصدش كدا، قصدي.. قصدي...

– قصدك إيه؟

– مش هتفهمي.

قطبتُ حاجبيّ فنظرتُ إليّ تقول:

– يعني لطيف دمه خفيف كدا ما تقلقيش ما فيش قصة حب ولا حاجة!

ارتفع حاجبي عجبًا وأنا أتمعنُ في ابتسامتها الشاردةِ بجواري وعينيها المتلفتتين في لهفةٍ من حينٍ لآخر، وعبارتَها الأغرب «عينيه مخملية» إن لم يكن هذا حبًا فما هو الحبُّ إذن؟!

كان خالد بالمقاييس الجمالية شابًا شديدَ الوسامة، أشقرًا، فارعَ الطول، أخضرَ العينين، ولكنني لم أرَ فيه أي جاذبيةٍ قط، كان بالنسبة إلي ثقيلَ الظل مقارنةً بخفة ظلِّ المصريين التي لم أجد لها مثيلًا في حياتي

ليجيء ردي عليها صريحًا ولكن ساذجًا في آنٍ واحد:

– غريبة أصل أنا شايفة خالد دمه تقيل.

– معقول!

– أنا صحيح ما اعرفهوش كويس، وهو شكله طيب وكله بس يعني هو هادي كدا وسرحان على طول أنا شايفة إن حبيب هو اللي دمه خفيف يا أنجيل؟ انتِ مش شايفه كدا؟!

أردتُ بذلك إيصال سؤالٍ غير مباشر لأنجيل، وكأن لسان حالي يقول: «ليه بتستلطفي خالد وهو على غير دينك؟ وليه ما تفكريش في حبيب مثلًا وهو صديقك وعلى نفس دينك»؟ ولكن أنجيل نظرت إلى سؤالي من زاويةٍ مختلفة تماما، فرأت في حديثي مالم أرهُ أنا شخصيًا، فجاء ردُ فعلها أغربَ مما تصورت، لتنهال ضاحكةً فأسألها متعجبة:

– بتضحكي على إيه؟

– لا ما فيش.

ثم عادتْ تنظرُ إليَّ مجددًا وتقهقه، فكررتُ السؤال باستغراب:

– لا بجد بتضحكي على إيه!

– لا.. ما فيش يا ليلى ما فيش!

فتركتُها في ضحكها وذهبتُ أتمتم في سري: «دا إيه الشلّة العجيبة دي يا ربي ما فيش فيهم طبيعي أبدا!»

لم أكن لأتخيل أن جزءًا من هذا الحوار سيُنقل إلى مسامع حبيب يومًا، ولكنها على ما يبدو عادة صديقتي الجديدة.

***

في المنزلِ وعلى صوتِ ضحكاتي الرنانةِ هلَّ يوسف علينا لينفجرَ صائحًا:

– إيه حكاية الواد اللي عمّاله تجيبي سيرته كتير دا!

– قصدك مين؟

– الواد المسيحي دا اللي اسمه حبيب؟

– ماله يعني مش فاهمة، ما أنا باتكلم عن كل صحابي وباحكي لماما كل المواقف الغريبة اللي بتحصل في الجامعة وبنقعد نضحك اشمعنى يعني علّقت على حبيب بالذات!

تدخلت أمي في الحوار قائلةً:

– يا حبيبي هي بتحكي لي المواقف اللي بتضحك في الجامعة مع الكل مش حد بعينه.

فنظر يوسف إليّ بعينين متفحصتين ليقول:

– هو الواد دا ما وراهوش شُغله غير الضحك والهزار طول النهار! إيه اللي يوقفك معاه أساسا؟

فصحتُ فيه أقول:

– أنا باقف مع أنجيل وكرستين من شهور يعني من قبل ما هو يجي يقف معانا أساسًا، وبعدين انت عايزني أعمل له إيه أروح أهزأه وأطرده من الشلّة مثلا عشان ترتاح!

فنظر إليَّ شذرًا وراح يتفحصُني بعيونِ محققٍ ثم سألني بصوتٍ هادئ هذه المرة:

– هو الواد دا شكله إيه؟ اوصفيهولي كدا طويل ولا قصير، تخين ولا...؟

فقاطعته صائحةً:

– وأنا مالي أنا بشكله هو انت هتحطه هو كمان في دماغك دا مش سمير دا مسيحي.. مسيحي يعني ما فيش مجال أساسًا! حاجه تجنن والله!

وذهبتُ غاضبةً لأنهي الحوار كله بصوتِ ارتطام باب غرفتي وقد تملكني الغضبُ الشديد، فلم أكن لأرى أي شيء يستدعي غيرة أخي هذه ولا مثولي أمامه كمتهمةٍ تدافعُ عن نفسها.

***

على مائدةٍ من موائدِ كافيتريا الجامعة تجمعنا، كانت أولَّ مرة أرى فيها حبيب يرتدي نظارةً سوداء أنيقةً زادتهُ غموضًا، بينما شردَتْ كرستين تفكرُ في امتحان مادتها القادم كعادتها لتسألَ أنجيل عنه باهتمامٍ بينما أنجيل كعادتها باسمةً شاردةً في عالمٍ آخر، فأجابتها فاطمة في النهاية، وتبادلنا أطرافَ الحديث حتى ألقيت على حبيب سؤالي الطفولي الفضولي كشخصيتي آنذاك:

– هو انت ليه لابس نضارة سودا مع إن الشمس راحت والدنيا مغيّمة على الآخر!

– مضايقاكي في حاجه النضارة؟

– لا بس أصل انت لما تتكلم مع حد كدا مش هيبقى عارف انت بتبص فين هنا ولا هنا!

وأشرت من حولي، فابتسم بخبثٍ مرددًا:

– ما هي دي ميزتها، بس اطمني أنا ممكن أكون بابص في أي حتة بس أكيد مش عليكي!

ثم ثبت وجهه عليَّ وقد غرقتُ في الضحكِ كالطفلةِ ثم راح الجميع يتشارك أطراف الحديث حتى التفتَ إليّ فجأة يقول:

– انتِ أخت يوسف العربي الملتحي صح؟

بدا التوتر عليّ مستغربةً سؤاله المفاجئ فأجبت:

– أيوة عرفت إزاي هو انت تعرفه؟

– شفتك واقفه معاه مرة.

تبدلت ملامحي عجباً فأسرع يقول:

– ما هو يوسف العربي معانا في كلية طب ما أنا برضه ملتحي زيه حتى شوفي.

وراح يتلمسُ ذقنة المُنبتة باسمًا.

فضحكنا حتى قاطعنا رنينُ هاتفه المحمول ليتلقى اتصالًا غريبًا كان فيه مستمعًا يردد فقط بين الفينة والأخرى كلمةٍ واحدة:

«طيب.. طيب.. طيب»

رددها مراتٍ ومراتٍ حتى أكدتْ لي زفراتُه المكتومةُ أمامَ هذا الصوت النسائيّ المنبعثِ من الهاتفِ بصيحةٍ عاليةٍ أنها «الست الوالدة»، فشردتُ أبتسم مستحضرةً قلقَ أبي الدائم عليَّ.

***

دق جرسُ البيت، ففتحتُ الباب واحتضنتُ أبي في عناقٍ طويلٍ دافئ، جاءنا زائرًا لأولِ مرةٍ منذ أشهر وقد ارتسمت البسمةُ على وجوهِنا وهو يتأملنا بوجهٍ باسمٍ تتوسطه علامة الصلاة وعينين ارتسمت حولهما التجاعيد فبدتا كبئرينِ عميقين من الحكمةِ، ليخبر كل واحدٍ منا عن هداياه ثم نظر إليَّ قائلًا:

– أنا اشتريت لك هدية وجبت لك معايا حاجة عارف إنها هتفرحك أكتر من الهدية.

وراح يلبسني معطفًا بُنيًا فاخرًا إيطالي الصنع، رائعَ التصميم فغمرتني الفرحة وأنا أتأمله في المرآة، ورحتُ أحتضنه وأشكره بشدةٍ فقال:

– استني بس دي الهدية لسه أهم حاجة بس دي جبتها لك من البيت هناك.

فسألته:

– إيه هي؟

– الفيديو اللي كنتِ نفسك تاخديه معاكِ في الشنط جبتهولك عشان تشغلي حفلات كاظم الساهر اللي مزهقانا بيها ليل ونهار!

وراح يضحكُ بينما قفزتُ أنا من فرحتي كالطفلةِ وشكرتُه بشدة، فراح يطلبُ مني طلبه المميزَ كعادتِه:

أبي والمعطف الفاخر

– ما فيش بوسة لبابا؟

قبلتُه ورحتُ أمسك على الفور بجهاز الفيديو، وبدأتُ وصلةَ الإلحاح على يوسف ليقومَ بإيصالِ أسلاكه، فقال يوسفُ ساخرًا:

– ليه بس كدا يا بابا دلوقتي هتفرض علينا كاظم الساهر ليل ونهار!

فرمقتُه بغيظٍ بينما يوصل الأسلاك باسمًا متنهدًا يردد:

– هنعمل إيه بس يا الله!

***

راحت أمي تشاهد التلفاز بينما أدار أبي قرصَ المذياع ليستمع لبعضٍ من الأغاني الطربية القديمة فاستوقفته أمي قائلة:

– يا فريد وقف البتاع دا شوية خليني أسمع منى الشاذلي!

فرد بحدةٍ:

– أنا نفسي أفهم بس إيه قيمة اللي بتسمعيه دا!

– يا فريد دي بتقول كلام مهم وقوي جدا دي بتهاجم الوزير شخصيا!

فأومأ برأسه بسخريةٍ قائلًا:

– يا رقية ما انت عارفة كله ضحك على الدقون وزير إيه اللي بتهاجمه ما تهاجمه يعني إيه اللي هيتغير ما كله تمثيل في تمثيل ما انتِ عارفة!

ثم نظر إلي يقول:

– أمك يا بنتي مش عايزة تنسى أبدا إنها خريجة اقتصاد وعلوم سياسية!

فابتسمتُ وأنا أتناولُ بعضًا من الحلوى المميزةِ التي أحضرها مرددةً:

– هو صحيح يا ماما الإعلام الخاص فيه حرية أكتر من الحكومي وسقف الحريات ارتفع والكلام اللي بندرسه دا؟

فأجابت أمي:

– آه طبعًا دلوقتي بينتقدوا الوزراء أهو الأول ما كانش كدا.

ليبتسم أبي نصف ابتسامةٍ باهتةٍ وهو ينظر إليَّ بعمقٍ قائلًا:

– لا يا بنتي مش زي ما انتِ فاكرة الإعلام في الحقيقة كله مسيس وموجّه، وكل اللي انتِ شايفاه انتقاد الوزراء والكلام دا كله مقصود للتنفيس على الناس وكإن الغلط كله جاي من الوزراء وبس لكن في الحقيقة البلد كلها سياستها ماشيه غلط من أيام عبد الناصر ولحد دلوقتي عصر مبارك أهو دا دلوقتي حتى أرحم من أيام الحروب اللي عشناها في عهد عبد الناصر وأيامه ال...!

فصاحت أمي:

– خلاص بقى يا فريد!

فعلقت أقول:

– هو انت ساداتي يا بابا؟

– يعني السادات كان أرحم شوية بس جه في الآخر وبوّظ الدنيا.

ثم استدرك قائلًا:

– أيوة أهه الأغنية دي من أحلى أغاني كارم محمود خلوني بقى أسمعها من نِفسي!

وأدار قرص المذياع ليجلجل صوته في البيت بينما ذهبتْ أمي تكمل تحضير الغداء فراحَ ينتشي طربًا ليردد كعادته:

– اسمعي يا بنتي اسمعي نضفي ودانك شوية!

فابتسمتُ وأنا أرى في عينيه بريقًا مميزًا وأنصتَ كلانا لصوتِ المطرب المرحوم كارم محمود:

«أمانة عليك يا ليل طوّل
وهات العمر من الأول
بحب جديد وقلبي سعيد
يا ريتني عشقت عم نوّل

أمانة أمانة أمانة أمانة ياليلي يا ليل».

***

في ساحة الجامعة رحتُ أتجول مع الشلّة كعادتي وأنا أحدثهم عن نفسي قائلة:

– أنا صحيح جنسيتي كندية وكنت وأنا طفلة بحب كندا أوي وأمريكا لينا فيها قرايب كتير بنزورهم بس أنا عربية إلى النخاع وضد الثقافة الغربية المتحررة وضد كمان اللي بتعمله أمريكا مع الشعب العراقي والفلسطيني وباعتبر...

فقاطعني حبيب قائلا:

– مش فاهم إيه علاقة أمريكا وكندا بالسياسة والحكام؟ هو أي كلام وخلاص! وانتِ بقى معاكِي الجنسية الكندية؟

بدا سؤاله متحفزًا فأجبته:

– أيوة.

– وبتتكلمي عن أمريكا ليه بقى؟!

– عشان سياساتها.

– وإحنا مالنا ومال سياساتها؟

– وانت متدايق ليه؟ هو انت مصري ولا أمريكاني؟!

فنظر إلي مغتاظًا يقول:

– أنا كمان بقى قرايبي في أمريكا وعارفها منطقة منطقة بقى إيه رأيك؟ وبنت خالتي كندية زيك على فكرة.

فسألته أنجيل:

– بنت خالتك دي اللي كتبت فيها القصيدة إياها يا حبيب؟

– أيوة.

خلعتْ كرستين نظارتَها لتنظفها من الغبارِ فجأة، فرحتُ أدققُ النظرَ في

ملامحها بلا نظارةٍ، بدت لي مختلفةَ تماماً فعلقتُ أقول:

– شكلك مختلف أوي من غير النضارة يا كرستين تصدقي!

– حلو ولا؟

راحت تمشطُ شعرها الأسود القصير بأناملها وأنا أتأملها بتدقيقٍ شديدٍ لأردد:

– حلو بس مختلف بجد!

بدت عيناها صغيرتين غائرتين على غير العادة، فالتفتُ إلى بعفويةٍ أردد:

– وانت يا حبيب وريني شكلك من غير النضارة كدا.

فخلعَ نظارته وقد بدا التوتر عليه، فاقتربتُ منه خطوةً دون وعيٍ، ورحتُ أدقق النظرَ في عينيه هو الآخر، فبدت لي ملامحه بدونِ وهج النظارة أكثر اختلافًا منها، ولكن ارتباكًا غريبًا بدا عليه، فأسرع يرتدي نظارته فورًا، ثم أشاح بوجهه نافرًا دون مبرر، فابتعدتُّ باستغراب، وودعتهم لأنصرف متمتمة في نفسي: «دا ماله دا!»

***

على الأريكةِ في الردهةِ رحتُ أريح خدي على قبضتي لأستمتعُ كعادتي بمشاهدةِ حفلةٍ من حفلاتِ فناني المفضل وهو يشدو متأثرًا بكلمات الشاعر المبدع كريم العراقي ليردد:

«تذكر كلما صليتَ ليلا

ملايينا تلوك الصخرَ خُبزا

على جسرِ الجراحِ مشت وتمشي

وتلبسُ جلدها وتموتُ عزا

تذكر كلما تغفو على أي وسادة

أينام الليل من ذبحوا بلاده»

نبتتُ الدمعة كزهرةٍ وليدةٍ في عيني بينما ارتسم الحزنُ الشديدُ على ملامحِ أمي وهي تهمسُ بالدعاء لأطفالِ العراقِ المحرومين من الدواءِ والغذاءِ لسنواتٍ بسبب الحصار الأمريكي الجائر، حتى أنهى الساهر كلماتِه بصيحةٍ عذبةٍ قويةٍ صدحَ بها على الملأ يقول:

«إلى متى هذا الدمار
جفت ضمائركم
ماهزكم هذا النداء
هذا النداء رقت له
حتى ملائكة السماء
جفت ضمائركم
وما جفت دموع الأبرياء»

وتحررت الدمعة من أجفاني أخيرًا وقلبي يدعو للعراق أن يتحرر من قهرِهِ وحصارِهِ يوما ما.

أفقتُ من ليلتي على حُلمٍ غريبٍ لم أفهمه، قمتُ في رهبةٍ أكاد لا أستوعبُ ما أرى، لقد اعتدتُ رؤيةَ فناني المفضل في المنام، ولكنني لا أفهم لماذا هذه المرةَ أرى الصليب يتدلّى من رقبته!

***

أشرقَ صباح اليوم التالي وفي ساحةِ الجامعةِ لمحتُ حبيب عن بُعدٍ فراح التوترُ يعزف لحنَه المميزَ على قيثارةِ أعصابي، اقتربنا والفضولُ يراودني كالقطةِ المشاكسة وأنا أرى سلسلتَه الذهبيةَ تتوهجُ في رقبتِه لأسأله سؤالي الأغربَ على الإطلاق:

– هو انت ليه يا حبيب مش بتلبس فضة؟

– فضة!

– اه يعني لو بتلبس سلسلة روشنة يعني زي ما بيقولوا ما تلبس فضة أصل الذهب دا باحسه حريمي.

فراحَ يومض جفنيه لبرهةٍ ثم قال:

– لا الفضة أصلها بتطوّس مع الوقت بتبقى شبه الجنزير كدا.

– جنزير جايز!

لم أعتد على رؤيةِ شاب يرتدي سلسلةً أو خاتماً من الذهب، كان بالنسبة إليّ أمرًا غريبًا يثير التساؤل، لم أكن أعرف أنها عادة تتوارثها الأجيال، ولا أدرك أن لهذه السلسلة أي رمزٍ ديني، فبدوت كالقادم من كوكبٍ آخر؛ ولذا كان سؤالي الفضولي الثاني أكثر غرابةً من الأول إذ قلت:

– مش عارفة ليه عندي حب استطلاع أعرف انت معلق فيها إيه.

وشردتُ أفكر وهو يخرجُ لي سلسلتَه لأراها.. لابد أنه أول حرفٍ من حروفِ اسمه، أو ربما صورة والدتِه أو ربما رمزا شبابيًا «رِوْشًا» كما يقولون حتى رأيتُ الصليبَ ماثلًا أمام عيني فجأةً يكاد يلمس رأسي فابتلعتُ ريقي وأنا أكاد لا أصدق ما أرى!

إنه هو، هو نفسُه الذي رأيته في منامي في حلم البارحة نفسُ الشكل ونفسُ اللون المميز وعلى الفور تحول ذهولي إلى رعبٍ عميقٍ، بينما بدا الانزعاج الشديد على عينيّ حبيب وهو يرقب ملامحي ولا يفهم شيئًا، حتى تمتمتُ هامسةً:

– هو.. يعني.. إزاي!

فنظر إلي مرددًا:

– إيه.. بتقول لي إيه؟!

– ما فيش.. ما فيش.

كنتُ أتصورُ أن الرهبانَ والقساوسةَ فقط هم من يلبسونَ الصليب، وكذلك الفتيات المسيحيات في الحليّ والزينة، فكيف لي أن أدركَ هذه التفاصيل الصغيرة وأنا لم أعش في مصر من قبل، ولكن شيئًا ما بدأ يستوقفني، لم تكن هذه أول مرةٍ تصلُني فيها بعضُ الرموزِ في المنام

وتتحقق، ولكنها كانت الإشارة الرادارية الأولى في حياتي، تستوقفني لأنتبه إلى المسار ولكنني لم أزل صغيرةً على الفهم.

ويبدو أنني استثرتُ حفيظة هذا الشاب دونما قصدٍ، فتغيرت ملامحه وهو يتمعن وجهي بعينين راصدتين ثم أسدل السلسلةَ داخل قميصَه المخطط بالمربعاتِ وراح يقُصُّ عليّ حكايةً ذات مغزى ليقول:

– مش أنا طلع عليَّ من كام يوم اتنين بلطجيه ثبِّتوني.

– ثبتوك يعني إيه؟

– ثبتوني يعني طلعولي المطوة فطلعتلهم المحفظة.

فنظرتُ إليه باستنكار أقول:

– إيه! هو انت أي حد يطلعلك المطوة تطلعله المحفظة!

فصاحَ غاضبًا:

– لا أسيبه يغُزّني في بطني بالمطوة عشان تتبسطي!

– يغز...يغُزّك طب كمل وبعدين إيه اللي حصل؟

زفرَ حبيب محاولًا تمالك أعصابَه وأكمل يقول:

– ما فيش رحت أشتكيهم في أمن الدولة.

فسألته وقد بدا عليَّ الخوف:

– أمن الدولة طب ليه ما روحتش للبوليس؟

– عشان.. عشان الجريمة دي حصلت بالنهار!

– آه ودا معناه إيه؟

– معناه.. معناه يعني إن دي مصيبة طبعًا جريمة وبالنهار كمان يعني مصيبة!

ثم راح يستعرض كيف استقبله الضابطُ بمنتهى الحفاوةِ وطلب له القهوةَ وكأنه ضيف هام بينما أجلس أحدهم على الأرض مغلولَ اليدين، فاستوقفتُه قائلةً:

– طب وهو كان عامل إيه؟

– هو مين دا؟

– الراجل اللي كان في الأرض دا كان عامل إيه؟

– ما اعرفش.. المهم باقول لك رحب بيا وبقى يقول لي: «حضرتك واتفضل» وقعّدني وفضل يسمع مني...

فقاطعته بلهفةٍ أقول والقلق في ملامحي:

– يعني عملوا فيه إيه؟

– هو مين!

– الراجل اللي كان في الأرض؟

فعاد يصيحُ مغتاظًا:

– وأنا إيش عرفني أنا! أنا مالي وماله! مالي ومال الراجل اللي كان في الأرض أنا!

– خلاص.. خلاص والضابط دا ليه عاملك حلو أوي كدا؟

أغمضَ حبيب عينيه وسحب نفسًا ثم عاد يحاول تمالك نفسه وهو يقول:

– عشان يعني... عشان أنا قلت له أنا الدكتور فلان الفلاني.

– آه قصدك إنهم بيحترموا الدكاترة يعني؟ بيحترموا الدكاترة هنا في مصر؟

فنظر إليّ لبرهةٍ يتنهدُ وقد نفذ صبره ليقول:

– آه بيحترموا الدكاترة آه، بيحترموا الدكاتره فعلًا.

– بجد طب كويس إنهم هنا بيحترموا الدكاتره، دا شيء ممتاز، كويس جدا.

وابتسمتُ بفرحةٍ وفخرٍ فأخي أيضًا مشروعُ طبيب، ولكن هذه الضحكاتِ المكتومةِ التي تولدت على وجهِهِ أثارت استغرابي؛ ليختتم حديثه بجملةٍ واحدةٍ لم أفهمها ولكنها نالت إعجابي:

– دا انتِ عايشة في ملكوت لوحدك!

قالها وقد تجلت الضحكةُ أخيرًا على هذا الوجهِ العابسِ منذ دقائق، فضحكتُ معه كالطفلة ثم سألته:

– فعلاً عرفت إزاي؟

– واضح.. واضح أوي!

وأنهينا حوارَنا ضاحكين كعادتنا، وقد فهم حبيبُ أخيرًا أنني لم أكن أقصد أي إساءةٍ من أي نوع، وإنما فقط لا أفهم شيئًا عن هذا المجتمعَ الجديد الذي أعيش فيه، ليدركَ أخيرًا أنه لا يحتاج لأن يثبتَ لي أهميتَه ومكانتَه في بلدِه.

***

انتفضت أمي على الأريكة صائحة في وجهي تقول:

– يا لهوي عليكي انتِ اتهبلتي يا بِت!

– ليه يا ماما في إيه بس؟!

– واحد مسيحي هيكون معلّق إيه في رقبته مثلًا مصحف!

فرحتُ أبرر موقفي:

– أنا مش قصدي حاجة أنا إيش عرفني بس أنا افتكرته معلّق حرف ولا حاجة شبابي أي حاجة.

فصاحت غاضبة:

– وانتِ مالك انتِ ما يعلّق اللي يعلقه هو واحدة صاحبتك هتسأليها عن لبسها؟! انتِ هتجننيني بهبلك دا شكلك هتجيبيلنا مصيبة في الآخر!

– ليه بس يا ماما خلاص.. خلاص أنا ماعدتش هاسأل خالص عشان ترتاحي.

شعرتُ بالذنبِ والحرجِ الشديد، لقد أسأت التصرفَ كعادتي، ومضيتُ إلى غرفتي محبطةً لعلّ الرسم يخرجني من حالتي قليلًا.

***

مرت الأيام عليَّ وأنا كالطفلةِ أتأملُ كل ما حولي ببسمةٍ شاردةٍ جميلة، وأجربُ أنواع الأطعمة الجديدة بشغف، لأمر ذات يومٍ في ساحةِ الجامعة فألمحُ حبيب عن بعدٍ ينظرُ إليَّ باهتمامٍ غريبٍ مريبٍ وبرفقته أحد من أصدقائِه لم أتبينه، فحدثتُ نفسي:

«كفاية بقى مش ناقصين غلطات تاني يا ليلى امشي وخلاص!»

فتجاهلته عن عمدٍ، ورحتُ أقضم قضماتٍ من شطيرة اللحم المدخن اللذيذة، لتزداد نظرتُه لي حدةٍ وتدقيقًا وهو يقتربُ بصديقه مني أكثر فأكثر كفهدٍ مترصد، بينما أهتمُ أنا بشطيرةِ اللحم المدخن في يدي لأقضم منها من حين لآخر، وإذا به يمرُّ بعصبيةٍ بمحاذاتي فيكادُ يصطدمُ بي ويوقع بالشطيرةِ بغلٍ واضح ليصيحَ في أذني بكلماتٍ لم أفهمها: «مشاعر وعدّت!»

ولّى حبيب مع صديقه معرضًا ليتركاني في وسطِ الطريقِ مذهولةً لا أفهمُ شيئًا، فتفحصتُ الشطيرةَ أولًا لأتأكد أنها بخير وكل شيء على ما يرام، ثم رحت أفكرُ ماذا دهى هذا المجنون «مشاعر وعدِّت» أيُّ مشاعرٍ هذه وما شأني أنا بها هل يقصدني؟ لا مستحيل! ربما اغتاظَ من تجاهلي أو ربما يتمنى هذه الشطيرة يالها من فكرة غبية! تبسمتُ ثم همستُ:

«يعني أتكلم مش نافع أسكت مش نافع والله احترت! نسلّم المرة الجاية وخلاص ما دام بيزعل من التجاهل!»

أسررتها في نفسي ورحت أفكرُ في الأهم في أي مكان أجلس لأنفرد بهذه الشطيرة اللذيذة؟

***

في ردهةِ المنزلِ انتهى أبي من تلاوته لسورة الكهفِ بصوته الرخيمِ الجميل، ومدّ ذراعه حول كتفي ليتأبطني كعادتِه قائلًا:

– أنا جبت مجموعة من أبحاثي الفقهية هنا وحطيتهالك في ملف على مكتبك.

فسألتُه بدهشة:

– مكتبي أنا! ليه يا بابا؟

فرد بابتسامته الصافية:

– عشان في يوم من الأيام بإذن الله انتِ اللي هتكملي اللي أنا بدأته وتنشري الأبحاث دي في كُتُب زي ما أنا عملت زمان.

قالها بثقةٍ شديدةٍ وأنا أتعجب كيف لي أن أقوم بهذا الدور الكبير وهذه المسئوليةِ العلميةِ الثقيلة، بينما لا يشغلُ بالي حاليًا سوى الفن والشعر، لماذا وقعَ اختيارُهُ عليَّ أنا على وجه الخصوص، لم أجد من تفسيرٍ منطقيٍ ولكن بسمةَ الثقة الحاسمة في عينيه لم أكن لأنساها أبدًا!

***

في الصباحِ التالي بدأتُ أستعدُ سريعًا للذهاب إلى الجامعة، فنظرَ أبي في وجهي متفحصًا وقد بدت عليه علاماتُ الغضب، ثم راح ينتقدُ هذه الحُمرة الوردية على شفاهي، وألوان الجفونِ التي علت أهدابي ليطلبَ مني تخفيفها أو إزالتها كَحَلٍ أفضل، ثم راح يقول:

– امشي قدامي كدا راحة جاية ورّيني!

فحاولتُ كالعادةِ إثناءه عن عادتِهِ في تفحصي اليومي الذي بدا لي كتفتيشٍ عسكريٍ صباحيٍّ لا يملّه، ولكنه صاح يقول:

– قلت لك امشي قدامي وريني لبسك!

فمشيتُ بتوترٍ وقلقٍ فعاد يصيح قائلاً :

– الجيبة دي ضيقة روحي غيرها بسرعة أو البسي فوقها البالطو اللي جبتهولك...

لأقاطعه بنبرةِ إحباط:

– يا بابا!

فرد يقول بحدة:

– روحي البسيه.

بحسرةٍ رحتُ أقول:

– يا بابا مش كل يوم البالطو سيبني ألبس الحاجة اللي أنا عايزاها.

فصاحَ يقول:

– لا اللبس دا لأ روحي يلاّ روحي البسي البالطو لو كنتي عايزة تخرجي النهاردا.

فارتديتُ المعطفَ وذهبتُ مسرعةً كمن ينجو من الغرق، كان هذا المعطف رائعًا فاخرًا تمامًا كحبِّ أبي لي، وخوفِه الشديد عليَّ، ولكنه كان في الحقيقة يقيدُني ويخنِقُ أنفاسي حينما كلما ارتديتُه مجبرة، لطالما أحببتُ أبي كثيرًا، ولطالما عانيتُ من طريقتِه في حُبي، كان يراني عصفورتَه المميزة، ويقول لي أنتِ أجملُ فتياتِ الدنيا، ولكنه كثيرًا ما كان ينسى وللأسفِ أن لهذهِ العصفورةِ التي تبادله المحبة جناحانِ صغيرانِ يكرهان هذا القفصَ الذهبي، ويتوقان لرؤيةِ نورِ السحاب.

علا صوتُ أبي وأنا لم أزل على البابِ ليُسرعَ طالبًا من أخي اصطحابي إلى الجامعةِ قائلًا:

– رجلك على رجل أختك ربنا يحفظكم مع السلامة يا ابني.

فرد يوسف:

– حاضر يا بابا ما تقلقش مع السلامة.

***

وتمر الأيام لتتبلور شخصيةُ حبيب من بين الشخصياتِ أمامي شيئًا فشيئًا، لقد كان هذا الفتى العشرينيُّ وحيدَ أبويه المدللَ من أسرةٍ ثرية، اعتاد التضجر من تدخلِ أهله المستمرِ في كل تفاصيلِ حياته ليردد: «لو كانوا أهلي صرفوا اللي صرفوه في تعليمي دا في مشروع كان زماني دلوقتي رجل أعمال ناجح»، متمردٌ حتى على تخصصه!

كان حبيب مسيحيًا ملتزمًا ولم يكن متعصبًا، وبالرغم من ذلك فلطالما آذاني غرورهُ المتفرد، وسخريتُه التي وصلت معي إلى حد التجريح بعدما اعتاد مع الوقت على دوري في الشلة، وأصبح مألوفًا لديه أنني ببساطةٍ لا أمانعُ في أن أكون نكتتَه المفضلة؛ ولذا راح يجرحني ولكن بشكلٍ أكثر قسوةٍ هذه المرة، فشبهني بالبغبغاءِ الأحمق ساخرًا مني ومن حديثي، فلمستُ في سخريتِه جرحًا لم أطق تحمله، واكتفيتُ ببسمة حزينةٍ أمام الجميع وبعدما تفرقنا دخلتُ إحدى قاعاتِ المحاضراتِ الصغيرةِ الخاليةِ وأغلقتُ الباب عليَّ وانخرطتُ في بكاءٍ طويل كما الطفلة، ثم عدت إلى أمي أشكو لها ما جرى ليكون ردَّ أمي هذه المرةِ مُلفتًا:

– عيّطتي بجد؟!

– آه عيّطت كتير.

تنهدتْ أمي ونظرتْ لي بعمقٍ تقول:

– خلي بالك يا ليلى أنا ملاحظة إنك أوقات بترجعي فرحانه أوي وعماله تضحكي وبيبقى السبب حبيب وأوقات بترجعي حزينة أوي ومعيّطة والسبب برضه حبيب بُصي أنا هاحكيلك حكاية واحدة كانت زميلتي في الجامعة زمان...

وأكملت تقول:

– اسمها كريمة كانت بنت طيبة أوي كريمة دي كانت بتحب ابن الجيران اللي اتربت معاه من صغرها أهاليهم كانوا جيران وصحاب وكان اسمه مُحب، كان مسيحي وهي مسلمة.

فاضطربت نبضاتُ قلبي وقد تملكني القلقُ والفضول، ثم علقتُ أقول:

– مسيحي ومسلمة إزاي!

– انت تقولي إزاي بس دا اللي حصل اتربوا مع بعض جيران من الطفولة ومع الوقت اتعلقوا ببعض وحبوا بعض بشكل غريب طول الوقت كان تفكيرهم كله في بعض ياكلوا مع بعض ويضحكوا ويستنوا بعض ويقعدوا

يتكلموا في كل حاجه إلا الدين وفضلوا كدا سنين وسنين.

– وبعدين إيه اللي حصل؟!

– لحد ما كريمة كبرت وقربت من الأربعين شبابها كله راح ومشاعرها اتجرحت وفي الآخر اتجوزت حد تاني جواز تقليدي، وهو كمان نفس الحكاية وفي يوم شفت كريمة عند واحدة صاحبتي بالصدفة خلفت وهي في الأربعينات كانوا ولادنا ساعتها في إعدادي والحمد لله إنها على الأقل لحقت نفسها في الآخر.

فرحتُ أسألها شاردةً في حزن:

– القصة دي حقيقية يا ماما؟

– آه والله العظيم.

– دي قصة مأساوية أوي!

– بس دي الحقيقة اللي شفتها قدام عيني وفي قصص مأساوية أكتر بكتير.

– طب يا ماما وانتِ بتحكيلي الحكاية دي ليه؟

ردت أمي بنظرة حزينةٍ ثاقبةٍ تقول:

– باحكيلك الحكاية دي عشان أقول لك إن الواحد أوقات ممكن يمسك في إيده سكينه على أساس إنها هتنفعه وهيستخدمها بطريقة صح وبعدين يسرح وما ياخدش باله ويلاقي نفسه بيجرح نفسه بنفسه، خدي بالك يا بنتي.

كان لكلمات أمي وقعًا مريرًا في نفسي، ولكنني عدتُ أتذكرُ ما حدث لي مع ندى، كانت فتاة مثلي ولكنني تأثرتُ كثيرًا بجرحها لي، هذا هو حالي مع أصدقائي المقربينَ إذن، فلماذا أعطي الأمرَ أكبرَ من حجمِه، ولكنَّ قصةَ مُحب وكريمة حُفرت في ذاكرتي من يومِها كما النقشِ على الحجر.

وأخيراً قررتُ إنهاءَ صداقتي بحبيب، فلم أعد أحتمله، لم تكن أول مرةٍ تراودني فيها هذه الفكرة، ولكن شيئًا ما بداخلي كان يمنعني، كنتُ في قرارةِ

نفسي أفكرُ كيف لأمي أن تشبهني بكريمة، وكيف لي أن أقع في حبِّ هذا المتعجرف الغبي؟! أيمكن للإنسانِ أن يقع في حب شخص يرفضه عقله بشدة؟! غير منطقي من الأساس! بهذا تمتمتُ في نفسي وقد تولدت بي طاقةٌ غريبةٌ دفعتني لكتابةِ قصيدةٍ تصفُ هذه الشخصية المستفزة، شخصية المهرج التي وجدتُها في حبيب وهو يسخر مني وممن حوله، ووجدتها في سمير وهو يستهزأ بالعجوزِ المريض، لأكتبَ القصيدة التي كانت محورًا مهما في حياتي.

قصيدة (البهلوان)، وبدأت أكتب:

حولَه من الأخلاءِ كثير
لأنه في الفكاهةِ خبير
يستعرض ألفاظَ الشباب
ويهزأ بالصغيرِ وبالكبير.

أكملتُ القصيدةَ ثم سجلتها في دفتري، وتركتُ هذا الدفترَ في البيت بعيدًا عن أعينِ الأصدقاء، كانت هذه نصيحةً أمي المخلصةً:

«حلوة أوي بس اوعي.. اوعي يا ليلى توري القصيدة دي لحبيب.. اوعي!»

***

بدت خطواتي في ساحةِ الجامعة ثقيلة، وكأن شيئًا ما يجثُم على صدري، كآبة لا مثيل لها، أتمتمُ معها في كل لحظة بسبابِ حبيب لماذا لم أرد عليه ليتني أفحمتُه بالرد أو على الأقل نظرت إليه بما يستحق من اشمئزاز يا له من متغطرسٍ غبي! مهرجٍ تافه! يا له من...

حتى قطع حبل أفكاري صوت ما، فرفعتُ رأسي لأجد حبيب يناديني عن بعدٍ مهرولًا نحوي بابتسامةٍ غريبةٍ وقد ارتدى بذلةً سوداء لامعةً شديدةَ الأناقة، وبوبيونًا أسود حريريًا، بدا بهذه الضحكةِ اللامعةِ في حلته هذه أشبه ما يكون بممثلي المفضل أحمد السقا، نفس الروح، نفس الحركات

ونفس الضحكة ولو اختلفت الملامح، فابتسمتُ كالطفلة بشكل لا إرادي فراح يقول لي:

– إيه رأيك فيا كدا أنفع عريس؟

فسألته في عجب:

– انت لابس كدا ليه يا حبيب؟

– عشان امتحانات الشفوي لازم نلبس بِدَل في امتحانات الشفوي في كلية الطب.

وراح يتفحصُ بذلته بفخرٍ كالطاووس ليعود فيعيد سؤاله عليَّ:

– إيه رأيك أنفع عريس؟

فرحتُ أكرر سؤالي:

– طب بس ليه يعني؟ قصدي ليه لازم تلبسوا بِدَل في امتحانات الشفوي؟

– عشان نبان في مظهر كويس قدام الدكاترة وكدا يعني هو النظام كدا.

ثم عاد يهندمُ بذلته مجددًا مكررًا سؤاله:

– بس إيه رأيك أمُّور صح؟ أنفع عريس مش كدا؟

تجاهلتُ سؤالَه للمرةِ الثاثة، ورحتُ أكرر نفس الرد بصيغةٍ أخرى:

– بس بجد غريبة والله! غريبة إنهم يلبسوكوا بِدل مخصوص يعني!

أدركَ حبيب أن لا مجال له للحصولِ على أي إجابة أخرى مني، فألقى السلام وولىّ ذاهبًا بابتسامتِه المعهودة، بينما تملكتني الدهشةُ وأنا أرقبه وقد اختفى عن نظري بعيدًا لأردد في ذهول:

«وأنا مالي أنا تنفع عريس ولا ما تنفعش.. هو أنت هتتقدم لي أنا! دا إيه الواد العجيب دا يا ربي!»

تنهدتُ ورحتُ أقلب كفًا على كفٍ ضاحكةً من جنونه، ولكن رياح

السعادةِ ما لبثت أن هبت لتنتشلَ قلبي من كآبته أخيرًا، لا أعرف كيف ولا لماذا تحولَ هذا الغضب إلى ضحك وعدتُ إلى المنزل في آخر اليوم باسمةً وقد نسيتُ ألمي كلَّه، وكأنني قد تخلصت من كابوسٍ ثقيلٍ يجثُم على أنفاسي اسمه: «الفراق»، لم يكن تفسير ما يجري بداخلي يشغلني وقتئذ، كان أكثر ما يشغلني حينها أنني سعيدة، سعيدة فحسب.

***

في المنزلِ راح أبي بأسلوبِه المميزِ يقرأ علينا إحدى قصائدِه الزجليةِ الساخرةِ التي كتبَها في أحدِ زملائِه، ويروي لنا بعضًا من حكاياتِه الطريفةِ القديمةِ مع أقاربِه وأقرانِه في الجيش، فنضحكُ من حينٍ لآخر، ثم يقص علينا حكاياتٍ أخرى حولَ قراءاته وثقافتِه، وكيف كان الجميعُ يلتفُ في حلقةٍ من حولِه وبخاصة الفتيات، منبهراتٍ به، متشوقاتٍ للاستماع له، لقد كان أبي شخصية فريدةً ومميزة، ويبدو أنني حاولتُ تفقدَ شيئًا منها فيمن حولي دون وعي.

وجاء اليوم الذي قررتُ فيه أن أجمعَ بين المهرجين حبيب وسمير، لأستمتعَ بهذا اللقاءِ الفريدِ بين شخصيتينِ متشابهتينِ إلى حد كبير، فلطالما استهواني تحليل الشخصياتِ وبخاصةٍ في فترة المراهقة، فألقيت السلام عليهم رحتُ أقدم سمير للشلّةِ بينما يجلس حبيبُ بين كرستين وأنجيل كالطاووس بين الطيورِ كعادتِه، فدعوت سمير للجلوس وأنا أقدمه لهم قائلة:

– سمير البطران رابعة هندسة من أعز أصدقائي بجد.

ونظرتُ إلى سمير بابتسامةٍ رقيقةٍ واعتزازٍ شديد لأمنحه دفعةً من الثقةِ بين معارفِه الجدد ثم أكملتُ أقول:

– سمير من أعز أصدقائي بقالنا قُرب السنة صحاب مش كدا يا سمير؟

أومأ لي سمير برأسِه ورد ابتسامتي بابتسامةٍ شديدةِ العذوبة لم أرها على وجهه من قبل، بدت الفرحة تغمره من حديثي الرقيق عنه.

ثم أكملتُ أقول:

– قُرب السنة الوقت بيجري بسرعة بجد يا سمير مش كدا؟!

نظر سمير إلي بنعومةٍ هامسًا ولم تزل البسمةُ على وجهه:

– آه فعلا الوقت الحلو بيعدي بسرعة.

تبسمتُ ثم أشرتُ إلى حبيب أقدمه:

– حبيب خامسة طب أنا قلت أعرفكم ببعض بما انكم تشبهوا بعض مش في الشكل طبعًا أقصد في الشخصية.

لم أدرك أنني بطريقتي هذه في تقديمِ سمير، وبهذه العبارة الأخيرة تحديدًا قد استثرت حفيظةَ هذا الطاووسِ الجالس بين الفتيات متفرجًا، لتتغيرَ معالمُ وجهه دونَ سبب، ويشرعُ في هجومٍ مباغتٍ على سمير مرددًا:

– و«البطران» دا لقب بقى ولا صِفة؟

ليرد سمير بنظرةٍ استسخافٍ قائلًا:

– لا حلوة يا خفة!

ليبدو الغضب في عيني حبيب فيبادره بسؤالٍ بنبرة استفزازية:

– وانت منين بقى يا كابتن سمير!

فيرد سمير:

– من الصعيد.

ليعلق الآخر ساخرًا:

– أنا قلت برضه السِحْنة دي من الصعيد!

كظم سمير غيظَه لثوانٍ ولكنه لم يكن بالسهل ولا بالسَمحِ مثلي ليدع ثأره؛ ولذا قرر فجأةً إشعالَ الجلسة كلها بمن فيها، بينما لم أفهم أنا سبب كل هذا التوتر المتسارع من حولي، حتى خاضَ سمير فجأةً في نقاشٍ حول ظروفِ تحديد إقامة البابا شنودة في فترة حكم السادات، ثم بدأ يشرعُ

في انتقادِ الأقباط بلا مبرر، وإذا بحبيب فجأةً ينتفض من كرسيه واقفًا وقد اشتعلَت عيناه بالغضب، فدبَّ الرعبُ في عروقي بينما التزمت كلٌّ من أنجيل وكرستين الصمت في خوفٍ مترقبٍ حتى أخرج حبيبُ ولّاعته بعصبيةٍ ثم فتح عُلبة سجائره بأصابعٍ مرتعشةٍ، وكأنما ضغط سمير على وتره الحساس فبدا متأهبًا للشجار بينما اكتفى الآخر بتأمله من كرسيه ببسمةٍ باردةٍ مرددًا:

– مالك وقفت كدا ليه؟

بدأ حبيب في إشعال السيجارةِ وقد اشتعل غضبه معها ليدنو برأسه من سمير بإيماءةٍ ونبرةٍ غير طبيعيةٍ قائلًا:

– لا ما فيش باستعد بس عشان أسمعك وأشوف الحديت الماسخ بتاعك دا هيوصلنا لفين مش بتقولوا عليه عندكم في الصعيد الحديت الماسخ برضه!

ابتسم سمير وقد أدرك مبتغاه بينما أدركتُ أنا أننا أصبحنا على فُوهةِ البركان، وأن عليّ التدخل لإنهاء هذا الحوار بأي شكلٍ وبأي ثمن فأسرعتُ أقول:

– سمير هو إحنا إيه اللي جابنا للكلام عن الأقباط والبابا شنودة أنا مش فاهمة! دا مش موضوعنا غيّر الموضوع يا سمير لو سمحت.

راحَ سمير يجادلني محاولًا الدخولِ في نفس السياقِ مجددًا فاضطررتُ لتكرار نفس العبارةِ ولكن بحدة هذه المرة:

– سمير لو سمحت غيّر الموضوع!

انصرف سميرُ غاضبًا وأنا في حالة دهشةٍ أكاد لا أستوعبُ كل ما أشاهده، كان من المفترض أن يكون هذا اللقاء التعارفي لطيفًا ما الذي يجري أمامي ولماذا كل هذا التوتر والتنمر من كلا الطرفين؟! واستأذنتُ من المجموعة بينما بدا صوت حبيب شديد الحدةِ وهو يردد:

– طبعا اتفضلي.

أسرعتُ للحاق بسمير لأسأله عن سببِ كل ما جرى، ففاجئني بسؤالٍ أغرب لم أفهمه:

– انت تعرفي الواد دا من امتى؟

فأجبته:

– أعرفه من كام شهر كدا اشمعنى بتسأل ليه؟

ولكن سمير لم يجب، مضى غاضبًا مكبوتًا، ليتركني وحدي ويترك معي سؤالي معلقًا دون إجابة، فوقفت وحدي حائرةً أردد:

– في إيه مالهم دول والله ما فاهمة حاجة!

ولكنني أخيرًا تنفستُ الصعداء، فقد كنا على مشارف فتنةٍ طائفيةٍ لولا أن الله سلّم.

***

«ليلى بتتكلم مع ولد مسيحي اسمه حبيب يا بابا!»

ألقى أخي بهذه العبارةِ الصادمةِ في وجهِ أبي ليتغير وجهه فيتلون بحُمرةِ الغضب، ويصيحُ قائلا:

– يا ساتر يا رب ودا إيه دا كمان!

فتدخلت أمي لإنقاذ الموقف قائلة:

– دا هي بتتكلم مع مجموعة صحاب ودا واحد منهم مش أكتر كلهم زي الإخوات يعني.

بدأ الهدوءُ يتسلل إلى ملامحِ أبي أخيرًا، وتنهدتُ بارتياح لقد أنقذت أمي الموقف كعادتها الدائمة، لتتردد في خاطري تلك العبارة التي رددها أبي على مسامعي منذ سنوات وقتما كنت طفلة: «اوعديني يا بنتي ما تعمليش زي عمتك» وإجابتي التي لا أنساها أبدا: «أوعدك يا بابا».

***

هناك عند مبنى إدارةِ الجامعة حيث نجتمعُ عادةً ظهر ضيفٌ جديدٌ على شلّةِ الأقباط، ولكن يبدو لي أنهم يعرفونه جيدًا بينما كان أولَّ تعارفٍ لي به، إنه مصطفى الصديق المقرب لحبيب من بين زملاء دفعته، بدا مصطفى شابًا عاديًا ممتلئًا متوسطَ الوسامة، هادئ الطبع جادًا، ولكنه كان في الحقيقة شديد التميزِ بشيء لم أره ولم يلفت انتباهي قط، إنها طيبة القلب، السمةُ الأكثرُ ندرةً في كل من عرفت بل وفي زماننا كله، وتعارفنا لنكتشفَ أننا نحملُ لقبَ نفس العائلة، عائلة «العربي» وكأن الأقدارَ تلمحُ إلينا بأن ثمةَ سِمة مشتركة بيننا، أو ربما مصيرًا واحدًا سيجمعنا يومًا ما من حيث لا ندري.

بدا مصطفي على انسجامٍ واضحٍ مع حبيب، يضحكان سويًا ويتبادلان الحديثَ الهامسَ من حينٍ لآخر، فبدا لي قلقًا بعض الشيء حولَ فرصته في العملِ وفترةِ الامتياز لأسأله قائلة:

– الموضوع مُقلق للدرجادي؟

– أيوة الدراسة حاجة والشغل بقى والجد حاجة تانية خالص الله أعلم هيعملوا معانا إيه في الامتياز والنيابة في المستشفى بعد كدا؟

فنظرتُ إلى حبيب أقول:

– وحبيب كمان قلقان؟

فرد مصطفى قائلًا:

– لا حبيب دا ما حدش يقدر يعمله حاجة؟

وابتسمَ وهو يرمُقُ حبيب بطرفِ عينِه ثم أكملَ يرددُ هامسًا أمامه بصوتٍ مسموعٍ:

– ما حدش يقدر يمسُّهم دول!

سمعه حبيب فبادله البسمةَ بمثلِها ثم راح يتصنع التباهي قائلًا:

– طبعا!

فأكملتُ أقولُ لمصطفى:

– قصدك يعني يخافوا لو ظلموه يتقال اضطهاد وعنصرية وكدا؟

فصوّب حبيب نظرةً قويةً إليَّ مرددًا:

– أنا ما حدش يقدر يضطهدني من أساسه!

فتمتمتُ في سري. «وهو مين دا اللي اتهف في عقله عشان يضطهدك يا حبيب دا أنت تضطهد بلد!»

ثم ابتسمتُ مرددة:

– واخد حقوقك انت تالت ومتلت يا حبيب.

فردد ببسمةٍ متباهيًا:

– دا أساسي!

وتوالت ضحكاتنا الواحدة تلو الأخرى لأرى في مصطفى وحبيب عبرَ الأيام نموذجًا بسيطًا ولطيفًا للوحدةِ الوطنية بدون شعاراتٍ رنانةٍ ولا خطبٍ متصنعة.

قبّلتُ أبي على البابِ واحتضنتُه بدفء ثم راحَ يقبّلُ أمي وأخي مرددًا الآية الكريمة كعادتِه في وداعنا:

«إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ».

ثم سافرَ ليستكمل مسيرةَ عمله في الخليج، مرسلًا إلينا ما نحتاجُ من مالٍ ومئونة من وقتٍ لآخر، وبدأتُ أسمع أصداءَ اسم يتكرر في المنزل، انها عايدة زميلة يوسف في دفعتِه، فهل يتحولُ الاهتمام إلى حب؟ شغلني هذا السؤال لأجدَ إجابتي عبر الأيام.

***

هنأتُ كرستين وأنجيل بعيدِ الميلادِ المجيد وقد بدت الأناقة عليهما، إنها زهوةُ الملابسِ الجديدة، وفرحةُ العودة إلى مائدةٍ شهيةٍ تجمعُ كل أصنافِ

الطعامِ أخيرًا لتقولَ كرستين لأنجيل ضاحكة:

– كفاية مشي بقى يا أنجيل تعبت فرجنا الجامعة كلها على لبسنا خلاص!

وابتسمتُ وأنا أتأملهما يتجادلان حول ملابس من الأجمل، لتسأل أنجيل مصطفى ضاحكة:

– إيه رأيك يا مصطفى في اللبس الجديد لبس مين الأحلى أنا ولا كرستين بس قول بصراحة.

فنظرَ إليهما قائلًا:

– هو لبسكم انتم الاتنين حلو بس لبس كرستين وقور أكتر بصراحة لبسك ضيّق شوية.

– ما هو سامي أخويه قالي كدا برضه.

تعجبتُ من صراحته وقد شعرتُ فجأةً أن أخي يوسف هو الذي يتكلم، فهذا المصطفى العربي يشبهنا إلى حد كبير.

***

وتتابعت الأيام لأجدني على موعد مع يوم من أجمل أيام حياتي، وكأن الأقدار أهدتني شيئًا من نشوةِ السُكارى، ونزَق الأطفال، وأفيونِ المدمنين بلا أي سببٍ منطقيٍّ معروف، ولا تفسيرٍ علميٍّ مفهوم، أخذني حبيب بعدما تصافحنا إلى وكره الخفي في كلية الصيدلة، إلى حيث يجلس عادةً بجوار الكافيتيريا الصغيرة ها هناك، ثم راح يقول باسمًا:

– ليلى هيا بنا يا ليلى.

فتبسمتُ قائلة:

– على فكرة بقى انت بتعلق كتير على اسمي مع إن انت اسمك أغرب الناس كلها مسمية ليلى عادي بس نادر اللي بيسمي حبيب.

– نادر ليه دا الدنيا كلها مسميه حبيب؟

- أصله اسم فيه شاعرية كدا شوية.

- شاعرية! أمّال لو شفتي الأسامي اللي باسمعها، دا أنا مرة اتعرفت على بنت باقولها اسمك إيه قالتلي: «غرام».

فاندهشت:

- إيه غرام!

- أيوة دا أنا لو جبت بنت وسموها غرام دا أنا كنت «طخيتها عيارين قتلتها!»

قالها صائحًا بالصعيديةِ فرحتُ أضحكُ بشدةٍ على شكلهِ وهو يتقمصُ دورَ الصعيدي الثائر، فانتهيتُ من ضحكتي لأرى البسمةُ تلمع على وجهه وهو يرقبني وفي عينيه بريقٌ غريب، ثم صمتنا لبرهةٍ ليعرض عليّ مشاركته القهوةِ بإلحاح:

- أجيب لك معايا؟ أنا عازمك دي حلوة جدًا دي من إيدين شيماء.

- شيماء مين؟

- شيماء هاعرفك عليها دي بتعمل قهوة ما حصلتش حاجة كدا تظبط الدماغ جربيها!

بدت السعادةُ عليه وهو يفكر في مذاقِ كوب القهوة بينما شردتُ أنا أفكر في سببِ ولعه الشديد بهذا المشروب الذي لم أعتد تذوقه إلا في ليالي امتحانات الثانوية العامة، لم أكن لأستسيغ مرارته ولا ذكراه، لتكون إجابتي:

- لا شكرا أصلي ما ليش في القهوة.

وقدمني لشيماء بائعةِ الكافيتيريا، كانت فتاة جذابةً محجبة مثلي تماما، وراح يمازحها هي أيضًا، ويتغزل في قهوتها حتى توردت وجنتيها خجلًا، يبدو لي أنها تعرفه جيدًا فهو زبونها المميز، فابتسمت لهما، بينما أتمتم في سري بعجب:

«أموت واعرف إيه اللي جوا دماغك دي يا حبيب.. أكيد جواها لستة

بالشعر والقهوة

بنات مالهاش أول من آخر وانتِ بتضحكي على إيه ومكسوفه ليه يا اختي كل دا على كوباية قهوة هو جاي يتقدملك يلّا جاتكوا خيبه أنتم الاتنين!»

ولكن رائحة القهوةِ الزكية سُرعان ما تسللت إلى أنفي كالسحر، وبدأت أشعر بالندم على تفويتِ هذا العرض المميز، بدا حبيب فرحًا منتشيًا وهو يطلب مني أن أبدأ في إلقاء الشعر قائلًا:

«أهو كدا القعده تحلى بالشعر والقهوة.. شفتي تنفع مطلع قصيدة أهي!... قولي بقى سمعيني».

ابتسمتُ وأنا أرى في عينيه ابتسامةً ساحرةً لم أرها قط في حياتي، أيكون هذا تأثير قهوةِ شيماء إذن؟ دار هذا السؤال في بالي وقد بدأتُ أشعر بالغيرةِ، لا أعرفُ منه أم من قهوته أم من صانعةِ القهوة، وبدأت ألقي أبيات قصيدتي الأولي بينما ينصتُ هو لي، وهو يحتسي من الكوبِ القليلَ ويرمقني من حينٍ لآخر بنظراتِ القارئ المعجب، والمستمعِ المفتون بسحرِ الكلمات، لأردد:

– دي بقى قصيدة «امرأة ومرآة» كتبتها في بنت كدا ما تعرفهاش.

كانت هذه هي القصيدة التي كتبتها في إنجي «عروسة المولد» كما كنت أراها، ورحتُ ألقي عليه أبياتها بأدائي المميز، فراح يشردُ معي وكأنه طفل صغير يستمع لحكايةِ ما قبل النوم:

بالأمس كنتُ معها أتجول
وفي عينيّ أسئلة لا تُسأل
عن وجهها المصبوغ ورداءٌ
يكاد من ضيقه يُقتل
***
وملامحٌ تبرأت من اسمِها
هي قامت برسمِها
ابتلعتُ ذهولي أمامَها

وحسبيَ صمتٌ متأمل

***

ورحنا نتسامر كلانا مع الرِفقة

حركاتُها أمامَهم مرسومة بدقة

صوتها أقربُ منها لقطة

كأنها الإعجابَ تتسول

***

تتأفف بتسامٍ وتتظلم

وتتكلمُ كأنها تتألم

بكل أحاديثنا لا تهتم

وتروي وفي الخيال نرحل

***

وتحكي عن واحدٍ من المعجبين

لا تذكر منهم إلا عشرين

تبعَها في الطرقِ كالمجانين

وأمرهُ إلى الشرطة حُوِل

***

وتروي وتروي ونسمع

سعداءَ بأننا نُخدع

مرايا النساءِ لا تقنع

مهما العصور تتبدل!

وما إن انتهيت من قصيدتي حتى راح يسأل والفضولُ يشِّعُ من عينيه:

– دي مين دي؟

– ما أنا قلت لك واحدة ما تعرفهاش.

فراح يفكرُ لبرهةٍ قائلًا:

– ماعرفهاش بجد يعني متأكدة؟

– أيوة تقدر هي تقول كدا قصيدة عامة تنطبق على بنات كتير ما قلتليش إيه رأيك فيها؟

– يعني هي حلوة وكل حاجة بس هي بتوصف بنت شيك بتحب تحط «ميك أب» كتير مش فاهم إيه المشكلة يعني لو البنت بتحب تتزوق بزيادة عادي يعني مش غلط.

– ما اقصدش كدا. طب ما أنا بأحط ميك أب أنا قصدي إنها بتتصرف بتَصنُع وماكياجها مبالغ فيه أوي يعني الجمال حاجة حلوة بس جمال الروح أهم بكتير من إني أغيّر كل حاجة في شكلي عشان أبان زي العروسة البلاستيك قدام الناس وأعجبهم التصنع بيفقد الشئ جماله يا حبيب دا رأيي.

شرد حبيب طويلًا في حديثي بينما بدأتُ أتصفح الورق لأحضّر له قصيدتي التالية قائلةً :

– بص بقى القصيدة دي كتير من زمايلي حبُّوها أوي ونقلوها في كشاكيلهم كمان يعني؛ يمكن لأن كلماتها مميزة بما إنك شاعر بقى عايزاك تقول لي رأيك فيها.

ابتسم باعتزازٍ وراح يسحب نفسًا عميقًا وهو يتأملني في حالة تأهبٍ واضحةٍ لأردد:

– اسمها «ليتني أصبح انت».

وبشيء من طلاقةِ الشعراء وخجلِ الفتيات، بدأتُ ألقي أبياتي التي كتبتُها في الثانويةِ العامةِ، لتجسد حركاتُ يدي كل معانيها وأنا أردد:

ليتني يومًا أصحو
فأجدني أصبحتُ انت
أعيشُ أتنفسُ أتكلم
معك في نفسِ الوقت

لا أصبح حبيبتَك ولا شقيقتَك
لا أصبحُ شيئًا إلا انت

فاستوقفني متعجبًا يقول:

– إيه! إزاي يعني بنت تتمنى تبقى ولد مش فاهم؟!

فأجبتُه بحماسةٍ:

– ما هو دا يا حبيب أقوى وأرقى أنواع الحب الحب الروحي اللي بيخليك تتمنى تكون انت والشخص اللي بتحبه كيان واحد فتلاقي نفسك بتتوحد معاه بروحك وتحس بيه كإنك شايفه وسامعه حتى لو ما كانش حواليك مش لازم يبقى معاك كفاية إنك حاسة بروحك وشايفه في خيالك.

شرد حبيب يفكرُ بعمقٍ في هذه المعاني الغريبةِ عليه بينما استكملتُ أنا القصيدة مرددةً:

اعذر جنوني يا فاتني
لو أحببتَ حبي لتفهمت
انت السحابُ وأنا كلما
رفعتُ أجنحتي سقطت
انت الحبُّ الذي فيه
عُذبت كلمة ياليت
من وراء آلاف الأميال
أسمع خطاك أينما رحت
أشْتَمُّ قهو

فقاطعني مستنكرًا:

– إيه تشتِمي! تشتِمي مين؟

فعلقتُ ضاحكةً:

– أشتِم مين إيه! أشتَمُّ يعني أشِّم الريحة يا حبيب.

– اسمها أشِّم ما فيش أشتَمُّ دي في اللغة العربية!
– حبيب ما تعدِّلش عليا في اللغة العربية.
– لا ما فيش طبعًا!
– اللي ما فيش هو أشِّم اللي انت بتقولها دي إسمها أشُّم بالضمة على فكرة!

وتجادلنا كالعادةِ حتى استسلمت:

– خلاص هاغيرها عشانك يا حبيب!

أشُمُّ قهوتك...

لم أكمل البيت حتى ألقى كوبه أمام أنفي وهو يردد ضاحكاً :

– شِمّي القهوة أهه شميها!

كادت القهوة تنسكب على ملابسي وأنا في حالةِ هلعٍ بينما راحَ هو يضحكُ كالطفل الصغير، فحدقتُ فيه والدهشة في عينيّ مرددةً:

– حبيب كانت هتتدلق عليا والله! كانت هتتدلق!
– كملي كملي بس.

تبسمتُ مقلبةً رأسي يمنةً ويسرةً، وأنا أكادُ لا أجزمُ أيُّنا أصغر سنًا أنا أم هذا الطفل الذي سيمنحونه قريبًا بكاريليوس الطب ثم رحتُ أكمل متنهدةً:

أشّم قهوتَك أستشعرك

إن في الوحدةِ تنهدت...

وأكملتُ القصيدة لآخرها فعلّق مرددًا:

– هي حلوة بس غريبة ومش قادر أقتنع بفكرتها!
– لو فكرت فيها بعمق هتقدر تفهمها يا حبيب.

كم كان هذا الحديث الممتع قصيرًا ككلِ شيء جميل في هذه الدنيا،

حديثٌ بطعمِ القهوة وعبقِ الشعر، دقائق غير محسوبة من العمر، كانت ضحكاتُ حبيب فيها أشبهُ ما تكون بتعاويذِ سحرٍ غامضةٍ لا يمكنني فكَّ طلاسمها، أو تحليل تأثيرها الغريبِ على وجداني، أو حتى إبطال مفعول ذكراها مع مرور الزمن، لم أفهم السبب ولكنني شعرتُ بالأثر، واستأذنت منه وذهبتُ في غايةِ السعادةِ أتفحصُ نفسي في دورةِ المياه، أهندمُ ملابسي وغطاءَ شعري وأضعُ قليلًا من الحمرة استعدادًا للذهابِ إلى مبنى كليتي، ولكنني لم أذهب، فلا توجد لديّ أيّة محاضرات، حدثتني نفسي وأنا أخطو لماذا استأذنتُ منه وانصرفت؟ لماذا لا نكملُ جلستنا الشعرية لآخر النهار؟ وأعادتني أقدامي مجددًا إلى طابقِ كلية الصيدلة هكذا بسذاجة طفلةٍ في السابعةِ لا في السابعة عشر، وعُدتُ إلى سُلّم الصيدلةِ فصادفته على عتباتهِ فجأة، فابتسمتُ بارتباكٍ شديد، وعدنا نتبادل السلامَ وقد بدت عليه فرحة غريبة برؤيتي من جديد، فبدأ يحاول فتح مجالٍ للحديث، بينما بدأتُ أنا أسمع صوتًا في رأسي يناديني:

«فوقي يا ليلى فوقي بقى الله يخرب بيت غبائك! إيه اللي انتِ بتهببيه دا! خدي بعضك وارجعي كليتك حالًا!»

أفقتُ في آخر لحظة وأنا أهمسُ في نفسي ما هذا! هل أصابتني لوثةٌ عقليةٌ لأعود للحديثِ معه مجددًا، لقد استأذنتُ لتوّي، إنه شابٌ يا ليلى بماذا ستحدثه نفسه عنكِ؟! وأسرعتُ بإلقاء السلامِ عليه بتحفظٍ مريبٍ غريبٍ فبدا مستغربًا، فأكملتُ الصعود إلى الدرجِ متصنعةً المجيء لغرضٍ آخرٍ ثم عدتُ «للخلفِ دُر إلى كليتي بعدما عاد لي عقلي أخيرًا!

***

أمامَ شاشةِ التلفاز رحتُ أنصتُ في حالةِ عشقٍ روحي شديد السمو للقاءٍ أُجري مع ملهمي وفارسي الأسطوري كاظم الساهر، لم تكن أول مرة أستمع فيها لهذا اللقاء التلفزيوني، لقد حفظتُه عن ظهرِ قلب ولكنني أدمنتُه ككل ما يتعلقُ بهذا المطرب الملحن والشاعر ورسام العيون المبهر متعدد المواهب

أنا وعالم الساهر

مثلي تماما، كنتُ أجدُ في عالمه كل ما أحتاج من الحب الذي افتقدته بشدةٍ منذ انكسر قلبي على يد عمتي التي كانت لي كل شيء بعد أمي وأبي، هي من أدخلتني عالم (ديزني) بقصصِ الحب الخيالية فيه منذ كنت في الخامسة من عمري، كانت عرائس الباربي وفيديوهات الكارتون التي تحضرُها لي من كندا كل عام في زيارتها لنا في الخليج مئونتي التي أكمل بها عامي كله على ذكراها، أعُدّ الأيامَ يومًا يومًا وأحسبُها على الورق حتى ينتهي العام فأراها وأشُمُّ رائحتَها وأحتضنُها بشوقٍ جارف، ولكنني لم أعد في حاجةٍ لتذكرها منذ صارت ذكراها تؤلمني كثيرًا، فقد أصبح فناني المفضل هو عالمي الخاص الذي لا يمكن أن أتألمَ منه أبدًا، هو الحب الذي لا يجرحِ.

كانت كلماتُه العذبة عن المرأة والحب حلوة كحلوى الأطفال الملونة، نقيةً بنقاءِ رائحةِ العُشبِ في نهارٍ ممطر، راح القيصرُ يتحدث عن المرأة ككائنٍ راقٍ جميلٍ فيقول:

«أنا أستلهم من عيون حبيبتي العشق والنَفَس أوقات تكفيني بس نظرة أسرقها وأكمل بيها يومي كله المرأة هي الملهمة أجمل ما في الكون كله هي المرأة»

لتعلو ابتسامتي وتتفتحُ كالورودِ الجورية، وأمي على الأريكةِ أمامي تحتسي الشاي بالقرنفل مبتسمةً لا تملُّ، على الرغم أنها تشاهدُ لقاءً من عشراتِ اللقاءات القديمةِ المكررةِ في أرشيفي، هذا الأرشيف الذي وثقتُه بنفسي بالتواريخِ وأسماءِ البلدان، فهذا لقاءُه في أبو ظبي، وذاكَ في بيروت وهذا في القاهرة.

هنا أحرجتهُ المذيعة، وهنا سيضحكُ خجلًا حتى تتورد وجنتاه، وهنا سيقسو ذلك المذيع المستفزُ عليه في الحديثِ حتى يقاطعه، وانتهى حديثه عن المرأة والحب، وانتهت المقابلة فرحتُ أسترجع في مخيلتي حديثَ إحدى معلمات مدرستنا في الخليج حين قالت في ندوة مخصصة للطالباتِ عبارةً آذت أذني كثيرًا: «المرأة حبيبة الشيطان» كم كرهتُ هذه العبارة ولم أجد

لها أي سندٍ من السنةِ أو القرآن، لماذا يكرهُ البعض النساء؟! بل وتكره المرأةُ نفسَها أحيانًا عن جهل! لتحضرني هذه الندوة التي قالت لنا فيها أخرى: «ما في شي اسمه حب هادي الكلمة الغوها من حياتكم الغوها من قاموسكم ما في حب إلا لله وللرسول وبس ما في شي اسمه أحب هادي الأكله وما أحب هادي أحب هادي البنت وما أحب هادي كلمة الحب هادي شيلوها من راسكم تماما في شيء اسمه هدا ينفعني وهدا يضرني بس كدا» لماذا يطلبنّ منا إلغاءَ قلوبنا، هل يمكن للإنسان أن يوقفَ نبضَه، لماذا يطلبن منا المستحيل، وهل يعدُّ الحب جريمةً من الأساس؟ لماذا لا يحدثننا عن الحبِّ البريء والحبِّ المُهلك، الحب الحلال والحب الحرام، لو أنهن فعلن لكن حديثهن على الأقل منطقيًا.

كنت متفوقةً في دراستي وكنتُ الأكثرَ تفوقًا بين زميلاتي في اللغةِ العربيةِ وموادِ الدين كلها على وجه الخصوص، وكذلك أمهرهن وأعذبهم صوتًا في تلاوةِ وتجويدِ القرآن الكريم، ولكنني صرت مجرمةً في نظرِ معلماتي وزميلاتي، مجرمة لأنني أحببتُ مطربًا، رسمتُ ملامحه وامتدحتُه في أشعاري، وبسببِ هذا الحب الممنوعِ تركتُ مدرستي قبيلَ الثانويةِ العامة، نتيجةً لوشاية فتاةٍ مصريةٍ مثلي، اعتذرتُ عن رسمها بعدما أُجهدتُ من طلبات زميلاتي السريةِ لرسمهن إلى حدٍ جعلني أغلقُ الباب نهائيًا على فكرةِ رسمِ الزميلات، لتتكونَ لديها طاقة إنتقامية، فتذهبُ لتشي بي لدى مدرسةِ الفصل التي كانت مدرسةَ اللغة العربية وكانت تعتزُّ بي كثيرًا كأنجب طالباتها، وكذلك ذهبت إلى مشرفةِ التوجيه الديني «هدى» التي كانت سعوديةً من أصل مصري، فلا هي متأقلمة تمامًا مع المجتمع الخليجي ولا منسجمةٌ مع الفكر المصري، كانت «أبلة هدى» تأتينا في حصصِ الفراغ عندما تتغيبُ إحدى المعلمات، فأهربُ أنا لساعاتٍ في دورة المياه تجنبًا لحديثها الطويلِ المكرر بل والمقززِ عن قصصِ العشقِ التي تنتهي بالفتياتِ دائمًا للوقوعِ في الرذيلة ثم الهلاك، لم تكن تفقهُ شيئًا في الدين، بل ولم تكمل بعد دراستها فيه من الأساس، وتظن نفسها بهذا الأسلوبِ المقيتِ تعظُنا، كان الفضولُ يشغلُ

بال زميلاتي المراهقاتِ فيدعونها لاستكمال القصصِ الغراميةِ المترديةِ التي تسوقها إلينا لتبرهن على صدق ما تقول، ولكنها كانت بمواعظها تلك تسببُ لي إحباطًا نفسيًا عميقًا، بل واشمئزازًا شديدًا من جنس الرجال ومن الحياةِ كلها، فلا عدتُ أطيق حديثًا عن كذبةِ الحب التي يختلقها الرجال للوصول إلى الجِنس كما تقول، ولا عدتُ أطيق حتى فكرة الزواج نفسها، ولولا الساهر لصارت عقدتي مع الرجال أعمق ما تكون.

كان حديث أبلة هدى أشبه بالسُمِّ الذي يفقدني شهيتي للطعام ويسبب لي الغثيان الشديد حتى بعد عودتي إلى المنزل بساعات، ولاحظت المعلمة نفوري الدائم من حصصها لذا كان تصرفها معي الأسوأ على الإطلاق، فاقتنصتْ فرصةَ الشكوى لتُفجرَ في فتاةٍ لم تزل في الرابعة عشر من عمرها كل طاقاتِ الغضبِ المكبوتة داخلها، فساقتني إلى غرفة مكتبها ثم أوصدت الباب بالمفتاح وانهالت عليّ بالإهانات الشديدة لتجرح كرامتي، وتتهمني بالتباهي بجنسيتي الكندية، لم تدع لي فرصةً لأنطق وراحت بوجهها العبوس وصوتها الجهور تتحدثُ عن الفسقِ والمجونِ في هذا الغرب الذي

جئتُهم منه، وعن الفن والفنانين الفاسقين الماجنين ومآلهم المحتوم، بل ومآل من يستمع إليهم، حتى طرقتْ أبلة عهود مُعلمة الفصل الباب مرارًا وتكرارا، ففتحت لها أبلة هدى مغتاظةً تصرخ فراحت الأخرى تنظر إلى جسدي المرتجف ووجهي الذي غمرته الدموع لتسألها بدهشة:

– ليش قافلة الباب عليكي إيش بتسوي فيها سيبي البنت كفاية والله العظيم عصرتيها!

فردت أبلة هدى مغتاظة:

– معلش هدا موضوعي أنا ما تتدخلي فيه لو سمحتي!

وأغلقت الباب في وجهها وأدارت المفتاح ثانية، لم تستطع أبلة عهود إنقاذي من بين يدي أبلة هدى فانهالت الأخيرة عليَّ سبابًا وصراخًا جنونيًا

أبلة هدى

فلم تتركني إلا بعد ما يزيد عن الساعة وأنا في حالةِ إنهيارٍ كاملٍ في دورةِ المياه، أبكي بمرارةٍ كما لم أفعل من قبل، بالكاد أقف على أقدامي، وبالكاد أتنفس بعد كل هذا الوعيدِ والإهانةِ والسباب، لتأتي معلمةُ الفصل أبلة عهود الودودة التي كانت تبادلني الحب والتقدير في محاولةٍ لتهدأتي ولكنها وللأسف تجهزُ عليَّ بسؤالها في هذا التوقيت الجنوني دون أن تدري فتردد:

– ليلى إيش حكاية كاظم الساهر هدا صحيح تكتبين فيه أشعار تحبين مطرب يا ليلى... مطرب! انتِ يا ليلى انتِ!

فانتابتني فجأةً نوبة من ضيقِ التنفسِ لأشرعَ في التقيؤ وأفقدُ قدرتي على الكلام أو حتى التفس، فتوقفتْ عن الحديثِ فأمسكت بكتفي تقول:

– خلاص... خلاص ما تبكي ليلى اهدي... اهدي.

لم أستطع تمالك نفسي أو حتى النظر إليها، فتركتني خائفةً أتقيأ وفرت تهرول، لأعود إلى البيتِ في حالةٍ يُرثى لها فيقررُ أبي نقلي أخيرًا إلى مدرسةٍ أخرى أقل تشددًا بكثير، كان هذا القرار أفضل شيء قدمه لي أبي آنذاك، ولكنه وللأسف جاءَ متأخرًا، ليدور بيني وبين أمي حوار فتقول:

– عمرها قد إيه المدرِّسة دي؟

– داخله على الأربعين قالتلنا كدا مرة؟

– عندها ولاد؟

– لا دي ماتجوزتش لسه، دي بتتكلم عن الرجاله كإنهم حيوانات مفترسة ما بيفكروش غير في افتراس البنات بطريقة مقرفة، دي كرهتني في الدنيا والغريبة إن أصلها مصري!

– البنت دي مسكينة عندها مشكلة نفسية مش سهل على بنت سعودية من أصل مصري إنها تتجوز سواء سعودي أو حتى مصري الموضوع معقد الجواز في الخليج مرتبط باسم العيلة والقبيلة.

فصحتُ غاضبةً أقول:

– ماما انت بتبرريلها!

– لا طبعًا أنا مش بابرر يا بنتي أنا بافهمك بس الأسباب والدوافع إنما اللي هي عملته معاكي دا أنا عمري في حياتي ما هاسامحها عليه كفاية إننا بسببها بقينا نزور العيادة النفسية.

كانت تلك بدايتي مع الكوابيس لتدور بيني وبين أبي حوارات عديدة، كان من بينها سؤال سألته إياه دامعة العينين أردد:

– بابا هو المطربين والفنانين دول كلهم هيدخلوا النار؟

– ليه يا بنتي بس بتقول لي كدا؟

البنت زميلتي دي كانت بتقول لي حاجة زي كدا لما جات سيرة كاظم الساهر.

– يا بنتي ما تفكريش كدا إحنا اللي علينا نجتهد ونبعد عن الحرام إنما حساب غيرنا دا نسيبه لله؛ لأن رحمة ربنا كبيرة وما تعرفيش مين عند ربنا الأفضل.

– أيوة يا بابا بس مش جايز كاظم الساهر يدخل ال...

فقاطعني أبي بأسىً قائلاً:

– ليلى..تفتكري ليه كل سور القرآن الكريم بتبتدي بباسم الله الرحمن الرحيم ما عدا سورة واحدة؟

– ليه؟ لأن رحمة ربنا سبقت غضبه.. كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابين.. المفروض الإنسان ما يغترش بعمله ويحكم على غيره بإن مصيره النار يمكن ربنا يتقبل أعمالهم الطيبة ويمكن يتوبوا ولو في آخر عمرهم.

ربنا سبحانه وتعالى قال في سورة الزمر:(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

– خليكي في نفسِك يا بنتي ما تفكريش في حساب ربنا للبشر.. ثِقي في حاجة واحدة بس هي إن ربنا هو العدل وإن رحمته وسعت كل شيء.

هكذا بدأت حكايتي مع هذا النوع من الحب، الحب الممنوع أو المستحيل

ابنة الأستاذِ والشيخ الأزهري أنا، ولكنني أيضًا ابنة الشاعرِ عاشق الموسيقى، نعم كان أبي يتضجرُ أحيانًا من مبالغتي في حب فناني المفضل، ولا أنسى ذلك اليوم الذي ألححتُ فيه عليه كعادتي لنتعجل في شراءِ شريطِ الساهرِ الجديدِ فخاطبني بحدةٍ ونحن في متجرِ التسوق قائلًا:

– مش كدا يا بنتي ما تبقاش حياتك كلها كدا!

– مش قلت لي يا بابا إن الفن حاجة جميلة ومش حرام!

فراح يشيرُ إلى عربةِ التسوق قائلًا:

– شايفة يا بنتي عربية الشوبينج دي؟

– اه.

– هل ينفع نملاها كلها أكياس شيبس وشكولاتة؟

– لأ.

– أهي حياتنا في الدنيا دي زي عربية الشوبنج كدا بالضبط عايزة تحطي شكولاتة وشيبس حطي برضه بس املها باللي ينفعك بالعمل الصالح يا بنتي «وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا».

ولكنني أيضًا لا أنسى له أبدًا يومًا من أجمل أيام عمري، بعد تخرجي من المدرسة بشهور، يومَها كنا في القاهرة وأخذني من يدي ليذهبَ بي إلى منزل كاظم الساهر في «العجوزة» كي أعرض عليه بعضًا من قصائدي ليشدو بها، كان هذا هو حلم عمري، فاق شعوري بالفضل لأبي ساعتها كل الحدود، كان يبتسمُ لي في غايةِ السعادةِ وهو يراني أكادُ أطيرُ فرحًا مع هذا النسيمِ المحمّلِ بكل أحلامي الورديةِ من خلفِ شباك الحافلة، أراد أبي أن يوصلَ لي رسالةً وصلت لصميمِ قلبي رغمَ أننا لم نتمكن من رؤية الساهر واكتفيتا فقط بتركِ أوراق الشعرِ للبوابين وذهبنا، كان فحوى هذه الرسالة التي وصلتني من أبي يومَها في الحقيقةِ أهمَ حتى من هذا اللقاء المنشود، كان فحواها: «أحبُك وأؤمنُ بموهبتِك إلى آخر مدى».

انتهت المقابلةُ المسجلةُ لفناني المفضل وانتهيت من شرودي في الماضي

أخيرًا، ورحنا نقلّبُ بين القنوات، فشاهدنا ذلك المشهد المرير مجددًا، استشهاد الطفل محمد الدرة، الطفل الذي لم يشفع له صغر سنه ولا احتمائه في أحضانِ أبيه، فانهالت عليهما الرصاصات الغادرة من أيدي جنودِ الإحتلال الصهيوني الغاشم، كان هذا المشهد القاسي وقودًا يشعل قلبي بالغضبِ المكمود، تمامًا كما أشعل قلوبِ العرب والمسلمين جميعا، بل وحتى الشعوب الغربية تعاطفت، فرُفعت لافتاتُ صورِه في شتّى ميادينِ العالم.

***

في صَبيحة اليوم التالي التقيت سميرَ في الجامعةِ ورحنا نتحدث عن الدُّرة، وعن المقاومةِ الفلسطينية التي اندلعت في سبتمبر عام 2000 بدخول شارون إلى ساحة المسجد الأقصى في محاولةٍ لفرض الهيمنة الإسرائيلية عليه، فدار هذا الحوار بيني وبين سمير ليقول متعجبًا:

– يعني انتِ فاكرة إننا المفروض ننزل نحارب في فلسطين مثلًا عشان نحمي المسجد الأقصى، طب ما يحميه الفلسطينيين نفسهم ما هي دي بلدهم هم كل بلد المفروض تهتم بمصلحتها.

– مصلحتها!

– أيوة أنا كمصري يهمني مصلحة بلدي فين، يعني مثلا في عشرات الآلاف من المصريين بيشتغلوا في إسرائيل دول مصيرهم هيبقى إيه لو عادينا إسرائيل أو فكرنا نحاربها؟

فنظرتُ إليه باشمئزازٍ والذهولُ في عينيّ ثم صحتُ أقول:

– إيه اللي انت بتقوله دا؟! عشرات الآلاف اللي بيشتغلوا في إسرائيل هو دا اللي فارق معاك! أنا باكلمك عن المسجد الأقصى اللي في خطر والناس اللي بتستشهد عشان تحميه وانت بتكلمني عن مصير الخونه اللي بيشتغلوا هناك!

– دول مش خونة انتِ بتقول لي كدا لأنك ماتحطيتيش في نفس ظروفهم

كل انسان وليه ظروفه والفقر يعمل أكتر من كدا.

كدتُ أجنُّ وأنا أحدث نفسي كيف يفكر هذا الشاب إنه يتجاهل الأقصى وشهداء الأرضِ المقدسة، ويفكرُ فقط في هؤلاء المهاجرين إلى أرضِ العدو، واستحضرتُ حواري منذ أسابيعٍ مع حبيب حول نفس الموضوع تقريبًا، لم يكن رده ليختلف كثيرًا حين قال:

– أنا كل اللي يهمني في فلسطين إني أروح أحج هناك وخلاص.

– حتى لو هتروح بتأشيره وختم إسرائيلي؟!

فصاح مستنكرًا:

– ما يختم لي أي حد، أنا مالي أنا، إن شالله يكون العفريت الأزرق هو اللي بيختم! أنا واحد رايح يحج وخلاص، مالي أنا ومال اللي بيختم، أنا مش فاهم!

صمتُّ حينئذٍ؛ لأتمتم في سري بعجب ليس هذا الرأي المعروف للبابا شنوده وأتباعه ومحبيه فمن يتبع هذا الشاب الأرثوذكسي إذن؟! وهل هذا هو رأي فريق آخرٍ من الأقباط؟ دفعني انتمائي العروبي وفضولي الإعلامي للتساؤل تُرى أيهما أصح زيارة المقدسات لحمايتها من أيدي العدو العابثة أم مقاطعة الأرض المقدسةِ لتجنب أي شكل من أشكال التطبيع معه؟

ليظل هذا السؤال عالقًا في ذهني دون إجابةٍ واضحة، ولكن هذه اللامبالاة التي لمستُها في بعضِ الشباب المصري ظلت تحيرني وتشغل بالي حتى مررتُ بالمصادفةِ في كليتي بمجموعةِ فتياتٍ مختمراتٍ يكدن يظهرهن بمظهرٍ وشكلٍ موحدٍ تقريبًا، كنّ يتحدثن عن المقاومةِ الفلسطينية، وعن صورِ استشهاد الأطفالِ والشبابِ بأسىً شديد وأخيرًا وجدتُ من يفكرُ مثلي، فرحتُ أشتركُ في الحوار معهن، وأبديت تعاطفي وألمي لما يجري، فراحت إحداهن ترمقُني بنظرةِ اندهاشٍ واستنكارٍ قائلة:

– إيه اللي في إيدك دا يا ليلى!

وأشارت إلى المشروب الغازي في يدي ثم أكملت تقول:

- انتِ إزاي مش مقاطعة؟! المفروض تقاطعي كل المنتجات الأمريكية!

شعرتُ بالحرجِ الشديدِ ورحتُ أبررُ عدمَ مقاطعتي بزياراتِنا السنويةُ الضرورية لأقاربنا في أمريكا وكندا فتواجدنا هناك تجعل من مقاطعتِنا للمنتجاتِ الأمريكية أمرًا مستحيلا، ولكن حديثي لم يقنع أيا منهن، بل راحت إحداهن تقول بحدة:

- دا مش مبرر انتِ كدا بتساعديهم على فكرة وبعدين دا أصلا فيه دهن خنزير.

- دهن خنزير! لا هو ممكن يكون مضر بالصحة بس دهن خنزير دي بصراحة أنا مش مقتنعه بيها خالص وبعدين ما همَّا مطلعين على مشروب الشعير إن فيه خمرة والتاني بيقولوا بيدعم إسرائيل، طب نشرب إيه يعني!

- أيوة اشربي ميه ولا اشربي عصير ما تشربيش حاجة من الحاجات دي، انتِ كدا تبقي مشاركة معاهم وبتساهمي في قتل طفل فلسطيني بفلوس المشروب اللي في إيدك دا!

تضامنَ الكلُ معها بشدة، وانصرفتُ وأنا في حالةِ صدمةٍ وإحساسٍ بالذنب، كنتُ أظن نفسي عروبيةً إلى النخاع، ولكنني في الحقيقة بالنسبةِ إلى البعض خائنةً تدعمُ الصهاينة، وتشربُ من دماء الفلسطينيين، لتصيبني حالة من التخبط الفكري فجأة ما هذا الذي أراه من حولي البعضُ لا يبالي إلا بما يخصه، والآخر على النقيض يفرض آراءه ويخوّنُ من يعارضه كم أنتَ مُحيّر يا وطني!

***

في صبيحة يوم جديدٍ وقفتُ أمامَ شُبّاك غرفةِ المحاضرات، كانت هذه المرة الأولى التي ألاحظُ فيها وقوف حبيب مع أصدقائه بالأسفلِ في ساحةِ كليتنا، كان يضحكُ كعادتِه ويسامرُ أصدقاءه، كانت لفتاته مميزة، ووقفته ذاتَ طابعٍ خاص، لتلمع تلك البسمةُ في شفاهي وأنا استحضرُ حديثنا

المميز، حديث الشعر والقهوة، كم كان هذا الحديث بريئًا بسيطًا ولكنه لا يُنسى.

***

ومر يومان لأصادف حبيب مجددًا، فألقيتُ عليه السلام ورددتُ بعفوية:

– فاضي يا حبيب نتكلم شوية؟

صمتَ حبيب لبرهةٍ ليدير كلٌّ منا رأسه للآخر ببطءٍ في توجسٍ وخيفةٍ، فرأيتُ في عينيه نظرةَ استغرابٍ وألمٍ لم أفهمها كأنما تكاد عيناه تهمسان لي:

«مالك ومالي بس؟ إيه حكايتها البنت دي!»

في حين بادلتُه أنا نظرته بنظرةِ استغرابٍ تماثلها هامسة في سري:

«هو ماله بيبص لي المرة دي كدا ليه غير المرة اللي فاتت خالص؟! هو أنا قلت حاجه غلط! مش إحنا صحاب! غريب فعلا!»

وأشاح كل منا نظره عن الآخر فأسرعتُ أقول:

– شكلك مشغول طيب أنا رايحة بقى نبقى نتكلم بعد...

فقاطعني قائلًا:

– لا مش مشغول خليكي.

ولكنني كررتُ المحاولة للفرار مرددةً:

– لا عادي مش مشكلة نتكلم وقت تاني.

فبدا صوته حادًا خشنًا وهو يكرر بإصرارٍ:

– لا قلت لك مش مشغول خليكي!

شعرتُ بنفسي فجأةً كمن ألقي القبض عليه ولا ملاذ له للهرب، فرحتُ أتمتمُ في سري: «يعني كان لازم تنسحبي من لسانك وتقوليله فاضي نتكلم!» في حين راح حبيب يتفقدُ شيئًا ما من حوله، ليزداد الأمرُ غموضًا حتى

وجده، وجد ضالته أخيرًا، إنها روان صديقته.

كانت روان بمثابةِ مفتاح فك الشفراتِ والألغاز بيني وبين حبيب، ولكنني لم أكن لأفهم هذا إلا في نهايةِ المطاف، وراح يقول لي وعلى وجهه معالم الجدية:

– هاعرفك على بنت من نفس كليتك هتحبيها أوي وهاجي تاني هأخلص حاجه كدا بس وجاي بعد شوية.

وبالفعل قدمَ كلًا منا للأخرى باهتمام:

– روان محمود.

– ليلى العربي.

تبسمتْ لي روان وأنا أبادلها التحية، كانت فتاةً جذابةً أنيقةً ذات شعرٍ ذهبي مموجٍ وعينين بنيتين واسعتين فيهما حيرةٌ غريبة، اكتشفتُ أنها من نفسِ دفعتي ولكنني لم ألاحظها من قبل، لم تمر دقائق حتى انزوى بها حبيب ليهامسها باهتمام وكأنه يطلبُ منها شيئًا بعينه، فراحت تنصتُ إليه لبرهةٍ ثم تحدثه حائرةً لبرهةٍ أخرى بينما أجلسُ أنا وحدي ولا أفهم شيئًا كعادتي معه، ولكنني أعرف جيدًا أنني أمام شابٍ غريبٍ في كل أحواله فما الجديد! إنها فرصتي للتعرفِ على فتاة جديدة ومن دفعتي، فالأقتنص الفرصة إذن فربما تصير «أنتيمتي» المنشودة كما يقولون.

ومضى حبيب إلى كلية الصيدلةِ بخطواتٍ متسارعةٍ لأتساءلَ في نفسي ماذا يصنع هذا الفتى في كلية الصيدلة، لماذا كل هذا الاهتمام بكلية الصيدلةِ بينما ينتمي هو لكلية الطب من الأساس! كان الغموض يزدادُ يومًا بعد يوم حول كلِّ تصرفاته، ولكن حوارًا شيقًا بيني وبين روان قد بدأ يجتذبني ليشغلَ فكري عن أي شيء آخر، فبعد الحوار التعارفي المعتادِ راحت روان تسألني:

– قولي لي إيه رأيك في حبيب؟

– حبيب قصدك رأيي فيه كصديق يعني؟

– أيوة.

استغربتُ سؤالها فتساءلتُ في نفسي أتكون هذه الفتاةُ فضوليةً مثلي وتحبُّ التمعنَّ في اكتشاف الشخصيات من حولِها رائع إذن! فالأفتح لها قلبي علَّنا نصبحُ صديقتين مقربتين وبالفعل أجبتها:

– حبيب شخصية مميزة جدًا تحبي تتكلمي معاه مختلف عن أي حد ممكن تصادفيه.

– مختلف في إيه؟

– يعني في كل حاجة هو يشبه لصاحبتي الانتِم ندى في كل حاجة مش في الشكل لا قصدي في الشخصية.

– ندى مين؟

حدثتها بإيجازٍ عن ندى وتعلقي بها ثم أكملتُ أقول:

– أهو حبيب بقى بالضبط زي ندى في كل حاجة، أنا بتشدني الشخصيات دي أوي اللي طول الوقت بيهزروا ويضحكوا حتى على نفسهم ومصاحبين طوب الأرض وتلاقي كلامهم نصه شعبي والنص التاني شبابي بيبقى عندهم قاموس مصطلحات كدا غريب، أوقات حتى مش بافهمه بس بحبه يعني تحسيهم مصريين منقوعين في تراب مصر كدا، بس للأسف بقى هو ولد مش بنت عارفه لو كان بنت كان زماننا بقينا صحاب أنتيم!

وتوقعتُ أنها ستتبسم معي لعبارتي الأخيرة ولكنني على العكس لمحتُ حزنًا غريبًا في عينيها، فأفقتُ من شرودي وقد اكتشفتُ أنني استرسلتُ في حديثي عنه بلا داعٍ في حين أنها لم تنطق ببنت شفةٍ وبقيتْ تنصتُ لي باهتمامٍ وتأمل مريبٍ، فصمتُ لبرهة فقالت:

– آه ها كملي...

فرحتُ أقول:

– انت ما كلمتنيش عن نفسك أنا كنت حابه نتعرف على بعض أكتر كلميني عن نفسك انتِ منين في مصر وعمرك قد إيه؟ وكل حاجة عنك.

تحدثت روان عن نفسِها باقتضابٍ شديد وما لبثت أن عادت تسألني عن حبيب مجددًا فقاطعتها أقول:

– إحنا اتكلمنا عن حبيب كتير خلينا نتكلم عنك انتِ أنا حابة أتعرف عليكي ونبقى صحاب.

– آه طبعا يشرفني أكيد.

بهذا ظننتُ أنني على مشارفِ صداقةٍ جديدةٍ بفتاةٍ جديدةٍ أخيرًا، ولكنني لم أكن أدرك وأنا أدوّنُ رقم هاتفها بفرحةٍ أن روان في الحقيقة نادرًا ما تأتي إلى الجامعة أساسًا، وغالبًا ما يكون لحضورِ الامتحانات فقط.

مضت الدقائق حتى عاد إلينا حبيب من كلية الصيدلة، فبدأتْ روان الهادئة تخرجُ فجأةً عن وقارها ليعلو صوتها بيننا مرددةً بأداءٍ عجيب:

– ليلى مش أنا وحبيب بنحب بعض!

تفاجئتُ ثم قلت:

– إيه إزاي!

– زي ما باقول لك.

– وبعدين!

– ما فيش عايزين نتجوز بس بقالنا مدة بقى محتارين نتجوز فين في الجامع ولا في الكنيسة.

بدا الامتعاضُ جليًا على وجه حبيب، بينما همستُ في نفسي أردد: «يعني أنت ضارب وقُلنا ماشي إنما معارفك كمان ضاربين زيك يلاّ وماله خلينا نضحك شوية!»

ولكن أثرًا للمزاح لم يبدُ على وجهيهما، بل على العكسِ بدا لي حبيب منزعجًا بوضوحٍ من حديثها فسألتها:

– وبعدين!

فأجابتني بأسلوبٍ طفوليّ وكأنها تحكي لي حكايةَ بياضِ الثلجِ والأقزامِ:

– ما فيش بقى قعدنا نفكر هنعمل الفرح فين نعمله فين وفي الآخر قررنا نعمله في منطقة وسط بين المسجد والكنيسة هنعمل إيه بقى!

وهنا لم أستطع أنا منعَ نفسي من الضحكِ وأنا أنظر إليها وهي لا تزال تتحدثُ كالمعتوهةِ بينما يزدادُ وجه حبيب عبوسا وامتعاضًا فحدثتُ نفسي مرددة يا لها من قصة بلهاء ونهاية أبله! إنها طريقة جديدة في المزاح إذن! وقررتُ أن أشاركهما المزاحَ فاستوقفتها عن الحديث فنظرت لي فأشرتُ إليها بعلامةِ الذبحِ وأومأتُ بيدي لألمحَ لها عن هذا المصيرِ المأساوي المحتومِ الذي ينتظرهما، ولكن روان لم تضحكْ قط بل بدا عليها الاضطرابُ فأردفتُ أقول:

– وإن شاء الله بقى نروح نبارك لكم في المقابر!

قلتُها مقهقهةً بينما بدا عليها الارتباك وهي تدير رأسها إليه في توجسٍ فالتفتُ إليه فإذا به وقد تملكه الغيظُ والغضبُ مني، كدتُ أجن من كل هذا الغموض، ولكنني ودعتهما أخيرًا ثم انصرفتُ وأنا أكاد أجزمُ أنني أمام معتوهين لا محالة «اتلم المتعوس على خايب الرجاء يا ربي هو ما فيش حد في الجامعة دي بعقله أبدًا!» بهذا رحتُ أتمتم ضاحكة.

لم أكن أدرك أن لقائي بروان لم يكن على سبيل الصدفة، ولا من بابِ التعارف كما عرّفت أنا حبيب بسمير من قبل مثلًا، وإنما كان طُعمًا مجهزًا لي، فقد كانت روان بمثابةِ عدسةٍ مكبرةٍ استخدمها حبيب ليقرأَ بها كل ما يدورُ في خُلدي، لتأتي ردة فعله فيما بعد شديدةَ الغرابة.

***

بدأ إعجاب أخي بعايدة يزداد يومًا بعد يوم، وقدمني لها وهو في غايةِ الفرحة، كانت عايدة حوراء خمريةً جميلةَ الملامح، محجبةً خجولة، وبدا عليها التحفظُ فلم تُبدِ رغبةً قويةً في التعارفِ عليَّ، ولكنني فرحتُ لأخي وبخاصةٍ وأنا أسمعُ رجفةَ اللهفةِ في صوتِه على الهاتفِ وهو يحدث أبي عنها، لم أكن لأصدق يوسف يقع في الحب أخيرًا! هذا الفتى الخجول، الذي

لطالما سخر مني ومن كلمات نزار التي أحفظها غيبًا، وأغاني كاظم لطالما ملّ تكرارها رغم إعجابه ببعضها ها هو الآن يقع أسيرًا للحبِّ إذن، ياللك من فتاةٍ ساحرةٍ يا عايدة، ضئيلة البنبية ولكن جبارة التأثير! وشردتُ ببسمةٍ من أمل.

***

في الجامعة وعلى سلالمِ كلية الصيدلةِ جلستُ مع أنجيل وكرستين كعادتي، فانضم إلينا حبيبُ بعد قليل وقد بدا متغيرًا لكنني لم أعبأ، ورحتُ كالعادةِ ألقي عليهم إحدى قصائدي الجديدة مرددة:

يقولون أنك المستحيل
ووجهك حلمٌ جميل
وأن تتبعَ سحرك
كالخطوِ في مجرى النيل
فمتى ينبؤني القدر
عن صحةِ تلك الأقاويل

استرعت الأبياتُ انتباهَ حبيب فأنصتَ إليَّ باهتمامٍ وقد بدا عليه الفضول الشديد، فأكملت حتى بات واضحًا من سياق الأبياتِ أنها في مطربي المفضل، فاندفع حبيبُ في الهجومِ على القصيدة كأن فيها كلِّ أخطاء الدنيا صياغةً ومعنًى، بدا لي أول الأمر يغار من موهبتي ولكنني بارتباكٍ وإحباطٍ شديدين تجاوزت عصبيته غير المبررة، ورحتُ أتحدث في موضوعٍ آخرٍ مرددة:

– أجمل حاجه في المجتمع المصري وسطيته لا هو متشدد ولا هو في نفس الوقت متحرر زي الغرب أنا ضد التشدد بكل أشكاله بس كمان ضد التحرر اللي برا عشان كدا اخترت آجي مصر عشان...

فقاطعني حبيب فجأةً صائحًا:

– أنا باكره الناس اللي بتعيش في بلد وتروح تشتم فيها، تاكل من خيرها

وبعدين تتكلم عليها دا اسمه نكران للجميل على فكرة انتِ عاملة زي القطط بتاكلي وتنكري!

علا صوتُه في جملتِه الأخيرةِ وكأن لسان حاله يقول: «حلِّي عن سمانا بقى!»

فنظرتُ إليهُ وقد تجلّى في عينيّ أثرُ الصدمةِ لأكرر بصوتٍ مرتعشٍ تغمرهُ مرارةُ الألم:

– زي القطط بآكل وبانكر!

فصاحَ في وجهي كالنمر الشرس:

– أيوة!

فابتلعتُ ريقي والتفتُّ أنتظرُ أي ردةِ فعلٍ من صديقتَيّ فلم أرَ أيّ ردٍ منهما لتزداد خيبتي عمقًا، فأمسكتُ بدفتر أشعاري لأدسُّه في حقيبتي في صمتٍ وحسرة، وذهبتُ مكتفيةً بترديد السلام.

ضربةُ خنجرٍ تأتيك من عزيزٍ دائمًا ما تكون أقسى من كل السهامِ شعرتُ بالظلم منهم جميعًا، لم تجرأ إحداهما على الدفاع عني ولو بكلمةٍ في مواجهة هذا التنمرِ الواضح، تركوني وحيدةً أعود إلى كليتي بقلبٍ منكسرٍ لأسترجعَ شريط الذكريات علّي أفهم شيئًا جلسةُ الشعر والقهوة وضحكاتِه المفعمة بالسعادة ثم روان وحديثها الغريب المريب يكاد عقلي يتوقف عن العمل فيما أخطأت في حقه ليتصيدَ لي الأخطاء وينفجر في وجهي بالصياح هكذا! لماذا يكرهني هذا الشاب إلى هذا الحد لماذا؟!

راحَ الوجع يعتصر قلبي لأقررَ أخيرًا أن أطوي صفحةَ حبيب إلى غير رجعةٍ سأفعلُ كل شيء ممكن سأغيرُ كل أصدقائي سأنسحبُ من شلةِ الأقباط التي نصّب نفسه قائدًا فيها سأقومُ بكل شيء وأي شيء حتى لا أضطرَ للحديث مع هذا المتغطرسِ الغبي مجددًا بهذا هامستُ نفسي وأنا في الطريق حتى قطعَ صوتُ سمير شرودي سائلًا:

– مالك يا ليلى؟

– ما فيش.

– لا في حاجة طبعًا شكلك على آخرك!

تنهدتُ بعمقٍ ومرارةٍ فقال:

– تعالي نتكلم في الركن هناك عشان تحكي لي، شكل الموضوع صعب أوي!

ومضينا نجلس في زاويةٍ بإحدى أركان الجامعة لأردد والألم يفوح مني:

– سمير انت وعدتني قبل كدا تعرفني على صاحبة بدل ندى صح؟

نظر سمير إلي متعجبًا يقول:

– وإيه اللي فكرك بدا دلوقت؟

بمرارةٍ شديدةٍ رحتُ أسأله:

– سمير أرجوك جاوبني لاقيت لي واحدة كويسة أقعد معاها؟

ليجيبني بعد برهة:

– لأ.

فانفجرتُ باكيةً كالطفلةِ ورحتُ أغطي وجهي بأصابعي فصُدم سمير ونظر إليّ يقول:

– انت بتعيطي! بتعيطي كدا ليه؟! ليلى... ليلى ردي عليّ مالك!

استجمعتُ أنفاسي وأجبته بصوتٍ مختنقٍ بالعبراتِ قائلة:

– عشان عمري ما هيبقى ليا صحاب حقيقيين يحبوني بجد أبدا حتى في بلدي!

واسترسلتُ في بكائي بينما راح سمير يطلبُ مني طلبًا لا علاقةَ له بالموضوعِ:

– ليلى أنا عايزة أسألك سؤال وتجاوبيني عليه بصراحة ممكن؟

فرددتُ بصوتٍ متحشرجٍ:

– سؤال إيه!

– هو انتِ بجد بتتكلمي معايا عشان أعرّفِك على صاحبة؟

سكتُّ لبرهةٍ فألح بالسؤال فأجبتُه في لحظةِ اندفاعٍ دون تفكيرٍ:

– أيوة!

لقد سيطرَ البكاءُ والحزنُ عليَّ في هذه اللحظةِ حتى أفقدتني قدرتي على التفكيرِ فيما أقول، أو حتى في ردةِ فعلِ من يسمع، فراح يقول لي في دهشةٍ مصدومًا:

– لا أنا مش مصدق احلفي يا ليلى إنك بتتكلمي معايا بس عشان كدا!

– والله باكلمك عشان كدا خلاص ارتحت!

كانت إجابتي التلقائيةُ المندفعةُ بمثابةِ طعنةٍ قاسيةٍ على قلبِه، طعنة لم أقصدها ولكنها وللأسف مزقته لأعود للبكاءِ مجددًا وقد استسلم للصمتِ لبرهةٍ فنظرتُ إليه لأجد الدموع قد غمرت وجهَه، فاشتدَّ ألمي وقد أدركتُ أنني تصرفتُ بحماقةٍ شديدة دون وعي فرحتُ أسأله عن سبب بكائه متلعثمةً:

– انت بتعيط... بتعيط ليه؟! سمير... طب أنا... أنا باعيط عشان صحابي وانت... طب انت بتعيط ليه؟ سمير رد عليا... سمير قول حاجة... سمير!

أجهش سمير ببكاءٍ متواصل في صمت، مشيحًا بوجهه عني، فعقد الحرج لساني، ولم أدرِ ماذا أقول، لم أقوَ حتى على الاعتذار فمضيت، وقد أدركتُ أنني في جراحي هذه جرحتُ قلبًا آخرَ بغباءٍ دون وعي، لقد تعلق سمير بي بينما تصورته يراني صديقةً عاديةً أو أقلَّ من عادية، لتكونَ هذه هي النهاية الحقيقية لصداقتي بسمير، آخرِ من تبقى لي من أصدقاء في هذه الجامعة، ليزيدَ إحساسي بالذنبِ من تخبُطي فيصبحُ الأمر أكثرَ تعقيدًا.

***

وبدأت إجازةُ منتصفِ العام، حتى نعودَ لأبي وللخليج مجددًا، ولهذا المنزل الذي لطالما رأيتُه حبسًا انفراديًا، لا زوار يأتوننا، ولا نزورُ نحن أحدًا، ولا أجد واحدةً من زميلاتي القدامى في المدرسة تجيبُ اتصالاتي المتكررة، تذكرتُ هدير ابنة جارتنا المصريةِ التي كانت تأتي للخليج في زيارات سنويةٍ وكنا نسترقُ الدقائق والسويعاتِ لنجلسَ ها هنا على السلالم، فعَيْب على فتاة مثلي أن تتطفل على حياةِ الناس، كان هذا هو رأيُ أبي الدائمَ ولكنه لم يكن ليمانعَ أبدًا في حضورها لمنزلنا بينما كان لأمي الموانعَ، فبيتنا غير مجهزٍ لاستقبالِ الضيوف وقد كانت محقّة، فهو في الحقيقة مخزنٌ نسميه بيتًا على سبيلِ المجازِ فقط، وليس في هذا البيتِ من تسليةٍ سوى أخبار كوارثِ العالمِ التي تُطلُّ علينا من شاشةِ قناةِ الجزيرةِ ليل نهار! وبعضِ المسلسلاتِ المصرية متناهيةِ القدم هنا وهناك، ولا يسعفني من كل هذه الأجواءِ سوى صوتٍ كاظم الساهر المتردد في صومعتي الصغيرة.

كانت هذه الإجازةُ بالنسبةِ إلي فترةً أحاولُ استعادة نفسي فيها، لأغتسلَ من كل أخطائي، وأعود أفكر كيف أغيّرُ مساري، وأخطط لاستكمالِ رحلة البحث عن أصدقاءٍ بنجاحٍ علّي أجد صديقة مثلي، تحبني وتفهمني، تبالي بأوجاعي وتدافعُ عني وتفرحُ معي أيضا، فأنا لا أحتاج شِلّةً أصحابٍ بقائدٍ متغطرس يفرضُ سيطرته على الجميع، تكفيني صديقةٌ واحدة، وأكثر ما يشغلني الآن أن أنأى بنفسي عن الحديث مع هذا المستفزّ بأي شكل!

«تغيير الأصدقاء» دونتها في أجندتي مرددةً: «هاسيب لك الشلة كلها يا حبيب اشبع بيها هاسلّم عليهم من بعيد من باب الزوق على الله أرتاح من وشّك بقى» بهذا تمتمتُ في سري، ليقطعَ حبلَ أفكاري صوتُ أمي وهي تقول لأبي:

– يا فريد انت مستعجل على إيه بس؟! دا الولد لسه رايح تالته جامعة هنخطب له من دلوقتي! مش لما الأول حتى نشوف البنت ونتعرف على أهلها؟!

ليرد أبي بلهفة قائلا:

– أنا كلمتها يا رقية البنت طيبة وواضح إنها بنت ناس طيبين والولد حبها يبقى خير البر عاجله انتِ إيه مشكلتك بس مش فاهم؟!

راحت أمي تقول والدهشة تسيطر عليها:

– أنا ما قولتش حاجة، انت اللي مستعجل وعايز تخطبها له في التليفون هو في حد في الدنيا بيعمل كدا! دا حتى أهلها يستغربوا مش تستنى لما ننزل مصر وتيجي زيارة وبعدين ساعتها...

فقاطعها أبي بحدةٍ قائلًا:

– الولد بيحبها أكسر بخاطره يعني!

– طيب يا سيدي وماله بس أنا مش فاهمه انت عامل كدا ليه؟

– أنا بحط نفسي مكانه، أنا لو مكانه هأبقى ملهوف على الجواز، ولد وحب زميلته دا حقه.

كانت هذه هي أول مرة أسمعُ فيها أبي يتحدث عن الحب الحبُّ الذي كان سببًا في صبِّ جمِّ اللعنات على عمتي، الحبُّ الذي كان من الممنوعاتِ في عُرف بيتنا، نستمع لأغانيه وأشعارِهِ ولكن أحدًا لا يجرأ على التلفظ به، تربينا في البيتِ على أن الحب «عيب»، عيبٌ ووهمٌ يضحكونَ به على عقولِ المراهقات، وتربينا في المدرسةِ على أنَّه الحرام بعينِه، هو طُعمٌ يحضرهُ الرجال للنساءِ البلهى، ما كل هذا التعاطفِ إذن مع فتاةٍ بادرت وباحت بمكنونِ مشاعرِها لشابٍ غريب؟! تُرى هل سيتعاطفُ أبي أو أخي بهذه الطريقةِ معي إن أحببتُ أنا أيضًا شابًا يناسبني؟ أو جئتُ أروي لهم عن شابٍ أحبني ويريد خِطبتي؟ هل سيتقبلُ أخي الأمر نفسه معي؟

لم تكن غيرةً من أخي ولا من عايدة وإنما فقط كان إحساسًا جديدًا يضافُ إلى إحساسي الدائم بازدواجية المعاييرِ بين الذكرِ والأنثى في مجتمعاتنا العربية.

رحتُ أقلّبُ سريعًا بين القنواتِ فيه كعادتي بحثًا عن أغنيةٍ هنا أو حفلة هناك لمطربي المفضل، حتى استوقفني صوتُ أخي قائلًا بلهفةٍ:

– استني وقفي كدا رجعي اللي فاتت.

فعدتُ للقناةِ الأخيرةِ أردد في ضَجَر:

– في إيه يا يوسف! عادي فيلم أكشن، طيارة دخلت في برج فيها إيه يعني؟ ما تسيبك من الأفلام الأمريكية اللي مجنناك دي!

وعدتُ أنظرُ إلى وجهه فإذا به يحدق في التلفاز مفتوح الفمِ شاخص العينينِ مرعوبًا، فرفعتُ صوت التلفاز ونظرتُ إلى شعارِ القناة، إنها قناة الجزيرةِ الإخبارية ثم جاء صوت المذيعة يقول:

«إذن مشاهدينا.. نكرر لكم ما جرى منذ دقائق اصطدمت طائرة من طراز (Boeing 767) تابعة لشركة: (American Air Lines) ببرج من برجي مركز التجارة العالمي، ثم تلتها طائرة أخرى من طراز (Boeing 737) لتصطدم بجناح البرج الثاني للمركز وأحدثت على الفور انفجارًا ضخمًا فيه، والعالم الآن في حالة ذعرٍ وترقب.

تجمدت ملامحي وبدأتُ أدخلُ في حالةٍ من الصدمةِ تماماً كأخي بينما صاح هو ينادي بأعلى صوته:

«بابا ماما تعالوا شوفوا اللي حصل!»

إنه الحادي عشر من سبتمبر عام 2001، يوم لا ينسى انتابنا قدرٌ هائلٌ فيه الرعب والقلق، وأمضينا الليلةَ في محاولاتٍ جاهدةٍ للاتصال بكل أقاربنا في أمريكا، وكندا وأولهم عمتي التي جاء صوتها حزينًا مضطربًا، ولكنها طمأنتنا، لم يكن من أحد ليعلم وقتها من المسؤول عما جرى، ولكن العالم كله كان يدرك أنها جريمةً إنسانيةً من أبشع الجرائم، ورحتُ أفكر من هذا الذي تجرد من كل معالم الإنسانيةِ والإيمان ليفعل ما فعل، ومن يجرأ من الأساس على تحدي أمريكا، القوة العظمى على الأرض، ردد أبي

معلقا على الفور:

– ربنا يستر وما يلزقوهاش في المسلمين.

فهتفت أمي:

– استرها يا رب على اللي هناك!

***

وعدنا إلى مصر وإلى الجامعةِ لأبدأ بدايةً جديدة بأملٍ وحيوية، ولكن قلبي لم يزل يعتصرُ ألمًا كلما رأيتُ حبيب عن بُعد، لأستشعرَ مرارة الظُلم الذي تركه في نفسي، إنني أكره هذا الشاب بهذا فسرَتُ هذه الغُصّة التي تجتاح مشاعري كلما رأيتُه، لقد ارتحتُ أخيرًا من جداله المستمر وسخريته، ولكن لماذا يبدو الكُره مؤلمًا إلى هذا الحد؟! سؤال لم أجد له من إجابة.

وأخيرًا أهدتني الأقدار بعد عناءٍ صديقةً جديدةً تهوى البقاءَ لبعض الوقت في الجامعة تمامًا كما تمنيت، إنها «لاميا» فتاة فلسطينية، ممتلئة الجسمِ، بيضاء البشرةِ، حوراء العينين، ذات شعرٍ أسود طويلٍ ناعم، تخفي نصفَه تحت طرحتها وتترك الآخر منسدلًا على ظهرها كنهرٍ منهمر، لم تكن لاميا بجمالها الملفتِ محجبةً بالمعنى الحقيقي، استغربتها ولكنني لم أشعر بالغيرةِ منها فلم تكن تفوقني جمالًا وإنما اتسمت بالنعومةِ أمام الجنس الخشن على العكس مني تمامًا، ولكن بقيت ضحكتها الطفوليةُ أكثر شيء يشبهني فيها، ولم تمض بنا سوى أيام حتى وجدتني أصيح فيها قائلةً:

– إيه خرجتوا إيه!

– خرجت معه عادي ما صار شي عزمني على كابتشينو في كافيه برا؟

– سمير عزمك على كابتشينو برا! وإيه اللي يخرجك مع شاب أصلا ما تشربيه في الجامعة الكابتشينو دا.. دا أنا يا دوبك عرفتك عليه من كام يوم إزاي تديله نمرتك يكلمك وإزاي أصلًا تخرجي مع شاب غريب برا الجامعة

انتِ مجنونة!

– عادي شو صار يعني ما صار شي.

– وبعدين إيه اللي حصل؟

– ما في شي قال لي: «انتِ جميلة أوي وريني شعرك كدا» ولما شيلت الطرحة قال لي: «شعرك حلو أوي يا لاميا».

– شعرك حلو أوي يا لاميا! انت مجنونة يا بِت انتِ! انتِ المفروض محجبة!

– لا أنا رابطة شعري بهاي الطرحة بس حتى ما أزعل أخي أنا ماني محجبة أساسًا.

كدتُ أجن من برودها وتنهدتُ مرددة:

– ما تخرجيش مع شاب تاني يا لاميا، عيب أوي.. ممكن يفتكروك بنت مش محترمة ما عدتيش تعملي كدا ممكن؟

– طيب.

ومضى الأمر، وانتهت صلتها بسمير، وكأن سمير أراد أن يبعث إليَّ برسالةٍ ما بما فعل، ولكن الأمر في الحقيقة لم يكن ليشغلني كثيرًا.

***

يوم 30 أكتوبر (2001) ميلاديًا، كان يومًا صعبًا على الجميع، حصريًا على شاشة قناة الجزيرة استمعنا لأول مرةٍ لشريطٍ لزعيمِ تنظيم القاعدةِ: «أسامة بن لادن» يُقحِم فيه الأحاديث النبوية والآيات القرآنية في خطابٍ دموي يعلنُ فيه عن تبنّيه هجماتِ الحادي عشر من سبتمبر، لم أستطع تحمل ما أرى، وشعرتُ بالدم يغلي في عروقي، هل يمكن للتشددِ أن يصبح تطرفًا إجراميًا يعادي كل قيمِ الدين التي تربينا عليها، كاد هذا السؤال يشُلُّ عقلي بينما ارتسمت معالمُ الحسرة على وجه أمي وهي تقول:

– دي غلطة كبيرة أوي من قناة الجزيرة كانت المفروض ما تذيعش الفيديو دا.

فعلقتُ غاضبة:

– ماما هي صحيح الجزيرة معيشانا في نكد الكوارث اللي بتنقلها لنا ليل ونهار بس يعني تفتكري لو ما كانوش ذاعوه ما كانش غيرهم هيذيعه؟! مش هي دي وظيفة الإعلام إنه ينقل اللي بيحصل بحيادية.

– لا هم كدا عشان يعملوا سبق صحفي بيضروا بسمعة الإسلام والمسلمين أنا مش مصدقة إنه هو اللي عمل كدا، ما فيش مسلم أبدًا يعمل كدا، هو بيتبنى الهجوم دا بس عشان يتحدى أمريكا قدام العالم عشان دعمها لإسرائيل وحصارها للعراق.

فصحتُ أردد:

– ماما أبوس إيدك ارحميني! دا إحنا لسه سامعينه بودانّا دول وهو بيعلن مسؤوليته عن اللي حصل وانتِ لحد دلوقتي لسه مش مصدقة! انتِ هتجننيني يا ماما!

***

في أحد طوابير دفعِ المصروفات رأيتُ عايده عن بعدٍ وقد اصطدم بها أحد الشباب دون قصد، فأسرع يوسف يتشاجر معه ويصيحُ في وجهه غاضبًا، فنظرت عايدة إلى أخي غاضبةً ثم هامسته لتطلب منه الانصراف، فانصرف مصدومًا ليدور بينهما حوارٌ آخرٌ، عاد أخي بعده إلى المنزلِ شاحب الوجه شاردًا حزينًا، فسألته أمي بأسى:

– قالت لك كدا؟ قالت لك كل شيء قسمة ونصيب؟!

أجابها منكسرًا وبحّة الوجعِ في صوتِه:

– أيوة قالت لي إنها كانت مرتبطة بواحد بقالها سنين وأهلها عارفينه وحصل بينهم خلاف كبير وبعدين...

ابتلع أخي ريقَه بمرارةٍ ثم أكمل يقول:

– وبعدين رجعوا لبعض إمبارح وراحت قايلة لي: «معلش كل شيء قسمة ونصيب».

تنهدتْ أمي بعمقٍ وقد غمرَ الحزنُ قلبها وهي ترى ابنها الوحيدَ مصدومًا موجوعًا بلا أي ذنبٍ اقترفه، كان أخي بالنسبة إلى عايدة محاولةً للهروب وفرصة للانتقام من حبيب العمر الذي جرحها، كانت تستمتعُ بهذا الانتقام بينما كان يوسف يحلمُ بمحبس الخطوبةِ لأول مرة في حياته، كسرتْ عايدة هذا القلب البكريِّ وتركته وحده يواجه مصيرَه، ليسترجعَ في ألم كل لحظةٍ فرحٍ جمعتهما، وكل كلمة حبٍ دارت بينهما، وكل ضحكةٍ تبادلاها عبر شاشةِ الكمبيوتر، استشعرتُ ذلك الوجعَ وتلك الحسرة المتسللة من صوتِ أخي وهو يهمسُ لأمي قائلًا:

– يعني خلاص يا ماما هي كل دا كانت بتلعب بيّا، بتضحك عليَّ ما كانتش بتحبني مش كدا؟

نظرت أمي إلى أخي بحزنٍ تردد:

– يا حبيبي ربنا يعوض عليك هي ما تستاهلكش، شوف كنا هنروح نخطبها وأبوك كان هينزل أجازه مخصوص عشانها، إنما هي ما تستاهلش.. والله يا ابني أنا لسه حلمانه حلم خوفني منها وقلبي اتقبض ربنا هيعوضك بالأفضل إن شاء الله يا حبيبي، اوعى تزعل.. انت لسه خام اتربيت في مدارس الصبيان في الخليج وما تعرفش حاجة عن مكر البنات ولؤمهم هي الخسرانة يا ابني والله هي الخسرانة.

ولّى أخي حزينًا إلى غرفته والدموع في عينيه، ليدق الهاتفُ فجأة فيحادثنا أبي قائلًا:

– أنا اطمنت على دارين الحمد لله هي بخير.

فردت أمي:

– الحمد لله.

– بس بتقول ما فيش داعي ننزل أمريكا وكندا الصيف دا عشان في مضايقات وأعمال عنف بدأت تحصل ضد العرب والمسلمين.

– آه ما أنا لسه مكلمة بنت أخويا هناك وقالتلي إن زمايل ابنها في

المدرسه بيدايقوه وياريتها تيجي على قد المضايقات، ربنا يستر. شفت كان زمان ولادنا بيدرسوا برا دلوقت احمد ربنا بقى إنهم في مصر.

– الحمد لله على كل حال، كله من المجرم الإرهابي دا الله ينتقم منه!

– بس أنا برضه مش مصدقة إن هو اللي عملها يا فريد، العرب ما عندوهمش التكنولوجيا دي، دي مخابرات دول عظمى.

– يا رقيه كفاية بقى الله يكرمك!

***

في مكتبة الجامعة تعرفتُ بالصدفة على فتاةٍ خمريةٍ متوسطة الجمال متواضعة المظهر منزوية تبدو وحيدة شاردةً مثلي، جذبني الفضول إليها فتحدثنا وأخذنا الحديث لأعرفها بنفسي ثم سألتها عن نفسها فقالت:

– دميانا كلية صيدلة؟

رحتُ أفركُ جبيني بقلقٍ ثم سألتها:

– هو انتِ تعرفي أنجيل وكرستين والشلة دي؟

– أنجيل وكرستين مين؟

– أنجيل الطويلة وكرستين اللي بنضارة دي ما تعرفيهومش؟ هم صيدلة برضه.

– لا ماعرفهمش.

سحبتُ نفسًا ثم ارتخيتُ بابتسامةٍ أردد:

– كويس.

– إيه!

– قصدي يعني فرصه أبقى أعرفك بيهم بعدين.

حسنًا، إنها صديقة جديدة بعيدًا عن حبيب ومعارفه رحتُ أسألها بفضولي المعهود عن سببِ حزنها وشرودها وليتني لم أسأل! أجابتني قائلة:

– بحب واحد زميلي في الكلية بحبه أوي وهو مش حاسس بيا خالص، اسمه مينا.

تحمستُ كعادتي مع كل قصص الحب وطلبت منها أن تقُصَّ الحكايةَ كلها ولكنني لم أجد أيَّ حكايةٍ من الأساس! لتمر بنا ساعتين كاملتين ونحن خارج المكتبة مرتمين على إحدى الأرصفة وقد أضنانا الحديثُ وأرهقنا المشي، وبدأتُ أشعر بالصداعِ والدوار وهي لا تزال تسألُ نفس السؤال:

– ها تفتكري كدا بقى معناها إنه بيحبني؟

– بيحبك؟ ليه؟ قصدك يعني عشان قالك صباح الخير؟

بدا عليها الغيظ وهي تقول:

– لا عشان ابتسم، ما هو كان ممكن ما يبتسمش وبعدين قال لي: «صباح الخير يا دميانا» معنى كدا إنه فاكر اسمي كويس.

رحتُ أتمتمُ في سري: «يا ريتك ما صبّحت يا مينا، أنا كان إيه اللي خلاني أقولك احكيلي بس!»

– ها ما بترديش ليه! قولي!

التفتُّ إليها في تنهيدةٍ طويلةٍ وأنا أفرك رأسي بأصابعي وأردد:

– جايز ليه لأ، أنا عن نفسي بانسى الأسامي على طول! إنما هو فاكر اسمك ودا معناه كويس.

لتتلهف سائلةً:

– أيوة معناه إيه بقى؟

– معناه إنه بيحبك.

ارتسمت البسمةُ على هذا الوجه العبوسِ أخيرًا إلى أن أكملتُ جملتي أقول:

– أو معناها إن ذاكرته حلوة ودي حاجة كويسة برضه.

فراحت تضغطُ على نواجزها من شدةِ الغيظ في حين بدأت أنا أشعرُ بحاجتي الماسةِ إلى قرصٍ للصداع.

***

في صباح يومٍ دراسيٍ جديد التقيتُ لاميا كعادتنا، كانت كليتها كلية اللغات والترجمة في الطابق العلوي لكليتنا، ولهذا كان لقاءنا سهلا ممتعًا، رحنا نتجولُ كعادتنا فصادفنا «شلة الأقباط» فسلمت سريعًا، ولكن لاميا أطالت الوقفةَ هذه المرة لبضعِ دقائق، فلمحتُ حبيب عن بُعد يتجهُ إلينا مسرعًا مثبتًا نظره عليَّ بابتسامتِه المعهودة، فأسرعتُ أمسكُ بذراعِ لاميا وهمستُ في أذنها «يلاّ بينا»، حاولت لاميا استكمال حديثها مع مصطفى الواقفَ بينهم ولكنني عدتُ أجذبها من ذراعها لنمضي حتى اقتربَ حبيب ولاحظَ فنظرَ إليَّ مصدومًا، وعدنا إلى مبنى الكلية فسألتني متعجبة:

– ليش ما نقف معهن شو فيها يعني؟ ليش هيك؟

فأجبتها غاضبة:

– أنا قلت لك عشرين مرة يا لاميا أنا باسلِّم وبس مش عايزة أقف معاهم عشان الواد دا اللي اسمه حبيب البني آدم المستفز اللي حكيتلك عنه ما تفهمي بقى! دا بني آدم غبي وماعندوش دم! دا...

فقاطعتني متأففةً تقول:

– والله فهمت إنك ما بدك تحاكيه بس خلينا واقفين معهن بدل ما نحنا واقفين لحالنا هيك شو راح يصير يعني!

فانفجرتُ فيها غاضبةً:

– يعني أنا نفسي أفهم هم دول صحابي أنا ولا صحابك انتِ.. انتِ عايزة تقفي معاهم ليه؟ إذا كنت أنا ما صدقت اتعرفت عليكِ عشان أبعد عن الشلة دي وارتاح من البني آدم دا، انتِ مالك ومالهم أنا مش فاهمة!

وصمتت لاميا لينتهي النقاش أخيرًا.

***

خيمَ الحزنُ على بيتنا وعلى صوتِ أبي في الهاتفِ أيضًا، ولم تعد لأخي شهية للطعام، بل صار أكثر غضبًا وأشدَّ عصبية من ذي قبل، فقد أخي في

هذه الصدمة ثقته في الجنس الناعم كله، ليدور الحديث المرير بينه وبين أمي فتقول:

– يا ابني مش كل البنات زي عايدة دي.. دي بنت ما عندهاش ضمير، بص لأختك أهه بنت دوغري ما لهاش في الكلام دا، انت يا ابني اتغشيت فيها وياما الواحد بيشوف في الدنيا.

رفعَ يوسف رأسه وقد كست الحُمرة عينيه فردد بصوتٍ يكاد يذوب ألمًا:

– أنا باشوف الواد اللي هي مرتبطة بيه دا وهو جاي ياخدها من الجامعة، لما باشوفه معاها باحس إني عايز أقتله يا ماما!

أسرعت أمي تقول ولهفةُ الخوف في صوتها:

– لا يا ابني، اوعى... اوعى يا حبيبي تقرب له تقول مرتبطين من قبل ما تعرفك بسنين وأهلها عارفينه، يعني هو في حكم خطيبها وطبيعي يجي ياخدها من الجامعة، خليك قوي يا يوسف انت أقوى من كدا يا حبيبي.

ردَّ يوسف بصوتٍ مختنقٍ يقول:

– أنا حاسس إني ضعيف أوي يا ماما، أول مرة أحس بنفسي كدا، مش قادر أكمل حياتي عادي وأرجع زي الأول.

فقالت بحدة:

– اوعى.. اوعى يا ابني تضعف، افتكر دايمًا إن انت الأحسن وإن ربنا عاينلك الأحسن؛ لأنك ما ظلمش. انت اللي اتظلمت ثِق في كدا، ثِق في ربنا وعوضه يا حبيبي.

سمعتُ الحوار ولم أرغب في الاقترابِ أكثر؛ حتى لا أسببَ لأخي حرجًا، إنه أخي وأعرف كبرياءَه، ولكن الألم الذي بداخله تسلل إلى قلبي أيضًا، فقد كنتُ أدرك جيدًا معنى ألم الفراق.

***

على نغمات أغنية: «آه يا ليل» لشيرين، رحنا أنا ولاميا نحتسي مشروباتِنا

الساخنةَ ونأكل بعضًا من رقائقِ الخبزِ المحمص المنكهة، شردتُ في كلمات هذه الأغنية التي تختلف كثيرًا عن مدرسة نزار المنبطحةِ في الحب حتى قطعت لاميا شرودي مرددة:

– مصطفى صاحبكم.

– ماله؟

– قالي بدو يجي يقف معنا ونحكي سوا شو رأيك؟

– ما يجي أهلا وسهلا مصطفى شاب محترم.

– بس...

– بس إيه؟

– حبيب راح يجي معه.

سدت رقائق الخُبز حلقي حتى ابتلعتها صائحةً أقول:

– حبيب... وحبيب يجي معاه ليه!

فردت في ارتباكٍ:

– هو هيك قالّي مصطفى شو أعمل يعني؟ ما قدرت أقوله شي.

التقطتُ نفَساً ثم رحتُ أهدئ نفسي بصعوبةٍ مرددة:

– بصي مصطفى على عيني وعلى راسي، إنما حبيب دا لأ يعني لأ، وإلا هاسيبكم وأمشي وانتِ اختاري بقى يا أنا يا حبيب!

وبرغمِ موقفي الحاسمِ هذا إلا أنها لم تكن آخر مرةٍ تبادرني فيها لاميا بهذا الطلبِ الغريب.

***

بعد أيام تعرفتُ على دعاء، فتاة من نفس كليتي، لكنها تكبرني بسنوات، كانت دعاء خطيبة عبد الرحمن زميل حبيب ومصطفى في ذات الدفعة، تحدثنا فعرفتُ منها أنها تعرفهما جيدًا لتقول:

– حبيب قولي لي مدايقك في إيه وأنا أأدبه أصل حبيب دا أنا اللي مربياه!

تعجبتُ من حديثها وقد بدت لي تُشبهُ حبيب في كل حركاتِه وإيماءاتِه بل وحتى في شكله وطريقة كلامه، يُهيأ لي وكأنهما توأمان! لتعود فتكررَ نفس جملتِها الأخيرة:

– باقول لك أنا اللي مربياه، انتِ مش مصدقاني؟ طب اسأليه كدا مين اللي مربياك هيقول لك دعاء على طول!

قطب جبيني وارتفع حاجبي عجبًا وشردتُ أتخيلُ حبيب يبكي أمامَها وهي تهدده بالحرمان من اللعب إذا لم يكمل وجبته! ثم أفقت من هذا الهُراء على صوتِها وهي تردد:

– أصل أنا أعرفه من ساعة ما جه الجامعة كان مش فاهم أي حاجة في أي حاجة كان غلبان خالص!

تمتمتُ في نفسي حبيب «غلبان!» هل تقصد حبيب الذي أعرفه؟ «دا يغلّب بلد!» قلتها في سري وهي تكمل:

– يومها كان جاي الجامعة مع مامته وأنا بقيت أساعدهم، ومن يومها مامته بقت صاحبتي واديتني رقمها عشان تبقى تطمن عليه مني من وقت للتاني، أصلها بتقلق عليه أوي.

ارتسمَ العجبُ على وجهي مجددًا، لأفكر:

«هي البنت دي تقصد حبيب الطويل العريض دا ولا حبيب دا ابن الجيران اللي في الحضانة ولا إيه؟ إيه الناس الغريبة اللي باشوفهم دول يا ربيَ هو ليه كل حاجة ليها علاقه بالواد دا لازم تطلع مجنونة زيه!»

ورحتُ أسأل:

– حبيب دا اللي هو في خامسة طب صح؟

– قصدك في ساتّة دلوقتي، ما هو ومصطفى وعبد الرحمن خطيبي في ساتّه طِب، وما فيش غير حبيب واحد في دفعتهم أساسًا.. ها قولي لي مدايقك في إيه وأنا أطلع لك عينه!

– لا مفيش مش مستاهله.

وذهبتُ والفضولُ يكاد يقتلني لأكتشفَ حكايةَ هذا الطفل الكبير، ولكنني هامستُ نفسي أخيراً: «فالتذهب إلى الجحيمِ أيها الفضول! ولتزدد غموضًا وغرابةً يا حبيب كما شئت فلم تعد تعني لي شيئًا».

***

وحان موعد أول خُطوةٍ في طريقِ أحلامي لأرى إحدى لوحاتي وقد عُلِّقت في معرضِ الجامعة أخيرًا، كانت سعادتي بما أرى لا توصف، ونظراتُ الإعجاب والتساؤل في عيونِ الطلبةِ تكادُ تحلّقُ بي عاليًا، فعلقت لاميا مباركة:

– مبروك على المعرض والجايزة والله أول مرة أشوفك فرحانه يا ليلى.

– الله يبارك فيكي يا حبيبتي.

***

من ممر الردهةِ سمعتُ أمي تتحدثُ مع يوسف عن قصيدةٍ ما، فظننتُها تتحدثُ عني حتى قالت:

– كويس يا حبيبي إنك ألقتها وطلّعت كل اللي جواك عارف ليه صقفولك بحرارة؟ مش بس لأنها عجبتهم لا لأنهم حسوا إنها صادقة وطالعة بإحساس حقيقي مش مجرد كلام وخلاص.

وانصرف يوسف إلى غرفته فسألتُ أمي:

– قصيدة إيه دي يا ماما؟

فردت بتأثرٍ شديد:

– يوسف أخوكي كتب قصيدة مؤثرة عن عايدة وألقاها النهاردا قدام الطلبة في ندوة شعرية كبيرة حضرها شعراء كبار بيقولي صوته اتغير في الآخر وكان على وشك يدمع، بس لما لقى الكل بيسقفله كملها للآخر وسقفوله بحرارة.

– ندوة! هو يوسف بيكتب شعر يا ماما؟

– بيكتب وأسلوبه حلو ماهو اللي شافه برضه مش شويه يا بنتي.

فأومأتُ برأسي وتنهدتُ بعمق.

***

أمام كافيتيريا كليةِ الإعلام جلستُ على حافة الشباك وفي يدي أصابع الشيكولاته، بينما لاميا بجواري تشربُ مشروبها الغازي المعتاد فسألتها:

– لاميا هو انتِ ممكن تكملي حياتك في مصر وتعيشي هنا؟

– طب وأهلي شو ميشانهم ما ينفع طبعا يا ليلى.

– يعني أقصد تتجوزي واحد مصري وتكملي حياتك هنا وأهلك اللي في السعودية تبقي تزوريهم أو يزوروكي وكدا.

فردت بحسمٍ وجدية:

– لا ما يصير يا ليلى لازم اللي اتجوزه يكون فلسطيني معه الجنسية السعودية أو على الأقل الإقامة.

– إيه ودا هتجيبيه منين دا يا بنتي! انت كدا عايزالك عريس تفصيل!

– هو هيك لازم.

شعرتُ بوجهها وقد تغيرت معالمه وأنا أتساءل عن السبب لتجيب:

– لأنه نحنا الفلسطينيين ما عندنا باسبور أو إقامه دائمة بس عندنا وثيقة هوية وما نقدر نعيش في أي بلد إلا بشروط وبتنتهي الإقامة ونضل نتنقل بين البلدان هدا بيضلوا مصيرنا ومنشان هيك لازم اتجوز فلسطيني سعودي او مقيم بالسعودية حتى أقدر أشوف أهلي ونتزاور.

شعرت بالتعاطف مع لاميا، بدا لي أنها تفهم ظروف حياتها جيدًا فلا داعي إذن لمزيدٍ من نكأ الجراح، فصمتنا لبرهةٍ حتى دعوتها للتنزهِ في الساحةِ تحت ضوء الشمس، فبدا عليها القلق والارتباك وهي تنظر إلى ساعة هاتفها المحمول ثم قالت والخوفُ في عينيها:

– ليلى في شي بصراحة بدي أقولك إياه.
– في إيه مالك؟
– مصطفى العربي كلمني اليوم الصبح وقال لي إنه راح يجي يقف معنا.
– طب ماشي إيه المشكلة؟

فراحت تتلعثمُ قائلة:

– لا...بس أصل... أنا...

فسألتها متضجرة:

– في إيه يا لاميا اخلصي!
– أصل حبيب راح يجي معه.
– إيه!
– والحين.

اتسعت عيناي وبدأت أشعرُ فجأة بطنينِ دقاتِ قلبي، وإذا بي أطلق هذا الوحشَ الذي بداخلي عليها صائحةً:

– انتِ اتجننتي ما أنا قلت لك لأ ليه ما قلتيش لمصطفى كدا؟!
– والله قلت له بس قال لي: «ماشي هأشوف كدا» وبس.
– فأكملت صائحةً:
– أنا قلت لك قبل كدا البني آدم الزفت دا مش عايزة أشوف وشه، قلت لك دا بني آدم ما عندوش إحساس، ما عندوش دم، ما عندوش...

لم أكد أكمل كلمتي حتى رأيتُ حبيب فجأةً ماثلًا أمام أم عيني مبتسمًا، فابتلعتُ ريقى، وأغلقتُ فمي المفتوح أخيرًا، ثم ابتعدتُ أشيحُ بوجهي عنه لينقذني وجود مصطفى أخيرًا، فابتسمتُ بتصنعٍ وارتباكٍ لمصطفى مرددة:

– إزيك يا مصطفى.

فرد مصطفى:

– الحمد لله كويس إزيك انتِ؟

وراح يحاورُ لاميا غير مبال.

فاقتربَ حبيب ليواجهني مجددًا ثم قال:

– بلغني إنك زعلانة مني.

فعدتُ أشيحُ بوجهي عنه ثم التفتُ لمصطفى ثانيةً أردد:

– أخبارك إيه يا مصطفى؟

ليكرر مصطفى وهو يكاد لا يراني:

– الحمد لله إزيك انتِ؟

عدتُ أبتسم بتصنعٍ لمصطفى علّه يسعفني، ولكنه عاد يتجاهلني ويحاور لاميا باهتمام.

فاستدار حبيب ليواجهني من الناحية الأخرى فنظرتُ لمصطفى فردد تلقائيًا:

– الحمد لله.

فهمسَ حبيب متوددًا:

– بس قولي لي طيب أصالحك إزاي؟

وكأن تركيبةً فريدةً من خليط مشاعر التوتر كلها قد انتابتني فجأةً لأتمتم في سري أمام إلحاحه الغريب: «لأ دا أكيد يا عنده شيذوفرينيا، يا إما انفصام في الشخصية والله ماهو طبيعي!» وأشحت وجهي عنه ثالثةً بينما أتأملُ لاميا بغيظٍ وهي تحادث مصطفى ضاحكةً لا تبالي فهمستُ في نفسي: «منك لله يا بعيده!» بينما يرجوني حبيب قائلًا:

– طب بس قولي لي أصالحك إزاي؟ طب انتِ زعلانة مني ليه طيب بس فهميني؟

وأخيرًا لم أجد بُدًا من الإجابة:

– ليه! دا انت شتمتني وقلت عليَّ زي القطط باكل وبانكر!

اقترب حبيب مني أكثر فبدأت أتصببُ عرقًا ليحادثني بنعومةٍ شديدة وكأنه يحادثُ طفلة في الثانيةِ من عمرها مرددًا ببسمةٍ وصوتٍ دافئين:

– طب أنا آسف والله آسف سامحيني.

رمقته بعيني ثم عدتُ أشيح وجهي عنه ليقول:

– طب أصالحك إزاي طيب أعزمك على عصير طيب ولا حاجه ساقعه ولا إيه بس قولي طيب.

تمنيتُ لو أن لي جناحان حتى أحلّق بهما فأخرجُ بأي شكلٍ من هذا الموقف المحرج الذي لم أمرر به من قبل في حياتي، حتى أنقذني صوتُ مصطفى متدخلًا أخيرًا:

– حبيب فيه إيه مش كدا يعني!

وجذبه إليه بعيدًا بعدما بدا عليَّ الارتباك الشديد، وأخيرًا توقفَ حبيب عن معاملتي كقطةٍ مشمشيةٍ وليدةٍ، فتنفست الصعداءَ وقد بدا لي في صُلحه أصعب منه في عدائه فأسرعتُ أردد:

– خلاص يا حبيب خلاص حصل خير.

وبدأت تسللُ الفرحةُ إلى قلبي بعد أسابيعٍ من الألم، فرحة لا حدود لها، وكأن ستائر الحياةِ قد رُفعت أمامي، وأضواءُ الأمل تناديني من بعيد، وكأن الأقدار قد أهدتني قِنديلًا من السعادةِ يضيء لي بكل ألوان الدنيا ولم تمر سوى دقائقٍ معدودة حتى لمحتُ وجه مصطفى وهو ينظرُ إليَّ أنا وحبيبَ مذهولًا من ضحكاتِنا التي ملأت المكان كله، وكأنَ لسان حاله يقول: «إيه اللي أنا شايفه دا»

يرى الآخرون فيك أحيانًا ما لا تراه أنت، وكثيرًا ما تدقُّ عيونهم نواقيص الخطر أمامك، بينما لا تسمعها أنت ولا تراها، يكونُ ذلك حين تتوقف حواسك دون وعى عن استشعارِ أي شيء سوى صوت قلبك فقط.

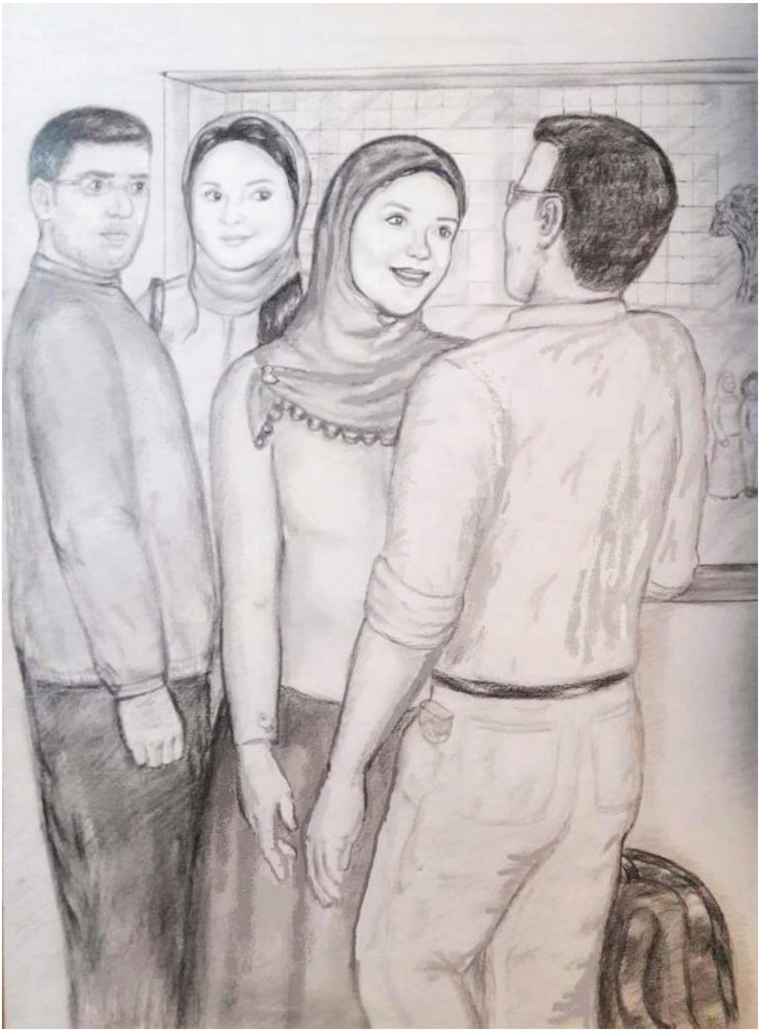

كالطفلة

مرت عليَّ هذه الأيام كأنها قطعٌ من الحلوى أُهديت إلى طفلةٍ صغيرة، كنت أنا هذه الطفلة، ليلى التي لم تعش معنى الطفولةِ أبدًا، ليلى التي حرمتها غربتها في الصغر وافتقادها من تحب من الاستمتاع حتى بطعم الصداقةِ وسمر الأصدقاء، بريئةٌ كنتُ كقطراتِ الندى، لم يجسر قلبي يومًا على ارتكاب أيةِ خطايا.

ضحكاتٍ وضحكاتٍ وحديث لا ينتهي، وعيون ترسمُ ابتسامةً كالعصا السحرية تصنعُ في القلوب المعجزات، كانت هذه أيامي الحُلوة التي جعلت مني طيرًا يرفرفُ بين ساحاتِ الجامعة، فأجدني فجأة أتجول وحدي باسمةً شاردةً بين عشبِها، ورذاذُ سواقيها الصغيرةُ يداعبُ وجهي وكفيّ وأنا أبسُطُ ذراعيّ من حولي كنورسٍ أبيضٍ يطيرُ فوقَ البحر، فيتوحلُ حذائي بالطين ولا أعبأ حتى أستفيق أخيرًا على وجه ساقي الزرع وهو ينظر إلي من بعيدٍ مذهولًا ولسان حاله يقول: «مين البت العبيطة دي!»

لأمضي في خجل وارتباكٍ فأظلُّ أضحك وأقهقهُ على شكلِ وجهِ الساقي حتى أشبعُ من الضحكِ عائدة إلى المنزل لينتهي الحال بحذائي «الشامواه» إلى سلة المهملات بعدما أبلته مغامرتي الطفولية المجنونة.

***

وتعلو أصواتُ الأغاني المصرية لأولِّ مرةٍ في بيتنا، لتتردد مرارًا وتكرارًا، فيبدأ يوسف في ملاحظةِ شيء ما قد طرأ عليّ ليقول والشكُّ يراوده:

– انتِ مش كنتِ بتشغلي أغاني كاظم الساهر بس؟ بقيتِ تشغلي أغاني لناس تانيه ليه؟

– عادي وفيها إيه لما أسمع لناس تانية يعني؟

فينظر إليَّ بحدة قائلا:

– انت بتقفي مع حبيب ومصطفى ولاميا وبأشوفكم بتضحكوا كتير هي إيه الحكاية؟!

لأجيبه بحدةٍ:

– هو انتَ بتراقبني ولا إيه؟!

فيرمقني بريبةٍ غاضبًا ثم يولّي ذاهبًا.

ولكن يوسف في ذات الوقت بدأ يتحرر تدريجيًّا، يقصّر من لحيتِه ويهذبها، ويتطيبُ ويمضي ساعاتٍ وساعاتٍ على «اللاب توب»، يحدثُ هذه ويضاحكُ تلك، لأسأله وقد اتكأتُ على بابِ غرفته بنبرة لا تخلو من المشاكسة:

– إيه بقيت بتكلم بنات على طول يعني؟

ليجيبني مبتسمًا ولا تزال عيناه وأصابعه تتنقلان بين الشاشة وأزرار لوحة المفاتيح:

– لازم أدخل عالم البنات وانتقم!

ولكن يوسف لم يكن في الحقيقة يسعى للانتقام، وإنما كان يحاول أن يخفف من آلام جراحِه بكلماتِ إطراءٍ من فتاة، أو ضحكةٍ من أخرى، ليستلهمَ شيئًا من الثقة في النفسِ علّه يعود للنهوض مجددًا.

لم تكن أيامنا الحُلوة التي جمعتنا نحن الأربعة أنا وحبيب ومصطفى ولاميا بالكثيرة، بل قليلة كانت كأيِّ شيء ساحرٍ في هذه الدنيا، تتخللها بعض المواقف الطريفةِ من حينٍ لآخر، لأجد حبيب يتصرفُ كالطفلِ هو الآخر، فتترامى على مسامِعنا نغماتُ أغنية روبي «طب ليه بيداري كدا» فيبدأ في الدندنةِ والتمايلِ راقصًا بكتفيهِ في حالة من النشوة وكأنه في حفل زفاف صديق، فيرمقه مصطفى بعجبٍ بينما أدخلُ أنا في نوبةٍ هستيريةٍ من الضحكِ المتواصلِ مستحضرةً في ذهني كلمات قصيدتي «البهلوان» ثم أتمتمَ في سري وأنا في أوجِ ضحكي «والله أنا كان قلبي حاسس من زمان انك مجنون يا حبيب!»

يوسف و(اللاب توب)

ولأنني كنتُ في داخلي مجنونة مثله تمامًا؛ فقد كانت تصرفاتُه البهلوانية تلك مبهرةً بالنسبة إلى طفلةٍ كبيرةٍ مثلي عانت من الوحدةِ والكآبةِ أعوامًا.

وكعادته ابتسم حبيب شاردًا وهو يتأملُ وجهي الضاحكَ ثم طلب مني فجأة أن أقلد حركاته فاستجبتُ وقمتُ بتحريك رأسي وذراعيّ في خجل دون رقص ثم عدتُ أضحكُ كالمعتوهة، فتبسم وعاد يطلب مني تحريك ذراعيّ وهز كتفي بشكلٍ آخر ففعلتُ و لكنها كانت كحركات العساكر ليس فيها من التمايلِ أو الرقص شيئاً، ورحتُ أضحك أكثر من ذي قبل، حتى دمعت عيناي ورأسي يتمايلُ ضحكًا، ليقع نظري على مصطفى وقد قطب جبينه وبدت على وجهه معالمُ الذعر، ليفاجئني حبيبُ بطلبه الأغرب وهو يبتسمُ مرددا:

– قولي ورايا يا ليلى قولي ورايا...

وبدأ في ترديد ترانيمٍ قبطيةٍ لم أفهم منها شيئًا، فصاحَ مصطفى على الفور قائلًا:

– ما تقوليش يا ليلى.. اوعي تقولي!

وكأن مصطفى قد ظنّ بعينيهِ الشاخصتين وفمهِ المفتوح هذا أنني سأنفذُ ما يقول لي حبيب دون وعي، وأننا نحن الاثنين قد وصلنا إلى حافة الجنون مثلا، وبالطبع لم أردد شيئًا، ولكنني سألتهما وأنا أبتلع ريقي بصعوبةٍ من طول الضحك:

– في إيه! هو بيقول إيه أصلا أنا مش فاهمة حاجة!

كرر مصطفى تحذيره لي بخوفٍ شديد، بينما اكتفى حبيب بنظرةٍ طويلةٍ عميقةٍ تأملني بها، نظرة لم أفهمها، ولكنها بالتأكيد كانت تحملُ في طياتِها الكثير، وبدأتُ من هنا أشعر برائحة الخوفِ تتسللُ إلى قلبي.

مر هذا الموقف الصادم عليَّ كأنه مُزحة أو طُرفة تزيد من إحساسي بطفوليةِ هذا الفتى وطيشِه، وبأنه بالتعبير المصري الدارج «عنده ربع

ضارب» بمعنى غريب الأطوار، ولكن غرابةَ حبيب لم تقف عند حد التهريجِ كما تصورت، بل كانت الأيام في الحقيقةِ تحمل لي الأغرب من حيثُ لا أدري.

***

في المنزل راح أخي يحدقُ بي وأنا أعيد تسجيلًا مكررًا من فيديوهات الأغاني المصورة الجديدة، وقد بدت عليّ في شرودي معالمُ السعادةِ ليتساءل وهو يرقبني بعينِ الصقرِ:

– نفسي أفهم بس مين فيهم؟

فرحتُ أسأل:

– مين في مين مش فاهمة؟

فسألته أمي:

– قصدك مين يا ابني؟

– بتحب مين فيهم مصطفى ولا حبيب؟ لو مصطفى أنا ما عنديش مشكلة بس أبقى فاهم.

نظرتُ إلى معالمِ وجهه التي بدت كمحققي الأفلام البوليسيةِ ورحتُ أضحكُ قائلةً:

– الإتنين، إيه رأيك! يعني تفتكر يا خارق الذكاء إن أي ولد بأكلمه لازم أكون بحبه! طب ما هو أنا كنت باكلم سمير معنى كدا إن أنا بحب تلاتة مثلا!

رحتُ أسخرُ من حديثه والغيظُ يكاد يفتك به، حتى سمعتُ صوت ارتطام بابِ المنزل أخيرًا وقد خرج للقاء أصدقائه كالعادة.

إنه ذلك الخيطُ الرفيعُ الفاصلُ بين الصداقةِ والحب، تراه كل العيون وبالكاد تستطيعُ عيناك تحسسَه، حين تقع تحت تأثير ذلك المخدرِ الذي بثه قلبكَ في عروقِك دون أن تدري.

***

في ساحةِ الجامعة صادفتُ دميانا، لم نلتقِ إلا مرات قليلة ولكنها كلها مفعمةً بالكلام عن بطلٍ واحدٍ لا يتغير لتعود دميانا لسؤالها المعتاد:

– ها قولي لي بقى؟

– أقولك إيه؟

– دا معناه إنه معجب بيّا ولا إيه؟

– معجب بيكي عشان قالك: «ربنا يخليكي».

– وابتسملي كمان يعني معناها إنه...

– ذوق معناها إنه شاب ذوق عرضتي عليه تسلفيه كشكولك ينقل منه المحاضرة فقالك: «لا شكرا هانقلها من زميلي ربنا يخليكي».

بدا الغيظ على وجه دميانا ثم راحت تسألني:

– ماشي وانتِ بقى ما فيش حد في حياتك ولا إيه ما حبيتيش حد!

فشردتُ أحدق في الفراغ باسمةً ويداي هائمتانِ تصفانِ لها ما يدور في خُلدي لأردد:

– أنا بحب حد لا يمكن تتخيليه، شخصية مميزة جدًا، حد فريد من نوعه حد كدا...

فقاطعتني بتململٍ تصيح:

– مين يعني اخلصي!

– أنا يا ستي بحب... بحب...

– ها...

– كاظم الساهر.

فنظرتْ إليَّ نظرةَ استتفاهٍ واستصغارٍ ثم قالت ساخرةً والاشمئزاز في عينيها:

– كاظم الساهر! هو دا اللي بتحبيه! ودا بقى ناوية تتجوزيه امتى إن شاء الله.

فنظرتُ إليها متنهدةً أقول:

– ما هو دا مش الحب اللي في بالك، لأ دا نوع تاني خالص من الحب، حب مجرد من الرغبات والمصالح حب سامي كدا. دا أرقى أنواع الحب، حب بلا أمل، الحب بلا أمل أسمى معاني الوجود.

وتصورتُ أن جملتي الأخيرة ستأسرُ قلبها، فالتفتُّ إليها لأجدَ نظرةَ الاستتفاهِ في عينيها قد تحولت لنظرةِ استغباءٍ لا توصف، فرحتُ أردد:

– أنا باقول خلينا في مينا أحسن مش كدا برضه؟

لتجيب وشرارةُ الغيظِ في عينيها:

– أيوة فعلا أنا شايفه كدا برضه!

***

في صباح اليوم التالي، التقينا كعادتنا أنا ولاميا وحبيب ومصطفى، بدا لي حبيب أكثر تحفظًا بشكلٍ ملحوظ، فمن الواضح إذن أن مصطفى قد قامَ باللازم ونبهه لتصرفاته، وأخذنا الحديثُ إلى ذكرِ أرضِ الحرمين لينتابَ مصطفى الشوقُ الشديد فيقول:

– أنا والله أمنيتي أزور السعودية وأعمل عمرة.

فعلقتُ أقول:

– ربنا يكتبها لك يا مصطفى إحنا الحمد لله حجينا وعملنا عمرات كتير.

– فانفرجت أساريرُ مصطفى قائلًا:

– ما شاء الله ربنا يوعدنا يا رب.

في حين دخل حبيب في حديثٍ جانبي مع لاميا على غيرِ عادته، إلى أن راح مصطفى يقول:

– انتو عارفين رمضان بعد بكره.. كل سنة وانتم طيبين.

رددنا التحية فأكمل يقول:

– في إفطار جماعي نظمته دفعة ساتّه طِب في مطعم «الأيام» في

المهندسين ولازم تحضروا هنكون كلنا موجودين ولازم تيجوا.

وافقت لاميا بحماسة على الفور، ولكنني لم ألبث أن شعرت بالإحباط فأنا أعرف جيدًا قوانين العائلة، ولن يُسمح لي بالحضور إلا برفقةِ أخي، فرحتُ أسأله:

– ساتّه طب بس؟

– هو ساتّه طب اللي عاملينه، لكن طبعًا ممكن أي حد من أي كلية يحضر.

– أصل أنا ما اقدرش أخرج إلا مع أخويا، فكدا للأسف غالبًا مش هاقدر آجي، المهم بس ما تزعلش لو ماجيتش.

ولكن مصطفى ألّح قائلًا:

– لا ما ينفعش إزاي لازم تقولي ليوسف يجي ماهو طِب برضه زينا قوليله مصطفى بيقولك تعالى هو عارفني بنسلم على بعض في الكلية باستمرار دا يشرفنا لازم تيجو دا حتى حبيب كمان جاي مش كدا يا حبيب.

فرد حبيب بثقةٍ:

– طبعًا!

أسعدتني كثيرًا لفتةُ دعوةِ حبيب لحضور الإفطار، وكذلك اهتمامه بمشاركةِ زملائه المسلمين، هذا الطقس الاحتفالي الجميل بحلولِ الشهر الكريم، فلم أعتد من قبل هذه الأجواء المصرية الأصيلة، ولم يسبق لي حضور أي إفطار جماعي في حياتي، تمنيتُ بشدةٍ تسجيل هذه المناسبة المميزة في ذاكرتي، وحلَّ علينا الشهر الفضيل، وبدأتُ حواري مع أمي وأخي حول الموضوع، ليجيء الحوار تصادميًا بشكلٍ لم أتصوره فيعلو صوتُ أخي قائلًا:

– وأنا إيه اللي يخليني يا ماما أحضر إفطار جماعي لناس ما اعرفهمش ومن دفعة تانية!

ردت أمي تقول:

– يا ابني دول زمايلك من دفعة أكبر صحيح، بس احتمال كبير تحتاج في يوم مساعدة حد فيهم أو حد منهم يتعين معيد أتعرف عليهم مش هتخسر حاجة.

فتدخلتُ قائلة:

– مصطفى العربي عارفك وبيعزك، وهو فضل يلِح عليَا لازم تيجو وأنا عمري ما حضرت إفطار جماعي قبل كدا، نِفسي أحضر وصاحبتي رايحه اشمعنى هي يعني!

ليردَّ يوسف بحدةٍ قائلًا:

– دا إفطار يعني ناس بتاكل إيه الغريب أو الحلو في كدا يعني! عمرك ما شفتِي ناس بتاكل قبل كدا!

– ما هو أنا كمان من حقي أخرج وأشوف الدنيا اشمعنى لاميا يعني رايحة ومن غير أخوها!

واشتعل الجدل بيننا حتى تدخلت أمي تقول:

– يا ابني ما انت هتبقى مع أختك انت قلقان من إيه بس خدها وانزلوا افطروا مع زمايلكوا وتعالوا هيجرى إيه!

مرت دقائقٌ من الجدالِ في محاولاتٍ مضنيةٍ لإقناع يوسف، حتى استسلم يوسف ووافق على مضضٍ أخيرًا، فاجتاحتني نوبةٌ جامحةٌ قفزتُ على إثرها مرددةً:

– (Yes)!

وحبيب كمان هيبقى موجود!

وما إن نطقتُ بها حتى شخصتْ عينا أخي على الفور ليصيح:

– أنا مش رايح مش رايح... بنتك بتحب ولد مسيحي يا ماما!

***

عمت الكآبة وارتسم العُبوسُ على وجهينا أنا ويوسف ونحن في الحافلةِ

في الطريق إلى المطعم، بدا عليه الغمّ بينما فتحتُ أنا نافذة الحافلة لأستنشقَ بعضًا من الهواء علّه يخفف شيئًا من ضيقي وأنا أستحضرُ باقي الحوار الدائر بيننا:

– انت اتجننت! إيه اللي انت بتقوله دا إزاي أحب ولد مسيحي! أنا أقصد أقول لك إن الكل هيبقى هناك وفرحت إنك وافقت هي دي جريمة!

ولكن مرارة حديثِه لم تكن لتفارقني وأنا أستعد لحضور مناسبةٍ اجتماعية خارجَ المنزل لأول مرة، رحتُ أرتدي معطفي الفاخر الذي اشتراه لي أبي، ارتديتهُ طواعيةً عن حبٍ ورضًا هذه المرة، شعرتُ بنفسي شديدةَ الأناقة فيه، ولوهلةٍ مرت بي خواطر مزعجة كالكوابيس أشعلها صياح أخي بجملته الأخيرة، فأفقت على صورتي في المرآة وأمسكتُ بقلم الكحل ورسمتُ به خطًا ناعمًا حول أهدابي، ثم ربطتُ طرحتي المزركشة الأنيقة، ولكن سؤالًا ما خطر في ذهني فجأة:

«تُرى ماذا ستكون ردة فعل حبيب على حضوري المفاجئ ومظهري الأنيق هذا»، وبدأ ناقوص الخطرِ يدقُّ في صدري من أصداء هذا السؤال، فرحتُ ألقي بقلمِ الكحل بعيدا، وأمسكتُ بحقيبة يدي لأنصرف.

انتهيت من شرودي في الحافلة ولم يزل الصمتُ العابس يخيم علينا حتى وصلنا إلى المطعم، ودخلنا وبدأ الضجيج من حولنا يسلل إلى مسامعنا، لأرى الأضواءَ الخافتة تسطع والوجوه تلمع، والعيون تتألق، وجاءنا مصطفى فابتسم أخي أخيرًا وبادله السلامَ والعناقَ بحفاوةٍ ليردد الأول:

– كل سنة وانتم طيبين والله كويس إنك جيت يا يوسف نورتنا.

– وانت طيب يا مصطفى دا نوركم.. نقعد هناك.

– أه طبعا اتفضلوا.

رحتُ أتفقد لاميا فلم أرها بعد، فجلستُ بجوار أخي وقد بدا عليه التوتر ولم يقم لتسجيل الطلبات ظنًا منه أن النادلِ سيحضرُ لتسجيلها ولكن أحدًا لم يأت.

بدت لي الأجواء عاديةً رتيبة وشباب الدفعة يتحاورون، حتى مرت الدقائق وبدأتُ أتفقد الوجوه أمامي عن اليمين ثم نظرتُ في طبقي وعدتُ أنظرُ عن اليسارِ بإرتباكٍ حتى همستُ في سري: «ما جاش عادي مش مهم» واستسلمتُ للسكونِ والإحباط للحظةٍ حتى نظرتُ أمامي فجأةً فإذا بحبيب جالسًا على المائدة في مواجهتي تمامًا يراقبني في صمتٍ ببسمته المعهودة دونما أشعر، بدا وكأنه كان يقرأ أفكاري، فارتسمت البسمة الطفولية على شفاهنا بينما ازداد وجهُ أخي تجهما، وهو يبادله السلامَ البارد عن بعد، ويبدو أن لحيةَ يوسف قد لامست شيئًا من الرهبةِ في قلب حبيب ليكفَّ بعدها نظره عني تمامًا.

ومرت الدقائق تلوَ الأخرى، وأذنّ المغرب وما زال الطعام لم يُقدم بعد، حتى بدأتُ أتضورُ جوعًا، فرحتُ أحدثُ أخي بحدةٍ هذه المرة:

– يوسف أنا جعت أوي قلت لك روح شوف الأكل اتأخر ليه؟

سمع حبيب حديثي الغاضب بينما قام أخي يقدم طلبًا للطعامِ أخيرًا.

لم أكن أتصور وقتها أنني سأكون على موعد مع لحظةٍ من أعقد لحظاتِ حياتي، فما إن أفلتت قدما أخي حتى راحت أنظار حبيب تستقر عليَّ في هذا التوقيت الذي تعودنا فيه على التضرعِ والابتهال إلى الله بالدعاء، لم تكن تلك البسمة الشاردةُ لتفارق وجهه وهو يتأمل ملامحي دون ومضةِ عينٍ أو لفتةٍ، فعمدت إلى تجاهل نظراته بأي شكل، حتى لم أجد بُدًا من اللحاق بأخي، فوقفتُ مع يوسف لبرهةٍ في طابورِ طويلِ حائرةً أتمتم: «واضح إننا هنجوع الليلة دي!»

مضت الدقائق والتفتُّ لأعود لمقعدي، وما إن استدرتُ فجأةً حتى وقعت عيناي على ما لم أحسبُ حسابه، كان حبيب يتأملني عن بعدٍ من مقعدة بنظرةٍ تفضحُ كل مكنونَ الحب في قلبه، وكأنني أرى شابًا يتأمل حبيبتَهُ من الشرفةِ في فيلم رومانسي قديم، فاتسعت عيناي فجأة لم أستطع مع هذه النظرةِ العلنية تمالكَ أعصابي ولا السيطرةَ على تعابيرِ وجهي المصدوم،

فبادلته النظرةَ بنظرةِ غضبٍ واستهجانٍ وتَرَفع، وكأن لسان حالي يقول: «هو أنت اتجننت ولا إيه!»

وهنا توقفت عقارب الساعة، واختفت موسيقى الفرح بداخلي فجأة، وتهاويتُ على مقعدي أطوقُ رأسي المنكفئ بأصابعي وصوتُ حديث أخي لا يزال يتخلل أذني، ويخترق جمجمتي لتطوف الأسئلةُ الحائرة في رأسي بأزيزِ صوت الدبابير، كانت هذه النظرات المتبادلة بيننا أقربُ ما تكون إلى رماحٍ مسمومةٍ وجهها كلانا إلى الآخر في ثانيةٍ دون أن يشعر، ولكن رمحي أنا لم يكن حبيب لينساه لي أبدًا.

رحتُ أطرق برأسي محدقة في طبقي الفارغ، بينما أكاد أغلي من الحيرة والتفكير، ما هذا هل جن الفتى؟! لا مستحيل لقد اختلط عليَّ الأمر فلم أفهم قصده، ربما كان يحاول مازحًا تصنع الإعجاب بي كما فعل مع إنجي، لا ربما كان يحاولُ تفرسَ ملامحي وأنا صائمة أتضورُ جوعًا، ربما أي شيء، لا أدري ولكنني حتمًا تسرعتُ في الحكم عليه، فلا يمكن لهذا الذي أمضى عامًا كاملًا يسخرُ مني أن يكون بحقٍ معجبًا أو مُتيّمًا، سأخسره بردة فعلي هذه، ولن أخسره فقط بل ربما خسرت مصطفى ولاميا أيضًا بسبب سوء تفاهمٍ عابر، وتمتمتُ في نفسي وأنا أتناول طعامَ الإفطار أخيرًا: «الحقي صلحي الأمور يا ليلى!»

ورفعتُ رأسي أخيرًا لأنظر إليه وأخي بجواري يأكل، فرأيتُ الطعام في طبقه لم يزل كما هو، بينما قام يدخن سيجارةً وقد بدا الغضب الشديد عليه، فحاولتُ تلطيف الأجواءِ بابتسامةٍ وسؤالٍ بريئين:

– حبيب انت مش قلت هتبطل السجاير إيه الحكاية رجعت تدخن يعني؟

فنظر إليَّ وهو يضغطَ على نواجزه والغيظ والاشمئزازُ يكادان ينطقان من عينيه وهو يردد:

– أصل الأكل طلع يقرف!

وجرّ كرسيه بعصبيةٍ إلى حيث يجلسُ مصطفى، فجلسَ بجواره، وبدأتُ أتوقع الأسوأ سيفتضح الأمر وربما يصلُ إلى مسامعِ مصطفى ولاميا، هذا ما دار بخلدي وأنا أحاولُ سريعًا تدارك ما يمكن تداركَه، وفي نفسي أردد:

«لو كان يقصد بالنظرة دي حاجه كدا ولا كدا فيبقى هو خلاص أكيد فهم ومش هيكررها، ولو مش قاصد يبقى حصل خير ونبتدي صفحة جديدة».

بهذه البساطة فكرتُ بينما انخرط حبيب في الحديثِ مع مصطفى ولاميا فراحوا يتبادلون الضحك والتسامرَ، فانتقلت إليهم لأجلسُ بجوار صاحبتي وأشارك في الحديثِ ضاحكةً كعادتي، وناديته من حينٍ لآخر فتجاهلني تمامًا وكأنه لا يراني ولا يسمعني من الأساس، فأدركتُ من هنا أن الأمور باتت شديدة التعقيد.

***

مرت أيامٌ وأنا على غيرالعادةِ لم أعد أرى ثنائي كلية الطب مُطلقًا، بل وانطفأت بهجة لاميا وضحكتُها بشكل ملحوظ، فبدأت أتساءلُ عنهما في حيرةٍ لتهربَ لاميا من الإجابة دونَ سبب، حتى التقيتُ مصطفى مع أنجيل وكرستين وقد بدا لي متغيرَ المزاجِ غريبًا، وما إن ودعهما لينصرفَ حتى سألته على انفرادٍ أردد:

– إيه فينكم يا مصطفى ما عدتوش بتيجوا انت وحبيب زي الأول مشغولين ولا إيه؟

شرد مصطفى ممررًا عينيه في الفراغ بنظرةِ حزنٍ ليردد:

– آه أيوة مشغولين.

ثم أردف بارتباك:

– ليلى انتِ زي أختي انتِ عارفة.

فتبسمتُ قائلةً:

– الله يخليك يا مصطفى وأنا والله يا باعتبرك زي أخويا يوسف بالضبط.

فعاد لنظرته الحزينةِ قائلًا:

– أنا عايز أنصحك بحاجة يا ليلى بس من غير زعل.

بدأت ابتسامتي تذبلُ ونبضاتُ قلبي تتسارع وهو يكملُ قائلًا:

– أنا عايزك تحاولي تفهمي اللي بيحصل حواليكي يا ليلى أكتر من كدا.

– اللي بيحصل حواليا؟

– أيوة.

– قصدك إيه؟

– مش هينفع أوضح أكتر من كدا وفي حاجة تانية عايز أقولها لك حاولي تخففي مع ناس معينة.

– قصدك مين؟

بدأتُ أشعر بالاضطرابِ في رأسي والخوفُ يكاد يصيب أطرافي بالتنميلِ ليرد قائلًا:

– بدون ذكر أسماء انتِ المفروض تفهمي لوحدك يا ليلى.

لم أدرك أهمية نصيحة مصطفى الذهبيةَ لي، ولو عاد بي الزمنُ لقدّرتُ قيمةَ كل حرفٍ نطقَ به ساعتها، ولكنني وقتئذٍ ودعتُه مصدومةً مغتاظةً من تدخلهِ السافرِ في حياتي، بدا لي مصطفى يحاولُ أن ينصّبُ من نفسِه أخًا جديدًا لي، وكأنما ظنَّ أن لقب العائلة المشترك بيننا يعطيه الحق في أن يطلب مني التخلي عن صداقة حبيب في ذاتِ الوقت الذي يستعدُ فيه هو لانسحابٍ مفاجئ غير مبررٍ من صداقتنا، ورحتُ أروي للاميا ما دار بيننا غاضبةً فبدا عليها الحرج والارتباك الشديدين وهي تقول:

– بصراحة يا ليلى أنا كان بدي أقول لك بس يعني..

– تقولي لي إيه في إيه؟

– مصطفى.

– ماله؟

– قال لي إنه معجب بيا.

شعرتُ بالصدمةِ فجأةً ثم سألتها:

– امتى حصل دا؟

– بليلة الإفطار الجماعي بعد ما روحتي.

– وقلتي له إيه؟

– قلت له انت مثل أخي.

سحبتُ نفسًا عميقًا وأشحت وجهي عنها غاضبة أردد:

– وما قلتليش ليه؟

– ما كان بدي أحرجه ما تحكي لحدا ما بدي أسببله إحراج.

– وماله مصطفى يعني مش فاهمة ما هو كويس؟!

– هو كويس ما فيه شي بس أنا ما ينفع أرتبط بحدا ما معه الجنسية السعودية ولا حتى الإقامة.

تنهدتُ بحرقةٍ وأنا أتذكر نظرةَ الحزن العميقةَ في عينيه وهو يقول:

«أنا عايزك تحاولي تفهمي اللي بيحصل حواليكي يا ليلى أكتر من كدا» إذن فالأمر خاص به وبلاميا، أم تُراه يلمح إلى ما هو أبعد لست أدري؟ ولكنني تأكدتُ الآن أنها كانت وصاياه الأخيرةِ قبل يودعني كصديقةٍ إلى الأبد.

لم أكن ألقي بالًا لما يدور بين مصطفى ولاميا من حديثٍ ونظرات، لم أدرك أي شيء مطلقًا، كأنني كنتُ في غيبوبةٍ لم أرهما فيها من الأساس، فقد كان حبيب مسيطرًا على كل حواسي، ليتكَ سألتني يا مصطفى من البداية لكنتُ أجبتك، لقد جرحتك صديقتي، استدرجتك بجمالِها وجاذبيتِها وأوقعت بكَ في فخِ الحب ثم غدرت بك، تُرى أكانت لاميا ضحيةً أم جانية؟

تذكرتُ لقاءَها بسمير في المقهى خارجَ الجامعة منذ أسابيعٍ فقط، ثم اهتمامها الشديد بانضمامِ مصطفى إلينا، ثم ضحكاتها المتواصلة معه،

وقبولها الفوري لدعوته للإفطار، وجلوسها بجواره هو في المطعمِ وليس بجواري، إنها لم تبادر حتى بالسلامِ عليَّ بل بادرتُ أنا، كانت مشغولةً بخطفِ انتباهِه والاستحواذِ على قلبه، استحضرتُ نظراتِهما الضاحكة لي حينما شعرتُ بالعطش فرحتُ أسأل عن بعضٍ من الماء لديهما ليشير مصطفى إلى المشروبِ الغازي المتبقي على المائدة قائلًا:

– خدي البيبس دا، دا بتاع حبيب هو في الحمام يلا الحقي اشربيه قبل ما يجي.

– بس دا بتاع حبيب ما ينفعش أشربه ومطرحه كمان.

ليضحك مصطفى كالطفل قائلًا:

– لا وماله اشربيه عادي مش هيزعل!

لتشاركه لاميا القهقهةَ مرددةً:

– آه يلا اشربيه اشربي مطرح حبيب عشان تجري وراه يا ليلى.

ليردد مصطفى ضاحكاً:

– أيوة اشربي يا ليلى اشربي!

فنظرتُ إلى المشروبِ ثم عدتُ أنظر إليهما قاطبةً جبيني بشفاهٍ ضاحكةٍ في إستنكار للفكرة، فتحول الضحك إلى قهقهاتٍ وهما على المقاعد منتشيين كالسُكارى، لتكون هذه آخر مرة أرى فيها ضحكةَ مصطفى البريئة.

لماذا اقتربت منه لاميا إلى هذا الحد إذن؟ ولماذا تركته وحيدًا مصدومًا في النهاية، تذكرتُ لوهلة حديث لاميا المطوّل عن زواجِ أختها الصغرى الحسناءِ الرشيقة، وكيف سبب لها زواجها المبكر صدمةً أبكتها، لتدعوها الغيرة لإعلان رفضها هذا الزواج وبشدة، بينما لم يعبأ أحد من أهلها بمشاعرها وهي تشاهدُ أختَها وزوجَها يتعانقان فيحملها زوجها بين ذراعيه على الشاطئ أمام الجميع، ويلقي بها في المياه ضاحكًا، لتملأ ضحكاتهما الشاطئ كله، لم تكن لاميا ترغبُ في استكمال دراستها الجامعية، هكذا

قالت لي بصراحةٍ شديدة، كان شاغلها الشاغل فقط أن ترضي غرورَها وكبرياءَها المجروح كفتاةٍ زُوجت أختُها الصغرى قبلها، فأمست لاميا على الرغم من صغر سنِّها وجمالِها تجرحُ بوعيٍ أو دون وعي كل من تصادفه مشغولًا بها، ليكون مصطفى صاحبَ القلب الطيبِ واحدًا من ضحاياها.

***

رحتُ أحدث أمي في المنزل عن حكاية لاميا ومصطفى لتقول:

– هي كدا جرحته قاصدة بقى ولا مش قاصدة الله أعلم بحالها.

– بس أنا عمري ما تصورت إن مصطفى معجب بلاميا، ما تخيلتش يعني توصل لكدا غريبة فعلًا!

فتدخل أخي فجأةً صائحًا:

– إزاي إذا كنت أنا نفسي اللي ما شفتهم مع بعض إلا مرة واحدة حسيت وعرفت إنه معجب بيها! هي اللي بتستهبل وقاصده توقعه، لما هي ما بتحبوش بتتكلم معاه طول الوقت وتهزر وتضحك على كلامه ليه؟

– عادي وفيها إيه يعني ما هو احنا الأربعة كنا بنتكلم وبنضحك مع بعض عادي صحاب زي الأخوات!

فعاد يصيحُ وشرارةُ الغضبِ في عينيه قائلا:

– إخوات إيه وزفت إيه! ما فيش حاجة اسمها إخوات، ما فيش بنت بتتكلم مع ولد وتفضل تضحك على هزاره على طول إلا ولازم هيقول عليها بتحبه ومش هو بس الناس كلها هتقول عليها بتحبه!

فهببتُ فيه غاضبةً:

– إيه التفكير الغبي دا! إيه علاقة الضحك والهزار بالحب انت اللي تفكيرك متخلف!

فصاحَ أخي بقوة قائلًا:

– انتِ اللي غبية! فهميها يا ماما فهمي بنتك!

فتدخلت أمي مهدئةً:

– حاضر يا ابنى اهدى انت بس وروح.

ونظرتُ إلى أمي مندهشةً أكاد أجن حتى انتفضتُ على صوتِ ارتطام الباب كالعادة.

***

كانت طعنةُ لاميا لمصطفى طعنةً لأواصر الثقة فيما بيني وبينها أيضًا، وبالرغم من استمرار صداقتنا إلا إنني في قرارةِ نفسي لم أستطع أن أغفر لها ما فعلته به أو بي، لقد حرمتني من لمّةِ الأصدقاء لتُرضي غرورها وحسب، رحت أنظر إليها وقد بدا عليها الذبولُ والصمتُ الحزين لأقول:

– ما تيجي نشوف حبيب فين ونتكلم معاه؟

– لا ما بِدي روحي انتِ إذا بِدك.

لماذا تتهربُ لاميا من رؤية حبيب الذي جلبته إليَّ، أيكون الشعورُ الخفي بالذنب إذن؟ ربما ولكنني لم أره منذ يومين في أي مكان، كنتُ أحضِر معي لوحاتي وقصائدي كل يومٍ على أملِ أن ألقاه فنتحدثُ كعادتنا، فأنهي بهذا الحديث سوءَ التفاهم الذي حدث، ونعودُ صديقين ضاحكينِ كما كنّا ببساطة الأطفالِ كنت أفكر.

***

في نهار رمضاني جديد رحتُ أتجول وفي يدي حقيبةُ اللوحاتِ المعتادة، فاستفزني عن بعدٍ ذلك الدخان، إنه دخانُ سجائر، إن الجميع هنا في رمضان مسلمين ومسيحيين يمتنعون عن التدخين والأكل والشُربِ احترامًا للشهرِ الفضيلِ ومراعاةً لمشاعرِ الصائمين فيه، هذا ما عهدتُه منذ قدمت إلى مصر، فمن هذا الذي يجلسُ في الساحةِ مدخنًا أمام الجميع غير مبال! اقتربتُ أكثر فصدمني ما رأيت، إنه حبيب! حبيب الذي كان يشاركنا الإفطار منذ أيام هو نفسه من يدخن في نهار رمضان في الساحة أمام الجميع لأول مرة!

لم أستطع السيطرة على نفسي بعدما شعرتُ بالاستفزاز الشديد، كنتُ أرغبُ بشدةٍ في الحديثِ معهُ ولكنني لا أحتملُ ما أرى مطلقًا! وانطلقتُ نحوه وقد تملكني ماردُ الغضبِ لأردد:

– حبيب أنا عمري ما شفت حد بيشرب سيجارة قدام الناس في نهار رمضان قبل كدا؟

ولكن حبيب تجاهلني عن عمدٍ رافضًا حتى توجيه نظرهُ إليَّ، فعدتُ أكرر ما قلتُ وقد ازداد غضبي، فلم يلتفت لي ولم يجبني بل راح ينفثُ دخانَه بعصبيةٍ من حولي، فاستشطتُ غاضبةً، وعدت أكرر عبارتي نفسها للمرةِ الثالثة علّه يطفئ هذه السيجارةَ وينظر إليَّ فيواجهني، ولكنهُ لم يفعل بل وبدا لي من خلف خيوط الدخان المتناثرةِ مكظومًا بالكادِ يمنع نفسه من الانفجار في وجهي حتى باغت أذني صوتٌ غريب يقول:

– على فكرة بقى أنا عايز أقول لك حاجه...

فنظرتُ صوبه، لقد كان أحد أصدقائه يجلس على بُعدٍ بسيطٍ منه لكنني لم ألحظه مطلقًا، ولم أنتبه له وهو ينصتُ لي وقد استفزته عبارتي المكررة وأسلوبي الغاضبَ هذا إلى حدٍ كبير، فتدخل فجأةً ليحاورني بحدةٍ بينما أدققُ أنا في ملامحِه لعلي أتذكره وبالفعل تذكرتُه أخيرًا.

إنه ماركو الأكثر تعصبًا من بين من رأيت من الأقباط، لم يبادلني ماركو السلام أبدًا، ولم يرتح أي منا للآخر قط، كان ماركو علامةً فارقةً لا تُنسى في حياتي، كان ثعلبًا ماكرًا حاد النظرات شديد الدهاء، وكان الصديق الأكثر قُربًا من حبيب، بل وعقله المدبر وصندوقَ أسراره الخفي كما بدا لي فيما بعد، استحضرتُ وأنا أرى معالم الاستفزاز في عيني هذا الشابِ جليةً موقفه معي حين رحتُ أُجري استبيانًا دراسيًا عن توجهاتِ الشباب الإعلامية وآرائهم في القنوات الفضائيةِ المصرية، فوضعتُ في الخانات خانة العمر، والجنس، والديانة، وعرضتُ على معيد المادة استبياني فأقرّه، واستحسنه ولم يبدِ لي أي تحفظ حوله لأُفاجأ بهذا الشاب الذي لا

يعرفني يباغتني بسؤالٍ فظٍ بنبرة غليظةٍ قائلًا:

– انتِ أخدتي موافقه أمنيه الأول قبل ما تعملي الاستبيان دا؟

فعلقتُ بدهشة:

– موافقه أمنية!

– أيوة لأنك كاتبة خانة الديانه المفروض تاخدي موافقة من الجهات الأمنيه الأول يا كدا يا تشيلي الخانة دي خالص.

لم أسمع أي تعليقٍ كهذا من الشباب المشاركين في الاستبيان مسلمين ومسيحيين على كثرتهم، لينتابني الخوف فأردد لحبيب بجواري:

– ياريتني ما كتبتها هأعمل إيه دلوقتي الاستبيان اتطبع واتوزع خلاص!

– ما أنا قلت لك سيبك منه، أنا شفت الاستبيان ما فيهوش حاجة خالص عادي جدا.

وأكملتُ وأنا لا أفهم ما علاقة الجهات الأمنية باستبياني الإعلامي، ولماذا لم يبدِ لي المعيدُ أيةَ تحفظات إذن؟!

قطعَ شرودي صوتُ ماركو وهو ينطلقُ في وجهي كالمدفعِ في مواجهةٍ طائفية متعمدةٍ ليضربَ مسامعي بعباراتٍ شديدة الاستفزاز من نوع «الإجبار»، «حد السيف»، «الجزية» ثم يختمها بعبارة: «الاحتلال الإسلامي» لأكرر عبارته باستنكارٍ شديد:

– إيه «الاحتلال الإسلامي!»

اندفع حبيب ليبدي تضامنًا غريبًا معه وكأنه في مواجهةٍ ثأريةٍ معي، كان لدي من الردود على حديثِهما ما يملأ كتابًا، فقد درستُ العُهدة العُمَريّة وأفهم جيدًا معنى الآية الكريمة «لا إكراه في الدين...»، ولكنني التزمتُ الصمت لثوانٍ وقد أدركتُ الفخ الذي أعده لي ماركو انتقامًا من خطأ انفعالي لم أقصده، فاكتفيتُ بالرد على تضامنِ حبيب بنظرةٍ حادةٍ مرددة:

– الكلام دا مش حقيقي يا حبيب مش حقيقي!

وأخيرًا واجهتني عيناه ولكن في صمتٍ عميقٍ أليم وكأن لسان حاله يقول: «إيه اللي وداكي في السكة دي امشي بقى!»

كان حبيب يدرك أنني في حقيقتي أبعد ما أكون عن التعصب والطائفية، وكذلك كان هو في عيني قبل هذا اليوم، ولكن شيئًا ما بيننا بدأ يتعقد منذ تلك النظرة في هذه الليلةِ الموعودة بالمطعم والتي لم أكن لأدرك أبعادها بعد.

ولأن انسحابي في هذا التوقيت من الحوارِ كان سيعدُّ إعلانًا صريحًا لنهاية صداقتنا؛ لذا بقيت حتى غيّر حبيب الموضوع فجأةً سائلًا عن اللوحاتِ التي أحملها في يدي بينما لا تبدو على وجهه أي حماسة لها، فانفرجت أساريري أخيرًا لعل الأجواء تتلطف، ورحتُ أقدّمُ له لوحتي الجديدة قائلة:

– بص بقى أنا رسمت لوحة لحد معين وعايزاك تقول لي هو مين عشان أتأكد إنه شبهه ماشي؟

أومأ برأسِه بالموافقة فأخرجتُ له اللوحة، كانت لوحةً مميزةً شديدةَ الشبه بمطربي المفضل، وما إن رآها حتى ازداد وجهه تجهمًا فسألته ببراءة:

– إيه رأيك بقى مين دا؟

فأشاح وجهه عني وعن لوحتي مكمودًا في صمتٍ، فسألته في اندهاش:

– إيه مش باين مين مش معقول!

ولكن ماركو تدخل قائلًا:

– لا باين طبعا كاظم الساهر.

– أمّال ليه حبيب ما بيردش؟ أنا شايفه إنه شبهه جدا.

رحتُ أتأملُ وجه الساهر شاردةً بحبٍ أهمس:

– شايف الدبدوب دا يحسسك إنه طفل برئ مش كدا حبيت أوصل إحساسي بالنقاء اللي في شخصيته من خلال الدبدوب الأبيض دا إيه رأيك؟

نظر حبيبُ إلى اللوحةِ بغيظٍ واشمئزازٍ شديدين وكأنه يتمنى تمزيقها والفتك بصاحبها، لا أعرف لماذا انتابتني في هذه اللحظةِ ضحكةٌ مكتومةٌ وقد بدا لي انزعاجه طريفًا، فعلقتُ باسمةً:

– هو انت بتكره كاظم يا حبيب؟

تمعن حبيب في ضحكتي بغيظٍ ثم دنا برقبته مني كالفهد في نظرةٍ ذاتَ مغزىً ليقول:

– وأنا إيه اللي هيخليني أكرهه مثلا يعني؟!

فتلاشت ضحكتي وتجمدت ملامحي على إثرِ ردةِ فعله وقد أدركتُ أنني وقعتُ في الحرج، فأجبته بنبرةٍ خشنةٍ وصوتٍ جاد:

– عادي يعني في ناس بتكرهه زي ما في ناس بتحبه.

ولكن ماركو ذلك الثعلبَ لم يكن ليفوّتَ كل ما يرى أمامه دون تمحيصٍ أو تعقيب، فراحَ يقول وهو يدني رأسَه من حبيب بنظرةٍ كسنِّ الرمح:

– لأ انتِ أكيد يا ليلى قصدك في ناس بتغيييييير منه مش بتكرهه!

لم يكن نطق ماركو لكلمة «بتغير» نطقًا طبيعيًا، بل راح يمُطُّ فيها عن عمدٍ وهو يصوّب نظرةً مقصودةً لصاحبه، فرد الآخر بارتباكٍ قائلًا:

– وأنا هاغير منه ليه يعني!

حال صِغر سني وبراءتي بيني وبين فهمِ كل هذه الغمزاتِ واللمزاتِ المتراميةِ من حولي، فوافقتُ ماركو في البدايةِ حول غيرة بعض الشباب من نجوميةِ الساهر، ولكنني عدتُ أنفي عن حبيب التُهمةَ نهائيًا.

ثم رحتُ أردد وكلٌ منا شارد في وادٍ ومقصد:

– كاظم الساهر مش مطرب بس، دا موسيقار زي عبد الوهاب كدا، ملحن وشاعر ومطرب ورسام في نفس الوقت، فنان حساس بيسمو بالذوق الفني في العالم العربي وبيوصل قضية بلده للعالم كله.

كاظم والدبدوب

التزما الصمت، فألقيتُ بدفاتر أشعاري إلى حبيب ليقرأها كعادتِه لعل هذه الأجواءِ المشحونةِ تصفو فيعود لمرحِه المعهود، ونوّهتُ عن دفترٍ قديمٍ بينها لم يره من قبل، فتجاهل حبيب الدفاتر عن عمدٍ نافثًا دخانه حولي في حين تلقفها ماركو باهتمام مريبٍ وبدأ بالدفتر الذي أشرتُ إليه، ليتصفحه كأنما يفتشُ في صفحاته عن شيء ما، مرّ ماركو على قصيدة «لا تعرفين الحب» ثم تفحص قصيدتي الدينية «نور المصطفى» بإمعانٍ حتى وقعت عيناه أخيرًا على «البهلوان» فصاح يقول فجأة:

– حبيب القصيدة دي شكلها مكتوبة فيك اسمع كدا.

حوله من الأخلاء كثير

لأنه في الفكاهة خبير...

أكمل ماركو قراءةَ القصيدة كلها ونبضات قلبي في تسارعٍ واضطراب، ثم علقتُ محاولةً إخفاء ابتسامتي:

– دي قصيدة عامة مش لحد محدد بس لو انت حاسس إنها تنطبق على حبيب دي حاجة ترجع لك.

ورمقتُ حبيب بطرفِ عيني فالتفتَ لي في ريبةٍ ليتفحص هذه الضحكةِ الطفوليةِ التي جاهدتُ في إخفائها، ثم عاد يشيح وجهه لأردد بجديةٍ:

– ما قلتليش إيه رأيك في القصيدة يا حبيب؟

فأجاب ولا تزال نظرة الريبة تتسلل من عينيه:

– حلوة بس دا ما يتسماش بهلوان يعني.

– أمّال يتسمى إيه؟

– يتسمى واد دمه خفيف وبس.

وانصرفنا وانتهى الموقف أخيرًا، ولكن حيرتي ما لبثت أن ازدادت وأنا أتساءل: «لماذا تصرف حبيب بهذا الشكل؟ إنني لم أعهد عليه التدخين في نهارِ رمضان أمام المارّةِ من قبل، ولماذا ضايقني الأمر واستفزني لاستفزازهِ

بهذه الطريقة الفجّة على الرغم أنه لا يدين بديني من الأساس؟ ماذا حدث له! وماذا جرى لي؟ وهل كنتُ سأتصرف على هذا النحو لو كان المدخنُ أي شخص آخر»؟!

تهربتُ من الإجابة، ولكنني تذكرتُ أمر القصيدة، فلاحت بخاطري ملامحُ أمي المحذرة وهي تردد: «اوعي يا ليلى توريها لحبيب اوعي!»

مرت سويعات ولم يغب عن بالي ذلك الوجه العابس الذي لم أعتده على حبيب، وشعرتُ بأنني بقصيدتي هذهِ ربما أسأتُ التصرفَ وزدتُ الطينَ بِلة، فلم ينتهِ نهار ذلك اليوم الدراسي حتى لمحته عن بعد يسرع للّحاق بحافلات الجامعة، فأسرعتُ ألحق به، وأناديه فبادلني السلامَ ببرودٍ ولا يزال العبوس على وجهه، فتبعته مسرعةً أردد:

– حبيب شكلك مدايق في حاجة؟ اوعى تكون مدايق من حكاية القصيدة إياها.

– القصيدة!

– «البهلوان» عشان يعني صاحبك قال عليها معموله فيك وكدا.

توقفَ حبيب لوهلةٍ ثم رماني بنظرةٍ غائرةٍ سائلًا:

– بذمتك يا شيخة وبحق صيامك اللي انتِ صايماه دا، انتِ كاتبه القصيدة دي في مين؟

شعرتُ بدمي يكاد يتبدد في عروقي فابتلعتُ ريقي فما عاد أمامي من مفرٍ من الإجابة بصدقٍ بعدما سألني بحقّ الصيام فأجبتُ متلعثمة:

– بصراحة يا حبيب يعني... هو... أصل...

– أيوة.

– هي...

– ها.

– هي مكتوبة في شخصين انت واحد منهم.

وعلى عكسِ ما توقعت تسللتْ ابتسامةً مكتومةً إلى وجهه وهو يتمتم:

– ممم.

فأسرعت أردف:

– هي صحيح قصيدة هجاء بس برضه بتتكلم عن حاجات كويسة بتوصف مزايا برضه، يعني مش كلها وحشه صح؟ فيها حاجات برضه تعتبر كويسه يعني.

بدا عليَّ التلعثم والتوتر، واصفر وجهي في حين تولدت على وجهه بوادر ضحكةٍ طفوليةٍ يحاول جاهدًا أن يكتمها مشيحًا بوجههِ، فأكملتُ أقول:

– انت مش زعلان صح؟

تحشرجَ صوتُه من الإرتباك وهو يردد:

– لأ خلاص.

وأسرع كأنه يهربُ ببسمته مني، كنتُ على ثقةٍ أن ابتسامته الوليدة تلك ستتحول في الحافلة إلى ضحكٍ متواصلٍ على فِعلتي، ولكن جُلَّ ما أسعدني في الأمرِ أن بهلواني المفضل أخيرًا سيتخلصُ من هذا العبوسِ الذي لا يليق به وسيُنهي يومَه سعيداً، وبهذا تنفستُ الصعداء، فقد تخلصتُ من قلقي ومن شعوري بالذنب أخيرا، ولن يرحل حبيب كما رحلت ندى من قبل، كان هذا أكثر ما طمأنني، وقد تصورتُ ببراءتي المعهودة أن معضلةَ قصيدة البهلوان تكمنُ فقط في هجائِها، وكان هذا خطئي الأكبر.

***

«يا نجاتي انفخ البلالين!» ترامت هذه الجملة الساخرة على مسامعي من أحد الطلبةِ وهو يقلد أداء وصوت «زكية زكريا» الشخصية الهزلية المحبوبة في برنامج المقالبِ الفكاهي المفضل لدى الجميع، فابتسمتُ وقد تعالت أصواتُ الضحكاتِ من حوله وهو يمازح أصدقاءَه، فشردتُ أفكر تُرى كم تحوي شللُ الأصدقاءِ هذه من مهرجين، وهل كل هؤلاء المهرجين

الجذابين جارحينِ أيضا؟

خرجتُ من محاضرتي فلمحتُ حبيب عن بعدٍ يجلس على رصيفِ ساحة الجامعة، لم ينتظر حتى أقترب وابتسم لي عن بُعدٍ بسمته المميزة وكأنها حقولُ زهورٍ تتفتحُ أمامَ عيني؛ لتعلو ابتسامتَه وتزداد تألقًا كلما اقتربتْ بي الخطى إليه، بينما يرقبنا ماركو وبيتر وميري، ثلاثي كليةِ الصيدلة الأقرب له من بين كل أصدقائِه، لأقترب أكثر فأكثر، كفراشةٍ بهيةٍ تقترب رويدًا من حلقة النار المشعة، ليحتفي بي حبيب ويطلب مني فجأةً إلقاء قصيدة البهلوان أمام أصدقائِه، فتملكني الخجلُ وبدا عليّ التردد والارتباك، هكذا وبدون مقدمات افتضح أمر القصيدة بينهم، وراح يلّحُ، ورحتُ أتهرب، فزاد في إلحاحه، فقلت:

– بس دي قصيدة هجاء إزاي عايزني ألقيها قدام صحابك!

– أنا حابب أسمعها لهم ما لكيش دعوة يا ستي أنا راضي ها.. قوليها بقى!

وهمستُ في نفسي أقول: «ربما تملكه الحسُّ الشعري إذن، فأراد أن يدخل معي في مناظرةٍ شعرية فريدة، لِمَ لا؟ فإذا لم ألقِها سيظن الجميعُ أن فيها ما يدعو للخجل، سألقيها على مسامعِهم إذن»، ورحتُ أردد بإلقائي المتميز:

حولَه من الأخلاءِ كثير
لأنّه في الفكاهةِ خبير
يستعرضُ ألفاظَ الشباب
ويهزأ بالصغيرِ وبالكبير
***
عليه كل الدنيا تهون
يحتقرُ دموع العيون
يبيعُ والكلُّ يشترون
لأنه يهبهم السرور
***

لأنه يضحكهم يحبونه
ويستميتون ليجدونه
في كلّ شيء يتحملونه
لأنه وسيلةُ تخدير
***
هو في الجلساتِ قائد
متروكة له القلائد
ولمن يعترض على القواعد
كارت أحمر وصفير
***
أيها البهلوانُ تمهل!
إن الألم إليك تسلل
وبدأت ضحكاتُك تكبل
ستعرفُ مرارةَ الغرور
***
وترى الكراسي خالية
وتصبحُ كالملابسِ البالية
وترجع مرة ثانية
تهرج بقلبٍ مكسور

نعم لقد قصدتُ الإيقاع بالقصيدةِ بين يدي حبيب، ولكنني لم أقصد أي إساءةٍ أو إطراء، ولا الهجاء ولا الغزل، قصدتُ فقط شغل تفكيره عن موقفِ المطعم، وقصدتُ أيضًا إثارةَ هذا الجدل في عقله حول شخصيتِهِ، علّهُ يراجعُ عيوبَه تمامًا كما يرى مميزاته، أردتُ أن أوصلَ رسالتي له بموضوعيةٍ دون تجنٍ، وكأن لسان حالي يقول:

«نعم ربما تكون مبهرًا كالطاووس ولكن تمهل فأنت أيضًا جارحٌ كالنسر».

أنا وقصيدة البهلوان

وما إن انتهيتُ من القصيدةِ حتى نهض حبيب واقفًا بجواري بزهوٍ وفرَحٍ شديدين، ينظرُ إلي وبسمةُ الطفلِ المشاكسِ تكاد لا تفارقُ هذا الوجه المنتشي، راقت لي روحُه الرياضية في تقبلِ القصيدة، فبادلته البسمة مرددةً في سري:

«يا رب تكون رسالتي وصلتك يا حبيب من غير ما نخسر صداقتنا ومن غير ما تدبل ضحكتك».

ولكن صوت ماركو مالبث أن قطع هذا الحديثَ الصامتَ بيننا صادحًا:

– إلا باقول لك إيه يا حبيب، الواحد جاع أوي ما تيجي تعزمني على الغداء في أي مطعم؟

فتلاشت البسمةُ من على وجه حبيب وهو ينظر إليه بتوترٍ قائلًا:

– ماشي يوم كدا ابقى آخدك ونشوف مطعم نتغدى فيه.

فراحَ ماركو يرميه بنظرةٍ مُرتابة قائلًا:

– لا النهاردا.

فبدا الضيق على وجهِ حبيب ليرد:

– ماشي اعزمك وماله بعد المغرب نتقابل ونتغدى سواء.

فازدادت نظرةُ ماركوا حدةً وغرابةً ليقول:

– واشمعنى يعني مش دلوقتي ما تعزمني دلوقتي!

احمرَّ وجه حبيب غضبًا من نبرة ماركو المرتابة وقال:

– عشان تكون المطاعم فتحت ما إحنا في رمضان والمطاعم قافلة طول النهار.

عاد ماركو ليصوّبَ عينيه فيه مرددًا:

– لا تعالى انت بس وهتلاقي مطاعم فاتحة ولا انت صايم ما تقول تكونش صايم ولا حاجة؟!تملكني العجبُ بينما استشاطَ حبيبُ غضبًا،

فدنا من ماركو وراح يهمس في أذنه وقد بدا يتوعده أشد الوعيد، فكفّ ماركو لسانه عنه أخيرًا، فمضى حبيب ليجلس هذه المرة بجوارهم على بعدٍ مني متجنبًا حتى النظر إليّ، في حين اكتفى كلٌ من ميري وبيتر بمراقبةِ ما يدور في صمتٍ مريب.

***

في المنزلِ راحت أمي تتابعُ بأسى أخبار فلسطين وشهداءِ الانتفاضةِ من الشباب والنساء والأطفال، على وقع دويّ الرصاص كانت قلوبنا تدمى وتتمزق، أمام صمتٍ قاتلٍ يهيمن على هذا العالم الأعور الذي يكيل بمكيالين، فلا يرى من الشهداءِ إلا ضحايا هجماتِ سبتمبر ولا يرى من العرب والمسلمين إلا بن لادن، فكلنا في أنظارِ الأنظمةِ الغربية بن لادن والظواهري وكلُّنا إرهابيون!

كانت عبارات الرئيس الأمريكي جورج بوش «الابن» في خطاباتِه حادةً تفوح منها رائحةُ العنصرية، أراد بها تبريرَ حربٍ خططَ لها فيما بعد على أفغانستان والعراق.

***

وحلَّ صباح جديد وفتشتُ على لاميا كعادتي فلم أجدها، وبدأتُ أشعر بالملل، وبدأت قوة جاذبة ما تستقطبني إلى كليةِ الصيدلة، إلى حيثُ يجلس حبيب مع رفقته لماذا لا أذهب لأراه ونتحدث ألسنا أصدقاء؟! فلأذهب وأحاول فهم ما يجري من حولي كما نصحتَني يا مصطفى، فلن آخذَ بنصيحتِك الثانيةِ حتى أتمكن من الأولى.

ورحنا نتحاور فراح حبيب يسألني باسمًا:

– إيه أخبارك وأخبار قصايدك؟

– كتبت عن الوضع السياسي العجيب في العالم.

– شفتي عملها الشيخ بن لادن!

فعلقتُ أقول:

– بس ما تقولش شيخ!

رماني حبيب بنظرةٍ من طرفِ عينِه قائلًا:

– ماهم بيقولوا عليه كدا الشيخ بن لادن.

– دا لا شيخ ولا ليه علاقة بالدين من أساسه، دا أساء للإسلام والمسلمين في كل مكان وفي مشاكل بتواجه الجاليات العربية برا بسببه اللي عمله دا جريمة بشعه.

– جريمة ماهم بيقولوا عليه بطل ومجاهد!

– ما فيش أي حد في الدنيا يقول إن قتل ناس أبرياء عُزَّل رايحين أشغالهم ومارتكبوش أي جريمة جهاد دي جريمة إنسانية الإسلام برئ منها.

نظرَ إلي حبيبُ نظرةَ ريبةٍ قائلًا:

– يا سلام يعني دا رأيك!

– مش رأيي بس دي الحقيقة!

– طب إيه رأيك بقى إن أنا سمعت إن الظواهري اتقتل.

– طب يا ريت!

عادت نظرةُ الشكِ إلى عينيه ليعلق:

– يا ريت! ماشي طب يا رب بقى بن لادن يموت.

– يا ريت.

فضيّق حدقتيه بريبة قائلًا:

– لا مش يا ريت قولي آمين.

تعجبتُ منه ولكنني ببساطةٍ رفعتُ يدي أؤمّن:

– آمين يا رب آمين.

لم أكن لأتخيلَ أن عليَّ أن أؤكد هذه البديهيات لأحد، ولكنها ربما صدمةُ ما بعد الحادي عشر من سبتمبر.

حضر ماركو فجأة لينطلق في وجهي كالسهم بغلٍ واضح قائلًا:

– على فكرة بقى الكلام اللي انتِ كاتباه في القصيدة بتاع إن صحابه يستميتون ليجدونه والكلام دا كله مش حقيقي، إحنا لا بنموّت نفسنا عليه ولا حاجه يعني حبيت أقول لك بس!

ورمقَ صديقَه بنظرةِ اشمئزازٍ فابتسم الآخر غيرَ مبال، فعلقتُ بإرتباك:

– على فكرة في حاجات في القصيدة مكتوبة عن سمير البطران اللي عرفتك عليه يا حبيب فاكره.

فرد بضيق:

– لا مش فاكره.

بينما انصرف ماركوا بعصبية فتمتمتُ في سري: «يعني صاحبك اللي مش طايقني لله في لله طلع كمان بيغير منك، ومش فارقه معاك غريبه بجد»، ثم سألته:

– هو ماله بيتكلم كدا ليه؟

– سيبك منه.

– القصيدة عامة؛ بتوصف شخصية موجودة في ناس كتير حوالينا مش الهدف منها مدح أو ذم حد بعينه فاهمني؟

راح حبيب يفركُ رأسه ليتطلع في الفراغِ متصنعًا عدم المبالاةِ ثم قال:

– هي صحيح كانت بتقول إيه القصيدة؟ أصلي مش فاكر كلماتها بصراحة ما ركزتش أوي.

«ما فيش فايدة في غرورك أبدًا» أسررتها في نفسي وأنا أعيدُ عليه الأبيات وهو لا يزالُ يحدق في الفراغ معلقًا على كل فقرةٍ:

– مممم ها.

حتى وصلت إلى كلمة البهلوان فقال:

– قلت لك مايتسماش بهلوان.

حتى وصلت إلى شطرة «وتصبح كالملابس البالية» فقال مغتاظًا:

- لا دي بقى اسمها قلة أدب!

فارَ الدمُ في عروقي وكدتُ أرد عليه المسبة ولكنني ألجمتُ لساني بصعوبةٍ فسكتنا حتى قطع الصمت مرددًا بتودد:

- ما ترسميني يا ليلى ارسميني نِفسي ترسميني.

فاستحضرتُ على الفور وجه أمي الغاضب وهي تقول لي بتحذير شديد اللهجة:

- رُحتِ برضه وريتيه القصيدة!
- يا ماما صاحبه هو اللي...

لتقاطعني بحدة:

- خلي بالك بقى هيجي يقول لك ارسميني اوعي فاهمة! اوعي حسّك عينك ترسميه أنا باحذرك!
- طب أقول له إيه ساعتها؟
- قولي له ما بارسمش ولاد.
- طب ما هو هيقول لي ما انتِ بترسمي كاظم الساهر.

وبالفعل جاء رده:

- ما انتِ بترسمي كاظم الساهر!

فأجبته بما لقنتني إياه أمي:

- كاظم مطرب، شخصية عامة يعني، ما فيهاش حاجة لما أرسمه لكن ولاد لأ ما ينفعش.

أنهينا حوارنا وودعته وانصرفت، ونظرت في الساعة إن العصر يوشك أن يؤذن وأنا لم أصلِّ الظهر بعد، لفت نظري مصلىً قريبٌ في كلية الصيدلة، فتنهدتُ بارتياح، فلم أعتد تفويت الصلوات ولا أحب قضاءَها في غير مواعيدها، ودخلتُ المصلى وصليتُ ثم سلمت، لألتفتَ على صوتٍ جميلٍ يرتل آياتٍ من سورةِ «المُلك»، وترامى على مسامعي اسم المُقرئة، إنها

وفاء، فنظرتُ فوجدتها فتاة منتقبة ترفع غطاء وجهها وترتدي القفازينِ في كفيها، فقالت لإحدى الفتيات:

– اقرئي يا سلمى.

راحت سلمى تتلعثمُ في القراءةِ لتصحح لها وفاء مخارجَ الألفاظِ وأحكامَ التجويدِ بإتقان، فأدركتُ أنني أمام محفظةٍ ماهرة، وعلقتْ وفاء تقول:

– اسمعي أكثر وراجعي أكثر بارك الله فيك.

لترد الأخرى:

– وجزاكِ عنا خيرًا.

– جزاكم الله وإيانا الخير وأدام علينا علمَه ونفعنا بما علمنا.

فعدتُ بذاكرتي إلى الوراء تلقائيًا فتذكرتُ كلماتِ معلمةِ التلاوةِ وهي تثني عليّ مرددةً:

– صوتك حلو في التلاوة يا ليلى ما شاء الله بارك الله فيكِ.

ونقّلتُ نظري بينهن في شغفٍ عن بعد، إنهن منتقبات، لم أجد منهنّ سوى واحدة فقط ترتدي خمارًا يكاد يصل إلى ركبتيها، فشعرتُ بأنني بسترتي القصيرةِ هذه وهذا الكحل الظاهر في عيني لا أتناسب أبدًا مع هذه الأجواء الإيمانية، فنهضتُ أسرعُ بالذهاب حتى لا ترميني إحداهنَّ بنظرةٍ جارحه.

عدتُ إلى نشرةِ الأخبار في التلفاز مجددًا، لم يكن من السهلِ على قلبي الطفوليّ النابض بالبراءة، وروحي المنقسمةِ بين شرقٍ جريح وغرب قاهر، أن تتحمل كل هذا الذي أراه من معايير مزدوجة في هذا العالم الظالم، لم أعد أطيق النشرة ولكن لا يمكنني تجنبها وبخاصةٍ من بعد الحادي عشر من سبتمبر، كانت خطابات بوش عمّا أسماه «الإرهاب الإسلامي» أكثر ما استفزني فيها.

***

في ساحةِ الجامعة بدأت ألاحظ الأوشحةَ الفلسطينيةَ تكسو الأعناق من حولي وأنا أتجول مع لاميا، وجلسنا نتحدث حتى صحتُ فيها أقول:

– لاميا أنا عمالة أكلمك عن الشهداء وأحكي لك عن اللي باشوفه في الأخبار وانتِ كل اللي همك المطعم الجديد اللي فتح جنب الكلية انتِ عايزة تشلّيني!

فصاحت تقول:

– يعني شو أعمل يعني؟! يا ليلى أنا قلت لك أنا مالي في السياسة هادي الأخبار متعودين عليها من زمان.

– يعني انتِ يا لاميا ما بتزعليش على حال بلدك أكيد ليكِ ذكريات هناك.

– والله يا ليلى أنا بحبها لفلسطين بس عمري ما زرتها.

– ليه الزيارة ممنوعة ولا إيه!

– يمكن نروح وما نقدر نخرج أبدا أو حتى ما نقدر ندخل من الأصل.

– للدرجادي!

أومأتْ برأسِها تؤكدُ فتنهدتُ ثم أكملتُ أردد في حزن:

– عشان كدا ما عدش عندك أي إحساس بالانتماء ولا حتى متابعه حاجة.

لتردد على مسامعي حديثًا أصابني بالمرارة:

– أنا بحبها لبلدي بس أنا طول عمري باسمع عنها بس، يعني زيك هيك يا ليلى في التلفزيون وفي نشرات الأخبار أشوف الجرحى والشهداء هيك من يوم ما اتولدت، بس ما فينا نتكلم بالسياسة إذا كان بدنا نعيش في أمان في أي مكان لأنه ما في بإيدينا أي شيء نسويه.

شردتُ في حديثها حتى مرّ أمامنا خالد وأنجيل فجأةً عن بعد، فبدت لنا تلك البسمةُ الساحرةُ في أعينهما وهمساتهما تهفُ كنسائمِ صيفٍ عليلة، فرحتُ أرددُ هامسةً:

– والله أنجيل دي غريبة بجد!

فابتسمتْ لاميا قائلةً:

– قصدك عشان خالد؟

فنظرتُ إليها متعجبةً أقول:

– هو انتِ تعرفي خالد؟

– خالد قريب حمزة زميلنا في الكلية.

– حمزة مش دا الولد اللي بأشوفك بتقفي معاه اليومين دول؟

– آه ابن عمه وحكى لي عنه.

– وإيه بقى اللي بين خالد وأنجيل إيه حكايتهم تعرفي؟

– بيحبوا بعض.

– بيحبوا بعض! دي بتقول لي مفيش قصة حب ولا حاجة. بس والله كنت حاسة من نظراتهم وآخرة الحب دا إيه بقى؟!

– والله ما أعرف.

فرحتُ أكررُ سؤالي عليها بفضولٍ وقد تملكتني الحيرةُ فصاحت بتململٍ تقول:

– يعني بالله شو عرفني أنا يا ليلى! يلّا على المطعم والله جعت!

***

أشرق صباح اليوم التالي فتفقدتُ لاميا كعادتي، بحثتُ عنها في كل مكانٍ فلم أجدها فقادتني أقدامي مجددًا إلى كلية الصيدلة لأجد حبيب كما العادة ها هناك، فرحبَ بي ثم راح يعرضُ عليَّ قصيدةَ هجاءٍ قديمةٍ كان قد كتبها في أحد معارفِه وأحضرها خصيصًا ليُسمعني إياها، شعرتُ به يحاول استعراض عضلاتِه في الهجاء، كان حبيب مبتدئًا في الشعر، وكأن عقله قد صور له أن الهجاءَ يزداد قوةً كلما جاءت ألفاظه أشدَّ نباوة، وقطبتُ جبيني في استياءٍ وأنا أنصتُ لهذا السبابِ المنبعث من هذه الأسطر، كأنه عراكُ فتواتِ الحارة، ثم رحتُ أنظرُ إليه وهو يكرر كلمة «تيت.. تيت!» فسألته:

– إيه تيت دي؟

– دي ألفاظ خارجة ما ينفعش أقولها لك.

– إيه!

فتحتُ فمي وابتلعتُ ريقي وقد شخصت عيناي ذعرًا لأعلق:

– إيه اللي يخليك تقول ألفاظ خارجة أساسًا يا حبيب وفي قصيدة كمان ليه!

– ما هو أصل دي طريقتي لما أحب أكتب هجاء، قُلت أوريكي الهجاء بتاعي بيبقى عامل إزاي.

– الهجاء بتاعك دا مش هجاء دي شتايم الهجاء حاجة تانية خالص! وبعدين يا حبيب أنا ما ينفعش تكتب فيا حاجه زي كدا أبدا!

وشعرتُ بدمي يكاد يتبخر رعبًا وأنا أردد في نفسي: «يادي المصيبة وديتي نفسك في داهية بهبلك يا ليلى أهو دلوقتي هيمسح بكرامتك الأرض قدام الناس!»

فنظرتُ إليه برعبٍ أقول:

– ما ينفعش أنا بنت يا حبيب! بنت ما ينفعش!

ابتسم حبيب وقد أدركَ أنه نجح في إيقاعِ الرعب في قلبي ونبرةِ صوتي وأنا أسأله بعينينِ مقشعرتين:

– هو انت ناوي تعمل معايا إيه؟

بدا لي يشمّرُ عن ساعديه للفتكِ بي بمُعَلّقةٍ من شتائمٍ لا آخر لها بعدما صارت بسمةُ التحدي في وجهه أكثر وضوحًا وهو يردد:

– هتعرفي.. هتعرفي هاعمل معاكي إيه!

فابتلعت ريقي وقد تجمدتُ رعبًا.

***

في خزانة ملابسي بالمنزل وقعت عيني على وشاحٍ فلسطيني بين أغطيةِ الرأس، فأمسكت به ورحتُ أسأل أمي عليه باهتمام:

– إيه دا يا ماما مين اللي جابه؟

– أبوكي جابه في زيارته الأخيرة معاه شافه بيتباع في المحل ففرح بيه واشتراه.

تبسمتُ وأنا أتأملُ هذا الوشاح الذي يرمز بالكثير، ورحت أجربُ ارتداءه أمامَ المرآة وأنا أكاد أرى بين هذه الخطوطِ المرتسمةِ فيه تاريخًا من النضال الأسطوري، ثم وضعته في مكانٍ ظاهرٍ في الخزانة.

***

مر اليوم الثاني ولم يزل هذا القلب الصغير لم يتعلم، أخذتني أقدامي مجددًا إلى كليةِ الصيدلة تمامًا كالمجذوب، أكاد لا أفكر بينما أسمعُ في كل خطوةٍ من خطواتي على المصعدِ صوتَ طنينِ قلبي كقرعِ النواقيصِ يهمس لي «ابتعدي» فاقترب أكثر..

تبسم لي حبيب وألقى السلام كعادتِه، ولكن بهدوءٍ غريب، فلا مزاحَ ولا ضحك وليس سوى دفتر الأشعار الذي طلبتُه منه، ورائحةُ التوترِ تتخللُ هذا الجو المريب، ليُخرجَ لي بعضًا من الصور الفوتوغرافية له بين زملائه القدامى في جامعةٍ خاصةٍ أخرى قبل أن ينتقل إلى جامعتِنا، لم أطلب تلك الصور منه، ولا أدرِي لماذا راح يعرضُها عليَّ باهتمام، ولكنني فرحتُ بها كثيرًا وشعرتُ بأن صداقتنا رغم التوترِ بدأت تتوطد، ليردد وهو يريني الصور:

– دول صحابي القدام رحنا مع بعض رحلة وأخدنا صور بقى وكدا.

– بجد رائع يا حبيب قول لي أساميهم.

– ماجد كريم بيشوي أحمد.

راح يستعرض الأسماء والبسمة الناعمة على وجهي وأنا أتأمل الصور، وبنبرةٍ طفولية فضولية استوقفته:

– لا سيبك من الأسامي بص بقى هاقولك على حاجة انت هتشاور على الشخص وأنا هاقولك من ملامحه صفات شخصيته ونشوف أنا كدا عرفت أجيب الشخصية من الملامح ولا لأ؛ لأني بيتهيأ لي إني عندي المهارة دي.

فابتسمَ حبيب بحماسةٍ قائلًا:

– خلاص اتفقنا.

وبدأ يشير وأنا أقول:

– دا عصبي.

– يعني شوية آه.

– ودا هادي وطيب إنما دا بقى واضح إنه عدواني شوية.

– فعلا عرفتي إزاي!

وهكذا رحتُ أمارس هوايتي المفضلة حتى أخطأتُ في تفرسِ ملامح اثنين لكنني لم أستسلم وقلت:

– معظمهم جبتهم صح يا حبيب تنكر؟!

فتبسم قائلًا:

– لا ما انكرش ماشي يا ستي كملي.

أكملتُ حتى وصلت لأحدهم فقلت:

– دا باين عليه هادي.

فقال:

– دا أنا على فكرة!

بدت عليّ المفاجئة وأنا أدقق في صورة هذا الفتى النحيل أمامي ضاحكةً أردد:

– لا مش معقول دا انت! مش مصدقه دا انت بجد إزاي!

فتبادلنا الضحك لأكرر بدهشة:

– دا مالوش أي علاقة بيك خالص!

فعاد يضحك فإذا بماركو يصدح بنبرة استهجان قائلًا:

– هي مش دي الصور اللي طلبتها ميري منك إمبارح، انت مش كنت جايبها لها عشان تتفرج عليها!

فرد حبيب بضيقٍ:

– ما هي اللي ما جاتش يعني أعمل لها إيه!

تجاهلتُ ما قاله ماركو، فأنا أعلم أنه يحاول استفزازي جاهدًا كعادته لأغرُبَ عن وجهه ووجه صاحبه، وانصرف ماركو، فلم يعبأ حبيب وأكمل قائلًا:

– بصي بقى دي رحلة تانيه على مركب.

اتسعت ابتسامتي كواحةٍ تعبق بالزهور ورحتُ أقول:

– عارف يا حبيب أجمل حاجة في الدنيا الصداقة إن يبقى لك صحاب يحبوك وتحبهم وتخرجوا وتتفسحوا وتلفوا البلد خليك دايما كدا يا حبيب، ما تنساش صحابك أبدا، اتجمعوا واخرجوا مهما كبرتوا ومهما عدّى العمر، اللمه دي ما تتعوضش أبدًا، تعرف أنا نفسي أعمل كدا مع صاحباتي البنات.

– طب ما تعملي كدا إيه اللي مانعك؟

فهمستُ بحزن:

– صعب أنا بنت والبنات حياتهم وظروفهم مختلفه بس مين عارف يمكن يجي اليوم وأقدر.

فأكملَ يشيرُ قائلًا:

– الولد دا بقى كان زميلنا واتخرج وجه الجامعة زيارة فقلنا نتصور معاه.

فسألته باستغراب:

– جه الجامعة زيارة! هو ينفع حد يجي الجامعة زيارة بعد ما يتخرج؟

– أه عادي ينفع طبعا.

فرحتُ أسأله بلهفةٍ:

– يعني انت بعد ما تتخرج السنة دي ممكن تيجي الجامعة زيارة يا حبيب؟

فقال بنبرةٍ حاسمة:

– طبعا!

لم أتمالك نفسي من الفرحة، وانتفضتُ بلهفةِ طفلةٍ دخلت فجأةً عالمًا من العرائسِ لأنطلق قائلة:

– بجد يا حبيب! يا ريت... ياريت تجي! انت بتتكلم جد؟!

وفجأة ظهر ماركو مجددًا وكأنه كان يتسمع الحديث، فأسرع حبيبُ إليه ليصرفه بصعوبة هذه المرة، ثم عاد فكررتُ له أمنيتي علّه يعدني بتحقيقها ولو لمراتٍ قليلة:

– بجد! بجد ممكن تيجي زيارات يا ريت يا حبيب يا ريت!

تورد وجه حبيب بابتسامةٍ خجولة ثم همس بصوتٍ دافئ يقول:

– وليه لا مش جايز مثلًا ارتبط ببنت من هنا؟

وألقى إلي بنظرةٍ من طرف عينِه ولا تزالُ البسمةُ الخجولةُ على وجهه فعلقتُ ضاحكةً بنبرةٍ مشاكسة:

– آآآآآه قول كدا بقى، عشان كدا بتيجي كلية صيدلة وأنا باقول حبيب بيجي ليه كلية صيدلة وهو طِب أساسًا! أتاريك بتدور على عروسة وطبعًا صيدلة هنا كلها أقباط يعني هتنقي براحتك بقى! أيوه.. أيوة اعترف!

فاختفت البسمةُ من على وجهه فجأةً وحلَّ الغيظُ مكانها جليًا ثم علا صوته غاضبًا يقول:

– لأ... لأ!

فسكتُ متعجبةً من ردةِ فعله المفاجئة ثم سألته عن سببِ ضيقه فأشاح وجهه عني مرددًا بنبرةٍ حادةٍ:

– ما فيش، ما فيش حاجة!

فتمتمتُ في سري: «وانتِ مالك انتِ بحياته الشخصية آدي آخرة الحشرية بلا ارتباط بلا زفت». وغيرتُ الموضوع لأسأله عن دفترِ أشعاره الذي وعدني بإحضاره لأتصفحَه وأبدي فيه رأيي الأدبي كما اتفقنا، فناولني دفتره لكنه طلب مني ألا أقرأ النصف الآخر منه، ذلك النصف الذي تتصدره رسمةُ الصليب، فسألته:

– هي دي قصايد دينية؟

ارتبك حبيب لوهلةٍ ثم قال:

– قصايد دينية... أيوة... أيوة قصايد دينية.

اعتدتُ أنا أيضًا على نظم بعض قصائد الابتهال والمديح النبويّ من حينٍ لآخرَ؛ ولذا بدا الأمر لي طبيعيًا فرحتُ أقلّبُ في الدفتر ولكنه انتزعه مني فجأةً قائلًا:

– انتِ بتبصي فين؟ لا استني خدي اقري القصيدة دي.

وراح يضع يده على القصيدةِ مؤكدًا:

– دي ها... اقري دي ماشي؟

– ماشي.

– أنا هاروح أقف مع صحابي هناك شوية على ما تخلصيها وأجيلك تاني.

لفتَ انتباهي اهتمامُه الغريب بهذه القصيدة على وجه التحديد فتمتمتُ في سري: «يمكن دي أحلى حاجة كتبها لما نشوف مستواك في الكتابه إيه يا حبيب».

وبدأت أمرر عينيّ لأقرأ:

«كل حاجة فيكي بتقول إنك بتحبيني، نظرة عنيكي، ضحكتك حتى

اللهفة اللي في صوتك، كل حاجة إلا انتِ انتِ بس اللي بتداريها، قولي لي بحبك هاموت وأسمعها منك، هاموت من شوقي ليها، قلبي بيتعذب في حبك وانتِ مش حاسة بيا، أنا في هواك قيس فكوني لي ليلى فالحب لا تحلو نسائمه إلا إذا غنى الهوى ليلى...».

ولم أستطع إكمال باقي الأسطر، شعرتُ بعينيّ تتسعان فجأةً وقد بدأتُ أفقد السيطرةَ على ملامحي المتجمدةَ، ونبضات قلبي التي تدوي في صدري كقرعِ الطبول ليزداد ريقي جفافًا على جفافه وأنا أتساءل ما هذه الجملة الأخيرة من يقصد! هل يقصدني أنا؟! لا هذه أبياتٌ ولا تلك قصيدةٌ من الأساس! ماذا يريدُ بهذا النثرِ إذن! همستُ أقول:

«استر يا رب... استر يا رب... يادي المصيبة!»

دارت هذه الأفكار في بالي وأنا أرمقه من ظهره عن بعد يحادثُ أصدقاءه، حتى استدار فجأة تأهبًا للحضور إليَّ بينما أكاد أنا أتجمد في مكاني رعبًا.. لم يعد لدي من الوقت ما يكفي للفرارِ بجلدي وترك هذا الدفتر جانبًا ماذا أفعل الآن إذن... ماذا أفعل؟!

***

الفصل الثاني

الحب المستحيل

لوكنتُ أعرفُ للهوى
جسداً لقتلته
ولو علمتُ كيف سحرك
لكنت أبطلتُه
ولو بدا لي فيك شقائي
ما عرفتك فما عرفته...

«استر يا رب... استر يا رب... يادي المصيبة!»

دارت هذه الأفكار في بالي وأنا أرمقه من ظهره عن بُعد يحادثُ أصدقاءه، حتى استدار فجأة تأهبًا للحضور إليَّ بينما أكاد أنا أتجمد في مكاني رعبًا لم يعد لدي من الوقت ما يكفي للفرارِ بجلدي وترك هذا الدفتر جانبًا ماذا أفعل الآن إذن... ماذا أفعل؟!

واهتديتُ أخيرًا إلى الحل الأمثل، وهو التجاهل، سأتجاهل القصيدةَ كأنني لم أرها، أو كأنني مررتُ عليها مرور الكرام، وبالفعل حضر حبيب وأنا أتصنع الانخراط في القراءةِ فسألني:

– إيه.. إيه رأيك؟

ثم نظر إلى الصفحةِ مندهشًا يقول:

– دي مش القصيدة اللي أنا قلت لك تقريها!

– ما هو أنا قريت التانية خلاص وخلصتها.

بدت عليه الصدمة وهو يراني أكمل قراءتي ببرودٍ وتجاهلٍ شديد.

فراح يسأل مندهشًا:

– إيه؟ قريتيها؟ قريتيها بجد؟!

– أيوة قريتها.

– وبعدين.. طب إيه رأيك؟

اضطررتُ أخيرًا إلى مواجهةِ عينيه الغارقتين في خليطٍ من الصدمةِ والخوف والقلقِ لأردد بارتباك:

– عادي يعني.. عادية.

عاد يكرر جملتي مصفرَ الوجه قائلًا:

– إيه؟ عادية! عادية يعني إيه!

– قصدي متوسطة.

ازدادت نبرته توترًا وعيناه اتساعًا واستنكارًا، وهو يكادُ يغوص في عيني الهاربتينِ بومضاتٍ ولفتاتٍ متقطعةٍ ليتساءل عن قصدي في حيرةٍ فقلت متلعثمة:

– قصدي يعني، قصدي إنه... هي يعني أقل من بقية قصايدك في المستوى.

بدأتُ أشعر بشيء في أعماقه يكاد يتفجّرُ ألمًا، لم أستطع تحمل نظرتَه فأسرعتُ أسأله في قلق:

– هو انت زعلت؟

تجلت نظرات الصدمة في عينيه وكأنني أعصُر قلبه عصرًا فسألته:

– انت زعلت كدا ليه؟ أنا مش قصدي.. أنا قصدي يعني إن انت مستواك أحسن من كدا.

غرق في صمته للحظاتٍ وهو لا يزال ينظرُ إلي نظرةَ جريحٍ تلقى سهمًا من خليلِه، ولكن هذا السهم آذاني أيضًا فهربتُ من نظراته بابتسامةٍ مصطنعةٍ وحدقتُ في الفراغ لأكمل وقد بدا التوتر على قسماتي:

– انت فاكر القصيدة اللي كنت بتقول فيها: «ملعون الحب لو أرجع لك» فاكرها؟

وأخيرًا بدأت تعابير وجهه تتغير قليلًا ليرد:

– أيوة «يا فايتاني لوحدي».

– آه أهي دي كانت حلوة أوي.. هجاء على غزل، واحد عمّال بيشتم في واحدة هو المفروض بيحبها!

وضحكتُ بارتباكٍ ولم تزل آثار الألم على وجهه فأكملت:

– يا ريتك تجيبها لي أقرأها.. هي عندك؟

– لأ.

طلبتُها منه فوعدني بإحضارها لكنه ما لبث أن عاد يتحدثُ عن رسالته

التي أسماها قصيدةً من جديد مرددًا:

– وريني الكشكول، انتِ شكلك ما قريتيش القصيدة كويس.

– لأ.. قلت لك قريتها!

فمدّ يده يقول:

– لا انتِ ما قريتيهاش، هاتي أقرأها لك أنا.

– لأ... أنا باقرأ في قصيدة تانية دلوقتي ولسه ما خلصتهاش.

– هاتيه بس! هاتي الكشكول!

وراح يشدُّ الدفتر من يدي لينتزعه فتمسكتُ به بقوةٍ مرددةً بارتباكٍ وعصبية:

– أنا مش عارفة انت ليه مُصِّر على القصيدة دي! ما أنا قلت لك قريتها خلاص!

بفمٍ مفتوحٍ وعينين متسعتين راح يتمعنُ في هذا الخوف المتسلل مني وأنا أتمسك بالدفتر، بدا لي من نظرته العميقةِ وكأنما بدأ يفهمُ شيئًا ما، فأشحتُ وجهي عنه في ارتباكٍ بعدما ترك لي الدفتر أخيرًا، فأكملتُ أبرر انفعالي ولم تزَل عيناي مثبتتانِ على الورق:

– ما هو لو قريت كل قصيدة في الدفتر دا مرتين هاحتاج ساعات عشان أخلص كل دا يا حبيب!

وتصنعتُ القراءة هاربةً من نظراته بينما ظل ماثلًا أمامي مكبوتًا وكأنما يقفُ الكلام حائرًا على لسانه فرفعتُ الدفتر أغطي به وجهي كغريقٍ يمسكُ بطوقِ النجاة.

ولكنني لم أستطع التركيز في القراءة حتى رغم ابتعاده، لقد طافت ببالي تساؤلات كثيرة حولَ هذه الرسالة الغرامية الغامضة، حتى بدأت أصداءُ صوت إنجي تحضرني وهي تقول: «قال لي أنا معجب بيكِ وعايز أتقدم لك وبعدين قال لي كنت بهزر وفضل يضحك»، ثم بدأت أستحضر نظرة

حبيب وهو يردد على مسامعي: «هتعرفي هاعمل معاكِ إيه!»

إنها خدعة إذن! ومقلب من مقالبِ هذا البهلوان اللعوبِ للانتقام من قصيدتي. حسنًا، فإذا كان الأمر كذلك يا حبيب وكنت بالفعل تقصدني أنا بهذه الأسطر التي سميتها كذبًا قصيدةً فلتلعب على غيري يا بهلواني العزيز! فأنا لست على دينك حتى توقعني في شباكِ هذه الخدعة المعروفة ولن أعيرها بالًا من الأساس! سأفوّت عليك فرصةَ الانتقام وسنعود أصدقاء كما كنا، وستعرف يومًا ما أنني لم أكن أقصد إهانتك بما كتبت وإنما أردتُ نصحك وتقويمك فقط، بهذا همستُ في سري وأنا أراه ينظرُ في النافذة شاردًا.

وأبديتُ له رأيي في بعض أبياته، وقد بدا لي هادئًا أخيرًا فبدأتُ أشعر بشيء من الارتياح، أيكون ذكر اسمي في هذه الرسالة الغريبة صُدفةً ليس إلا؟ ربما.. بهذا أسكتُّ خاطري وتناسيتُ الأمر لأريح ذهني قليلًا، وتابعتُ القراءة، ولكن حبيب لم يلبث أن قطعها عليَّ مناديًا بجوار ماركو فأقبلتُ عليهما فسألني حبيب سؤاله الأعجب:

– ليلى.. هو انتِ فاكرة إني واد بتاع بنات ومقطع السمكة وديلها وكدا؟!

استغربتُ سؤاله ولكنني مرّرتُ نظري في الفراغِ قليلًا ثم أجبتُ باسمةً:

– يعني.. أه ممكن.

فهز رأسه متبسمًا ثم نظر في عينيَّ بجديةٍ ليقول:

– لأ، أنا مش كدا خالص، أنا والدتي مربياني على حاجة من صغري قالت لي:

«يا حبيب تلات حاجات في الدنيا دي تبعد عنهم طول عمرك وإلا حياتك تتدمر، الخمرة والستات والمخدرات، وطول عمري وأنا ماشي على كلامها».

تعجبتُ من حديثه، فمن المفترض أن هذا الأمر لا يعنيني في شيء فما هذا الذي يحاول إيصاله لي إذن؟ لو كان على ديني لظننتُه ينوي التقدم

لخطبتي.. أكلُّ هذا من أجل قصيدة كتبتها فيك يا حبيب! إنها «البهلوان» وليست «الدنجوان!» قلتُها في سري وهززتُ كتفيَ وأنا أمررُ عينيّ في الفراغ مرددةً:

– طيب، دي حاجة كويسة.

ثم أكملتُ أقول:

– بُص بقى عندك خطأ نحوي هنا في البيت دا.

وأشرت في الدفتر بينما بدا على وجهه الامتعاض حتى انضم إلينا بيتر فراح يشبهنا بجرير والفرزدق، فراقَ لي التشبيه، ولكن ماركو زادها قائلًا:

– أو ولادة وابن زيدون.

فرددا:

– أيوة، فعلًا.

فأسرعتُ أعلّق:

– لأ، جرير والفرزدق أضبط لأن دول هم شعراء الهجاء.

لم يرق لي تشبيهنا بشعراء الغزل، فلا نحن عشاقًا ولا بيننا أبيات غزل، فأسرع حبيب معلّقًا:

– أنا بقى جرير وهي الفرزدق.

فرددت باسمة:

– لأ.. خليني أنا جرير؛ لأن جرير درسنا عنه: «أنه كان لطيفًا في الهجاء، عفيفًا في الغزل».

ولكن جرأة حبيب وتهوره جعلاه يختطفُ الكلمةَ من على لساني ليصدح أمام صاحبيه قائلًا:

– خلاص اكتبي فيا غزل عفيف يا ليلى!

مرت ثوانٍ وأنا شاخصةَ العينين أحدقُ فيه في حالةٍ من الصدمةِ

الشديدةِ وعدم التصديق وكأنني تلقيتُ لتوّي صفعةً منه، بينما بدأ وجهه يصفر رعبًا وخيمَ السكونُ للحظات على الجميع، حتى شعرتُ به من نظرةِ عينيه يكاد يتساقطُ أمامي منهارًا، فأسرعتُ أغمضُ عيني في محاولةٍ للهروب من الموقف كله، وكأنما قُدّرَ لنظرة ليلة المطعم أن تتكرر من جديد، وأشحتُ وجهي عنه مكملةً حواري مع صديقيه ببسمةٍ هادئةٍ علّي أنهي ما جرى، ولكن حبيب بدا فجأةً كالبركان الثائر وقد ظنّ أنني أتعمد إهانته علنًا للمرةِ الثانية، ففتح فمه موشكًا على الصراخ في وجهي لولا نغزةً جاءته في ذراعه من ماركو في آخر لحظة، لم تكن رأفةً من ماركو بي، بل أراد بها فقط مزيدًا من الوقت لاكتشافي عن كثبٍ ومن ثم الإجهاز عليّ بالضربةِ القاضيةِ في الوقتِ المناسب.

لم يكن إصراري على وضع حدٍ لغرور حبيب في حينٍ أو تجاهل تصرفاته المريبة في حين آخر ليزيده إلا إصرارًا على إصراره في مواجهتي بل والنيل مني، متخطيًا الحواجز ومتجاهلًا أقوى الخطوط الحمراء، لتدق من هنا طبول الحرب الباردة بيننا.

***

ازدادت حدةُ الهجماتِ العدوانيةِ الغاشمةِ على شبابِ المقاومة، وترددت على الشاشات صورُ الشهداء من الأطفال والنساء والعجائز، بل وحتى المسعفين، وتملكني الألم لحالِ العرب والمسلمين في فلسطين والعراق، وهذه الشعوب المهددةِ بالغزو الأمريكي في أي وقت بحجةِ الإرهاب، فأنا تلك الفتاة القادمة من الجزيرة العربية، لم أزل أحمل في طيّاتِ قلبي روح العروبةِ والانتماء لأمةٍ إسلاميةٍ واحدة، وأمسكتُ بقلمي علّي أجد متنفسًا لهذه الصرخة العميقة داخلي لأكتب:

صرخة عربية..
أسمعك يا قلم تبكي
حتى من قبل أن أكتب

إن شُلّ في العين دمعي
كيف ليدي أن تُعرب
الصرخةُ أعمقُ من قلبي
في داخلِ رئتي تتشعب
لكن لن تخرج أبدًا
فالبوحُ من الصعب أصعب!
أسألُ عن أرض تبكي
دمًا لا دمعًا يُسكب
وعن حضاراتٍ سُحِقت
وأخرى من دمٍ تشرب
وأنا في هذا الضباب
فروة في جسدِ أرنب
عليَّ أن أخفضَ رأسي
فلا أملك أن أغضب
لأنني ولدت يومًا
من بين بني يِعرُب
حُكمِ على العربي أبدًا
أن يُقذفَ، يُضربَ ويُعذب
فالطفل فينا عندهم
هو الإرهابيُ المرعب
لأن القاضي قد حكم
فالبريء هو المذنب
إلى متى يا أمتي
الصوتُ فينا لا يَشجُب؟
إلى متى يا أمتي
بالصمتِ نلوذُ ونهرُب؟

كتبتها والغضب يتخلل كل ذراتِ جسدي، غضبٌ ممتزج بتوترٍ واضطراب ما، لقد كانت نفسي تحدثني بأن ثمة شيء ما يجهزه لي صديقي اللدود وربما علىّ توخي الحذر، وما إن التقيته صبيحةَ اليوم التالي في ساحة الجامعة حتى لمحتُ فيه تغيرًا واضحًا، فذكرته بلطفٍ بقصيدتِه القديمة التي وعدني بإحضارها:

– حبيب، كتبت لي القصيدة، قصيدة يا فايتاني لوحدي.

– لأ.

– ليه بس.. شُفت كنت عارفة إنك هتنسى!

فنظر إلي وهو يكاد يقتلني بعينيه ولكنني أكملتُ ببساطة:

– طب انت حافظها؟

رد بصوتٍ مختنق:

– أيوة.

– ياه! وساكت مستني إيه! تعالى نقف على جنب وأنا هاطلع ورقة وقلم وأكتبها وراك.. إيه رأيك؟

ببراءتي المعهودةَ حاولتُ عبور كل ما مضى من أجواءٍ مشحونةٍ بيننا، في حين كان هو يستشيط في غضبه محدقًا في وجهي، مضيّقًا حدقتيه بغِلٍ ليومئ لي برأسه كالمتوعدِ قائلًا:

– هاقولها.. هاقولها لك يا ليلى.. هاقولها لك!

فبدأتُ أتوتر وأنا لا أفهمُ لِمَ كل هذا الغِلّ! حتى مررنا بأنجيل وكرستين فبادلانا السلام وعانقاني ليهنآني بحلولِ شهر الصيام فقالت أنجيل:

– انتِ فين يا ليلى ما حدش بيشوفك من أول رمضان ما بدأ.

لتعلقَ كرستين:

– يمكن عشان الصيام بقى مواعيدها ملخبطة.

فأجبتهما:

– لأ والله يا جماعة، دا حتى أنا باجي كلية صيدلة كتير وبادور عليكم مش باشوفكم خالص.

فعلقت أنجيل متنهدة:

– الامتحانات بقى انتِ عارفة.

ألقت كرستين نظرةً متفحصةً عليَّ ثم قالت:

– مش معقول خسيتِ أوي من الصيام يا ليلى!

فتبسمتُ لها وفجأةً وبدونِ أيةِ مقدماتٍ أدار حبيب ظهره لهما ليصبح في مواجهتي تمامًا، ثم اقترب بخطواته مني وأنا في حالةِ دهشةٍ حتى صدحَ عاليًا يقول:

يا فايتاني لوحدي ولا سائلة

وقالوا لك لو تتقل تغلى!

إنها القصيدة إذن، تبسمتُ كردةٍ فعل لهذه المفاجئةِ، ولكنه أمعنَ النظر واقتربَ أكثر أمام الكل ليردد بإيماءةِ رأسٍ منفعلًا:

لا بقى دا انتِ تبقي هبلة

لو فاكرة هارجع اشتاق لك!

اضطربتُ بشدةٍ، عيناي تدوران بين ملامحِ وجهه المنفعلة وعيون صديقتيّ المضطربة، فأدنى وجهه من وجهي في حالةٍ من التحدي الصارخِ مرددًا:

ملعون الحب لو أرجع لك!

ثم انتفضَ ليصيحَ فجأةً في وجهي:

اكمني بحبك!

فانتفضتُ رعبًا وابتلعتُ ريقي بشكل لا إرادي وأنا ما زلتُ أستترُ ببسمةٍ رسمتها على وجهي بينما بدأتُ ألمح تساؤلاتٍ حائرةً تطلُّ عليّ من عيون

صديقتيّ المتنقلة في ريبةٍ وترقبٍ بيننا، فراح يكملُ وأنا أهمس في سري: «ياريتني ما طلبت اسمعها.. يا ريتني ما طلبت أسمعها!» حتى أكمل منفعلًا:

لا يا شيخة!

فاكراني في إيدك شخشيخة!

فبدأ العرقُ يتصببُ على وجهي الذي أمسى في برد الشتاءِ جمرةً من نار، ولا تزال هذه البسمة المتجمدة على فمي فرحتُ أثبتُ نظري على كرستين لأتفادى النظر إليه، فأربكني ذلك الذهول المطلّ من عينيها أكثر، فضحكتُ ضحكةً خفيفةً لأوعزَ لها بأنها مُزحةً من مزحاته لا أكثر، فلم تزدها ضحكتي المضطربة إلا قلقًا لتعود فتنظر إليه في ريبةٍ ولسان حالي يقول: «يا أرض انشقي وابلعيني!»

وما إن انتهى أخيرًا من قصيدتِه حتى علقتُ ببسمتي التي أرهقت فمي:

– حلوة.. حلوة أوي يا حبيب.

لعلي أطمئنُ الجميع أنه كان أداءً مسرحيًا لقصيدةٍ فحسب، ولكن بسمتي الباردةَ تلك كادت تشلُّ حبيب غيظًا أكثر فأكثر، فانصرف غاضبًا دون أن يلقي السلام على أحد، فاستأذنتُ أخيرًا كمن تحرر لتوّه من الأسر.

وانطلقتُ إلى دورة المياه لأصبِّ بعضٍ من دفقاتِ المياه على وجهي الملتهبِ كجمرِ النار؛ لعلّي أفيق من هذا الاضطراب المفاجئ، فبدأت الخواطر تجول في رأسي وتتصارع وأنا أمام المرآة أفكر، شعرتُ بهذه الصورة الماثلة أمام عيني في المرآة تخاطبني بحدةٍ قائلة:

«دا يقصدك يا ليلى أكيد دي مش عايزة كلام!» فأجبتها في سري: «لا مستحيل.. دا بيلقي القصيدة؛ لأني طلبتها منه بس مش أكتر!» فتعود ليلى الأخرى تحذرني: «هتودي نفسك في ستين داهية وهتبقى فضيحة.. الولد ده بيحبك!» فأجبتها وأنا أمسحُ وجهي بأناملي المبتلة: «لا ما بيحبنيش ولا حاجة.. حبيب ما يعرفش يحب أساسًا.. ولو حب هيحب واحده مسلمة

محجبة من وسط كل البنات ليه؟ مجنون مثلا! حُب إيه وكلام فارغ إيه! ما فيش حاجة اسمها حب من أساسه!» واستحضرتُ أصداء أصوات أمي وجدتي: «ما فيش حاجة اسمها حب في الواقع، دا كلام أغاني الشعراء بيضحكوا بيه على عقول البنات».. ثم همست: «حتى لو يقصدني هيفهم لوحده أكيد، مش محتاجة أفهمه أصلا، دي بديهيات!» وجففتُ وجهي مرددةً: «يمكن عايز يرد بالشتايم اللي فيها على البهلوان!» وهكذا أمست «البهلوان» سبيلي للخلاص من كل الأسئلة المتعبة!

أحيانا تكون السذاجةُ النابعةُ من صغر سنّك أو عزلتك عن الناس بوابتَك نحو خطرٍ مُحدق، وأحيانًا يفوق التجاهل في خطره المواجهة، حتى ولو كان للمواجهة ثمنٌ يصعبُ عليك دفعه.

***

بدأت الدقائق والساعات التالية تحمل لي توترًا أكثر فأكثر، ولكن شيئًا ما بداخلي يتشبثُ بهذه الصداقة إلى آخرِ رمقٍ كأنها قشة الغريق.

وأشرق صباحُ اليوم التالي، ودخلنا في الثلث الأخير من شهر الصيام ليكون هذا اليوم يومًا من أصعب أيامِ حياتي، اليومَ الذي لم أنسه ولن أنساهُ ما حييت.

انجذبتُ إلى كليةِ الصيدلة كعادتي وبادلتُ حبيب السلام ثم رحتُ أقول:

– على فكرة يا حبيب أنا كنت أقصد إنك تملَيني القصيدة أكتبها مش تلقيها عليَّ.

فأخرجَ من حقيبته ورقة وراحَ يقول:

– ما هو أنا كتبتها لك أهو.

وأعطاني الورقة فظننتُ أن عليّ كتابةَ ما فيها ثم إعادتها له، ولكنه راح ينظر إليّ قائلًا:

– لا دي عشانك.. أنا عندي غيرها.

– يعني انت كتبتها لي مخصوص! شكرا يا حبيب!

وتبسمتُ بامتنانٍ شديد، لكن صوتًا ما كان يهمس لي: «ستكون هذه الورقة قريبًا آخرَ ما سيتبقى لك منه»، ووضعتها في حقيبتي بحرص، ثم طلبتُ منه دفتر أشعاره لأكمل قراءة ما تبقى لي من قصائد في صمتٍ وهو يتكئ على الجدار واقفًا بجانبي.

لم تمض سوى دقائق من الصمتِ حتى ظهر ماركو على بُعدٍ في خلفية نظري ثم أتت ميري فجأةً وبصحبتها اثنتين من زميلاتِها ليهمسا لحبيب فأخرجَ شيئًا أبيضًا من قميصِه، ثم وضعَ ما يحمله على رأسِ كل واحدةٍ منهما.. ما هذا.. وماذا يفعل؟ هل يباركهما؟

لست أدري.. لن أسأل ولن أنظر، هكذا قررتُ فجأةً وبدون أيةِ أسبابٍ ولكن قلبي بدأ يضخُّ دماءَ الخوف والاضطراب في عروقي فجأةً، وكأن شيئًا ما بداخلي بدأ يرفض وجودي ها هنا، شعرتُ بنفسي غريبةً في مكان غريبٍ مع شخص لا أعرفه، من يكون حبيب إذن ليقوم بهذه الطقوس الدينية لزملائه؟!

راح هذا السؤال يفرض نفسَه عليَّ بشدة، ولم أكد أبتلع سؤالي الصادمَ الأول حتى كرر الأمر نفسَه مع ميري، ثم دنت منه ميري فجأةً ورفعت ذراعيها حولَ ياقةِ قميصه بحميميةٍ غريبةٍ لتهمس في عينيه بنعومةٍ أنثويةٍ واضحة:

«صلّيلي يا حبيب، صلِّيلي، لأحسن خايفه أوي».

جاءت حركاتها ناعمة بشكل ملفتٍ وهي تمعنُ التأمل في ملامحه عن قربٍ شديد أمامي، وأنا أرمقهما بطرفِ عيني يتهامسانِ بابتسامةٍ حميميةٍ غريبةٍ بينما أحاول جاهدةً امتصاصَ كل هذه الصدماتِ المتوالية.

راحت الاسئلةُ تتدافع على عقلي كفوجٍ من الغربانِ الناعقةِ بينما أحترق داخليًا كسيجارة مشتعلة، مستشيطةً في غضبي منها ومن نفسي الغاضبةِ

في آنٍ واحد، لم أعهد عليهما أبدًا هذا القُرب من قبل.. أنا أعرف حبيب منذَ عام، فمن تكون هذه له لتدنو منه بهذا الشكل!

كانت ميري على قدرٍ من الجمال، بيضاءَ البشرة قصيرةً رشيقةً عسليةَ العينين، ذات شعرٍ بنيّ طويلٍ ينسابُ على كتفها كالنبع الجاري، تبدو ببُنيتها الصغيرة وملابسها الضيقةِ الكاشفةِ لمفاتنِ جسدها كدُميةِ «الباربي» بجانب حبيب، رمقتها بنظرةٍ تلو الأخرى وأنا أحادثُ نفسي سرًا:

«ما لكيش دعوة مالك ومالها! فوقي بقى وما تبصيش! دا مجرد زميل.. زميل وبس!»

رميتُ نفسي بهذه العبارةِ علّي أُخرِس هذه الأسئلةَ المتفجرةَ في ذهني، ودسستُ رأسي في الدفتر معرضةً عنهما بعد بضعِ لمحاتٍ مكمودةٍ لم أظهرها، فلم أعد أرغب في نظرٍ أو سماعٍ أو حتى فهمٍ لأي شيء، بينما لا أعرف ما هو موقع ماركو الآن من كل هذا! ولكنه وبالتأكيد كان يدير هذا المشهدَ أو شيئًا منه، أردتُ بشدة الإلقاء بهذا الدفتر جانبًا والهروبَ في رحلةٍ مكوكيةٍ إلى أي مكانٍ آخرٍ أفرُّ فيه من كل شيءٍ وأي شيءٍ، أفرُّ فيه حتى من نفسي التي لا أفهمُها، أطالت ميري ولكنها في النهاية ذهبتْ بينما نظرَ لي حبيب مبتسمًا يقول:

– دول ولادي.

– إيه.. ولادك يعني إيه؟! أصغر منك في السن يعني؟

فابتسم مستغربًا حتى وقف أحد الشباب فجأةً يسأله:

– هو انت اللي هتدينا الدرس النهاردا يا حبيب؟

فأجابه:

– أيوة.. أنا.

وانصرف الشابُ إلى زملائه بينما استدار حبيب لي ليقول:

– لأ.. ولادي يعني ولادي في الكنيسة.

– في الكنيسة؟

– أيوة ما هو أنا بادَرّسهم في الكنيسة.. أصل أنا شَمَّاس.

أشحتُ وجهي عنه بحدةٍ لا إراديًا وألقيتُ بنظري في الدفتر فجأة، وقد بدأتُ أفهم سبب تردده الدائمِ على كليةِ الصيدلة حيث يتواجد العددُ الأكبر من أقباطِ الجامعة، وابتلعتُ ريقي وقد امتغصَت معدتي الخالية فجأة.. لقد بدأت أدرك الأمر، شمّاس في الكنسية! ميري تتودد له! أنا أصابني الغيظ! ما كل هذا الجنون! يكاد عقلي يشلُّ حرفيا! والرعبُ يجتاح عروقي..

من أنا؟ وأين وكيف؟! ولكنني عقّبتُ بكلمةٍ واحدةٍ «طيب».

ومن هُنا بدأتُ أفهم أننا قد وصلنا بهذا إلى النهايةِ الحتمية، وسنعود معارفًا فقط، كأننا التقينا منذ يومين أو ربما ساعتين، فلا يمكن لمثلينا أن يجتمعا في صداقة مقربةٍ أبدًا، شماسُ الكنيسة المعروف بين زملائه وابنةُ الشيخ الأزهري! «كان عندك حق يا مصطفى» همستُ بها في نفسي، ولكنني فضّلتُ إنهاء هذا المشهد إلى آخره. «سأعطيه بعض الملحوظات اللغوية ثم أمضي بكرامتي؛ حتى لا أسبب لنفسي أو لغيري حرجًا». قلتها في سري متنهدةً بعمق في حينِ بدأ حبيب يفهم من جمودِ ملامحي وهذا الصمتُ الرهيب المخيم على أن كل شيءٍ قد تغير؛ فراحَ ينخرط في الحديث مع ماركو على بُعد، حتى أقبلتُ عليهما بعدَ دقائقٍ، فناولتُ حبيب الدفتر قبل أن أنصرفَ مرددةً رأيي الختامي فيما قرأتُ برسميةٍ شديدة:

«أسلوبك حلو وعندك موهبة، بس زي ما قلت لك المرة اللي فاتت عندك أخطاء لغوية كتير؛ عشان كدا رأيي تكتب بالعامية لأن أنت في العامي مستواك أفضل؛ اللغة العربية ليها قواعدها، أنت عارف. وحاول تنوع يعني ما يبقاش كله عاطفي اكتب في كل حاجة واقرأ أكتر يا حبيب».

فهزّ رأسه بالموافقةِ، بينما بدا عليه الضيقُ غير مبالٍ بما قلت، فهممتُ على السلامِ والانصراف، ولكن يبدو أن اتفاقًا ما قد جرى في الكواليس

حولي، ليقترب ماركو مني مرددًا بنبرةٍ ماكرة:

– طب باقول لك إيه يا ليلى؟ إيه رأيك تكتبي لي قصيدة في بنت أعرفها بتحب واحد ومش قادرة تقول له؟

وفجأةً أدار حبيب لنا ظهره بحركةٍ هروبٍ مباغتةٍ لكنه عاد يقتربُ متسمِّعًا مترقبًا وأنا أعلق:

– لأ.. أصل أنا مش باكتب غير بس اللي باحسه.

فأكمل يقول:

– مممم.. مش بتكتبي غير اللي بتحسيه.. طب كويس اكتبي بقى عن البنت دي.

تملكني العجبُ والاستياءُ فعلقت:

– يعني أنا أقول لك مش باكتب غير اللي باحسه تقول لي برضه اكتبي عن البنت دي!

فرد ببرودٍ:

– أيوة.

فرحتُ أنظر إليه مندهشةً مستنكرةً حتى دخل حبيب في نوبةٍ من الضحك، ثم راح يتصنعُ النظر في زاويةٍ أخرى، فنظرتُ إليه باستغرابٍ سائلةً عن سببِ ضحكه، ولكن ماركو عاد يستوقفني ليقول:

– أيوة اكتبي عنها.

تعجبتُ من هذه الجرأة وهذا الإصرار الغريب ثم قلتُ منفعلة:

– أنا أساسًا مش مقتنعة بالموضوع كله عشان أكتب فيه!

فردَ بهدوء الثعلبِ قائلًا:

– إيه اللي مش مقنعة بيه؟

– إيه اللي يخلي بنت بتحب واحد تروح تقول له!

– طيب تعمل إيه يعني؟ ما هي بتحبه.. بتحبه جدا... بتحبه.. بتحبه!

ساءني تكرارُه الغريب للكلمةِ فرحتُ أقول بانفعال:

– ماشي طيب، وأنا مالي! أعمل لها إيه يعني!

نظر إلي ماركو بغيظٍ حابسًا أنفاسه، بينما عاد حبيب لنوبةِ ضحكٍ أشد من الأولى فنظرتُ إليه غاضبةً أناديه:

– حبيب.. حبيب!

فقاطعني ماركو قائلًا:

– خليكِ معايا أنا.

فرددتُ بحدةٍ:

– لا ثواني بس معلش.

وأشحتُ وجهي بعصبيةٍ لأسأل صاحبه:

– بتضحك على إيه يا حبيب؟

لم يستدر لي حبيب ليواجهني، بل ظلّ يتصنع الانشغال في أمر آخرٍ وقد تغير صوتُه واحمر وجهه من شدةِ الضحكِ، ليقول بصوتٍ متحشرج ولا زال مدبرًا بظهره:

– لا ما فيش يا ليلى، أصلي افتكرت حاجة بتضحك بس.

توقف حبيب عن الضحك، ولكنني لم أقتنع بما قال، ولكن ماركو لم يترك لي مجالًا للتفكير من الأساس وانطلق قائلًا:

– أيوة.. كملي.

– أكمل إيه! ما أنا قلت لك أنا في رأيي ما ينفعش البنت تروح تقول شاب انها بتحبه عيب!

– طيب تعمل إيه يعني؟

– ما اعرفش! ممكن مثلًا تلمح بأي طريقة. ما اعرفش إزاي بس أكيد في طريقة يعني؛ لأن المفروض الولد هو اللي يقول للبنت إنه بيحبها دا لو هو بيحبها فعلا.

صمتَ الصديقانِ في إنصاتٍ لوهلةٍ ثم أكملتُ أقول:

– لو بيحبها بجد، يعني عايز يرتبط بيها، يتجوزها يعني.. يتقدم لها ويتجوزها.

شخصَتْ عينا ماركو فجأةً حتى صارت ككُراتِ «البلياردو» وهو يكرر كلامي بدهشةٍ قائلًا:

– يت... يت... يتجوزها. آه، يتجوزها.. آه!

فنظرتُ إليه باستنكار ودهشةٍ سائلة:

– في إيه! هو أنا قلت حاجة غلط! هو في نهاية للحب غير الجواز وأنا ما اعرفش ولا إيه؟!

ابتلع ماركو ريقَه وهو لا يزال يحدقُ بي، شاخصَ العينين في ذهول، بينما أبادله أنا النظرة نفسها بالذهولِ نفسه، وكلانا لا يفهمُ شيئًا عن مقصدِ الآخر، ثم أدار وجهه ببطء لينظرُ إلى حبيب الذي كاد يقع أرضًا من الضحك علينا.

فنظرتُ إلى حبيب وقد نفذ صبري فسألتُ صاحبه بحدةٍ:

– دا ماله دا! بيضحك على إيه أنا عايزة أفهم!

وهُنا أدرك ماركو أنني لم أفهم أي شيء من تلميحاتِه طيلة هذا الوقتِ فانفجر في وجهي صائحًا:

– لا دا انتِ ما فيش خالص! تاني من الأول.. تاني، أنا أعرف واحدة بتحب واحد ومش قادره تقول له!

فاتسعت عيناي دهشةً فراح يمعنُ النظر في وجهي ليكررَ جملته هذه مرةً ثانية ثم ثالثة، وفي كلِّ مرةٍ يقتربُ مني خطوة كثعلبٍ يقتربُ من أرنبٍ وليدٍ لم يكتمل على جسده الفراء بعد، لأشعر بنفسي تائهةً حائرةً أمام هذه الملامح التي بالكاد تعرفتُ عليها منذ أيام ولكنها تكاد تنهش عقلي بأظافرٍ من حديد. راح ماركو يكرر حديثه للمرة الرابعةِ مُدني رأسه مني بغيظٍ شديد،

وعيناي شاخصتان تحدقان فيه، حتى دفعه حبيب بقوةٍ في صدره ليزيحَه عني ثم أمسكَ بذراعه يسوقه بعيدًا إلى الركن ليهامسُه بجديةٍ واضحة، ولكن الدم كاد يغلي في عروقي وأنا أرقبُ نظراتُهُ عن بُعدٍ لي، فاقتربتُ ماثلةً أمامهما ليخاطبني ماركو صائحًا:

– هو انتِ في منك في الدنيا كتير! حابب أعرف بس!

فهمس له حبيب بشيءٍ لم أسمعه، ولكنه بدا يحذره من هذا الغضب المتقد في ملامحي، وبدأتُ أفهم أن ثمة مؤامرة قد جُهزت لي، فأشرتُ إليهما مرددةً:

– انتم الاتنين في حاجة ما بينكم، وأنا مش فاهماها بس هافهمها. فاكرينّي غبيه.. ما بافهمش معاني الكلام!

لكنني ما زلتُ لم أفهم بعد، فأنا لم أعتد أبدًا على أسلوب التلميحاتِ والحديث غير المباشر في حياتي، كنتُ واضحةً شفافةً كقطرات الندى، ولكنني أستطيعُ أن أقرأ في عيون ماركو وضحكاتِ حبيب أن كلًا منهما يستغبيني. بدا الخوف في عيني ماركو ليهامسَ حبيب فيحركُ حبيب رأسِه نافيًا، وكأن لسان حاله يقول: «لا هي مش فاهمة حاجة اطمن»، ثم نظر إلي حبيب باسمًا كأنه يسايرُ طفلةً ليقول:

– لا انتِ مش غبية ولا حاجة يا ليلى.. انتِ زي الفل وما فيكيش حاجة والله.

ثم حدق في الفراغ قائلًا:

– بس الصبر.. الصبر جميل والتُقل صنعة.

ثم ضيّقَ حدقتيه بنظرٍ عميقةٍ ذات مغزى ولمزَ برأسه مكملًا:

– وأدينا صابرين!

لم يستطع النظر في عينيّ المصدومتين حين أومأ إليَّ بهذه اللمزة، فقطبتُ جبيني من الدهشة مرددة:

– صابرين! صبر إيه وتُقل إيه! إيه علاقتي أنا بكل دا!

قلتها وأنا أبتلع ريقي الذي جففه صيامُ نهارٍ طويل، وقد بدأت أشعرُ بالتنميلِ في أطرافي الباردة، وقسمات وجهي ترتجفُ وأنا أفكر في معنى كلمة: «تُقل» التي عادةً ما تُذكر في الأغاني العاطفية بين الحبيبين، أو على لسانِ شابٍ يُغازِل فتاةً على قارعة الطريق. ماذا يقصد بها! نظرتُ إليه علّه يريحني بأي توضيح، كان لساني حالي يقول: «لا تتركني هكذا، تكلم.. قل شيئًا، لا تفعل هذا بي! أنت صديقي لست عدوي، لست شابًا يغازلني على ناصية الشارع! دافع عن نفسك، فسّر مقصدك ولو بكلمةٍ... أرجوك!»

مرت ثوانٍ وأنا أنظر إلى عينيه أنشدُ منه أي إجابةٍ تسعفني، بينما يتهربُ بهما من مواجهتي، ليكتفي بذلك الصمتِ القاتل، فأطرقتُ رأسي في الأرضِ وألقيتُ سلامًا باردًا وانصرفت.

ذهبتُ أجر أقدامي كالطفلةِ الجريحةِ إلى أمي وقد تشوش عقلي تمامًا من كل هذه الصدمات المتوالية، كأنني كنت كل هذا الوقت أحدث شخصًا لا أعرفه مطلقًا، ستنقذني أمي من كل ما أرى، ستفسر لي كل هذه الألغاز حتمًا، وبالفعل ذهبتُ وجلستُ ورويتُ لها كل ما حدث، ليدور بيننا حوار طويلٌ مرير غمرني فيه الألم وسيطر عليَّ الذهول وأنا أردد:

– أنا يا ماما.. أنا.. إزاي!

– أيوة يا بنتي انتِ المقصودة، انتِ المقصودة بالكلام دا كله، انتِ ليه مش قادرة تصدقي؟ هم يقصدوكِ انتِ وكلام حبيب واضح أوي. «الصبر جميل وأدينا صابرين» يعني مستنيكِ تقوليها له كمان!

صرختُ أقول:

– أقول له إيه!

– هو فاكرك معجبة بقى وبيتكلم على هذا الأساس.. وصاحبه حب يفهمك.

صحتُ أقول:

– معجبة إيه! دا مسيحي وأنا مسلمة. أنا عملت إيه عشان يتصرف معايا كدا! لا وإيه قدام صاحبه كمان! إزاي ممكن يفكر فيّا كدا! إزاي؟ طب ليه! ليه طيب! أنا... أنا عملت إيه.. ليه! دا كان عمّال يضحك... كان بيضحك أيوة.. كان بيضحك عليا يا ماما.. وأنا زي الحمارة مش فاهمة حاجة! وصاحبه.. صاحبه كان... كان... كان ناقص يضربني قلمين!

– خلاص يا بنتي اهدي بس!

ابتلعتُ ريقي الذي صار متحجرًا ورحتُ أستجمع أنفاسي لأكمل بصوتٍ جرحته عبراتي المختنقة:

– دا أنا عمر ما حد اتجرأ واتكلم عني أبدًا.. لا ولاد ولا بنات! دا أنا كان بيتقال عليا معقدة عشان عمري ما كان لي حبيب ولا بافكر في حب ولا حتى جواز من أساسه، يقوم يتعمل معايا أنا كدا! وإيه كمان؛ من واحد على غير ديني وفي رمضان! ليه؟ ليه!

– خلاص يا بنتي.

– طب لو قلت صاحبه دخّل في دماغه الكلام دا ليه يطاوعه؟! ليه ما سكتهُوش من الأول؟ ليه ما وضحلوش؟ ليه يجاريه في كلامه؟ صاحبه دا يا ماما أساسًا ما بيقبلنيش وأشُّك حتى إنه بيحبه من الأساس! ليه بيقف معاه أصلا؟!

– دا صاحبه يا بنتي، يعرفه من قبل ما يعرفك، وممكن يكونوا زمايل في كنيسه واحدة كمان.

– بس ما بيحبهوش يا ماما، أنا متأكدة إنه بيغير منه، دا...

فقاطعتني أمي باندهاش تقول:

– هو انتِ متصورة يا ليلى انك هتكوني أهم عنده من صحابه، متصوره إنك ممكن تاخديه منهم.. دول صحابه يا بنتي.. ولاد زيه ومن دينه هو زيهم وهم زيه.. انتِ اللي مش شبههم.. انتِ اللي غريبه في وسطهم.

– غريبة!

– أيوة دا العالم بتاعه يا ليلى. فاهمه يعني إيه العالم بتاعه؟ ما تقدريش تاخديه من العالم بتاعه، انتِ اللي لازم تبعدي.

صمتُّ بمرارةٍ وقد أدركتُ صدقَ ما تقول أمي فرحتُ أردد:

– عندك حق يا ماما، دا العالم بتاعه وأنا اللي غريبة وسطهم.

– انت فهمتِ كل حاجة دلوقتي صح. ابعدي يا بنتي بقى بهدوء وبالتدريج.

نظرتُ إلى أمي والألم يعتصرني لأردد:

– هابعد يا ماما هابعد، بس مش قبل ما أدفّعه تمن اللي عمله معايا، هيدفع التمن وقدام صحابه.

فعلقت في خوف:

– لأ يا بنتي إحنا مش ناقصين مشاكل، خلينا في حالنا.

فانطلقت أقول بكمدٍ:

– بقى هو يسيبني اتهزق من صاحبه ويلقح معاه بالكلام عليَّ كمان، وهو عارف إننا صحاب زي الإخوات، كل دا وعايزاني أسكت له! طب والله يا ماما والله لأدفعه التمن وأخليه بين صحابه اللي نافش ريشه في وسطهم دول مايسواش بصله!

تولدت بداخلي طاقةً تشبه النار المستعرة، إنها طاقة الانتقام، لم تمضِ على نصيحة مصطفى لي سوى بضعة أيامٍ فقط، بضعة أيامٍ مضت على قلبي الصغير كعشراتِ السنين، شاخ فيها قلب ليلى الطفلة البريئة وذبلت ضحكتها حتى جفت وتلاشت، كبرت ليلى بداخلي أعوامًا وأعوامًا على أصداءِ قهقهات حبيب ونظرات الاستغباءِ من صاحبه، كرهتُ نفسي وكرهتُ حماقتي وكرهتُ اللحظة التي تصورت فيها أن صداقةً بريئةً جميلةً يمكن أن تجمع بيننا.

أذن المغرب وبالكاد استطعت تذوق الطعام وأغلقتُ باب غرفتي وذلك الصداع في رأسي يكاد يقتلني، وأنا أستحضر كل ما مضى، أكاد أسمع

صوت أخي من بعيد يجتاح رأسي:

«ما فيش بنت بتتكلم مع ولد وتفضل تضحك على هزاره على طول إلا ولازم هيقول عليها بتحبه، مش هو بس.. الناس كلها كمان هتقول عليها بتحبه!»

ضغطتُ على نواجزي في حالةٍ من القهرِ والألم، وأنا أتذكر أصداءَ ضحكاتِنا العالية أنا وحبيب وهو يتمايل منتشيًا على أنغام أغنية روبي، ونظراتِ مصطفى المفعمةِ بالخوف علي ونصيحته الأخيرة: «حاولي تفهمي اللي حواليكِ يا ليلى أكتر من كدا، خففي مع ناس معينة بدون ذكر أسماء، المفروض تفهمي لوحدك يا ليلى.. المفروض تفهمي»، ثم وضعت سماعاتِ الأذن في أذنيّ علّي أخدر نفسي قليلًا ببعض الأنغام ولكن دون جدوى. كان ألم الصدمة يتخلل جسدي والدموعُ كامنةٌ في عيني لا تتحرك، يرفض كبريائي الجريح أن تسقط حتى أثأر له، فلا من بكاءٍ يريح، ولا من صرخةٍ تخرج من الأعماق، تذكرت كل هذه المواقف التي حاول فيها حبيب لفت أنظاري إليه، وتلك المواقف التي تعمد فيها تجريحي دون سبب، تذكرتُ هذه البسماتِ البريئة التي تبادلناها لأيامٍ وشهور، ثم ضحكاته عليّ وأنا أمثلُ بين يديّ صديقِه كظبيةٍ أوقعتها بلاهتها تحت فكِّ الضبع فرحتُ أعضُّ على نواجزي ثم همستُ بمرارة: «أنا بنت الشيخ الأزهري يا حضرة الشماس.. أنا بنت الشيخ يا أبونا!»

***

بالكاد ذقتُ النومَ في ليلةٍ من أصعب الليالي، أشرق بعدها صباح يوم جديد، وُلدت فيه ليلى جديدة، ليلى التي أدركت أخيرًا أن طفولتها قد ولّت وانتهت إلى الأبد.

لمحت أمي الغضب المستعر في عينيّ في الصباح الباكرِ وأنا أتحرك في البيت بسرعةٍ وعصبيةٍ شديدتين فقالت بلهفةٍ والخوف في عينيها:

– هتعملي إيه يا بنتي؟ تعالي هنا بس كلميني!

التزمتُ الصمت فأكملتْ تقول:

– يا بنتي اعملي معروف، ابعدي عنه من سُكات دا زميل أخوكِ وهيحطه في دماغه وهتحصل مشاكل طائفيه إحنا مش قدها!

فأجبتها بملامحٍ جمدها القهر والكمد، وعينين تسللت إليهما حمرةُ السهر:

– اطمني يا ماما يوسف ما لوش ذنب وما لوش دخل في الموضوع، دي غلطتي أنا وأنا اللي هاتحمل نتايجها.

– طب بلاش تتكلمي معاه قدام صحابه هيتكاتروا عليكِ وانتِ لوحدك.

– اطمني يا ماما أنا فكرت كويس، أنا هاهزأه قدامهم بالذوق من غير ما حد فيهم يقدر يفتح بُقّه.

وذهبتُ ولا يزال الخوف على وجه أمي جليًّا، كنتُ أعلم أنني بصدد خوض معركةٍ صعبةٍ في مواجهتي لهذا الشاب بين أصدقائه، ليس فقط لكونه القاسم المشترك بيني وبين كل أصدقائي، بل قد أصبح جليًا لي أنه معروفٌ بين معظمِ أقباط الجامعة، كان كل هذا كافيًا لزلزلتي داخليًا، ولكنني صمدتُ واخترتُ المواجهة مهما كان الثمن.

وصعدتُ سُلّم كلية الصيدلة بخطواتٍ مفعمةٍ بالغضب، وبدوتُ أمامه هو وصديقيه، فأخذا يرشقاني بنظراتِ إتهام صريحةٍ مفعمةٍ بالاستنكار، ثم ألقيا بنفسِ تلك النظرات عليه كسهامٍ حديديةٍ وقد بدأتُ أرى على بُعد أياديهم تمتدُ إليه مشوحّةً غاضبة، والوجوهُ قاطبةَ الجبين عابسة، بينما يدافع بينهما عن نفسه نافيًا بحركة يده كل شيءٍ يرميانه به كمتهمٍ ماثلٍ أمام منصة قضاء، بدا لي جليًا أنني بحضوري هذا قد أفسدتُ خططًا طويلةً أعدها لي ماركو بعناية، ولكن لا تقلق يا ماركو فما هي إلا دقائق فقط وستفهم سبب حضوري هذا، ولكن أحدًا منهما لم يعد يحتمل الصبر، فكلما اقتربتُ خطوةً أكثر ازدادت حدةُ النظراتِ أكثر فأكثر، فبِتّ أشعر بنفسي عاريةَ القدمين أمشي على قطعِ زجاجٍ مهشم، ولكنني جئتُ

أقصد مهمةً محددةً ولن أتراجع عنها.

تعمدتُ تجاهل أعينهم في آخر خطواتي إليهم حتى مثلتُ بين أيديهم أخيرًا، ورحتُ ألقي السلام فبادلني صديقاه السلام بنظراتٍ مفعمةٍ بالاشمئزاز، بدا لي واضحًا أن قصصًا في غيبتي قد رُويت عني على لسان بهلواني الذي أوقعتهُ رغبتُه في الاستعراض في المحظور، فبات في النهايةِ متهمًا ذليلًا بلا ذنب وليس في يد سواي الآن تبرئته، كدتُ بابتسامتي المدفونة أسمع همس هذه النظرة الناطقة في عينيّ ماركو: «هو انتِ لسه ليكِ عين تيجي!» وهمس الأخرى في عيني بيتر: «جاية تقف معانا ليه دي.. عايزة منه إيه!» فهمستُ في نفسي أردد: «دلوقتي بس تقدري تشوفي نفسك في مرايتهم يا ليلى.. بنت بتحاول توقع ولد ما ينفعلهاش.. تغور الصداقة وتغور الضحكة وتغور الذكريات وتغور كل حاجة في الدنيا ممكن تعمل فيكِ كدا! آن الأوان إنك تبصي كويس يا ليلى وتفهمي أخيرًا كل اللي بيجرى حواليكِ».

وامتصصتُ كالإسفنجة كل شيء لأكمل الدور المرسوم، فألقيتُ السلام على حبيب ولكن أحدًا منا لم يستطع مواجهة عيني الآخر وأنا أسأله ببرود:

– ما شفتش مصطفى؟ ما عادش بيجي شكله مشغول.. إيه امتحانات ولا إيه؟!

ردّ حبيب مشتتَ النظرِ قائلًا:

– مصطفى دا كمان حكايته حكاية.. أنا بافكر أكتب كتاب أسميه: «أنا وعائلة العربي».

«لا ترهق نفسك فلربما يأتي اليوم وأكتبه أنا عنك يا بهلواني العزيز»، هذا ما دار بخلدي حينها، ولأنني اعتمدتُ في خطةِ انتقامي منه على عنصريّ المفاجئة والتلميحِ شبه المباشر أمام الجميع تمامًا كما فُعل معي؛ لذا رفعتُ رأسي إليه بشموخٍ أردد:

– وانت إيه علاقتك انت بعيلة العربي؟ تعرف مين انت في عيلة العربي أساسًا!

بدا الارتباك عليه من غرابةِ السؤالِ وأسلوبه، فبدأ يحك رقبته بأنامله مشتت النظر ليجيب:

– أعرف مين! أعرف مصطفى.. مصطفى العربي.

– مممم.. تعرف مصطفى.. آه.

رفعتُ عينيّ إليه لأرميه أمامهم بنظرةٍ كالسهم المصوبِ مرددة:

– بس انت مش من عيلة العربي، انت مش مننا!

تلاقت عينانا لبرهةٍ وقد اتسعت عيناه من أثرِ ما قلتُ، فأدركتُ أنني أصبتُ هدفي في سويداءِ قلبِه لينظر إلي في صمتٍ لوهلةٍ ويردد:

– أيوة.

اكتفيتُ بهذا القدر أمام صاحبيه، وألقيتُ بطرف عيني معرضةً عنهم، لأتركهم وقد تملكتهم الدهشةُ وساد الصمتُ الرهيبُ بينهم، كان هذا خدشي الانتقامي الأول لقلبِ حبيب بعدما ذبح هو قلبي بسكين بارد غير مبال، ليجيء تعليق أمي:

– ليه كدا يا بنتي بس!

أجبتها بعينين محتقنتين:

– عارفة.. لو ما كنتش عملت كدا يا ماما يمكن كنت اتشليت.

ولكنني ما ارتحتُ ولا هدأ لي بال، ظلت صورة وجهيّ صديقيه المطلة عليّ بنظرات الاشمئزاز تكاد تقتلني، ونبراتُ صوتِ ماركو تلتفُ حولَ رأسي كالأفعى هامسة:

«أنا أعرف واحدة بتحب واحد، بتحبه أوي، أنا أعرف واحدة بتحب واحد، بتحبه أوي، أنا أعرف واحدة.. أنا أعرف واحدة».

فيكاد الصداع يفتك بي وأنا أضغطُ بأناملي بقوةٍ على عظمِ جمجمتي، مستحضرةً أصداء صيحةِ أخي قائلًا: «بنتك بتحب ولد مسيحي يا ماما!»

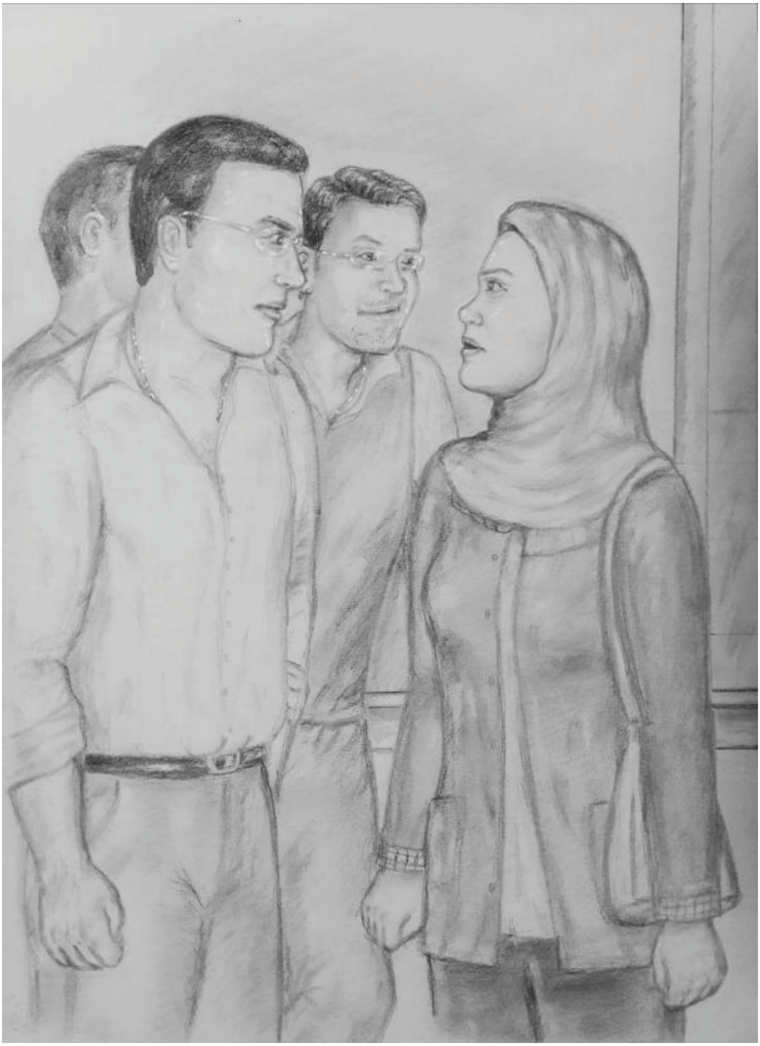

مواجهة

وكلمات أبي لي من الماضي البعيدِ وهو يقول: «اوعديني يا بنتي ما تعمليش زي عمتك!»

وتلك النظرة التي قلبت كل الموازين بليلة المطعم، وضحكاتِ أنجيل وهي تنظر إلي قائلة: ما فيش يا ليلى.. ما فيش!» ثم كلمات روان: «ومحتارين بقى نعمل الفرح في الكنيسة ولا في الجامع!» لقد أصبحتُ حديثَ الألسنه ومضحكةَ الجميع إذن دون أن أعي!

«سأنتقم منك بأقسى درجات الانتقام النفسي يا حبيب!» هامستُ بها نفسي وأنا أستحضرُ ابتسامتَه الطفوليةَ، وهذه اللهفة المتولدةَ في عينيه كلما رآني عن بعد، ثم نظرة الألمِ الشديدِ في عينيه المغمورتين بدخان سجائره بعد نظرةِ المطعم، «لقد بدأتُ أدرك الآن ما هو أكثر شيء يؤلمك يا حبيب، فلنذق سويًا من نفس الكأس إذن!» رددتها في نفسي متجاهلةً هذا الصوت العميق الذي يستجديني بعدم البعد ويجرني للخلف جرًا، كان قلبي الذي أردت النيل منه بأي شكل وبكل الطرق، ومضيتُ إلى الصالةِ، كانت أمي تشاهد في التلفاز صورَ شهداء الأقصى وتستمعُ لحديث المنتفضين في وجه الاحتلال الصهيوني، فهمست في سري:

«أهؤلاء الأطفال يستبسلون في الدفاع عن دينهم وأرضهم ومبادئهم حتى الاستشهاد وأنا ابنة الشيخ الأزهري أجبُنُ عن مقاومة نفسي.. لن أكون بهذا الضعف المهين أبدا!»

وأخرجت الوشاحَ الفلسطيني من خزانةِ ملابسي ليذكرني بهذا العهدِ الذي قطعتُه على نفسي، فهمستُ له في سري: «لن تفارق صدري حتى يكفَ هذا الوسواس عنه.. سأحملك حول عنقي لتذكرَني دائما بعهدي، سأدافع بك عن قلبي».

وكانت نصيحة أمي في صباح اليوم التالي:

– يا بنتي كفاية لحد كدا وبلاش تعملي عداوات، دا زميل أخوكِ.. ابعدي

بالتدريج.

– وليه بالتدريج؟

– عشان هيبقى صعب تبعدي فجأة.

فصحتُ أقول:

– صعب ليه يعني؟ مش صعب ولا حاجة.. هو ما لوش أي قيمة عندي أصلا، أنا لازم أواجهه وأرد على نظرات صحابه دول وبعدها هاقطع صلتي بيه تمامًا.

– طيب أنا عمومًا نصحتك وانتِ لما تتخانقي معاه هيبان لك وشه الحقيقي ودا هيسهل عليكِ البعد.

وأخرجت الشال الفلسطيني وارتديته حول عُنقي فصاحت تقول:

– طب وإيه لازمته الشال الفلسطيني دا كمان!

– كدا أنا عايزة ألبسه.

فبدا عليها القلق لتقول:

– يا بنتي اقلعيه إحنا مش ناقصين ليقولوا عليكِ تبع حماس!

فتوقفتُ أفكر ثم استدرتُ لها أقول:

– حماس.. دي حركة مقاومة فلسطينية مش كدا؟

فصاحت تقول:

– ما هي دي المصيبة! المصيبة إنك مش فاهمة سياسة خالص.. انتِ بتشوفي صور الشهداء وبتسمعي عنهم صحيح إنما ما تعرفيش حاجة عن السياسة في فلسطين ولا حتى سياسة البلد اللي انتِ عايشة فيها.

فقاطعتها قائلة:

– وأنا مالي ومال السياسة! خليهم يقولوا اللي يقولوه، إيه يعني هيقبضوا عليَّ عشان حاطة شال فلسطيني على صدري! هو انتِ شايفاني رايحة أحارب! ولا رايحه أدافع عن المسجد الأقصى زي اللي راحوا واستشهدوا..

سيبيني يا ماما أعبر عن اللي جوايا بأقل حاجة ممكنة بشال.. مجرد شال!

وانطلقتُ مسرعةً فتنهدتْ أمي لتقلب رأسها وقد نفذ صبرها مني.

وكأنني استلهمتُ من جهاد المناضلين وذلك الصمود الأسطوري في عيون الأمهات الثكالى نوعًا آخرَ من الجهاد، إنه جهاد النفس.

«جهاد النفس من أقوى وأصعب أنواع الجهاد»، كثيرًا ما ترددت هذه العبارة على مسامعي من معلماتِ الدين في مدرستي، كنت أعجبُ لها ولا أدرك عمقها، لقد آن الأوان إذن لأفهمها.

***

في الصباح الباكر صعدتُ مبنى كلية الصيدلة لآخر مرةٍ، أتلفتُ بعصبيةٍ يمينًا ويسارًا لأفتشَ عن حبيب في كل مكان، ففوجئتُ بكرستين وأنجيل يقبلان نحوي بابتسامتهما الناعمةِ كالعادة، ولكنني لم أستطع تصنعَ البسمةَ بالمقابل، فلم أعد أحتمل مجاملاتٍ وأنا على وشك الانفجار؛ فتلاشت البسمة في وجهيهما وتحولت إلى حالةٍ من الرعبِ والذعرِ وهما يتأملان هذا الغضبَ المتجلي على وجهي بدهشةٍ، وأنا أسألهما عن حبيب، لتجيبني كل منهما بسؤالٍ واحدٍ يتكرر:

– ما اعرفش.. ليه؟ في إيه؟ إيه اللي حصل؟ في إيه؟ مالك!

لم أحسبْ في غُمرةِ غضبي الجارفُ حسابَ هذه اللحظةِ مطلقًا، والتزمتُ الصمت فزادهما خوفًا وفضولًا حتى أجبت:

– ما فيش.. ما فيش عايزاه في موضوع كدا.

لم يكفان عن الأسئلةِ، ولكنني ألقيتُ السلام مقاطعة وانصرفتُ بسرعةٍ غير مباليةٍ بهذه العيونِ الشاخصة أمامي، فليس لدي من الوقتِ ولا الطاقةِ ما أختلق به مبرراتٍ شافيةٍ لفضولهما، ولا عُدتُ أطيق صبرًا، ورحتُ ألقي بنظري هنا وهناك بحثًا عنه فصادفتُ ميري أمامي، فسألتها عنه، فنظرتْ لي بضيقٍ تقول:

– بتسألي عنه ليه.. عايزة منه إيه؟!

فأجبتها ولم أزل أمرر نظري في المكان بعصبيةٍ شديدة:

– ما فيش.. موضوع كدا.

– موضوع إيه؟ ممكن أعرفه؟

فرميتُها بنظرةٍ سريعةٍ أقول:

– موضوع كدا يخصه.

قولي لي وأنا أوصل له اللي انتِ عايزاه.

– لأ معلش، مش هينفع، دا موضوع يخصه ولازم أكلمه هو.

فعلا صوتُها وقد بدأت نبرتها تتغير مرددةً:

– أنا ما فيش موضوع يخص حبيب وما ينفعش أعرفه.. هو ما بيخبيش عليَّ حاجة!

فنظرتُ إلى وجهها المُحمَر غضبًا وعينيها المتسعتين من الغيظ، ثم أجبتها ببرودٍ قائلة:

– خلاص طالما كدا بعد ما أكلمه اسأليه بنفسك وهو يحكيلك.. هو فين تعرفي؟

فاستشاطت ميري غضبًا وأجابتني بحدة:

– ما جاش الجامعه النهاردا.

– عرفتِ منين؟ ما جايز يكون جه وانتِ ما شفتيهوش لسه!

فصاحت بعصبيةٍ:

– لأنه لما بيجي الجامعة لازم يجي لي لحد عندي هنا الأول وأشوفه، إحنا متعودين على كدا! وما دام ما جاليش هنا وما شفتوش لحد دلوقتي يبقى أكيد ما جاش ومش جاي النهاردا خالص.

كظمتُ غيظي هامسةً في سري:

«يجي لك لحد عندك الأول! ابعدي يا بت انتِ عن وشي الساعة دي بدل ما أنفجر فيكِ انتِ وحبيب بتاعك.. أنا مالي أنا بمواعيدكم الغرامية.. ما تتفلقوا إنتوا الاتنين!»

أفقتُ من خاطرتي وأنا أحبسُ أنفاسي ثم اكتفيتُ بكلمة: طيب، وأدرت لها ظهري لأكمل البحث، ولكن صمتي وبرودي هذان كادا يقتلان ميري غيظًا، لتعود لمواجهتي من الناحيةِ الأخرى، فتتحول القطة الوديعةُ إلى نمرةٍ شرسةٍ تصرخُ في وجهي في ساحةِ الكليةِ عاليًا تردد:

– انتِ عايزة منه إيه؟ أنا عايزه أفهم.. انتِ عايزة منه إيه؟ عايزه منه إيه!

نظرتُ إليها أتأمل رقبتها المائلةَ باستنكارٍ أمامي، ويديها الملوحتين بتشنجٍ في وجهي، وهاتين العينين المحمرتين المحدقتين باتساعٍ في ملامحي كأنما تكادان تفترساني افتراسًا؛ ففهمتُ أنني أمام حالةِ غيرةٍ نسائيةٍ حادة، فهمستُ في نفسي:

«دا انتِ بتحبيه بقى.. مسكينة! ربنا يعينك على ما بلاكِ.. دا انتِ هتشوفي أيام سودا.. وبرضه مش هاريحك»

وصمتُّ واستدرتُ أكمل بحثي عنه بينما راحت هي تركضُ مسرعةً على سُلّم الكلية وكأنها في سباقٍ لتعثرَ عليه قبلي.

وخرجتُ من المبنى ولم أزل أبحث، فصادفتُ لاميا، لقد جاءت تمامًا في الوقت المناسب، فحدثتها بجديةٍ أقول:

– لاميا أنا دلوقتي هاتخانق مع حبيب وهاقطع صلتي بيه ومحتاجاكِ تقفي معايا ضروري ويا ريت معلشي يا ريت ما تسألنيش ليه.

نظرتْ إليَّ لاميا والخوفُ في عينها لتقول:

– ليلى أوعدك إني ما راح أسألك ليش، مابدي أعرف.. بس ما تطلبي مني أقف معك، ما رح ينفع، تَرى حبيب مانُّه سهل يا ليلى!

فشردتُ في حالة من القهرِ أردد:

– في دي أبصم لك بصوابعي العشرة.. بس إذا كان هو مش سهل فأنا بقى صعبة وصعبة أوي.. وافتكري كويس إنك كنتِ السبب إنه رجع يتكلم معايا تاني. دا طلبي الأول والأخير منك يا لاميا ومش هاتراجع عنه.

لم تجد لاميا سبيلًا للفرار، بعدما وعدتها أن يظل دورها في المشهد دورَ الصامتِ المتفرج فقط، بل وأخبرتني أنها ستظل تلقي السلام عليه حتى لا يترصد لها بالأذى فقبلتُ مضطرة.

ومضينا في طريقنا حتى لمحتُ حبيب عن بعد يجلسُ وقد التصقت به ميري بشكلٍ غير معهود، فلم ءأبه بالأمر، وألقيتُ السلام فرده ببرودٍ ثم علّق على وشاحي الفلسطيني متهكمًا:

– إيه.. انتِ رايحة تحاربي مع الحمساوية ولا إيه؟!

فرمقتُه بنصفِ بسمةٍ سخيفةٍ فهم أن شرارةَ الغضبِ بيننا قد انطلقت، فتغيرُ وجهه وأكملَ يسأل عن سببِ سؤالي الجميع عنه، فأجبته:

– عايزاك في موضوع.

– قولي.

– على انفراد.

فانتهزت لاميا الفرصة لتحاول الفرار، فأمسكتُ بذراعها بحدةٍ أردد:

– استني انتِ.

أردتها بجواري لتدعمني وتمنع عني حديث الألسنة، ولكن حبيب ازداد ارتباكًا فردد:

– في إيه!

– قلت لك عايزاك في موضوع على انفراد!

فنظر يتمعنني ببرودٍ قائلًا:

– أنا وميري واحد ما فيش فرق بينا اللي عايزة تقوليه قوليه قدامها.

تمسكتُ بموقفي؛ حتى لا أسببَ حرجًا لكلينا، فنهضت ميري تهُمُّ على الانصراف فرددتُ بلطف:

– صدقيني يا ميري أنا بنفسي هاجي وأحكيلك كل...

لم أكمل كلمتي حتى اتسعت عيناي دهشةً وأنا أراه يمسكُ بذراعها حتى أنزلها إلى جواره، فحدقتُ في يدِه القابضة على ذراعها أكاد لا أصدق، ثم استدرتُ إليه مصدومةً وعيناي تكادان تنطقان في صمتٍ: «كيف تجرأ على الإمساك بذراع زميلتِك بهذا الشكل وعلى الملأ!» أطرقتْ ميري رأسَها في الأرض خجلًا من نظراتي، بينما راحَ هو يتأملُ حاجبي المرفوع باستنكارٍ في وجهِه المغمورِ بالسعادةِ وكأنما حققَ غايته المنشودة أخيرًا، فتأملتُ هذه الضحكة اللامعة على وجهه، تلك الضحكةُ التي كانت ربيع أيامي، إنه الآن يحاولُ استفزازي بها بينما يغمرني أنا الحزن لوداعها، إنه ما زال لم يدرك بعد أنها النهاية، وخرجتُ من شرودي فجأةً لأردد بنظرةٍ ونبرةٍ من التحدي:

– على فكرة بقى أنا مش مضطرة أتكلم قدامها.

فنظرَ إلي نفس نظرتي قائلًا:

– وأنا كمان مش مضطر أسمع على فكرة، مش عايزة تتكلمي قدامها ما تتكلميش، أنا أصلا ما يهمنيش أسمع ولا أعرف.

ثم همس لميري قائلًا:

– كنا بنقول إيه يا ميري؟ سيبك منها كملي.

جذبتْ لاميا ذراعي هامسةً تدعوني للتراجع والانصراف، فانتزعت ذراعي منها بعصبيةٍ وصحت فيها:

– استني هنا!

وهنا انفجرتُ فيه بأعلى صوتي وقد نفذ رصيدي من الصبر:

– كدا ماشي.. أنا بقى هاقول لك عايزة إيه وقدامها!

حسبته سينهضُ في هذه اللحظةِ ليصيحَ بزئير الأسدِ ويبادلني التهديد

بوعيدٍ أشد منه، ولكن ردةَ فعله جاءت عكس ما تخيلتُ تمامًا ليتأملَ نظرةَ الغيظِ في عينيّ ضاحكًا في قمةِ سعادته وكأننا في لُعبة تحدٍ ولسنا في شجارٍ من الأساس، كانت إثارة غيرتي أغلى أمانيه، ولكنني حينها لم أكن لأدركَ بعدُ كيف يفكر هذا المجنون الذي اتخذته منذ عامٍ أخًا وصديقًا! فانطلقتُ كالبركان:

– صحابك دول!

– مالهم صحابي قصدك ماركو وبيتر ولا مين!

– أيوة همَّ.. اتعاملوا معايا بطريقة مستفزة.

– مستفزة إزاي يعني ما سلّموش عليكِ مثلا؟

– لا سلّموا بزيادة أوي بصراحة!

برزت عروقُ جبينِه فجأةً وقد انطلقت شرارةُ الغضبِ من عينيه الشاخصتينِ ليصرخ:

– قصدك إيه.. عاكسوكِ يعني!

فنظرتُ إليه مشمئزةً أستنكرُ هواجسِه المريضةَ ثم صِحت:

– إيه اللي انت بتقوله دا.. لأ طبعا!

فاسترخت ملامحه ثم علّق يقول:

– ما توضحي من الأول، ضايقوكِ في إيه مش فاهم؟

– بيبصوا لي بكراهية مش عارفة ليه!

فعلقت ميري:

– إحنا مش بنكرهك ولا حاجة يا ليلى، إحنا ما عندناش مشكلة معاكِ خالص!

فأجبتُها بلُطفٍ أقول:

– ميري.. أنا ماقصدكيش انتِ.. انتِ بأمانه ما أذيتينيش في أي شيء خالص وكنت لطيفة معايا.

اغتاظَ حبيب وقد أدرك أن خطته في استفزازي بميري قد باءت بالفشل، وأن الأمر أكثر جديةً مما يتصورُ فسألني ممتعضًا:

– وهمّ هيكرهوكِ ليه يعني؟

فأجبتُه باستنكار:

– ما تسألهم هم بتسألني أنا ليه!

وصَوّبتُ عينيّ في عينيهِ بحدةٍ شديدةٍ أردد:

– قلت لهم إيه عني يا حبيب.. ها.. قلت لصحابك إيه عني؟!

وهنا أدركَ حبيب أنه صار في موقفِ المتهم جهارًا أمام الفتاتين، فاستبدل الدفاع بالهجوم قائلًا:

– قلت لهم إيه عنك يعني إيه! دي بتفتري عليا كمان!

ثم أكملَ غاضبًا:

– وأنا هتكلم عنك ليه.. هو انتِ مين أص...

وهنا انتهى كل شيء. لم أدعه يكمل الكلمةَ التي أراد النيلَ مني بها وقاطعتُه بحدةٍ أردد:

– آخر حاجة.. آخر حاجه جيت أقولها لك هي مش عايزة أتكلم معاك تاني.

تواجهت عينانا بقوةٍ وقد أدرك حبيب أخيرًا ما جئتُ لأجله، فبدا لي كمن استفاقَ لتوه من صفعةٍ مدوية ليردد هامسًا:

– طيب.

ومضيتُ لتلحق بي لاميا بعد برهةٍ هامسةً:

– والله يا ليلى حبيب صار وجهه يجيب ألوان.. شكله ما نو طبيعي أبدًا.. سلمت عليه كذا مرة ما رد عليا إلا بالأخير ما أدري شو صار له!

– سيبك منه خالص.

وهكذا استفاق كل منا على صدمةٍ لا يدركها سواه، لقد ظن حبيب أنني أتصنعُ البلاهةَ لاستدراجه لمزيدٍ من الطعنات العابثةِ بقلبهِ كما فعلت لاميا بمصطفى، وغذىّ ماركو هذا الإحساس بامتياز، معتبرًا نفسه بهذا يصنع في صديقه معروفًا كبيرًا، في نفس ذلك الوقت الذي أفقتُ فيه أنا لأرى حبيبَ ثعلبًا ماكرًا يحاولُ إهانتي وتصيدَ قلبي البريء ليجعلَ منه نكتةً بين أصدقائه، ومن هنا راح كل منا في النهايةِ يطعنُ الآخرَ بشراسة.

رغم انضرام النار بيننا إلا أن شيئًا ما كان يهامسني بأن داءَ الإدمان القلبي الذي أصابني قد أصابَ حبيب أيضًا، ولن نفترق بالتدريج أبدًا، سيقودنا ضعفنا أو ربما رغبتنا في الانتقام للتواصل من جديد؛ ولذا نلتُ منه أمام الجميع، لأتخذَ من غروره وكبريائي جدارًا عازلًا يقطعُ على كلٍّ منا خط الرجعة، خططتُ باحترافٍ لأول مرةٍ في حياتي، كمن يخيط جرحًا بلا تخدير، كنتُ بهذا أحاولُ التكفيرَ عن ذنب حماقتي وتأخري في اتخاذ القرار الصائب.

وأخيرًا تسللت السكينةُ إلى قلبي بعد عامٍ كامل من القلق والتوتر والاضطراب، عام تراميتُ فيه بين سُحُب الفرحةِ الطفوليةِ وقيعانِ الألم السحيق، كان هذا القلب لا يزال بُرعمًا أخضرًا صغيرًا على احتمال كل هذه المشاعرِ الغامضةِ المتضاربةِ في آنٍ واحد، أخيرًا بدأتُ أشعرُ لأول مرةٍ بنشوة الانتصار على نفسي، بمعنى القوة الحقيقي، قوة الروحِ لا قوة العضلات، لقد ثأرتُ لنفسي ولكرامتي وتمسكتُ بقيمي ومبادئي أمام هذه الرياحِ العاتية.. ولكنني وقفتُ فجأةً أمام ما لم أحسب حسابه، إنهما أنجيل وكرستين، صادفاني ليسألاني بلهفةٍ مجددًا عما حدث، أسئلةً تكاد لا تنتهي:

«في إيه، شفتي حبيب.. إيه اللي حصل.. إيه المشكلة، قولي.. خير حصل إيه»؟!

بدا عليّ الارتباك بنظراتي المشتتةِ رغم ابتسامتي المدقنة وأنا أردد:

– لا ما فيش.. ما فيش حاجة دا موضوع تافه، أخباركم إيه، وأخبار الدراسة إيه؟

زاد غموضي وتهربي من فضولهما ودهشتهما فاتسعت العيون في هلعٍ وهما ينظران إلي، ثم لبعضهما لتصيحَ كرستين في وجهي أخيرًا:

– في إيه.. في إيه!

لم أكن أتصور أن سؤالي العفوي عن حبيب في لحظةِ غضبٍ سيثير كل هذا اللغط، وأدركتُ أن عليّ أن أقرر في هذه اللحظةِ قرارًا في غاية التعقيد، فإما المصارحةَ بصدقٍ وبكل ما تحمله من عواقبٍ وتبعاتٍ لا تنتهي من القيل والقال وتراشق الاتهامات، أو الاكتفاء بالصمتِ والابتعاد حتى لو فتح هذا الصمت آفاقًا أوسع للفضولِ والخيالِ في حكاياتِ الشلةِ المستمرةِ عن حبيب فاكهة نجواهم المفضلة، وحتى لو أعطاه الصمتُ الفرصة على طبقٍ من فضة لتبريرِ موقفه واتهامي أو اختلاق حكاياتٍ حولي، وبدأتُ أدرك أنني وعلى أي الأحوال قد وصلتُ مضطرةً إلى نقطةِ النهاية في صداقتي بأنجيل وكرستين، وتمنيتُ من قلبي أن نظلّ على الأقل نتبادل الاحترامَ والسلام ولو عن بعد بعدما اخترت الخيار الثاني آسفةً فأجبت:

– ما فيش عادي، موضوع تافه واتحل، انتو مرعوبين ليه؟ ما فيش مشكلة.

وألقيتُ السلام متجاهلةً فيضَ الأسئلةِ الذي يطلُّ عليّ من أعينهما الشاخصةِ رغم يقيني أنني سأصبحَ سيرتهَما الجديدةَ.

ولكن شبح الإحساس بالذنب لم يكن ليرأف بي كلما انتابتني الذكرى المريرة، أو هفّ على قلبي نسيم الحنين لصداقةٍ بريئةٍ ضحكت فيها الشفاه ولمعت فيها العيون، فرُحتُ أجلد ذاتي بشدةٍ وأنا أستحضر صيامًا صامته بطني ولم يصُمه قلبي، وذنبًا اقترفته براءتي وأنكرهُ عقلي.

خاطئةٌ أنا، مذنبةٌ أنا، أنا في العيون أحقرُ من ورقةِ خريفٍ تدوسها الأقدام.. أنا المنبوذةُ بين الجميع على اختلافِ أطيافهم، فندى بخيانتِها الخفيةِ لحبيبِها أفضلُ في عيونِ الناسِ مني، ولاميا بمكرها بمصطفى معذورةً عند الجميع عني، وعايدة لن تجد من يجرمَها مثلي، حتى أنجيل التي عجبتُ لها تعجب الآن مني، إن الغباء نفسه يسخرُ مني!

أنا ابنة الشيخ الأزهري التي تربت على الدين والخُلُق، فارقتُ عمتي منذ صغري وحُرمت منها حتى نتعلم أنا وأخي في الخليج ديننا ونهتدي به، كان هذا قرار أبي الحاسم منذ طفولتنا حين هاجر بنا من كندا إلى الخليج، والآن أُرشَق بهذه التلميحاتِ التي أستحي من تذكرها من فمِ شابٍ بالكاد أذكر اسمه أو يعرفني، هذا الذي يُدعى ماركو، فلأعاقب نفسي بيدي إذن لعلّي أتطهر من جريمتي، جريمة البراءة المفرطة، ولأتماثل للشفاء والتوبة من هذا الإدمان، الإدمان الذي أصابني بالخُدر وسار بأقدامي إلى حيث واجهتُ مصيري غير مأسوف عليَّ!

ولكنك تستطيعُ أن تتفهم معنى إدمانِ الكحولِ أو إدمانِ النيكوتين، أو حتى إدمانِ الكافيين، أما إدمانُ شخصٍ ما بملامحه ونبرةِ صوته وهالةِ حضوره حتى يصبح لقلبك سكّاتةَ الرضيعِ الباكي، فهذا ما يصعبُ على عقلك الغاضبِ استيعابَه أحيانًا، أيكون هذا هو الحب إذن.. مستحيل! ظل هذا جوابي لأبقى مستترةً بستارٍ داكنٍ من الإنكار أرفض فيه كل شيءٍ وأي شيءٍ يقودني إلى هذه الإجابة، حتى تسللت إلى هذا القلب البريء كل أعراضِ المرضِ تدريجيًا.

ربطتُ وشاحي الفلسطيني حول عنقي وارتديتُ نظارتي الداكنةَ وذهبتُ في طريقي المعتاد إلى كليتي، فصادفتُ شلةَ الثلاثي المقربَ من حبيب، ينظرون إليّ بترقبٍ ملحوظ، فأشحتُ وجهي عنهم، وإذا بحبيب بمحاذاةِ كتفي يتطلع إليّ دون نظرٍ مني ليعلو صوتُ ماركو متهكمًا:

«دي ما بقيتش تسلم كمان!»

ولحسن الحظ كانت هذه آخر مرة أسمعُ فيها هذا الصوت الذي كرهته من أعماقي.

***

مر اليوم التالي، كنت على رصيف الساحة مع لاميا ليمر بنا حبيب وميري، إنها المرة الثانية التي ينفرد فيها برفقتها، وكأن شيئًا ما قد بدأ يحدث، فتظاهرتُ بالتجاهل بينما أرقبُ من خلف نظارتي بسمتَه الحانيةَ للاميا وهما يتبادلان السلام، كان شعورًا شديد الإيلام، إنها أول مرة نتواجه ولا نتحدث ولا نبتسم بل وحتى لا نتشاجر، لا شيء إلا ذلك الصمت القاتل فقط، وفي حين استغرقتُ أنا في تأمل هذه اللحظة بنغزتها الموجعةِ في قلبي، رجع هو للخلفِ خطوةً حتى واجه عينيّ المختبئتين وراء زجاجِ النظارةِ الداكن ورماني بنظرةٍ مفعمةٍ بالاشمئزاز ليجهز بها على قلبي، إنه ما زال يحاول الثأر من نظرةِ ليلة المطعم، وانصرف مع رفيقته وكأن شيئًا لم يكن!

انتابني وقتها شعورٌ غريب، شعوٌر بالألم منه وعليه في وقتٍ واحد، وشعورٌ آخر يهامسني «تستاهلي يا ليلى انتِ اللي عملتِ في نفسك كدا، خليه يغلط أكتر وأكتر، عشان تعرفي تكرهيه» ياله من مزيج لعينٍ من المشاعر، أن تجمع بين الكراهيةِ والحب، والانتقامِ والشفقة، والغضبِ والشوق، في قلبٍ واحد وفي وقتٍ واحدٍ فتكاد تُجن، إنها شيزوفرينيا المشاعر التي انتابتني منذ عرفتُه وحتى لحظتي هذه وأنا على أعتابِ عامي الثامن عشر.

***

باتَ حبيبُ يتجول عن عمدٍ بصحبةِ ميري في كل الأماكنِ التي أمر بها، لتترامى ضحكاتهما العاليةُ من حولي كلما مررت، فأشعر بذلك الألم العميق يكاد يدك قلبي، حتى سمعتُه ذات يومٍ يهمسُ لها قبل مجيئي بلحظاتٍ «جات.. أهه» ليبدأ فقرة الضحكِ سويًا، ففهمت، إنه اتفاق إذن، فرحتُ أتمتم في نفسي: «أموجوع أنت مني يا حبيب إلى هذا الحد، ارتباطٌ مفاجئٌ بصديقةٍ قديمةٍ لم تكن تنفردُ بصحبتها من قبل، وضحكاتٌ

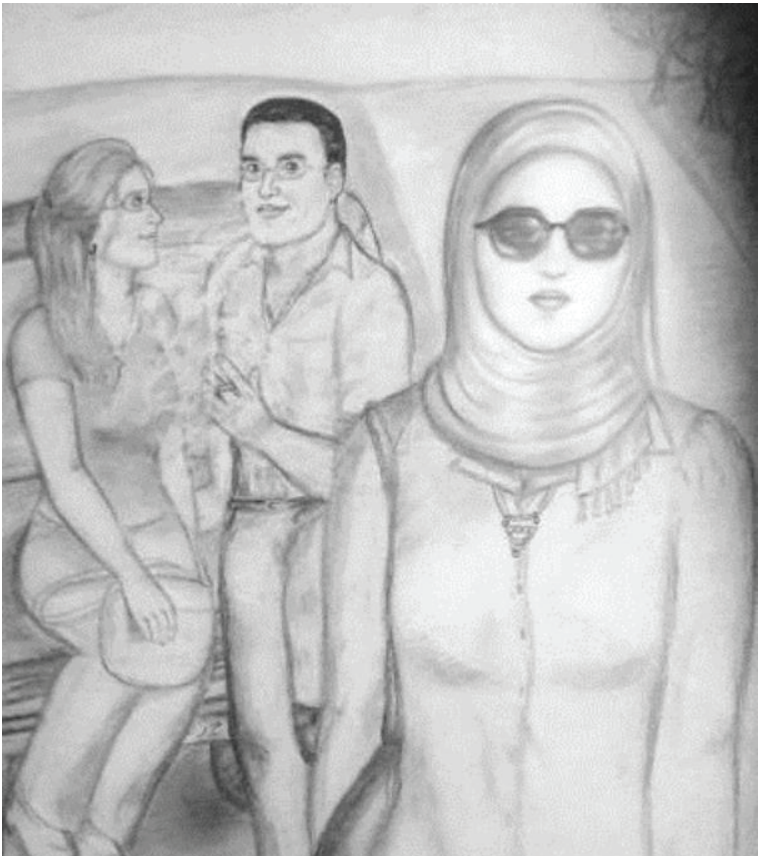

حرب نفسية

متوالية لا مبرر لها»، ثم تذكرتُ حديثي الطيّب لميري فهمستُ في سري. «لماذا تتآمرين معه عليّ رغم لطفي معك؟ لماذا تقبلين بهذا الدور المهينِ لنفسِك! إنه الحب الأعمى إذن!

ربما يأتي اليوم وتندمين يا ميري على إيلامي، حين تتجرعين من الكأس نفسه، فتدركين حدود ذلك الدور الذي رسمه لك حبيبك المفدى».

...

أراد حبيب الانتقام مني انتقامًا ناعمًا، ولكنَها نعومةُ الثعابين، تتسللُ إليك في هدوءٍ حتى تقتلك سمًا، هكذا أصبحت ضحكته الساحرة بالأمسِ سمي وعذابي اليوم.

لكنني رفضتُ الاستسلام لهذه الريح، ورحت أعلّقُ نفسي بكل أخبار المقاومة الفلسطينية، شعرتُ بنفسي وكأنني واحدةً من هؤلاء المقاومين، وتحولت طاقة الغضب المتفجرةِ داخلي إلى رغبةٍ عارمةٍ في رفضِ كل أشكال الظلم.

***

واشتعلت المظاهرات في ساحات الجامعة في أواخر أيامِ رمضان، فانضممت إلى إحداها، ورفعتُ يدي أهتفُ بقوة، فظهر صوتي بين الأصواتِ جليًا في مقدمةِ الجموعِ الهاتفة:

بالروح بالدم نفديك يا أقصى... بالروح بالدم نفديك يا أقصى....

فوقع نظري على حبيب عن بُعدٍ يتفحص ملامحي المنفعلة في حماسةِ الهتاف، وهذا الوشاح الفلسطيني الذي يكسو صدري، لم أكن لأنسى تلك النظرة في عينيه بغموضها وعمقها، بادلته إياها بنظرةٍ تحدٍ وقوة، ثم أدرتُ نظري ورحتُ أكمل.

لم تمض على قطيعتنا أيام حتى هل العيد، ولكنني لم أستطع تذوق

الفرحة ككل عام، ولا حتى تلقي التهاني من أنجيل وكرستين كما العادة، اكتفيتُ فقط بالإشارة بالسلام عن بعد، بينما بدت الدهشة والحيرة في أعينهما جلية.

ومضيتُ إلى كليتي بوجهٍ متجهم حزين، أفكرُ فيما شاهدتُ من أخبار النشرةِ هذا الصباح، فلمحتني أمنية إحدى زميلاتي في الكلية فجلست جواري تسألني عن سبب حزني فأجبتها:

– مضايقة جدًا من اللي بيحصل.

– إيه اللي بيحصل؟

– اللي بيحصل في فلسطين، الضرب والقتل والاعتقال، إيه ذنب الأطفال دول، أنا بجد مخنوقة أوي!

فنظرتْ أمنية باندهاشٍ تقول:

– فلسطين، مضايقة عشان فلسطين! انتِ زعلانه عشان فلسطين يا ليلى!

فأجبتها بدهشةٍ:

– أيوة زعلانه عشان فلسطين، ليه انتِ مش متابعه اللي بيحصل ولا إيه!

فعادت تنظر إليَّ كأنما تكاد تجن، ثم راحت تضحك بشكل هستيري غريبٍ وهي تكرر نفس الجملةِ في دهشةٍ حتى تحولت ضحكاتها إلى بكاءٍ مريرٍ فجأةً دون سبب، فنظرتُ إليها مذهولةً أتساءل عما أصابها، فاسترسلت في العويل ولم تُجِب، فأمسكتْ زميلتي نسرين بذراعي لتنزوي بي بعيدًا هامسةً في أذني:

– سيبيها في حالها، خليها في اللي هي فيه.

– دي مالها دي! هو أنا قلت لها حاجة غلط!

أعدتُ الحوار على نسرين فقالت:

– أصل انتِ مش فاهمة دي أصلها متجوزة صبري زميلنا، متجوزاه عُرفي.

اتسعت عيناي صدمةً وأنا أردد:

– عُرفي! متجوزة عُرفي!

فأكملتْ تقول:

– أيوة، ودلوقتي حالتها حالة ومش عارفة تعمل إيه لأنه بدأ يتهرب منها!

– طب وليه، إيه اللي يخليها تعمل في نفسها كدا، إيه اللي يخلي واحدة تتجوز من ورا أهلها أساسا! مجنونة دي ولا إيه!

– الحب يا حبيبتي، الحب بقى، أصلها حبته!

ذهبت نسرين وأنا ما زلت أتأمل دموع أمنية وحسرتَها المريرةَ عن بُعد لتحدثني نفسي هامسةً: «أصلها حبته، هذا هو حال الضعفاء أمام ندّاهة الحب يا ليلى، فاختاري لنفسكِ من تكوني».

لم تمض أيام عيد الفطر حتى حل عيد الميلاد المجيد، فرأيتهما. رأيتُ حبيب وميري يتجولان وفي يديهما شطائر اللحم المدخنِ يتناولانها بنهمٍ واشتياقٍ شديد، فهمستُ في سري، إنهما يحتفلان سويًا بعيدهما، يتشاركان الحديثَ والطعامَ والفرحة، هي تناسبه وهو يناسبها، وسيأتي اليوم يا ليلى وتجدين انتِ أيضًا من يشاركك إفطار رمضان، وكعك العيد وتتناولان سويًا من الأضحيةِ ضاحكين، لا تستلمي للحزنِ، ستكونين قوية وستكونين بخير.

***

في مساء اليوم التالي دقَّ هاتفُ المنزل إنها روان محمود، صديقة حبيب التي سبق أن عرفني عليها، راحت تسألني عن أخباره، فأجبتُها غاضبة:

– ما اعرفش ومش عايزة أعرف عن البني آدم دا حاجة!

– ليه كدا؟

– لأني جبت آخري معاه خلاص!

– ولو برضه مش الحل إنك تروحي تقولي له في وشه «أنا مش عايزة أعرفك تاني» ما فيش حد بيعمل كدا!

– واضح إنه حكى لك، أنا مش عارفة بجد البني آدم دا بيكرهني كدا ليه، أنا عملت له إيه!

ففاجأتني نبرةُ صوتِها المستنكرةُ وهي تردد:

– بيكرهك! بيكرهك إزاي يعني، إذا كان بيقعد يتكلم عنك ويقول لي ليلى دي نوع نادر من البنات، نوع مميز دي مختلفة عن أي بنت شفتها في حياتي قبل كدا.. ومش عارفة إيه، لا طبعًا دا بيحبك وبيحبك جدًا كمان!

قالتها بنبرةٍ متضجرة ولسانُ حالها يقول: «قرفني بالكلام عنك!»

فتسللت الفرحة إلى قلبي خِلسةٍ لكنني وبهجومٍ عكسي سريعٍ رحتُ أتصدى لها مرددةً:

– وأنا بقى باكرهه.. وباكرهه جدا كمان!

لا أدري لماذا قلتها لكنني فعلت، فصمتتْ روان على إثرِ غرابة ردي، وعمّ الصمت بيننا للحظة ثم أكملتُ أقول:

– بصي يا روان أنا هالخصلك المشكلة، هي المشكلة بدأت بسبب قصيدة، قصيدة هجاء كتبتها زمان وللأسف ووقعت في إيده، القصيدة دي كتبتها عنه وعن شخص تاني يشبهله في الشخصية والتصرفات.

– طيب ما هو لما تكتبي في ولد قصيدة دا كإنك بتقول لي له «أنا مهتمة بيك»، انتِ كدا اديتِ له اهتمام!

أصابتي عبارتها بمزيد من المرارةِ والإحساس بالذنب فرُحتُ أبرر:

– روان، دي قصيدة هجاء وأنا شاعرة وباكتب في كل حاجة، كتبت عن زميلاتي في المدرسة وعن صاحبتي القديمة وعن بنت معرفة وغيرهم كتير، أنا باكتب عن أي شيء بتأثر بيه حتى لو كان جماد وهو عارف كدا كويس.

– بس مش عن ولد! لما تكتبي عن ولد بقى معلش دي حاجة تانية خالص!

تنهدتُ بحرقةٍ ثم اعترفتُ مرددة:

– عندك حق أنا غلطت، كان لازم أسيب الدفتر دا في البيت ما كانش لازم أدي له فرصة يشوفها من أساسه، بعدها بدأت ألاقي تلميحات من صحابه وتلقيح كلام، يعني.. معجبة بقى ومش عارفة إيه!

– طبيعي.

فصحتُ فجأة:

– طبيعي إزاي يعني!

وتمالكت نفسي لأهدّئ من حدةِ صوتي قائلة:

– أنا كنت باتعامل مع حبيب طول الوقت بأريحيه، على طبيعتي يعني، بآخد راحتي في الكلام معاه هو بالذات كانه واحده صاحبتي، كنت باقول في بالي هو قبطي ومش ممكن يخطر في باله أو في بال حد من اللي حوالينا أي حاجة كدا ولا كدا.. دا اللي اتصورته!

– بس دا طلع غلط أهه.

فتنهدتُ بحرقةٍ ثم سألتها باستنكارٍ:

– أنا نِفسي أفهم بس، نِفسي أفهم بجد، إزاي ممكن يبقى في حب ما بين ولد مسيحي وبنت مسلمة في انهي مله ولا أنهي عُرف ولا في أنهي دين دا! الناس دي بتفكر إزاي! أنا كنت حابة إننا نبقى صحاب، صحاب وبس، صحاب زي الإخوات زيك انتِ وهو كدا. ما هو عنده صحاب بنات عادي وكلهم زي إخواته اشمعنى أنا اللي يلمحوا عليا ويتكلموا عليا.. اشمعنى!

– الولاد كدا معظمهم تفكيرهم مريض ولازم تحطي لهم حدود وتفهميها وهي طايرة.

راحت روان المتحررة في مظهرها وحديثِها تتفاخر أمامي بنباهتها ووعيِها وحدودها الواضحة الصريحة في التعامل مع الشبان، ليزيدني حديثها جلدًا

للذات أكثر فأكثر، حتى أنهيتُ حواري بجملةٍ أخيرةٍ كاشفة:

– نظراته مش طبيعية وتلميحاته وحركاته مش طبيعية وبجد تعبت، ما بقيتش قادرة أفهم هو الولد دا عايز مني إيه بالضبط!

وهنا صمتتْ الفتاة فلم تجد أي ردٍ مقنعٍ لسؤالي حتى أنهينا الحوار بالسلام.

انتهت المكالمة التي كانت كصبِّ الزيت على النار، فرحتُ بعدها أدور في غرفتي في حيرة، أفكر فيما قالت وأردد مستنكرة:

«بيحبني إزاي يعني، مجنون دا ولا إيه! مش من حقه يحبني أساسًا! يلّا خليها تقول له دي بتكرهك عشان أرتاح بقى!»

ثم صحت غاضبة أكرر:

«بيحبني إزاي يعني، أمّال لو بيكرهني كان عمل فيا إيه! يحبني ليه!»

فراحت أمي تنادي من خلف الباب:

– في حاجة يا ليلى، انتِ بتنادي يا بنتي!
– لا ما فيش يا ماما ما فيش، دي واحدة صاحبتي كانت بتتصل بيا بس.
– طيب يا بنتي ما تنسيش مذاكرتك.

ارتميت على السرير وأمسكت بكتابي لأحاول التركيز فيه جاهدةً فساورتني الذكريات كشريط فيديو يُمرَّر أمامي سريعًا؛ لأتذكر كل هذه اللفتات الغريبة والمواقف التي لم أعرها اهتمامًا، واللحظات التي لم أرغب في تحليلها من الأساس.

«اكمني بحبك! مش جايز أرتبط ببنت من هنا، نفسي ترسميني، هو انتِ فاكراني بتاع بنات، اقري القصيدة دي اقريها. قولي لي بحبك قوليها.. هاموت من شوقي ليها.. أنا لك قيس فكوني لي ليلى.. طب أصالحك إزاي طيب! قولي ورايا يا ليلى، مشاعر وعدت! إيه رأيك فيا أمور؟ وأنت منين بقى

يا كابتن سمير! أنا قلت السحنة دي من الصعيد برضه! ما بتناميش ليه بتفكري فيا ولا إيه؟ العيون الكحيلة دي مش مصري.. الليل يا ليلى يعاتبني ويقول لي سلم على ليلى.. اسمك حلو أوي».

استرجعت كل هذه المواقف المريبة، والنظرات الغريبة على مدار عامٍ كاملٍ منذ التقينا، ثم صحتُ على الوسادة مرددةً: «غبية يا ليلى غبية!»

***

حلّ الصباح فدخلتُ كليتي كالعادةِ ففوجئتُ بحبيب هناك يفترش الأرضَ بصحبة روان وينظر إليّ عن بعدٍ وكأنما يتمنى حضوري، فانصرفتُ على الفور وقد أدركتُ أنه هو من طلب منها مهاتفتي، وستنقل له الكلام كلّه وربما تزيد أو تنقص، لقد ضيعتَ فرصة المواجهة الأخيرة بيننا يا حبيب، والآن تبحثُ عن أي طريقٍ جانبي بائسٍ للتواصل، ولكنه لن يجدي عنك شيئًا، فقد وطأتَ هذه الصداقة العزيزة بقدميك لتصل إلى حبٍّ ممنوعٍ لا تقوى نفسُك حتى على الاعتراف به أمامَ الجميع، فلتذق إذن فما زال الكأس ممتلئًا! بهذا حدثتُ نفسي مختلية بها، وأنا أهشمُ قطع الخبز المنكه تحت ضروسي، وكأنما أهشم معها غروره المتفرد.

في نهار يومٍ جديد صعدت سُلمَ كليتي ألهثُ ولا تزال حكاية حبيب الغريبة مسيطرةً على تفكيري كله، لأجد شخصًا ما يقف بالأعلى أمامي يشبه قيمصَه قمصان حبيب. فهل أهذي إذن؟ إنني في طابقِ محاضراتي! صعدتُ درجةً أخرى ومازال الواقف أمامي لم يتحرك، فرفعتُ رأسي أخيرًا فلم أر أمامي سوى عينين تواجهاني وقد ارتسمتْ عليهما معالمُ الصدمة والألم من خلف نظارةِ نظر براقة، وتبينتُ بصعوبةٍ من شدةِ القُرب. إنها عينا حبيب، لأول مرة تتجلى لي بهذا القُرب الغريب، فلم أشعر بنفسي إلا وقد أشحتُ وجهي عنه مسرعةً غاضبة لأنطلق كالريح المرسلة في ممر الكلية أهرولُ إلى آخر قاعةِ محاضراتٍ خالية لألقي بنفسي فيها مغلقةً بابها بقوة، وقد دقّت كل صافرات الإنذار في أعصابي بشكلٍ لم أعهده

ارحل

في حياتي، وجدتُ نفسي متواريةً بين المقاعدِ أغطي وجهي بكل أصابعي كالطفلة، بالكاد أستطيع تمالك أنفاسي، أو السيطرة على رعشات أطرافي من أثر الخوف والهرولة، لأفيق أخيرًا من كل هذا مهدئةً نفسي.

«اهدي يا ليلى، مشي خلاص، اهدي!» ماذا يحدث لي، لست أدري، مريضة أنا ولكنني سأتماثل للشفاء حتمًا، بهذا أرحت نفسي أخيرًا، وكأنما تحول هذا الفتى إلى شبحٍ يطاردني.

مرَّ يوم جديد وفي طريقي إلى ساحةِ الجامعة رحتُ أتفقد نظارتي الداكنة فلم أجدها فانتابني شعور شديد بالاضطراب، شعرتُ بنفسي في الساحةِ عاريةً أمام الناس، فأسرعتُ أطلب من نسرين زميلتي التي تبيع لنا الإكسسوارات شراء نظارة داكنة أخرى لتنظر لي بعجبٍ قائلة:

– ما أنا قلت لك يا بنتي استني لما يجيبوا مجموعة جديدة الأسبوع الجاي وهتبقى أحلى وعلى الموضة.

– أنا مش عايزاها على الموضة، أنا عايزة نضارة سودا غامقه وكبيرة ما تبينش الوش خالص.

– ما تبيّنش الوش!

– قصدي العينين... تداري العينين كلها يعني.

– وانتِ عاوزة تداري عنيكِ ليه بس دا حتى عنيكِ حلوة، دا البنات كلهم بيحاولوا يبينوا جمال عنيهم وانتِ عاوزة تداريها، دا أنا عندي ماسكرا ماحصلتش، جربيها دي...

فقاطعتها بتنهيدةٍ أقول:

– نسرين أنا مش عايزة ماسكرا ولا عايزة أبيّن عنيا، أنا عايزة نضارة سودا من بكره الصبح، ينفع؟

– حاضر.. حاضر، خلاص هاجيب لك شباك إزاز اسود تحطيه على عنيكِ عشان ترتاحي، بس نفسي أفهم بس انتِ مستعجله أوي عليها كدا ليه!

زفرتُ بعصبيةٍ ثم أجبتها:

- الشمس يا نسرين، مش قادرة أطيق الشمس خالص عنيا بتتعب منها!

كم كنتُ أعشقُها وأعشق ألوانِ الزهورِ الربيعيةِ تحت أشعتها، هذه الألوان الخلابة التي تكتسي بها الفتيات أيضًا من حولي، كنت كأيّ فتاة في سني أحب أن أمرر عيني فأستمتع بمشاهدة كل هذا، ولكنني بدأتُ أشعر أنني لم أعد أستحق هذه المتعة، وأن عليّ معاقبةَ نفسي بالاستتار في حداد هذا السواد عن عيونِ الجميع حتى ينساني كل من يتسلىّ بسيرتي ويستمتعُ بتمعنِ نظراتي عن بعد.

مضيتُ إلى غرفتي في البيتِ منكسرةً حزينةً وصورةُ عيني حبيب المتألمتين تكادُ لا تفارقني، لقد أخبرْتُهُ إذن.. أخبرته روان بكل ما قلته، أخبرته أنني أكرهه جدًا، حسنًا فعلت، فلماذا أشعر بالألم إذن، غالبتني الدموعُ، فأدرت مفتاح باب الغرفة، واستسلمتُ أخيرًا للبكاءِ بمرارةٍ كما لم

أفعل من قبل، تصورتُ أن هذا البكاء سيذيقني شيئًا من الراحة ولكنني كنتُ مخطئة، فما عاد أمامي سوى متنفسٍ واحد اعتدت عليه، إنه القلم رفيق دربي الوفي، أمسكتُ به وانطلقتُ أكتب:

ارحل!
ارحل.. متى بالله عليكَ ترحل!
دعني أعود لذاتي لا تتسلل!
اغرب اذهب أيا ثعلب
ذرني أهرُب إلى المنزل
كل الزلازلِ حتمًا تمضي
كل النباتِ في الأرضِ يذبُل
كل الحرائقِ مهما تعلو
يخبو لهيبُها ويأفِل

فلِمَ تصرُّ أن تبقى سيفًا
في قلبٍ يأبى أن يُقتل!
ارحل.. متى باللّه عليك ترحل!
أكلما صببتُ الماءَ تلِدُ
النار نفسها وتُشعل!
يقفزُ في وجهي طيفُك
ساخرًا مني يتجوّل
وكلما أراكَ هذه
الدماءُ داخلي تتبدل
صداعُ ذكرياتٍ ونزيفُ
أشواقٍ كالجدول
ليتك كما أتيتَ سحرًا
كالسحرِ تنتهي وتبطُل
ارحل.. متى باللّه عليك ترحل!

هكذا اعترفتُ لنفسي أخيرًا أنني أصبحتُ ضحية للحب الممنوع المستحيل، فعادت دوامة البكاء تعتصرني وأنا أتذكرُ هذا المشهد المرير في طفولتي بكندا.

كانت دموع عمتي دارين تتساقط في ألمٍ وهي تسأل أبي:

– ليه.. ليه ما ينفعش أتجوزه وأنا بحبه وهو بيحبني! هو مش كلنا زي بعض! ما هو كلنا بني آدمين وكلنا مؤمنين بربنا!

فصاحَ أبي يقول:

– كلنا بشر نتعامل مع بعض بالحسنى آه.. إنما لو عيشتك هنا في كندا هتخليكِ تلغي الفروق بين الديانات وبعضها يبقى انتِ كدا هتخليني أندم على اللحظة اللي هاجرت فيها للبلد دي.

– تندم عشان جيت هنا!

فصاح يقول:

– أيوة أندم؛ لأن الدين أهم من أي شيء في الدنيا.. أنا جبتك معايا من مصر وانتِ عمرك ست سنين.. كنت لسه خاطب جديد لما قدمت على الهجرة، بعدها بكام شهر اتوفى أبوكِ الله يرحمه.. وبعدها بشهور أمك الله يرحمها حصّلته.. ما كنتيش لحقتِ تعيشي معاهم وتتربي على إيديهم زيي، أنا اتربيت على صوت الشيخ محمد رفعت في البيت، أبوكِ وأمك الله يرحمهم ما كانوش بيفوّتوا فرض، كنتِ يا دوبك لسه مكمله أربع سنين يوم ما اتوفت أمك، طول عمرهم كانوا بيوصوني عليكِ لحد ما سابوكِ أمانة بين إيديا، وهاجرت وجبتك معايا. قلت أعلمك هنا أحسن تعليم وأعيشك في مستوى أحسن من اللي أنا عشت فيه.. عشان ما تتحرميش من حاجة.

– فريد..

– اسمعيني لما أكمل، ودلوقتي جاية تقولي لي وماله لما أتجوزه، وإيه دليلك إنه حرام! أخوكِ أستاذ أزهري يا دارين وانتِ لسه بتجادليه في الحلال والحرام! وفي إيه.. في أمور محسومة أساسا مافيهاش خلاف! تعالي يا ليلى.. تعالي سمعيها يا بنتي، سمعي عمتك عشان تصدق.. اسمعي من بنت أخوكِ خليها تعلمك دينك!

صاحت دارين في عجب تقول:

– دي طفلة!

فأجابها:

– طفلة بس حافظة من القرآن والأحاديث اللي انتِ نفسك ما تعرفيهوش.. سمعيها يا بنتي عشان تتأكد بنفسها!

بينما تنظر إلي عمتي بغضبٍ ومقتٍ شديدين، كم كنتُ أعشقُ عمتي إلى حد الجنون، وكم كانت نظرتها قاسيةً كخنجرٍ سام، رحت أملي عليها ما حفظته من أدلةٍ فجاء صوتُها عاليًا متحشرجًا وهي تسأل أبي:

– وليه يعني؟! (I can’t understand why).

ليه اشمعنى الراجل من حقه يتجوز واحدة مش مسلمة والمسلمة ما ينفعش تتجوز واحد مش مسلم! ولا أنت رافضة عشان هو أجنبي مش عربي!

فصاحَ أبي قائلا:

– لا مش عشان أجنبي يا دارين عشان مش مسلم!

فتدخلتْ أمي تقول:

– بالراحة شوية يا فريد بالراحة!

فهدأ من صوتِه ثم رد يقول:

– طيب ماشي.. بالراحة كدا وبهدوء خالص هاجاوبك على سؤالك: ليه الراجل من حقه والبنت مش من حقها: لأن الراجل في الإسلام هو القائد له القوامة في البيت، ولما يكون مسلم هيحافظ على زوجته لأنه مؤمن بديانتها اللي هي جزء من دينه، إنما غير المسلم سواء مسيحي ولا يهودي مش هيكون مؤمن برسالة الإسلام من أساسه يعني قوانين البيت نفسها في علاقتهم الشخصية وعلاقتهم بولادهم والطلاق والحضانة وغيره مش هتخضع للإسلام فهمتِ يا دارين؟ الرجل هو القائد (The leader).

– بس هنا الراجل والست زي بعض.

– لأ في كل حتة وفي كل بلد هتلاقي الراجل دايما هو الطرف الأقوى، يسيب عياله ويمشي، أو يبص برا، أو حتى يفرض سيطرته مهما اتغيرت الأماكن والعصور. الإسلام في كل أحكامه وتشريعاته بيحافظ على البنت مش بيقهرها ولا بيظلمها بالعكس دا بيحميها.

ولكن عمتي لم تكن لتفهم أو تعي أي شيءٍ؛ فقد وقعت ببساطةٍ تحت تأثير الحب الأعمى، فاشتعل الصياح بينهما، فانهالت الدموع كالسيلِ على وجنتيها، فصاحَ أبي فيها قائلا:

– دا ما يجوزلكيش افهمي بقى.. دا ما يجوزلكيش!

فوقعت عمتي على الأرض منهارة في حالةٍ أشبه بالإغماء، وما إن فزعنا ورحنا نهال عليها لننتشلها حتى صاحت تصرخ وتطلب منا الرحيل، فحاولت لمسَها لأطمئن عليها فصرخت في وجهي تقول:

– امشي من وشي مش عايزة أشوف وشك أبدًا.. مش عايزة أشوفك أبدًا.. أبدًا.. أبدًا!

بسبب هذا الأجنبي الأشقر تألم الجميعُ وعانى، ونسيتني عمتي، نسيتْ أميرتَها الصغيرة الجميلة التي تربت على يديها منذ المهد، وحتى أصبحت فتاةً ذات ضفائر لتفارقَ عمتها بالجسد فقط وروحها معلقةً بها رغم بُعد القارات والمحيطات، ومرت أشهر وقرأ كيفين عن الإسلام وأسلم وفوجئنا بأنه أصبح زوج عمتي، ولكن إسلام كيفين لم يكن ليشفع لهما عند أبي، فلم يكن أبي ليتقبل مرارةَ هذا الزواج أو ينسى هذا الخدش العميقِ في قلبه منها، كان ذكرُ اسمها في البيت مدعاةً للألم، ليتبعه همس أمي دائمًا:

– ششششش خلاص.. قفلي على السيرة دي دلوقت.

عقب زواج دارين أُصيب أبي بالضغطِ، وعشنا عامًا من أصعبِ الأعوام، لم أستطع أن أسامحها، بل وكرهتُ كل شيء يذكرني بكندا وبهذا الغربِ الخادع الذي يسرق البشر من جذورِهم بوهجه الخدّاع.

أفقت من شرودي أخيرًا، وأناملي تضغطُ على فروة رأسي تكاد تخترقها، ولكن دون جدوى، ونهر من الدموع ينسابُ من عيني بحرارةٍ وأنا أهمس بشفاهٍ بللهما الدمع: «باكرهك.. باكرهك يا حبيب باكرهك».

***

في الجامعة راح يوسف يستجدي أستاذي، أستاذ مادة الكمبيوتر ليرفع درجتي من درجةِ الرسوبِ إلى المقبول حتى أجتاز المادة بنجاح، كان هذا هو طلب أمي، وأدّاه أخي على أكمل وجه، ولكن الأستاذ رفض، فألّح يوسف مرارًا حتى وافق أخيرًا، فشكره بشدةٍ وانصرفنا، ليدنو مني يوسف قائلًا:

- الدكتور بيقول إنك فوتّي كذا محاضرة.. طب ليه كدا! لو محتاجه مساعدة في الكمبيوتر قولي لي وأنا أساعدك بدل ما يسقطوكِ في المادة آخر السنة!

شكرته ومضى والحزن يغمرني، فلم أعتد الرسوبَ من قبل، لقد كنتُ مثالًا للتفوق منذ صغري، ساورتني ذكرى هذه الأيام التي تناسيتُ فيها محاضراتِ هذه المادة التي كانت تُصادف في مواعيدها المتأخرةُ أوقاتِ اجتماع شلتنا الرباعية أنا ومصطفى وحبيب ولاميا وسمرهم وضحكاتهم الأخّاذه.

أثّر هذا الموقفُ في بعمق، إن أخي لم يكتفِ بطلبٍ واحد وإنما راح يلّحُ من أجلي، هل يحبني يوسف ويعنيه أمري إلى هذا الحد؟ إذن لماذا يتحول حوارنا في معظم الأحوال إلى جدلٍ أو شجار؟! تهت شاردةً مع سؤالي حتى التقيتُ لاميا، فمشينا نتحدث كعادتِنا إلى أن لمحتُ مظاهرةً عن بُعد فأمسكتُ بذراعها أطلب منها الانضمام معي إليها فانتزعت ذراعها مني بقوةٍ تقول:

- ليلى أنا قلت لك ما لي في السياسية روحي انتِ إذا بدك!
- خلي عندك ذرة انتماء يا لاميا دي مش سياسة دي مبادئ!
- روحي انتِ إذا بدك.. سلام.

***

عدتُ إلى المنزل أحكي لأمي ما دار فردّت تقول:

- يا بنتي أنا مش قلت لك ابعدي عن المظاهرات دي.
- أبعد ليه؟ هو إحنا لما نعبر عن رفضنا للي بيحصل دا نبقى مجرمين! هي بتعمل كدا ليه دي فلسطينية!
- عشان هي فاهمه آخرتها إيه.. هتأذوا نفسكوا وبس.
- نأذي نفسنا عشان بندافع عن الأقصى ولو بقلوبنا! دا أضعف الإيمان.. إحنا ما بنتكلمش في السياسة يا ماما، إحنا...

نفديك يا أقصى

– يا بنتي صدقيني أنا متأثرة بكل اللي بيحصل زيك وأكتر كمان بس انتِ مش فاهمة حاجة بكرة تفهمي.

لم أكن لأستوعب هذه السلبية التي أراها في عيون أمي المتلهفة دومًا لمتابعة أخبار المقاومين في فلسطين، لماذا نصمت؟ مما نخاف؟ أولسنا على الحق! لماذا لا تعلو أصواتنا في الفضاء منددة بكل هذا الجُرم الصهيوني؟! لقد عجزت عن الفهم.

***

«كويس.. وكويس أوي كمان!» صدح بها حبيب عاليًا ليرد على سؤال لاميا عن حاله وهما يتبادلان السلام على بعدٍ مني، تعمد استفزازي بعبارته وهو يجلس ملتصقًا بميري كعادته الجديدة بينما أدرتُ لهما ظهري على بعد، وكأنما أراد أن يقول لي: «أنا في بُعدك أسعد مما تتخيلي!»

فراح الدمُ يغلي في عروقي بينما لا أجد سبيلًا لإثناء لاميا عن إلقاء السلام عليه، فقد باتت تبالغُ في الاهتمام بشعوره فجأة، تمامًا كما باتَ هو يبالغ في التواجد في على الرصيفِ المواجه لكليتي طوال النهار متناسيًا دراسته بل ومتجاهلًا حتى كلية الصيدلة ومن فيها، ليصبح الأمر لا يُحتمل.. لم يكن بإمكاني في هذا الظرف النفسي القاسي أن أخسر صديقتي أيضًا، حتى ولو كانت بدبلوماسيتِها النابعةِ من الجُبنِ والخوف تتسببُ في إيذائي النفسي هي الأخرى، وهذا ما أدركه حبيب فاستغله جيدًا.

***

في صباح يوم جديد، وقفتُ على نافذةِ قاعة المحاضراتِ أنتظر قدوم الأستاذ والطلبة، وأغمرُ رئتي بنسيمِ الصباحِ البارد العليل، فلمحتُ صديقي اللدود واقفًا بالأسفل مع أحد زملائه، كنت أراهُ من حيث لا يراني، ولا يستمتعُ بإثارةِ غيظي كعادته، كم كان هذا الشعور ممتعًا، أن تراقب من تشاء في صمتٍ عن بعد بلا خوفٍ أو قيودٍ، بلا أعين تحدق فيك بريبةٍ واتهامات وظنونٍ لا تنتهي، وبدون أن تسمح له باستغلال نقطة ضعفك،

راحت الذكريات الطريفة تهف عليّ مع نسماتِ الهواء الناعمةِ لترسُم على وجهي ابتسامةً طفوليةً ذوبني حنيني إليها، فداعبني وهج الذكرى الساطعِ في انعكاس ضوءِ الشمس على جبينه ونظارتهِ وحقيبتِه عن بعد، فشردتُ طويلًا حتى انتفضتُ إثر صوتٍ مفاجئ.

– بتعملي إيه!

ابتلعتُ ريقي واتسعتْ عيناي فجأةً لأستدير فرأيتُ صاحبة الصوت، إنها نسرين، فأكمَلَتْ تقول:

– بتعملي إيه هنا يا بنتي بدور عليكِ من يومين.. المحاضرة في السِكشن التاني على فكرة بس لسه ما جوش.

– انتِ هنا من امتى؟

– لسه جايه حالًا جبت لك طلبك أهو خدي.

وأخرجت من حقيبتها نظارةً تشبه نظارةَ جدتي القديمةَ ثم قالت:

– أهو.. أغمق وأكبر نضارة في المحل زي ما طلبتِ.. الراجل كان عمال يبص لي ومستغرب بس أنا قلت له هي اللي طالبة كدا أعمل لها إيه!

– آه.. أيوة كتر خيرك.. ثواني بس أطلع لك الفلوس.

كم كان هذا الصباح ممتعًا مع هذا الشرود الذي نسيتُ معه كل غضبي وغيظي ولكن الظهيرة لم تكن كذلك، حين نزلت بعد المحاضرة أتجول، فمررتُ مضطرة بهذا الثنائي المستفز حبيب وميري، وقد اعتليا إحدى السياراتِ القابعة على الرصيف وانطلقا في نوبةِ الضحكِ المعتادة، وكأن نكتةً ما قد كُتبت على جبيني، فأصابني الغيظُ والكمد ورحتُ أتمتم في سري: «يا سلام لو صاحب العربية دي يجي ويدوس بنزين ويفرمك انت وهي وأرتاح منكم.. كان يوم ما طلعتلوش شمس يوم ما شفتك يا حبيب!»

وذهبتُ إلى المنزلِ حزينةً مقهورةً وقد فاض بي الكيل لأطلبَ من أمي لأول مرة طلبًا غريبًا:

– ماما هو ينفع أسيب الجامعة دي وأنقل لجامعة تانية.. أنا تعبت

وزهقت ومش عدتش قادرة أشوف وش الزفت حبيب دا هو وميري تاني!

وعلى عكس ما تخيلت لم تعارض أمي الفكرة ولم تنزعج، بل رحبت ودعتني للاستطلاع في أقرب فرصةٍ في الجامعة الوحيدة المنافسةِ لجامعتنا في المنطقة.

وبالفعلِ ذهبتُ في اليوم التالي لأستطلع، وسألتُ وتبينتُ، ثم عدت محبطةً أجر أقدامي لأمي لأخبرها بما عرفت، فمصاريف كلية الإعلام هناك مضاعفة، والكلية غير معترف بها بين باقي الجامعات، ولن يقبل أبي بكل هذا ويدعني أدرس بمفردي بعيدًا عن أخي بلا مبررٍ منطقي، أطرقتُ رأسي في حزنٍ فراحت أمي تقول:

- خلاص يا بنتي أمرك لله، اصبري كلها كام شهر والواد دا يتخرج ويسيب الجامعة ونرتاح من أذاه.

وتذكرتُ تخرجه لينتابني مزيجٌ معقد من مشاعرٍ متناقضةٍ، لم أجد من أستطيع البوح له بها، فبدأتُ أعود إلى عادةٍ قديمة أوشكت على نسيانها، رحتُ أكتب مذكراتي كما اعتدتُ في الطفولة، أكتب ثم أخفي الدفتر بين الكتب، كانت هذه وسيلتي الوحيدة للتنفيس.. الشعر والكتابة، فلم أعد أطيق صبرًا للرسم، لقد فقدت شغفي له في خضم هذه الموجة العاصفة من الألم.. هذا الألم الذي أصبح لزامًا عليّ إخفاءه والتظاهرِ بالقوةِ باستمرار.

وبدأتُ أهتم باتباع صيحاتِ الموضة في أزياءِ المحجبات، لأستمع لعباراتِ الإطراء من هنا وهناك حول مظهري الجديد الأنيق، بدوت للكل جميلةً جذابة إلا نفسي، نفسي التي تفقدتها في ملامحي فلم أجدها، إنني فقط أقلد من حولي خوفًا من الوقوع في الخطأ، أقلدهم في الملبس وفي أسلوب الحديث وفي كل شيء بعدما أصبحتُ أخشى التميزِ أو الاختلاف.

كانت عينا حبيب تتبعاني في شرود وشجنٍ حيثما رحت، وحيثما جلست مبتسمةً مرفوعةَ الرأس ثابتةَ الخطوة أتوارى خلفَ نظارتي، أخبئ فيها

هاتين العينين الآثمتين اللتين ساقتاني إلى هذا الجحيم المشتعلِ في قلبي، قلبي الذي أصبح كآنية زهرٍ محطمة جُمّعت أجزاءَها وألصقت لتقوم بنفس الدور وتبدو بنفس الشكل كَرها.

ساورتني فكرة الانتقام لوهلة، لماذا لا أنتقم منه بنفس سلاحه، فأتعرفُ على شابٍ جديد، أو أتفق مع أحد الشباب التافهين في دفعتي على هذا الدورِ تمامًا كما فعل معي، ولكن ضميري وأخلاقي لا يسمحان لي بالعبثِ بمشاعر شابٍ جديد، فيكفيني سمير وما لاقاه مني ومن حبيب، ويكفيني ما أفضت إليه حماقتي من الإيقاع بقلب شماس الكنيسة من بين كلِّ شباب الجامعة المسلمين، كفاني غباء! فاستفزاز هذا الطفل المعتوه لن يمر على خير أبدًا.. فلتتحمل يا قلب إذن هذه الجلدات اليومية فهي ببساطةٍ ما تستحق من وبال.

***

«خيبر.. خيبر يا يهود.. جيش محمد سوف يعود..» ... على أصداء هذا الهتاف الحار راح أستاذي المفضل أستاذ مادة الدراما يتمايلُ راقصًا وقد ملأ دخان غليونه القاعة كلها وأنا في ذهولي أنصتُ إليه وهو يردد:

– أيوة.. أيوة.. اشجوني كمان وكمان.. فاكرين إنهم هيحرروا الأقصى بشوية الهتافات العجيبة دي! نرجع لموضوعنا...

وراحت الأسئلة تتصارعُ في عقلي المصدوم، لماذا يسخرُ منا هكذا؟!، لماذا يرى في حماستنا طيشًا ممقوتًا، لماذا يُصبح التعبير عن الحقِ مادةً للسخريةِ من الأساس؟! ولماذا لم يتصدَّ أحد من الطلبة الجالسين بالرد عليه؟! لم أعد أستطع استجماع عقلي للتركيز في حديثه الذي كان يجذبني، لقد فقدت الكثير من احترامي لهذا الأستاذ الفيلسوف المخضرم، وتمنيتِ بشدةٍ أن أنهضَ فأنصرفَ فورًا من محاضرته لأنضم لهذه الجموع الثائرةِ بالخارج ولكنني في النهاية استسلمتُ مثلهم للصمت.. الصمت فقط.

***

عند مبنى إدارة الجامعة في مكان تجمعنا القديم جلستُ أتفقد شيئًا من عبق الذكريات، فدسستُ يدي في حقيبتي أبحث عن نظارتي السوداء دون جدوى، فأفرغتُ كل محتوياتِ الحقيبةِ ثم أطلقتُ زفرةَ ضجرٍ قوية وقد تذكرتُ أنني نسيتها عند منضدة المرآة في غرفتي، فأخرجتُ كيس الخبز المحمص لأبدأ في تناول وجبتي الخفيفةِ المعتادة حتى لمحتُ حبيب وميري عن بُعد من ظهرهما يتجولان ويتبادلان أطراف الحديث بطلاقةٍ وحريةٍ أمام الجميع، فرحتُ أهشّم قطع الخبز المحمص بضروسي بغلٍ، وقد ارتسم الحزن على ملامحي وأنا أحاول تفرس حركات جسديهما عن بعد، ليجثم هذا السؤال المرير نفسه على صدري للمرة الألف.. هل يحبها حقا؟ لِمَ لا؟ ربما أحبها.. أو سيحبها.. أو كان من الأساس يحبها.. حتى مددتُ يدي في الكيس فلم أجد شيئًا، لقد انتهى الخبز وفرغ الكيس وفرغ صبري معه، فقبضتُ عليه أكرمشُه بين يديّ بقوةٍ ثم ألقيتُ به بعيدًا في غيظٍ وقد اختفى الرفيقان عن مرئي نظري. لم تمر ثوان حتى أتتني أنجيل لأول مرة ترمقني بنظرةٍ فضوليةٍ وابتسامةٍ ماكرة تحاول إخفاءها لتقول:

– إزيك يا ليلى عاملة إيه؟

فأجبتها بوجه متهلل:

– الحمد لله إزيك يا أنجيل إيه أخبارك؟

وأخيرًا وجدتُ من يسأل عن حالي! ردت أنجيل:

– آه تمام نشكر ربنا.. ما شفتيش حبيب؟ هو أخباره إيه صحيح؟

فتلاشت فرحتي وقد أدركت سبب مجيئها، إنها أول مرةٍ تسألني عن أخباره، وما شأني أنا بأخباره.. أيُعقل أنها لم تره وقد مرّ لتوّه مع رفيقتِه من هنا، وما هذه البسمة الصفراء على وجهها، إنها تراقبني إذن، إن الجامعة كلها تعرف بأمر ارتباطه بميري فعما تسأل؟!

واضطررتُ للرد أخيرًا:

– آه شفته كان معدي من هنا من شوية.

فبدا المكرُ في ابتسامتُها ونبرتها وهي تكرر:

– ما تعرفيش أخباره إيه صحيح؟

اشتد غيظي، لكنني لم أجد بدًا من تجاهلِ هذا التلميح الغريب في سؤالها فأشرتُ إليها بعيدًا أردد:

– عارفة المبنى الجديد اللي هناك دا؟

فتعجبت قائلة:

– أيوة ماله؟

– لو رحتِ هناك هتلاقيه أكيد.

أدركت أنجيل أنني أقطع عليها فرصةَ الحديث عنه حتى لو أدى الأمر لصرفها لكنها عادت تكرر بإصرار:

– بس أنا ما باسألش عن مكانه أنا باسألك عن أخباره.. أخباره إيه؟

كظمتُ غيظي للمرةِ الثالثةِ، ثم تصنعتُ عدم المبالاةِ مرددة:

– لا والله ما عنديش فكرة.. صحيح أخبار الدراسة إيه؟

– تمام.

– وأخبار كرستين إيه؟

– تمام.

– وأخبار الامتحانات؟

– تمام.

وأضجرتُها بكمٍ من الأسئلة المملة لأصرف تفكيرها عنه وعني حتى انصرفت محبطةً أخيرًا، ففهمتُ أنها كانت تستمتع بمراقبتي وأنا أتأملهما في ألمٍ عن بُعد، فمضيتُ إلى المنزل أكاد أنفجر غيظًا، وضربتُ جرسِ الباب مرارًا فلم يفتح أحد، فأدرتُ المفتاح في الباب بعصبيةٍ فلم يُفتح، فعدتُ أحاول متأففةً حتى كدت أقتلعه إلى أن فُتح، كان المنزل هادئًا بلا أحد، وتذكرتُ أن أمي عند عيادة طبيب الأسنان برفقةِ أخي، لم يعد بإمكاني إذن

أن أنفّسَ عن موجة غضبي هذه بالحديث معها كما اعتدت، جلستُ على الأريكة وقد انطبعت هذه البسمة الماكرة في عينيّ أنجيل في ذهني طويلًا، فراحت الخواطر تترامى على عقلي كالطيور الجارحةِ وأنا أتخيل هذا الحوار الذي سيدور بينها وكرستين الآن:

– آه لو شفتِ نظرة القهر في عينيها يا عيني!

ورد كرستين:

– للدرجادي! دا الموضوع جد بقى! طب والمسيح الحي البت دي شكلها لئيمة أوي وإحنا اللي كنا على نياتنا!

وضحكات أنجيل معلّقةً:

– قصدك عبيطة أوي! ما لاقيتش غير حبيب.. دا يتحب في إيه دا نفسي أفهم!

خرجتُ من تخيل قهقهاتِ أنجيل وأنا أغمض عيني المرتعشتين في حزنٍ لأتخيل نظرةَ الحزن في عيني مصطفى وهو يهمس في خاطري:

«ليه يا ليلى دا أنا نصحتك.. دا انتِ أخت يوسف زميلنا.. يوسف الملتحي!»

فذرفت عيناي الدموع، واحمرت وجنتاي من أثر قبضة أصابعي عليهما ثم تهت أتصور الخواطر التي مرت على عقل روان وهي تختتم مكالمتها معي:

«وعاملين لي فيها محجبات! قال محجبات قال! طب لما تحبي توقعي واحد وقعي مسلم زيك حتى!»

ثم تسللت في خاطري همسات لاميا لأتخيلها تردد في سرِّها:

«مفكرتيني هبلة زيك يا ليلى والله فاهمة كل شي ماني محتاجه أسال.. متبرعالك بالدبوس دا يا لاميا عشان تظبطي طرحتك وتغطي شعرك دا.. وسعيها على نفسك بلاش البناطيل الضيقة دي يا لاميا.. ما تخرجيش مع

شباب يا لاميا.. خلي عندك انتماء يا لاميا.. بالله عليكِ خليكِ في اللي انتِ فيه.. يلا بالشفا على قلبك حبيبتي!»

ثم لاحت لي نظرات الاشمئزاز في عيني ماركو وبيتر، وأصداء صوت ماركو تدكُّ رأسي كمطرقةٍ من حديد: «أنا أعرف واحدة بتحب واحد ومش قادرة تقول له.. أنا أعرف واحدة بتحب واحد.. بتحبه أوي.. أنا أعرف واحدة.. أنا أعرف واحدة.. بتحبه أوي!»

وقهقهات حبيب في الخلفية كأنها جرعات زيتٍ تصب على النار.

أفقتُ من شرودي وانطلقتُ أهبُّ إلى غرفتي كالريح العاتية في حالةٍ من الرفض الصارخ لكل هذه القصة وهذا السيناريو الذي وُضِعت فيه مُكرهة رغمًا عني، وأمسكتُ بكراسةِ مذكراتي أشقُّ صفحاتها بغلٍ شديد منهنهةٍ بالبكاء صائحة:

«كل كلمة كتبتيها يا ليلى هتتقطع قدام عنيكِ حتة حتة عشان تفوقي.. كله كذب.. كذب.. مش حقيقي.. كل الكلام اللي انتِ كاتباه دا مش حقيقي.. أنا مش كدا.. أنا باكرهه.. باكرهه!»

كانت كل ذرة في جسدي ترتجف، فلم أكتف بشقها من الدفترِ ولم يرحني تمزيقها، فقررت أن أشعل النار فيها حتى أنساها وأخرج نفسي بأي شكلٍ منها، وبالفعلِ ذهبتُ إلى المطبخ وألقيتُ بها على موقد البوتاجاز وأشعلتُ عينه الكبرى، علّ هذه النار المشتعلة تحرق الذكرى الموجعة في قلبي معها، فيصدّقُ هذا القلب الأحمق أن عقلي يرفضها وأنها انتهت وإلى الأبد، ولكن ألسنة اللهب تصاعدت بشكل لم أتصوره فارتهبتُ وأخذتُ ألقي عليها بالمياه، فهالني ما رأيت، إن ألسنة اللهب علت أكثر وأكثر وغطت الموقد كله من أوله لآخره حتى اقتربت من السقفِ فارتعبتُ وتصاعدت أنفاسي، وصحت ألهثُ وأستغيث:

«يا رب.. يا رب.. يا رب!»

وتلفتُّ يمينًا ويسارًا حتى أسعفتني قطعة قماش مبتلة تستخدمها أمي في تجفيف المطبخ، فألقيت بها على هذه النيران المشتعلة في وجهي، فبدأت تخفُتُ حتى تلاشت تدريجيًا، بينما بدأ بكائي يتحول إلى عويل مرير وأنا أتهاوى في أرضِ المطبخ الذي كاد يحترق بي باكيةً أهتف: «غبية.. غبية.. غبية!»

تخلصتُ من مذكراتي، ولكنني لم أستطع التخلص من أبياتي، لقد عاهدتُ أمي منذ الصغر ألا أمزق قصيدةً كتبتها في حياتي أبدًا، فكما قالت في كل قصيدةٍ درس عليَّ أن أتعلمَ الدرس وأتقبله على مرارته، فجاءت (أكرهك) قصيدتي التي حلت محل مذكراتي بكل ما فيها من وجعٍ وتناقض.

أكرهك..
أكرهك أكرهُ سحرًا يشعُ من عينيك
أكرهك أكرهُ قلبًا تركتُه لديك
أكرهك بقدر ما أكره وجعي
وهزيمتي النكراءَ بين يديك
أكره ضعفًا حولني لشظايا
بلورٍ حول قدميك
حتى جدران غرفتي سئمتني
ملّت هواجسي السخيفةَ عنك
كرهتُك وكرهتُ معك نفسي
حين اكتشفتها بعضًا منك
تجاهل تناسى ملامح وجهي
قل لي أنّي صفرًا لديك
اجرح وارسُم على القلب
من اللوحاتِ ما يخطر عليك
احبب من شئت أمام عيني
لأصير رمادًا وأتوب عنك

اصفع هذا القلب علّه
يفيقُ من عتمة الضنك!
ارسُم لي فوق النيران جسرًا
علّي أهرب فيه منك
فنهايةُ هذا الحب أعرفها
ما عندي فيها من شك.

هكذا أفرغتُ شيئًا من آلامي على الورق، فلولا أن الله –تعالى– منحني هذه الموهبة وجعل من هذا القلم رفيقي المخلص لدخلتُ في اكتئابٍ حاد، فلو أن الدنيا لعبة (سلم وثعبان) فقد كان حبيب في حياتي النفسية أكبر السلالم وأقسى الثعابين معًا.

***

في الجامعة التقيت كريم الصيرفي رئيس اتحاد الطلبة، فراح يجاملني كعادته وما إن همّ على الانصراف حتى سألتُه عن النشاطات الأدبية والفنية بالجامعة، ففاجئني بكلمةٍ واحدة:

– كله اتوقف ولأجل غير مسمى!

فسألته عن السبب في دهشةٍ، فأجابني بعبارةٍ أغرب:

– بدون إبداء أسباب!

فكان هذا الحوار بيني وبين أمي لأتساءل:

– وإيه علاقة اللي بيحصل في فلسطين والمظاهرات بوقف النشاط الطلابي!

فأجابتني متنهدة:

– مش عايزين الطلبة تتكلم عن اللي بيحصل.. بيحاولوا يسكتوا الكل عشان يعدُّوا موجة الغضب اللي حاصلة.

جلد الذات

- بالكبت! يعدّوها بإنهم يحرموا الطلبة من أي مُتنفس، يعني ممنوع حتى نغضب على الورق، ممنوع نحزن، ممنوع نتكلم في أي حاجة حتى لو برا السياسة!

- دي أوامر عُليا وبتطبّق على الكل وهتلاقيها في كل الجامعات وفي وقت واحد يا ليلى.

لم تكن كلمتي التي ألقيتها منذ أيام على مسامع روان «باكرهه.. وباكرهه جدًا» لتزيد حبيب إلا وقودًا على وقود ناره المشتعلة في وجهي، أذكى هذه النار هروبي الغاضبُ من مواجهته على السُلم، ليظهر في الساحة أمامي على بُعدٍ يمشي بخطواتٍ متخبطةٍ كالمخمورِ محاولًا الرجوع للاتجاه نحوي فتقبض ميري على ذراعه بقوةٍ لتسوقه إلى الأمام وعلى وجهها علاماتٌ غريبةٌ من التجهمِ والقلق، فيعاود الكرةَ فتتأبطهُ بقوةٍ أكثر كأنها تكتّفُ طفلًا مارقًا ليعلو صوته كالمعتوه أمام الجميع ضاحكًا بنبرةٍ غريبةٍ وهو يسألها محدقًا في وجهي:

- إيه! هو انتِ جرّاني وراكِ على طول كدا يا ميري!

حملني صوته الذي أسمع الساحة كلها ونظرته الصريحة نحوي على التلفتِ من حولي؛ خوفًا من نظرات الناس، بينما تُمرر لاميا نظرها بيننا مندهشةً، فأدركتُ أن أسئلة كثيرة تدور في رأسها الآن، لينظر حبيب إلى وجهي المذعورِ وهو منساقٌ بذراع صاحبته ثم يعاود الضحكَ منتشيًا حتى مضت به تجرُّه لخطواتٍ وهو لا يزال يدير رقبته إليّ كالسكران من حينٍ لآخرٍ حتى أدخلته كليتها عنوةً أخيرًا، فتمتمتُ في سري: «وقدام صاحبتي كمان.. شارب إيه ده على الصبح! أشوف فيك يوم يا حبيب!» والتزمت لاميا الصمت ولكنني لم أستطع ابتلاع غيظي أكثر فرحتُ أتمتم قائلة:

- هي البنت دي ما بتتكسفش! دي شابكة دراعها في دراعه كدا قدام الناس.. أنا عمري ما شفت المنظر دا في الجامعة أبدا!

فرمتني لاميا بعبارةٍ تقول:

– الحب بقى!

ففار الدم في عروقي ووقفتُ مغتاظةً أصيح:

– حب إيه وزفت إيه! دي اسمها قلة أدب على فكرة!

فضحكتْ لاميا وقد أوقعتني في الفخِّ لتنظر لي نظرة ماكرةً وتقول:

– والله شكلك بتحبيه لحبيب يا ليلى!

كادت الضحكة تتسلل إلى وجهي ولكنني رحتُ بكل جديةٍ أرفعُ سبابتي في وجهها مهددةً:

– والله العظيم يا لاميا أخسرك فيها الكلمة دي لو كررتيها تاني!

وأدركت لاميا أنها قد وقعت في المحظور فعادت تلوذ بالصمت، لتصبح صداقتنا منذ ذلك اليوم تحت التهديد، ولكن هذا الموقف جعل أعصابي التالفة على المحك فشعرتُ برغبةٍ جامحةٍ في صعود درَجِ كلية الصيدلة والانفجار في وجه حبيب ومواجهته صارخة:

«أنا عايزة أفهم إنت بتعمل معايا كدا ليه.. بتشكك كل صحابي فيا ليه؟ داير تضحك وتأذيني في الراحة والجاية قدام الناس ليه؟ هو أنا عملت لك إيه؟! أنا كنت حابة نبقى صحاب.. صحاب زي الإخوات وبس ما أذيتكش في حاجة أو على الأقل ما قصدتش أسبب لك أذى.. أنت اللي أذيتني وأذيت نفسك بغبائك.. أنت اللي دخلتنا إحنا الاتنين في طريق مسدود!»

هكذا وبكل بساطةٍ، لكنني كنتُ أعرفُ أنه يتمناها بشدة، يتمنى هذه المواجهة الصريحة بيننا ليصل بها إلى البوح بمكنونِ مشاعرنا حتى لو دخلنا في حلقة مفرغةٍ من العذاب أو صرنا علكةً للألسنةِ.

إن هذا الفتى لا يعنيه إلا أن يداوي جرحَ قلبه وكبريائه بي، فغروره لا يعترفُ بخطوطٍ حمراء تربيتُ على احترامها، وجنون أشعار الحب النزارية التي عشقها صوّر له أن تشبثي بصداقته سيسمح له بعبورِ قلبي وعلى الملأ أمام الجميع! ولكن بين سطور الحياةِ ما لم يذكره نزار ولا تغنى به كاظم أو

ماجدة وهما يغازلان أطياف الحب المستحيل.

وارتقيتُ سُلّمَ كليةِ الصيدلةِ بالفعلِ ولكن ليس إليه، قادتني أقدامي إلى مُصلّى الكلية، إلى وفاءِ محفظةِ القرآن، الفتاة المنتقبةِ التي رأيتها تُحفِّظ الفتياتِ منذ أسابيع، مازلت أذكر صوتَها العذب، وترتيلها الأخّاذ، ودخلتُ المصلى فصليتُ ثم هامستها أطلبُ الحديث معها فقالت:

– ثواني وأكلمك.

في هذه الثواني دارت عيناي على استحياءٍ بينهن، لا أجد في وجهِ إحداهن نقطةً من مستحضراتِ التجميل، فكلهن منتقبات، مع عدا هذه الفتاةِ المختمرة نفسها، كانت إحداهن فاتنةَ الجمال بشكل لا يوصف ولكنها اختارت أن تغطي هذا الجمال كله مرضاةً لله فقط، إنه درس تحفيظ يتكرر إذن، رحتُ أتساءل.. بماذا ستعلقُ المحفظةُ على حُمرة شفاهي؟ لقد نسيتُ في شرودي الدائم أن أزيلها، وربما تعلقُ على سترتي، ربما تبدو لها ضيقةً بعض الشيء، لقد طال حديثُها معهن.. فلأنصرف إذن وأعود لها مرةً أخرى أكون فيها أكثر استعدادًا، بهذا حدثتُ نفسي وأنا أهمُّ على النهوض والتأجيل لأجلٍ غير مسمى، حتى وجدت هذا الصوت الجميل يناديني بلطفٍ فالتفتُّ لها لتقع عينيَّ على ابتسامةٍ وضاءةٍ من وجهٍ يشعُّ نورًا ربانيًا:

– كلنا كدا ولا يهمك.. هتبتدي معايا امتى بإذن الله.

– أنا... يعني... أنا مش من كلية الصيدلة على فكرة أنا إعلام.. ما اعرفش دا ينفع ولا لأ.

– ولا يهمك يا حبيبتي عادي.. أهلا بيكِ.

– هو بس أنا مش باركز أوي في الحفظ.. أوقات بيبقى عندي امتحانات وكدا ف...

شعرتْ وفاء بترددي واضطرابي فتبسمتْ ووضعتْ يدَها على كتفي فشعرتُ بسكينةٍ غريبةٍ تتسلل إلى قلبي وهي تقول:

وفاء

- ما تخافيش.. حتى لو هتحفظي آيتين بس في الأسبوع.. أنا معاكِ المهم تبتدي.

فتأملتُ بسمتها الحانيةِ ويدها الممتدةِ على كتفي فشعرتُ أخيرًا أنني قد لذتُ بشاطئ الأمان.

***

تحتَ عنوان نفحات إيمانية بدأتُ أسجلُ بعضًا من كلماتِ الداعية عمرو خالد في خلفية دفتر أشعاري كي أذكّر نفسي بها من حينٍ لآخرٍ فكتبت: «الروح نفحة من روح الله -عز وجل- ولذلك تحن لعبادةِ خالقها أما الجسد فمن تراب ولهذا يحن للأرض بملذاتها وعلى الروح أن تسمو بذلك الجسد».

كم كانت كلماتُه الأخاذة وأسلوبه الجذاب في روايةِ سيرة الرسولِ (صلى الله عليه وسلم) أكبر ملهمًا لي بمفهوم جهاد النفس والتغلب على الهوى، استمعتُ له بشغفٍ وهو يروي:

«وفضل الصحابي الجليل جعفر بن أبي طالب يقاتل حتى قُطِعت يمينه فحملَ الراية بشمالهِ فقُطعت هي الأخرى، فاحتضن الراية بعضديه.. شوفوا لدرجة إيه! يااااه! شوف.. مش قادر يسيب راية الإسلام تقع للدرجة دي، آه.. ما هو أصل ما ينفعش تقع.. حتى استشهد -رضي الله عنه وأرضاه- فقال فيه رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (أُريتُ جعفرًا ملكًا يطيرُ بجناحيه في الجنة). طب الكلام دا جميل أوي، بس هيجي واحد يقول لي طب ما هو ما عادش فيه دلوقتي جهاد صح؟ يعني أنا هاعمل إيه؟ أقول لك تعمل إيه.. لو كنت حريص على راية الإسلام جوه قلبك.. حريص إنها ما تقعش.. جاهد نفسك.. جاهد نفسك في البعد عن الحرام.. البعد عن الهوى.. ماهو دا برضه نوع من أنواع الجهاد.. جهاد النفس».

***

في ساحةِ الجامعةِ مشينا أنا ولاميا كعادتِنا فبدأت قطيراتُ المطر تترامى

من السماءِ كأنها تداعبنا، فتبسمتُ وبسطتُ يداي لها لأستشعرها كنورسٍ يتأهبُ للطيران، ثم دُرتُ بجسدي رافعةً رأسي محدقةً في هذه السحبِ الفضية ببسمةٍ ناعمة بينما تناديني لاميا:

– ليلى يلاّ.

– ثواني بس.

رحتُ أحاول الاستمتاع بهذا الشعورِ الفريد، وما إن أنزلتُ رأسي واعتدلت حتى رأيتُ حبيب يلتف من حولي مراوغًا فعادت ميري تمسكُ بذراعه لتجذبه إليها بقوة، فنظرتُ إلى لاميا فإذا بها تحدقُ فيه بفمٍ مفتوح وعينين مذعورتين فنظرتُ إليهما ثم رحتُ أسألها:

– مالك.. في إيه؟

– حبيب!

– ماله؟

– ما شفتِ شو صار؟! كان عم يتطلع فيكِ وراح قال: «حبيبتي والمطر» ومشي.. ما سمعتِ!

– لأ.. امتى دا؟ ماخدتش بالي خالص!

– كيف! دا كان لازق جنبك! وعم يتطلع فيكِ بطريقة غريبة!

لقد عاد لهذيانه إذن! ساورني الارتباك ثم رحت أردد:

– دي أغنية لكاظم على فكرة.. تلاقيه كان بيهزر كالعادة.

فنظرتْ إلي ولا يزال الذعر في عينيها لتردد:

– لا والله يا ليلى نظراته ما كانت طبيعية أبدا! ما كان عم يمزح لا!

بدا القلق على وجهها وأنا ما زلت أخشى تفسير أي شيء لها، فلو فسرتُ سوف أروي ولو رويتُ فلن يصمت لساني أبدًا، وستفهمُ مع الوقت أنني وقعتُ أسيرة التفكير فيه، «فلتخرس إذن أيها القلب اللعين!» تمتمتُ بها في سري واكتفيتُ بعبارةٍ واحدةٍ رددتها على مسامعها: «سيبك منه خالص كإنه مش موجود».

على المائدة كنتُ أتناول حساء الشعرية الأندونيسية المفضل لدي حين هلَّ أخي علينا مصفر الوجه مقبوضَ القلب يردد:

– أنا شفت حلم النهاردا.

فراحت أمي تردد كعادتها:

– خير يا ابني اللهم اجعله خير.. اقعد واحكي لي.

ظل يوسف على قلقه واقفًا ليكمل:

– حلمت بواحد جاي لي في المنام يقول لي أختك بتحب ولد مسيحي!

كادت شرائط الشعريةِ تسُدُّ حلقي وأنا أبتلعها حتى نظرتُ إليه شاخصةَ العينين أصيح:

– إيه! هو أنا مسؤولة عن التخاريف اللي انت بتحلم بيها كمان!

ثم قمتُ أتلفتُ بغيظٍ أكاد أحطم كل ما حولي من الغضب وصوتٌ صارخ يتردد في أعماقي متسائلًا عن سرِّ هذه العبارةِ اللعينةِ التي تحاصرني في كل مكان حتى في بيتنا وفي أحلام أخي.. لماذا أصبح حبيب شبحًا يطاردني غائبًا وحاضرًا، صديقًا وخِصمًا.. أكاد أُجَن!

راحت أمي تُهدئ من أخي الذي استشاط غاضبًا يقول:

– ماما أنا مش عايز ليلى تكلم الواد دا تاني.. دا قراري النهائي.

شعرتُ بنفسي متهمةً مُهانةً فصحتُ أقول:

– وأنا مالي أنا؟ تحاسبني ليه على أحلامك كمان!

أخذت أمي تُهدئ من غضبنا وتُقسمُ له أنني لم أعد أحدثه وأننا تشاجرنا وقاطعته منذ ما يقارب الشهرين حتى هدأ يوسف قليلًا، ثم راح يستجمع أنفاسه ليخفض من صوته بصعوبةٍ فيخاطبني بعينين كستهما حُمرة الغضبِ قائلًا:

– بصّي أنا مش عايز أعرف انتو اتخانقتوا ليه، المهم عندي حاجة واحدة بس إنك ما عدتيش تكلمي الواد دا تاني وبس!

ثم حملَ حقيبته ومعطفَه الأبيض وغادر المنزل إلى الجامعة، فرحتُ أسأل أمي بانفعال:

– إيه اللي خلاكي تقولي له كدا يا ماما.. افرضي سألك اتخانقت معاه ليه هتقولي له إيه ساعتها؟

فردت أمي:

– كان لازم أعرّفه اللي حصل عشان أهدّيه.

– وافرضي سألك عن السبب!

– وهيسأل ليه! وأنا أدخّل ابني في مشاكل ليه والموضوع خلص أصلًا!

وكأنما جاء حلم أخي كصفير ريحٍ أغلقت أمامي كل أبوابِ الرجعة أو الحوار، فما عدتُ أملك التحرر من وجعي بحوارٍ مع رفيق الأمس الجريح أعترف له فيه بأنني لم أكرهه كرهًا حقيقيًا ولم أتعمد أذيته بسوءِ نية، وإنما ثأرت فقط لكرامتي وجرحي ولزم عليَّ الرحيل فرحلت، ولكنني أدركتُ بعد أمدٍ من التفكير أن خيار الحوار سيفضي بنا إلى المهلكة حتمًا، فما العتاب إلا طريقًا للصُلح، والصُلح بوحٌ بالجرح، والبوحُ سيفضح كل أعراض المرض الذي أصابنا، والعودة إلى صداقةٍ بريئةٍ بعدها لن تكون سوى كذبةً مع هذا المراهق الكبير، ستكون البداية إذن لا النهاية، بداية قصة حبٍ محرمةٍ في كل الأعراف والشرائع، فلا مفر إذن من الهروب، هروبٌ لا ينتهي.. بهذا حدثتُ نفسي وأنا أمسك بالورقة الأولى التي أعطاني إياها، فشردتُ أتعجبُ من هذه الكلمات التي دُونت عليها لأتساءل: «أتكون صدفةٌ أم أنها رسالة الأقدار!» وقرأت..

«أحبك جدًا جدًا وجدًا

وأعرف أني تورطتُ جدا

وأحرقتُ خلفي جميع المراكب

وأعرف أني بغابات حبك وحدي أحارب

وأني ككل المجانين حاولت صيد الكواكب

وأبقى أحبك رغم يقيني بأن الوصول إليك محال».

فشعرتُ برغبة ملّحةٍ في الكتابة فتناولتُ القلم ورحتُ أغمرُ الورق مدادا ووجعًا:

حاولت..
حاولتُ ألا أكتبُ فيك بيتًا
أن أغمرَ وجهك في موجِ النسيانِ
وأمنعكَ من الشروقِ في صدري
وأطوقُ قلبي بالحرمانِ
حاولتُ أن أهاجر من منفاك
وأتعلمُ فنونَ الطيرانِ
وما زلتَ تلوحُ في أفقي
كالنورسِ فوقَ الشطآنِ
وتعصِرُ ذكراك فؤادي
وتعود بذيلِ الثعبانِ
أيا من رسمت بين قلبي
وعقلي أبعاد بلدانِ
وحروبًا تتنفس نيرانُها
وغاباتٍ من الأحزانِ
هل باتت جذورُ هواك
مني بمثابة شرياني
أم أنك في كياني عدو
يتمدد بخُبثِ السرطانِ
فالحب بلا عقل يا قلب
أعتى عدوٍ للإنسانِ!

***

مرت بضع أيامٍ وحان موعد حِفظ القرآن ورحتُ أمسكُ بمصحفي لأقرأ، فمسحتُ عنه هذا الغبار الذي غطىّ جلدته، فمنذ أشهر لم تلمسه يداي، لم يكن الأمر سهلًا كما اعتدت، كانت أول مرةٍ أشعر فيها بالخجل من نفسي وأنا أتلو كتاب الله، شعرتُ بهذه الصخرة الجاثمة فوق صدري تتشقق عن ينابيعٍ من دموعٍ حارة لا تنتهي، فاجتاحت صوتي بحة الدموع فتوقفتُ عن التلاوة ودعوت الله هامسةً:

«يا رب لو كان دا ذنب سامحني ولو كان ابتلاء ساعدني».

ثم عدت للتلاوة مجددًا وقد استشعرتُ في قلبي رحمة الله الواسعة.

***

في ظهيرةِ اليوم التالي رحتُ أرتل في المُصلّى لمحفّظتي ما حفظتُ من سورة الأعلى لأختمها بقوله تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى (14) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (15) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (16) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (17) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (18) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾

نظرت إليَّ وفاء ببشاشةٍ والسكينة في عينيها وقالت:

– ما شاء الله بارك الله فيكِ يا ليلى، صوتك حلو في التلاوة وواضح إنك دارسة تجويد ومتمكنه من الأحكام أمّال خايفه ليه! استمري.

يسمو بك الإيمان عن كلِّ هذه القوى المغناطيسية التي تجذبك إلى الأرض، لتتعرى صورتها أمامك فتراها مجرد مغريات دنيوية تتحدى فيك قوة إيمانك، فإما القوة والنجاة، وإما الضعف والهلاك، كنتُ أنهض وأعود أكبو ولكن قبساتِ هذه الجرعات الإيمانية بقيت لي ذلك الشعاعِ الوحيد في آخر النفق.

***

في طريقي في الجامعة ترامت على مسامعي أنباء اعتقال طالبين فلسطينيينِ من المظاهراتِ تمهيدًا لترحيلهما، فصُدمتُ بشدةٍ وعدتُ أحادثُ أمي وأنا بالكاد أصدق لتعلق:

– شفتِ بقى مش قلت لك.. عرفتِ ليه صاحبتك ما كانتش بترضى تشارك في المظاهرات.

فرحتُ أقول:

– يعني إيه يا ماما أنا هاتجنن.. لما الدنيا كلها مع الانتفاضة، الإعلام، والسياسيين، والفنانين كمان يبقى ليه تتمنع المظاهرات.. مش فاهمة! فيها إيه لما نتكلم ونقول اللي جوانا! مش دي الحقيقة! همَّ عملوا إيه غلط!

– الدنيا يا بنتي مش بالبساطه اللي انتِ فاكراها دي.. أديكِ سمعتي بنفسك ابعدي بقى.. واحمدي ربنا إنك مش معاهم دلوقتي.

لتكون هذه أول صدماتي في مفهوم الحريةِ على هذه الأرض التي عشقتها، فاستشعر المنع والكبت ولكن بمفهومه الأوسع، عندما يكون حب الأوطان أيضًا ممنوعًا ومكبوتًا!

***

في ساحة الجامعة جاءتني لاميا تلقي السلامَ ثم راحت تقول متعجبة:

– ليلى.. شفته لحبيب اليوم ورحت أسلم عليه كالعادة فراح قال لي:«معلش بقى أصل أنا مرتبط» ومشي.. ما أدري ليش بيقولي هيك؟

فانتابني الغيظُ وصحتُ فيها:

– وانتِ مالك انتِ يرتبط ولا ما يرتبطش.. بني آدم تافه صحيح! بيقول لك كدا ليه!

فارتبكَت وراحت تبرر قائلة:

– يجوز بدو يقول لي ليش ما راح يقدر يحكي معي يعني.

فنظرتُ إليها باشمئزازٍ شديدٍ أردد:

– وانتِ إيه اللي يخليكِ تروحي تتكلمي معاه أصلًا!

بدت على وجهها الصدمة وهي تتأمل ملامحي المشمئزةَ، وقد زادها حديثي ألمًا وإحراجًا فاستأذنت مني متحججةً بالمحاضرة وولت ذاهبة، لتمسي هذه النهاية الحقيقية لصداقتي بلاميا.

لم أستطع تبرير غضبي الشديد ولا نظرة الاشمئزاز تلك، لم أستطع البوح حتى بتأثير هذه العبارةِ السُميّةِ التي ألقتها على مسامعي ببرودٍ شديد، لم يكن بوسعي وأنا أخسر صديقتي المقربةَ سوى أن أُخرسَ لساني تمامًا وأنا أتجرعُ سُمّ القهر الأليم في صمت، شعرتُ بهذه المرارة نفسها وأنا أرى أعين أنجيل وكرستين تتجاهلني عن بعد عمدًا، ليسلكا طريقًا آخرًا تفاديًا لإلقاءِ السلام عليّ ولو بالإشارة.

بهذا بدأت أشعر بنفسي شجرةً هبّت عليها ريحُ الشتاء العاتية فجردتها من أوراقها ورقةً ورقة، وبدأتُ أتفقد أطلالي وأسترجع الذكرى، ذكرى الأصدقاء، كم تكلمنا وضحنا وتشاكسنا، فهنا كان يضحكُ مصطفى لآخر مرة، وهنا كانت تقفُ أنجيل شاردةً مبتسمةً كعادتها، وهنا كانت كرستين تشكو همّ الدراسة الذي لا ينتهي، وهنا كنا نتجادل أنا ولاميا حولَ المظاهرات والانتفاضة، وهنا جلس سمير باكيًا أمامي وأنا أدمع من ألم جرح حبيب لي، حبيب الذي كان سببا مباشرًا أو غير مباشر لخسارتي كل أصدقائي، وكان هو جرحي الأكبر والأمَّر، حتى شيماء صانعة القهوة تفقدتُها فلم أجدها، كم كانت ضحكتها طفوليةً مثلي، ولكنها اختفت بقهوتها تمامًا كما اختفت ضحكتي تلك، وأمسكتُ بالقلم لأغوصَ في الذكريات فأكتب:

كالطفلة..
كالطفلةِ كم كنتُ انتظرك
بقلبٍ كالنبعِ الصغير
وتنثرُ الأحلام على جبهتي
أوراق الورودِ وتطير

يهدهدني طيفُك ساعاتٍ
تُسكرني أمواجُ التفكير
حتى تطلّ كإشراقةِ صبح
وتفك قلبي الأسير
تلهو به وأحسُّه
يرقصُ في الضلوعِ سكير
وأظل لا أدري ما اسمه
ذلك النوع من التخدير
أيامي كانت كالأكاذيب
مُغطاةٌ بحلى وقصدير
أما تشربته عيناي من
عينيك وهم كالأساطير؟
وكيف يكونُ البعدُ عن
غيرك عادي وبعدك خطير
بعد الفراقِ أعيشُ هذا
العمر بجناحٍ كسير
يلح الطريقُ علي مرارًا
ومرارًا كي أسير
كحديقةٍ لفظتْ ورودها
ونهرٍ صمت فيه الخرير
والعالم يبدو كأنه
سجن كبير.. كبير!

يقنعك عقلك مرارًا أنَّ هذا الذي تهواه هو مرضك الأخطر، وفيه سمُّك الخالص، ولكن قلبك يظلُّ عالقًا به غير مصدق، ولو أتيت له بكل حججِ الدنيا، فتشتعلُ في أوصالك حربٌ ضروسٌ لا نهاية لها، حربٌ بين العقلِ والقلب، حربٌ لا منتصرَ فيها، أنت فقط هو المهزوم الأوحد، فيدخلكَ

حنينك في دوامةٍ تستعذبُ فيها تعذيب نفسك دون أن تدري.

***

في كليتي تعرفتُ على يارا فتاةٌ يمنيةٌ خمريةُ اللون شديدةُ الجمال، فلفت نظري شاب تحدثه، كان أبيض البشرةِ وسيمًا فارعا، فرحت أسألها عنه:

– هو مين الشاب دا؟

– هدا أنس رابعه هندسة أنا وهو بنحب بعض.

– يااه بجد.. بس هو مش يمني صح؟

– لأ مش يمني هو أردني.

– أردني.. آه.. بس مش انتِ قلتِ لي إنك آخر سنة السنة دي وهتتخرجي وهتسافري اليمن.

– أيوة صح.. راح أرجع اليمن.

– طب وانتِ وأنس.. يعني.. إيه؟

هزت رأسَها وتنهدت قائلة:

– هنترك بعض.. ما ينفع نكمل.

– طب ليه ما يتقدم لك وتتخطبوا عادي.

فنظرت إلي بحزنٍ تقول:

– ما ينفع.. أهلي ما راح هيوافقوا أبدًا لأنه مش يمني.

شعرتُ بالأسف لأني نكأت دون وعيٍ جراحها فرحتُ أقول:

– معلش.. يعني.. بس انتِ برضه مهما كان هترجعي اليمن بلدك وأهلك هناك أكيد وحشوكِ طبعا.

فنظرتْ إليّ بعمقٍ لتقول والألم في عينيها:

– تعرفي يا ليلى إيش أكثر شي بيوجع.. إنك تكوني عايشة حياتك في الظلمة بس متعودة عليها عادي وبعدين تيجي لمبة صغيرة تنور لك حياتك كلها وبعد ما تحبي حياتك الجديدة هادي وتتعودي عليها ياخدوا منك الشي

اللي منور لك حياتك.. ما أدري إذا كنتِ قادرة تحسي الشي اللي بأقوله ولأ.

استشعرت غصةً في حلقي ثم نظرتُ إليها مرددةً:

– حاسة بيكِ.. حاسة.. كملي.

فسألتني:

– وانتِ ما حبيتي؟

فأجبتها والبسمةُ الحزينةُ على وجهي:

– لأ.. بس.. أصلي يعني.. باحب أسمع حكايات الحب اللي حواليا وكدا.

وأقبل أنس فاستأذنت مني ومضت معه، راحا يتجولان كأنهما خرجا لتوهما من كُتيبٍ من كُتيباتِ قصص الحب الخالدة، كم كانا رائعين، مزيجٌ من السُمرة الساحرةِ والبياض الباهر، إنه ذلك التضاد الجاذب، وذلك العطر الفائح، عطر الحب الذي يفوح حول العشاق فيفضح أعينهم، ستُنهي العادات القبلية كل شيء.. يالها من قصة موجعة!

***

في غرفتي على الفراشِ رحت أحدق في الجدرانِ شاردةً أسترجع هذه الجملة التي رددتُها على مسامع حبيب بعفويةٍ شديدة:

«بجد يا حبيب.. بجد ممكن تيجي زيارات.. يا ريت يا حبيب.. يا ريت!»

لقد فضحت هذه الجملة الطفولية مشاعري التي لم أكن لأدركها بعد.. تُرى هل سيأتي بعد تخرجه في زياراتٍ حقًا، ترقرقت الدمعةُ من عيني وأنا أتساءل ثم شردتُ أتذكر سخريتَه المتواصلة مني في حديثنا حين خاطبتُه أقول:

– على الأقل أنا مثقفة.

– إيه.. مثقفة!

– أيوة مثقفة عندك مانع!

– مثقفة دي من الثقافة ولا من التسقيف!

وراح يصفق بيديه كالأبلة، فأفقتُ من شرودي أضحك ولا تزال الدمعة على خدي كالمجنونة، ثم خرجتُ من دوامةِ الدموع والضحك لأمسك بالمصحف فأستذكر آيات الحفظ الجديدة من سورة الشمس فرحتُ أتلو.. ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ ...

في كل أنواع الجهاد لذة، ولكن في جهاد النفس لذة من نوع آخر، لذةٌ تستشعر فيها تلك القوة الخفية التي وهبك الله إياها لتسمو بروحك عن هوى الدنيا بملذاتها، فتنتشلك منها ولو أضناك الألم.

***

وحاولتُ الخروج من قوقعة الوحدةِ بحديثٍ مع بعض الزميلاتِ ولو لبضع دقائقٍ حتى يحين موعد مجيء الحافلات فينصرفن، كنتُ بالنسبة إلى الجميع مجرد (مَعرفة) بالتعبير الدارج، لستُ صديقة حقيقية، فلا وقتَ لديهن للصداقةِ من الأساس، كنتُ أدرك هذا وأنا أحدث هذه أو تلك، ولكن الاستسلام للوحدة وأمام عين حبيب الراصدةِ فهذا ما لم أكن أحتمله.

رحتُ أتجولُ مع إحداهن فمررنا بأحد الطرقِ الخالية، كان حبيب بالمصادفةِ برفقةِ ميري متكئين كعادتهما على إحدى السيارات، رأيتهما ولكنني أكملتُ في الطريق غير مبالية، كانت عيناه تحاولان اختراق نظارتي السوداء عن بُعد وهو يتفرس بإمعان خطواتي المقتربةِ خطوةً خطوة، وكأنما لا يشعر بهذه الجالسة بجواره المطرقة رأسها في الأرض بتضجرٍ مطلقًا حتى اقتربت بنا الخطى منهما، فشاهدتُ من خلف نظارتي تلك اللهفةَ الغامرةَ في عينيه، أكاد أسمع منهما وساوسَ الأملِ الكذوبِ تعبثُ به وهو يحدثُ نفسه «ستقول شيئًا.. ستلقي بكلمة إليَّ.. ستنظر نحوي..» بينما تهرب ميري كالعادة بعينيها من وجهي الذي يصيبها دائمًا بالغم والكدر، ومررنا وهو لا يزال يلقي بمسامعه إلينا دونما جدوى.

كنتُ أظن أن هذا الشوق المنبعث من عينيه نحوي أينما رحت هو سبيلي الأمثل للثأر منه، فبيقتُ في دائرةِ نظره أسترق النظر دونما يشعر، نعم، لقد قاسيتُ منه ما جعلني أستعذبُ وجعه أحيانًا وإن تألمتُ معه أحيانًا أخرى، كان هذا ذنبي الذي لم أستطع التوبة عنه، ظننتُ أنني بذلك أثأر لجراحي ولكنني كنتُ في الحقيقة دون وعي أفتح لنفسي آفاقَ أحلام يقظةٍ لا تنتهي، تخدرني قليلًا ولكنها تعمق من جرحي أكثر، ليصير انتقام كلٍّ منا من الآخر انتقامًا من نفسه أيضًا.

***

وبدأ موسِمُ الحج ورحنا نحج مع أبي، لم تكن حجتنا الأولى، فالحجُ والعمرةُ أكثر ما يهواه قلب أبي في الدنيا، بل إن هذه الطقوس الإيمانية العالية ولحسن الحظ تشغل فكر أبي عن اتباع عادتِه الدائمة في التدقيق في وجوهِ الرجالِ من حولي وما إذا كان أحدهم قد تجرأ وسوّلت له نفسه بالنظر إليّ أم لا، ففي هذه البقاع المقدسة يكتفي أبي فقط بالقبضِ على يميني بقوةٍ خوفًا علي من أي شيء وكل شيء، فلا أحد في الحج ينظر إلى النساء وبإمكاني هنا أن أستنشق بعضَ الهواءَ الطلقَ أخيرًا، ولكن ليس إلا بالقرب منه وأمام عينيه الحارستين دائمًا وأبدا.

وانبعثت بداخلي هذه الطاقة النورانية الشديدة ولكن الألم ظل حاضرًا لم يفارقني.

في عرفات افترشنا الأرض الطاهرة مبتهلين إلى الله، ثم اتصل أبي بعمتي واللهفةُ في صوتِه قائلًا:

- كل سنة وانتِ طيبة يا حبيبتي، إحنا في عرفة دلوقتي وبكره العيد.

- (Oh really!)

كل سنة وأنتم طيبين.

- أيوة يا دارين أنا دعيت لك كتير يا حبيبتي.

- (Thanks a lot).

يا فريد يا رب يخليك.

– كله كويس عندك.

– آه كله كويس.. كله همام.

– حمام إيه!

فقالت أمي:

– قصدها كله تمام يا فريد.

فضحكتْ دارين قائلة:

– آه تمام.. معلش انتو عارفين العربي بتاعي هباب خالص! هباب دي مصري صح؟

رحنا نضحكُ ثم سألتها أمي عن الأوضاع الآن فأجابت دارين:

– لسه في مدايقات.. بس أنا عشان مش محجبة وجوزي (American) وابني كمان أشقر ما عندناش مشكلة.. بس ليلى ورقية أكيد هيبقى في مشكلات معاهم.

ونصحتنا دارين بعدم زيارة أمريكا أو كندا هذا العام، ولكنها في الحقيقة كانت عادتها منذ تزوجت، فلم تعد تحب هذا التدخل الذي تراه تطفلًا على حياتها، فحياتها بدوننا مستقرة هادئة بعيدًا عن عواصف الفكر الشرقي الذي لم تألفه، وبعيدًا عن حجابي الذي كان أول عقبةٍ كؤودٍ بيننا.

– وأخبار جوزك إيه؟

امتعض وجه أبي من سؤال أمي بينما أجابتها عمتي:

– آه الحمد لله هو كويس.

فراحت أمي تهامسني في آخر المكالمة:

– ليلى مش هتكلمي عمتك كلميها عيِّدي عليها.

فنظرتُ إليها بحزنٍ ثم أمسكتُ بالهاتفِ المحمولِ لألقي سلامًا باردًا على عمتي، فجاء صوتها دافئًا مفعمًا باللهفةِ القديمةِ نفسها، ولكن قلبي لم

يعد يحمل لها هذا الحب نفسه فشيئًا ما بيننا منذ زمانٍ قد انكسر.

أنهينا المكالمة ثم أخذنا الحديث إلى هجماتِ الحادي عشر من سبتمر، فسألتُ أبي وصورة بن لادن في خطابِه لا تزال تراودني:

– بابا.. اللي يشوف بن لادن وهو عمال يتكلم بالفصحى ويقول آيات وأحاديث يفتكر أن اللي بيعمله دا ليه علاقة بالإسلام.. هو في ناس مسلمين بيفكروا كدا فعلا!

تأملني أبي، ثم راح يحدّقُ في هذه الجبالِ العتيقةِ من حولنا ليقول:

– أيوة يا بنتي للأسف قليلين أوي بس بيعكروا المية الصافية.. بيشوهوا صورة الإسلام في العالم بسبب جهلهم دا.

– بيقولوا في الأخبار سياسة أمريكا هي السبب؟ بس الكلام مش منطقي إيه علاقة الأرواح البريئة بسياسة الدول.

فعلق يوسف قائلًا:

– أنا باشوف الأمريكان والكنديين في الشوارع بيتعاملوا بمنتهى الذوق والتحضر.. دا أنا لما باخبط في حد فيهم بالغلط هو اللي بيعتذر لي.. وبعدين كتير منهم بيتظاهروا ضد حصار العراق وضد اسرائيل كمان.. إيه ذنب الشعوب اللي في منهم ناس أطيب كتير من عرب حوالينا.. ذنبهم إيه عشان بني آدم مجرم ما عندوش ضمير زي دا يقتلهم!

فرحتُ أسأل:

– على أي أساس يا بابا بيعملوا اللي بيعملوه دا؟

فردّ أبي قائلًا:

– بصي يا بنتي سيبك من اللي بيجيب لك آيات وأحاديث بتتكلم عن الكفار اللي كانوا بيحاربوا المسلمين ويعذبوهم ويقول لك الإسلام بيقول كدا.. دا جهل.. إحنا يا بنتي عندنا في ديننا قاعدة بنمشي عليها في كل معاملاتنا مع غير المسلمين هتلاقيها في الآية (8) من سورة الممتحنة: ﴿لا

يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾، والآية التانية في سورة البقرة اللي بيقول فيها ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

أنهى أبي حواره معي ونهض ينظرُ إلى السماء وقد غرق قرصُ الشمس الغاربة في مزيجٍ من الألوان الساحرةِ ليردد:

– يلا ادعوا وأمِّنوا ورايا...

ثم انطلق يصدحُ بصوته الرصينِ مرددًا:

– ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

فعلت أصواتنا مؤمّنةً:

– آمين...

وطُفنا بالكعبةِ فنظرت إليها وقد تعلق قلبي بها فرحتُ أستجدي ربي داعيةً بإخلاص دعوتي التي لا أنساها أبدا: «يا رب أنساه.. يا رب ابعده عني وابعدني عنه.. وعوضني يا رب».

***

مرت الإجازة وعدنا إلى أرض الوطن، ولكن حبيب لم يكن ليتنازل عن استفزازي، بل وأصبح الاستفزاز طائفيًا هذه المرة، فإذا به حين مررتُ يردد جالسًا بجوار رفيقتِه على الرصيفِ المقابلِ لكليتي:

– قلت لها إيه الخيمة اللي انتِ حاطاها فوق دماغك دي!

فنظرتُ إليه باندهاشٍ، فراحَ يتصنعُ الانخراط في الحديثِ معها، وذهبتُ وأنا أكاد لا أصدقُ أن الحال قد وصل به إلى هذا المُنحنى.

ومرت الأيام ليتجلّى لي ذلك الألم الذي يخفيه حبيب وراء ضحكاتِه، كان ذلك حين أتاني أخي في المنزل قائلًا:

– شفت حبيب النهاردا بالصدفة وإحنا داخلين أوضة العمليات.. كان

واقف لوحده سرحان وبيشرب سيجارة.

فنظرتُ إليه باندهاشٍ أقول:

– بيشرب سيجارة في أوضة العمليات!

فابتسم أخي قائلًا:

– آه.. ما هو أنا استغربت برضه إزاي بيشرب سيجارة في أوضة العمليات.

ثم أكمل يقول:

– المهم رحت أسلم عليه فلاقيته اتخض فجأة واترعب لدرجة إن السيجارة وقعت منه في الأرض وهو بيمد لي إيده.

فأجبت بارتباك:

– يمكن عشان مش متعود إنك تسلم عليه عشان كدا ارتبك.. وبعدين؟

– ضحكت وقلت له: «يلا كدا أحسن برضه» فقال لي: «آه.. عندك حق» وما فيش ثواني والدكتور جه يزعق ويشتم ويقول مين اللي كان بيشرب سجاير هنا؟!

– وبعدين إيه اللي حصل؟!

ابتسم أخي من طرافةِ الموقف وأكمل يقول:

– الكل سكت وأنا بصيت له لاقيت وشه اصفر كدا فسكتْ ما رضيش أتكلم.. لو كنت فتنت عليه كان يمكن اتفصل من الكلية خالص!

ومضى أخي، فنظرتُ إلى أمي مغتاظةً أقول:

– يعني هو يحرق دمي في الراحة والجاية وأخويا يمد له إيده ويعمل فيه جِميلة كمان!

فردت أمي تقول:

– لا بالعكس دي حاجة كويسة جدا وجات من عند ربنا.

– إزاي!

– بكرة تشوفي هيتحسن ويبطل حركاته معاكِ.

وبالفعل كان موقف أخي النبيل مع حبيب سببًا في تهدئة نارِ الانتقام بيننا كما توقعت أمي، وبالرغم من أن الموقف أغاظني لكنه عَكَس لي ما يمر به حبيب من اضطرابٍ نفسي يحاول جاهدًا التظاهر بعكسه، لتؤكد لي الأيام فيما بعد صدق حدسي فقد كان حبيب يحترق داخليًا تمامًا كسيجارته تلك.

وانتهت مضايقات حبيب لي واقترب موعد تخرجه، وبدأتُ أشعر أنني أصبحت في ذاكرته صفحةً طُويت أو ربما مُسحت سطورها عبر الأيام، كان هذا الشعور في الحقيقةِ أشد إيلامًا من مضايقاته المتكررة.

ومرضتُ بالحساسية الصدرية، وزاد الحزنُ والوحدة من مرضي لتنتابني كحةً مزمنةً أكاد معها لا أقوى على التنفس، فتمر عليّ أمي بكوبِ الينسون الدافئ لتجد سريري قد امتلأ بالأدوية والمناديل، والكتب من حولي بالكاد أستطيع استذكار أي شيء منها قبل موعد الامتحانات، فتنظر إليَّ وأنا شاردة أحدقُ في الفراغِ فتصيح قائلة:

– ارحمي نفسك شوية من التفكير اللي موديكِ في داهية دا!

– تفكير في إيه.. قصدك إيه يا ماما؟!

فتمضي صامتة، كانت أمي تدرك في قرارةِ نفسها معاناتي، ولكن كلانا لا يرغب في الحديث عنها.

***

بعد أيام عدت من زيارة طبيب المستشفى الجامعي، ثم اتصلتُ بإحدى زميلاتي على الهاتف، لأكتشف المفاجئة، لقد نسيتُ تدوين موعد الامتحان النصفي لمادةٍ من المواد في أوج شرودي الدائم، وها أنا ذا مهددةٌ برسوبٍ وشيك، لم أجد مفرًا من إخبار أمي بالأمر وأنا في حالةِ يأسٍ شديدٍ من تداركه، فقررت أمي التدخل على الفور والحديث مع عميدِ الكلية وطبيب المستشفى لإنقاذي من الرسوب.

وبالفعل رافقتني إلى الجامعة لأول مرة، وتمكنت من إقناع عميدي بإعادةِ امتحاني بتقريرٍ مَرَضيٍّ من الطبيب، ومضينا فإذا بي ألمحُ صديقي اللدود عن بعدٍ فهامستُها أقول:

– ماما.. شايفة الولد اللي لابس قميص كروهات هناك دا.. اللي ماشي جنب البنت القصيرة دي.. أهو.. هو دا حبيب.

فبدا الغضب المكتوم على وجهِها لتعلق بتحفزٍ:

– هو دا؟!

– أيوة هو بس ما تبصيش كتير عشان ما نلفتش نظرهم.

فلم تمضِ سوى وهلةٍ حتى لمحتُ عيني حبيب شاخصتين في ذهولٍ وهو يتمعنُ ملامح والدتي عن بُعدٍ بفضولٍ قاتلٍ وقلقٍ شديد، بينما أصيبت ميري بالدهشة فأسرعتُ أنظر إلى أمي لأجد في عينيها المثبتتين عليه نظرةَ غضبٍ ووعيدٍ رهيبة؛ فأسرعت أهامسها:

– ماما قلت لك ما تبصّيش!

فصاحت أمي عاليًا:

– دا همَّ اللي بيبصوا عليَّ!

فأسرعت أمسكُ بيدها حتى غيرتُ مسارنا أخيرًا ولا تزال حربُ النظرات مشتعلة بينهما.

لم يكن ليخفى على هذا الداهية أن هذه النظرة التي رمقته أمي بها إنما تدل على مدى الألمِ الشديد الذي ألم بي بسببه، ليقرر حبيب بعدها إنهاء الحرب النفسية بيننا عند هذا الحد.

وما كانت سوى أيامٍ حتى رأيتُ ميري حزينةً تعتلي إحدى السيارات عند نفسِ المكان الذي اعتادت مجالسته فيه وفي أذنيها سماعاتُ الموسيقى تستمع لها وحيدةً؛ رافعةً رأسها عاليا في السماءِ كأنها تجتر الذكرى في ألم، فمررتُ بها فأسرعت تغمض عينيها لتتفادى رؤيتي.. كم اشتهيتُ أن أهمس

في أذنيها حينها فأردد:«فلتتجرعي من الكأس نفسه يا ميري؛ فلطالما أذقتني منه بلا أي ذنب اقترفته!» ولكنني تركتها لأوجاعها تتكفل بنكالِها ومضيت.

تبادلنا أنا وميري ذلك الشعور المرير بالغيرة لأشهر، ولكن ميري كانت لي من حيثُ لا أشعر صمامَ الأمان الذي يحميني من حديثِ الألسنةِ كما يمنع كلانا أنا وحبيب من التعاطفِ مع الآخر، فقد كنتُ على ثقةٍ بأن لديه من يداويه في النهاية ولهذا أكننتُ لها هي أيضًا مزيجًا متناقضًا من المشاعر، وإن ظلت رؤيتها تكدرني.

***

في الطريق بساحةِ الجامعة التقيت دميانا لأول مرة منذ أشهر، فألقت عليّ السلامَ ومشينا كعادتنا فرحت أسألها باسمةً:

– فينك ما حدش بيشوفك.. وأخبار مينا إيه؟ أنا مش قادرة أصدق إن بقالي كام شهر ما أعرفش حاجة عن مينا! مش عارفه أنا إزاي قادرة أعيش كدا!

فنظرت إليَّ بغيظ شديدٍ؛ فرحتُ أردد ضاحكةً:

– دميانا حبيبتي في اختراع اسمه هزار وضحك والله.. بصي ابسطي شفايفك كدا والله الدنيا هتبقى حلوة مش عشاني يا ستي حتى عشان خاطر سي مينا!

فنظرت إلي بغِلٍّ تقول:

– أيوة يا أختي ما انتِ فايقة ورايقة ولا حُب ولا وجع قلب.. عايشة حياتك!

فأدرتُ رأسي يمينًا وشمالًا ثم تبسمتُ بسخريةٍ أردد:

– أوي! عايشة حياتي أوي ما أقولكيش!

لمحتْ دميانا شيئًا عن بُعدٍ فأسرعت تنغزني في ذراعي بقوةٍ لتهمس:

– أهو بُصّي.. بُصّي هناك أهو.

- أبص فين.. قصدك مين!

- انت باصة فين يا غبية! بصي هناك اللي لابس تيشيرت رمادي دا شُفتيه.

- ماله؟

- أهو دا مينا.

- يااه.. هو دا مينا.. طيب يا ستي ما هو عادي خالص أهو.

فرددت ممتعضة:

- عادي يعني إيه!

- ما اقصدش يعني أقصد كويس.. شكله كويس يا ستي خلاص.. أنا الود ودي أروح أقول له إنك بتحبيه وأخلص!

فنظرت إلي وشرارةُ الغضب في عينيها فعدتُ أضحك ثانيةً ثم أقسمت:

- والله باهزر.. باهزر أكتبها لك على وشي يعني عشان أفهمك!

كانت دميانا تحسدني على راحةِ البال التي أنعمُ بها في تصورها، بينما كنتُ أنا أبادلها الشعور نفسه على أشياءٍ لم تدركها، فهي ببساطةٍ تستطيع أن تحلُم، وتستطيع النظر إلى من تحب، ولو أحبّها وبادلها النظرةَ بنظرةِ حُبٍ ستفرح، لن تنزعج ولن تجرحه، وها هي في النهايةِ تستطيع الحديث عنه ببساطةٍ مع صديقاتها دونما خوفٍ أو شعورٍ بالذنب.

ومضينا حتى وقفنا عند رصيفِ ساحةِ الجامعة فجلستْ دميانا على الرصيف، فوقفتُ مواجهةً لها حتى أخلعُ حقيبة كتفي، فلفتَ نظري في الخلفيةِ حبيب كان يجلس خلفها هناك بين العشبِ على بُعد أمتار منا، كان يستذكر كتبه بسرعةٍ غريبة في حين راحت دميانا تحكي لي كعادتها مستطردةً:

- كان واقف مع زمايله فرحت عدّيت من جنبهم فبص ناحيتي، أيوة.. بص ناحيتي أنا متأكدة، بس كان في بِت طويلة كدا وخنيقة واقفة جنبي.. أنا بقى هاموت وأعرف كان بيبص لمين فينا ساعتها.. أنا ولا البت الخنيقة؟!

وأكملت بينما شردتُ أنا أنظر إلى حبيب من وراء نظارتي السوداءِ وهو في حالةِ خوفٍ غريبٍ لا يخلو من الطرافة، بدا لي ذلك الأسد المغرور لأولِ مرةٍ عصفورًا صغيرًا بلّله المطر، ليمسكَ بكتابٍ فيقرأ منه سطرًا ثم يلقي به مصفر الوجه ويمسكُ بآخر فيقرأ منه سطرًا آخر بسرعةٍ جنونية، ثم يعود للأول ملهوفًا وقد فرشَ من حوله مجموعةً من الكتبِ الضخمة، فرحتُ أتمتم في سري:

«أنت بتسمّع لنفسك إيه بس.. دي كتب طب مش نصوص ومحفوظات! غريب حتى في طريقة مذاكرتك يا حبيب!» وتذكرتُ مصطفى وهو يصفه لنا في غيبتِه مضيقًا حدقتيه ليردد: «حبيب دا دحّيح!» فتسللتْ البسمةُ إلى شفاهي لا إراديًا، حتى قطعَ شرودي صوتٌ يصيح:

– انت بتبصي على مين! انتِ بتبصي على حبيب!

فإذا بها دميانا تنظرُ إليّ والشرارةُ في عينيها كأنها ضبطتني أختلسُ من خزانةِ البنك المركزي، أو أخبئ في جعبتي أثرًا نادرًا من آثارِ المتحف المصري، فأجبتها وقد دبَّ الرعب في عروقي:

– لا بابص عليك انتِ.

فراحت تمررُ نظرها بيننا وقد ضيّقتْ عينيها في ترصدٍ ثم صاحت عاليًا تقول:

– لا انتِ بتبصي على حبيب وأنا شفتك!

تمنيتُ لحظتها لو كان بإمكاني أن أربطها في أيّ كرسي، لأكتُمَ فمها الصائحِ بشريطٍ لاصق، حتى أتخلص من صوتها وعينيها المنطلقتين كصافراتِ إنذار الحرائقِ في قلبِ ساحة الجامعة، وانتابني الذعر فهمستُ:

– وطي صوتك.. انتِ اتجننتي.. إيه اللي انتِ بتقول ليه دا!

فعادت تكررُ ما قالت ولكن بصوتٍ أعلى وأنا أهمس في سري: «الله يخرب بيتِك هتوديني في داهية!» رحتُ أنفي بشدةٍ دون جدوى حتى استوقفتها

متعجبةً بسؤالٍ وأنا أتلفت حولي يمينًا ويسارًا:

– وانتِ تعرفي حبيب منين أصلا؟!

فردت بنبرةٍ لئيمةٍ:

– عارفاه.

بينما فتحتُ أنا فمي وشخصتْ عيناي فجأةً وأنا أديرُ رأسي ببطء إلى اليمينِ مجددًا لأتحققَ مما رأيت،

إنه حبيب على بعد خطواتٍ منا ينظر لنا منصتًا وما إن رأي أثر الصدمة على وجهي المذعورِ حتى انهال ضاحكًا، فابتلعتُ ريقي ونظرتُ خلفي لأتأكد أنني المقصودة من فرطِ صدمتي، فما إن عدتُ أنظر إليه حتى اختفى في لمح البصر وتركني وحدي أواجه مصيري المحتومَ أمام صديقتي المعتوهة التي ما زالت ترصدني بنظراتها المثبتة عليّ كبندقية صيدٍ محكمة، فاستشطتُ غيظًا ورحتُ أتلفتُ من حولي ثم هامستُ نفسي بصوتٍ مسموعٍ كالمجانين:

«شافنا.. آه.. لا مش ممكن.. بس..دا كان بيضحك ويبص علينا.. يعني سمعنا.. آه سمع!»

بينما تتأملني دميانا بترقبٍ وتفحصٍ فنظرتُ إليها أتمتمُ في سري: «روحي يا شيخة منك لله!» ثم صحتُ فيها أقول:

– إيه اللي انتِ هببتيه دا!

فعادت تردد من جديد:

– انت كنتِ بتبصي عليه!

فعلقتُ بعصبيةٍ شديدة:

– أنا نفسي أفهم إيش عرفك أنا باصة فين إذا كنت أنا لابسة نضارة سودا!

فقالت بعينين ثعلبيتين:

– عنيكِ باينين من النضارة على فكرة.

فتملكني الشكُّ ورحت أنفي:

– لا مش باينين طبعًا.

ولكنها عادت تؤكدُ فعُدت أنفي، فعادت تؤكد فأمسكتُ بالنظارة أختبرها لأبرهن لها، ولكنها عادت تستفزني بنفسِ الحديثِ فتجادلنا حتى أمسكتُ بالنظارة بعصبيةٍ أكاد أكسرها بين يديّ لأرتاح، لكنني تمالكتُ نفسي في آخر لحظةٍ وأغمضتُ عينيّ وحبستُ أنفاسي بصعوبةٍ وأنا أتوقع سؤالها اللعين القادم وقد كان فسألتني:

– انتِ بتحبيه؟

فقدتُ أعصابي أمام هذا السؤال الذي يحاصرني كعفريتِ العُلبةِ، فانفجرت فيها أصيح:

– انتِ اتجننتِ! أحبه إزاي دا مسيحي!

فغضبت دميانا وصاحت تقول:

– ومالهم المسيحيين يعني.. قصدك إيه.. ما تقولي!

فرحتُ أفركُ وجهي بأناملي وقد كدتُ أفقد صبري متمتمة في سري.

«مش وقت غبائك خالص يا دميانا!» ونظرتُ في السماءِ ثم إليها لأجيب:

– ما لهمش يا حبيبتي.. ما لهمش يا دميانا... بصي ما ينفعش مسلمة تحب مسيحي وما ينفعش مسيحي يحب مسلمة.. حلو كدا وضحت!

ولكن هذه الريبة في عيني دميانا لم تنطفئ بل اتقدت أكثر وهي تستحضر ارتباكي الغريب وضحكه المريب، حتى استأذنتُ منها وانصرفتُ، ليصبح هذا الموقف نهاية صداقتي بدميانا آخر من تبقى لي من أصدقائي الأقباط، بل وآخر من تبقى لي من كل أصدقاء الجامعة أساسًا.

ومضيتُ وحدي شاردة الفكر أتمتم:

«يخرب بيت اليوم اللي شفتك فيه يا حبيب.. خسرتني كل صحابي.. دا أنت ولا لعنة الفراعنة! هاقول للبت دي إيه دلوقتي.. خلاص أديني خسرتها هي كمان.. يا ترى ناوي لي على إيه دلوقتي يا صديقي المجنون»

***

كم كنا أنا وهذا الشاب القبطي الغريب مختلفين في كل شيء، ولكنها الأقدار تسري بنا إلى حيث نجهل، لم يكن حبيب فارس أحلامي الملائكي، بل كان مليئًا بالعيوب كأي شخص عادي، ولهذا رفض عقلي تصديق وقوعي في حبِه من الأساس، كان عقلي يراه شخصية هزليةً كوميدية، أو بهلوانًا كما سميتُه في قصيدتي، ولكن قلبي الطفوليّ أدمن هذا البهلوان بجنون، وأضفى عليه هالة سحرية من الطيبة رءاها فيه بطريقته الخاصة، في حين غاب العقل عني بحجة أن لا معنى للتفكير في عيوبِ شخصٍ لن يكون يومًا من الأيام شريكًا لحياتي.

لقد كان المعامل المعاكس لي تمامًا، فحين كنتُ أنا الحزن كان هو الضحك، وحين كنت أنا التعقل كان هو الجنون.. وحين كنت أنا التحفظ كان هو التحرر، وحين اقتربت ابتعد وحين ابتعدت اقترب؛ ولذلك تجاذبنا كقطبي المغناطيس، ولكنها أخطر أنواع الجاذبية، جاذبية تفتكُ بصاحبها كالإدمان، كتلك الجاذبية التي تترائى لك من عيون صقرٍ جامحٍ جارحٍ، هكذا وجدتها وهكذا وصفتُ فلسفتها في مطلع قصيدتي (عيون الصقر):

عيونُ الصقر مهما حسنُها
يسحرك تبقى عيون الصقرِ
ونشوةُ الشلالِ ختامًا
لابد تمزقُك على الصخرِ
أزهى الألوانُ لونُ النار
وتبقى الحقيقةُ بعد السحرِ ...

***

في ركنٍ من الأركانِ رحتُ باسمةً أتلمسُ إحدى براعمِ الزهور التي تفتحت عن زهرةٍ جميلةٍ وليدةٍ، نظرتُ إليها نظرةَ العاشقِ للمعشوقِ حتى رفعتُ رأسي فجأةٍ فوجدته.. إنه هو صديقي اللدود يمدُّ رقبته ليراقبني عن بُعدٍ متسائلًا لمن أنظر باسمةً بين النباتات، فاستدرتُ فاختفى في لمح البصر، فتلفتُّ يمينًا وشمالًا أردد: «باسم الله.. عفريت دا ولا إيه!» ثم تنهدتُ هامسةً: «يعني هيجرى إيه لو فضلت ثواني واتكلمنا وودعنا بعض بدل الجنان دا!»

حسنًا لقد أمسى يراقبني هو الآخر إذن، وسيقول عني الآن مجنونة تبتسم للورود، ولكن ما الجديد، فكلانا يرى الآخر مجنونا منذ تعارفنا!

***

في مدرجِ قاعةِ المحاضرات كنت أجلس وحدي حين جاءتني نسرين بائعة الإكسسوارات لتباغتني هاتفة:

– إيه!

فانتفضتُ من مكاني فجأةً فقالت:

– هو انتِ سرحانة كدا على طول!

ابتلعتُ ريقي ثم قلت:

– معلش.. إزيك يا نسرين؟

– الحمد لله يا ستي.. بصي أنا عندي ليكِ تشكيلة نضارات ما حصلتش أجيبها لك المرة الجاية بدل نضارتك السوداء الكئيبة دي؟

– ما أنا شارية النضارة الكئيبة دي منك!

– أيوة بس مش كدا يعني.. مش على طول أسود غيري شوية!

وراحت تتمايلُ بجسدها باسمةً تردد:

– يعني إشي بني.. إشي كحلي.. إشي بنفسجي.. روّشي نفسك شوية.. يا عم انت يا عم!

– بنفسجي! هو في نضارة بنفسجي!

– أيوة طبعًا في، أمّال إيه. انتِ بس تأمري وأنا أجيب لك إن شالله تطلبي لبن العصفور!

فتبسمتُ وأنا أتأمل ضحكتها المبهجةَ وعينيها اللامعتين الغائرتين وهذه الضفيرة المنسدلةِ على كتفها، بشعرٍ أجعدٍ أشعث، بدت لي بجسدها الهزيل في بذلتها الزرقاء الواسعة هذه غريبةَ الذوق ولكنها بسيطةُ الحال متواضعةٌ بخلافِ الأخريات فرحت أسألها:

– هو انتِ اسمك إيه بالكامل يا نسرين؟

– اسمي إيه بالكامل؟! اسمي نسرين ماجد.

– ماجد إيه؟

– ماجد فوزي.

فزفرتُ أكمل متململة:

– أيوة يعني فوزي إيه؟

فنظرتْ إلي محدقةً تتعجب فقالت:

– نسرين ماجد فوزي محمد المصري.. أطلع لك البطاقة تشوفيها!

فتنفستُ الصعداء ثم تبسمتُ أعلّق:

– محمد المصري.. لأ كدا حلو أوي خلاص.. إيه رأيك نبقى صحاب يا نسرين؟

– دا أنا أتشرف طبعًا.

– الله يخليكِ.. الشرف ليا يا حبيبتي.

أمست هذه عادتي الجديدة في التعارف، أتبينُ من الأسماء، وأتأكدُ من الهويات، وكأنما تكونت لدي ما يشبه العقدة، أخاف أن تجمعني الصُدف بالأقباط مجددًا، تمامًا كما كنتُ أخشى التعرف على المنتقباتِ والمختمراتِ من قبل، وقطعتُ عهدًا على نفسي بأن أبقي كل حكاياتِ الماضي وشخصياتِه طيَ الكتمان.

لم تمضِ سوى أيامٍ على صداقتي بنسرين حتى رأيتها ترتدي الحجابَ لأول مرةٍ فهنأتها ببشاشةٍ بارتدائه ثم جلسنا في مكاني المفضل عند مبنى الإدارةِ نتحدث لأردد:

– مممممم.. أول مرة في حياتي آكل ساندواوتش بطاطس محمرة، اختراع عجيب بس لذيذ أوي!

– لا ولسه طول ما انتِ معايا هتشوفي اختراعات! ها.. ما قلتليش بقى أجيب لك النضارة الزيتي اللي قلت لك عليها؟

فأجبتها وأنا آكل في نَهَم:

– بصي يا نسرين هاتي كل النضارات اللي عندك وريّحيني.

لم أكد أكمل حتى هلّ علينا شابٌ غريب فجأة، فهبّ فينا غاضبًا يقول:

– اللي يفكر يستعبط آخرته وحشه.. ووحشة أوي كمان! كل واحد لازم يعرف حدوده كويس أوي وإلا غيره هيعرفها له!

فنظرنا إليه مندهشتين تدير كلٌّ منا رأسها للأخرى في توجسٍ وخيفة، فوضعتُ شطيرةَ البطاطس جانبًا بينما راحت هي تسأله:

– هو حضرتك مين؟

– أنا ميشيل.

وبدأتُ أتذكرُ هذا الوجه وهذا الصوت، لقد رأيتُه مرةً أو مرتين يرافق شلة أنجيل وكرستين، لقد سبق أن ضايق أنجيل بحديثه من قبل حين رآها تهامس خالد، ولكنني لا أعرفه ولم نتبادل السلام في حياتنا قط!

عاد ميشيل لوعيده ولكن بنبرةٍ أشدّ حدة، فعُدنا ننظر إلى بعضنا ضاحكين في رعبٍ كالمعاتيه، ثم عادت نسرين تسأله في خوف:

– طب يا أستاذ ميشيل هو في حد زعلك ولا داس لك على طرف؟!

فنظر إلينا وشرارةُ الوعيدِ في عينيهِ قائلًا:

– أنا ما حدش يقدر يزعلني.. أصل أنا اللي يزعلني آخرته أسود من قرن

الخروب!

فقالت مرتعبة:

– قرن الخروب!

فأجابها:

– أيوة وعلى فكرة بقى أنا بافهم في الأعمال كويس وأقدر أعرف مين اللي معمول له سحر أسود ومين بالضبط اللي عاملهوله!

فرُحنا نردد في رعب:

– سحر أسود!

وانتابتني الدهشة فسألته:

– يعني إيه سحر اسود؟!

فأجابني بعينين مفعمتين بالغضب:

– مش عارفه يعني إيه سحر أسود!

فتدخلت نسرين تقول:

– طب بالراحة كدا يا أستاذ ميشيل.. هو حضرتك مشكلتك مع مين بالضبط.. معايا أنا؟!

– لأ.

– طب مع ليلى؟

فصمت لبرهةٍ، فأدرات نسرين وجهها لي ببطء شاخصةَ العينين ولسان حالها يقول:

«انتِ إيه حكايتك بالضبط!» في حين بقيتُ أنا غارقةً في ضحكي بالكادِ أعي ما أسمع، حتى أقسمتُ لها:

– ما أعرفوش والله ما أعرفه!

لم أكذب، فأنا في الحقيقة لا أعرف عنه سوى اسمه، ولكن هيئته

الجسمانية الضخمة وصوته الخشن المحشرج كادا يقتلاني رعبًا وأنا أمسك بمرفقِ صديقتي مذعورةً كالطفلة وغارقةً في الضحك في آنٍ واحد، لتمر علينا دقائق رهيبةً من الخوفِ انتهت أخيرًا بانصرافه، فتنفستُ الصعداء، وقد خِلته مريضًا عقليًا يعاني اضطرابًا ما، لينتهي الموقف كله بالضحك.

ولم يمض سوى يومين حتى ذهبتُ إلى الكافتيريا في الصباحِ كعادتي لأطلب طلبي الجديد المفضل:

– طبق بطاطس محمرة كبير بالكاتشاب والمايونيز لو سمحت ومعاه شوكة.

فرد البائع:

– ما فيش أطباق كبيرة للأسف خلصت.. ممكن حضرتك تاخدي طبقين صغيرين بدل الكبير.

– ما فيش مشكلة خليهم اتنين.

نَسىَ البائع فوضع لي شوكة بلاستيكية ثانية للطبق الثاني، ثم همّ على أخذها فأسرعت أقول:

– لأ، سيبها أحسن، أصل أوقات كتير الشوكة بتقع مني في الأرض.

وضحكتُ خجلًا فابتسم البائع وأعطاني الطبقينِ بالشوكتينِ كما طلبتُ ومضيت باسمة، وما إن التفتُّ حتى وجدتُ شخصًا ما ينظر إليّ وإلى ابتسامتي في حالةِ ترصدٍ وترقبٍ غريبة، فتذكرته إنه الشاب نفسه، ميشيل غريب الأطوار، وبدأت أشعر بالقلق وأنا اتجه إلى وجهتي المفضلة بالركن الخلفي لمبنى إدارة الجامعة حيث كنا نجتمع عادة، كدتُ أتناسى الأمر وأنا أستحضر نسيم الذكريات المتسلل إليّ مع هذا الهواء العليل، فارتسمت على وجهي ابتسامة طفولية ناعمة بريئة، ولكنني سُرعان ما تذكرت شيئًا، إنني رأيت هذا الوجه ينظر إليّ أكثر من مرة عن بُعد وعلى مدار أيام!

نعم.. إنه هو نفسه لكنني لم أعره اهتمامًا قط، وسُرعان ما بدأ الخوف يراودني والشك يتحول إلى يقين، فهمست لنفسي أقول: «إن هذا الشاب يتبعني! نعم يتبعني»، فتوقفت فجأةً واستدرت ببطء فرأيته ماثلًا خلفي على بعُد خطواتٍ قليلة ينظر إليّ نظرة غضب مخيفةٍ مفعمةٍ بالوعيد، فشخصت عيناي ذعرًا وعقد الخوف لساني ورددتُ في سري:

«في إيه.. ماشي ماله دا! أنا عملت إيه! أنا رايحه آكل بس.. أعمل إيه يا ربي مع المجنون دا.. أسيب له البطاطس وأجري ولا أعمل إيه بس!»

نظر ميشيل إلى طَبَقيّ البطاطس في يدي ثم توجه ناظرًا بريبةٍ إلى المكان الذي أنوي الجلوسَ فيه، ثم راح يمدُ رقبته ليتبينُ إلى من أمشي على بعدٍ بهذه البسمة شاردة، ومن يكون صاحب الطبق الثاني، وما إن تأكد أن المكان خالٍ تمامًا وأنني على وشكِ الصراخِ في الساحةِ رُعبًا حتى اكتفى بنظرة غاضبةٍ متوعدةٍ رماني بها ثم ولىّ ذاهبًا وأنا ما زلتُ أنظر إليه متجمدةً في مكاني كيمامةٍ تراقب ديناصورًا ولىَّ يجر ذيله عنها، حتى تلاشى بعيدا فهمست:

«يا ربي هو أنا عملت إيه بس.. والله ما فاهمة حاجة!»

انصرف ميشيل وقد كاد يصيبه الجنون مني؛ فأنا أضحكُ بلا سببٍ وأدمعُ بلا سبب، وأختلي بنفسي أحدثها باسمةً بلا سبب، ومهمة مراقبتي بالطبع ستصيبُ صاحبها بالشلل أو الجنون!

وبدأت أفهم أنني أصبحتُ مرصودة الخطى، وأن ثمةَ قنبلة قد تشكلت من القيل والقال عني بين الشلةِ القديمة ومعارفهم في كلية الصيدلة، كان الفضول يشدني لمعرفتها ولكن الخوف يجرّني بعيدًا عنها، ليدور بيني وبين أمي حوارٌ فأسألها:

– يعني إيه يا ماما! يعني أنا دلوقتي بقيت متراقبة ومتهددة من غير سبب ومن واحد لا أعرفه ولا يعرفني!

– دي رواسب.. توابع كدا زي ما بيقولوا.

– توابع إيه!

– معرفتك بالواد دا اللي اسمه حبيب.

– حبيب أنا قطعت صلتي بيه من شهور، وبعدين أنا نِفسي أفهم بس هو أنا أجرمت في إيه عشان أتراقب وأتهدد وصحابي يقاطعوني، إيه الجريمة العظمى اللي ارتكبتها يعني؟! عشان هو ولد وأنا بنت، ولا عشان هو مسيحي وأنا مسلمة، هو أنا لازم أبص في بطاقة كل حد اتعرف عليه قبل ما نبقى صحاب! أنا كنت مجرد صديقة بتقف في حالها تقرأ شوية شِعر وخلاص ما أذيتش حد.. أنا هاتجنن يا ماما! قولي لي بس أنا عملت إيه أتعاقب عليه؟

تنهدتْ أمي ثم نظرتْ إلي بعمقٍ تقول:

– انت عارفة يا ليلى انتِ عاملة زي اللي دخل حقل ألغام وهو مش دريان وفجأة فاق مخضوض على صوت زعيق الناس وهم بينادوا عليه.. احمدي ربنا بقى إنك رجعتِ سليمة في الآخر.

– حقل ألغام!

– أيوة.

– ليه!

– همَّ شايفين اللي انتِ مش شايفاه.. كل مجتمع يا ليلى وليه أعرافه اللي شايف إنه بيحمي بيها نفسه، ما ينفعش تيجي انتِ تفرضي عليهم طريقة تفكيرك وتقولي لهم ليه!

– مش من حقي حتى أسأل ليه!

قطع حديثنا دخول يوسف وفي يده هاتفه المحمول الجديد مرددا:

– ليلى بصي الموبايل دا فيه إمكانيات حلوة جدا صوته أنقى وشاشته أكبر و...

فقاطعته أقول:

– طيب يا يوسف.. كويس.

– ممكن بابا يشتري لك واحد.. هو قال لي كدا.

– يوسف انت عارف كويس إن أنا ما ليش في موضة الموبايلات اللي بيتمنظروا بيها دي ومش شايفة لها أي معنى والمكالمات كمان غالية، وبعدين الجامعة جنب البيت أساسًا.

– طب خليه يجيب لك واحد وخلاص يمكن ينفعك بعدين.

– لا مش عايزة.

– انت حرة خليكِ عايشة زي إنسان الكهف كدا.. انت الوحيدة اللي ما عندهاش موبايل في القرن الواحد وعشرين!

– أيوة يا سيدي أنا عدوة التكنولوجيا وأفتخر.. سيبت لك انت يا أخويا اللاب توب والموبايل والنت!

مضى أخي إلى غرفته فسألتني أمي في عجبٍ تقول:

– ليه يا بنتي مش عايزة أبوكِ يشتري لك موبايل؟ دا السواقين وبيّاعين الخضار وكله ماسكه دلوقتي.

– يا ماما أنا لو اشتريت موبايل بابا ويوسف هيفضلوا يتصلوا بيا طول اليوم عليه.. وانتِ فين! خلصتِ المحاضرة طب قاعده في الجامعة ليه روّحي البيت.. ومش هاخلص وانت عارفه أنا متعتي الوحيدة في الدنيا في الوقت اللي باقضيه مع صاحبتي في الجامعة على الأقل باشم شوية هوا من نِفسي.

فراحت أمي تقلب ويسارًا متبسمةً في عجب.

***

في محاضرةِ اللغة الإنجليزية راح الأستاذ الجديد يتعرف على كلٍّ منا، وبجانبي امرأة غريبة المظهر لا أعرفها، بدت أكبرَ سنًا بشكل ملحوظٍ من كلّ طالبات الجامعة، وكذلك ملابسها، بسيطةَ الحال، غريبة الألوان لا تمتُّ بصلة إلى الجامعة، وما إن انتهت المحاضرة حتى اقتربت مني تسألني عن إسمي وتعرّفني باسمها: «أنا تهاني إعلام برضه بس أنا انتساب مش انتظام» هكذا عرفتني بنفسها ثم دعتني للتجول معها، فتجولنا تحت الشمس ثم

جلسنا على الرصيف فبدأت فجأة تروي لي عن حبّها الأول لتقول:

– حبيته أوي وهو كمان حبني.. بس طلع مسيحي.

استوقفني حديثها فأسرعتُ بلهفة أردد:

– إيه! لا ثواني بس استني. اوصفي لي إحساسك في اللحظة دي، لحظة ما عرفتي إنه مسيحي عملتِ إيه بس بالتفصيل الممل.

فقالت ببرودٍ:

– عادي.

– فنظرتُ إليها بدهشةٍ أقول:

– عادي.. إزاي يعني ما اتصدمتيش!

– لا عادي.

فسألتها كيف تأكدتْ من حبه لها فقالت:

– من نظراته وكلامه معايا كان بيبص لي وبيكلمني بإعجاب كل ما كان يجي يشتري من الكشك بتاعنا وبعدين قال لي إنه بيحبني.

بائعة (كُشك) تنتسبُ لجامعةٍ خاصةٍ مصاريفها آلاف الجنيهات.. تعجبتُ ولكنني أكملت:

– طب ما حسيتيش بالذنب إنك حبيتِ واحد مش مسلم يعني؟

فردت ببرود وعجب:

– لا عادي!

فبدأ الشك يراودني.. إنني لا أجد في عينيها ذلك الشرود الساحر الذي أراه في أعين المحبين، ولا في حديثها أثرًا لذلك الصراع الدامي بين العقل والقلب.. ما حكاية هذه المرأة إذن! روادني هذا السؤال فدققت النظر في هاتين العينين المترقبتين لي في صمت، وفي هذه التجاعيد الخفيفة المرتسمة حول عينيها، بدت لي امرأة أربعينية، ثم راحت فجأةً تسألني باهتمام مُلفتٍ:

– وانتِ ما حبيتيش حد؟

ترددت لبرهة.. ما هذا الفضول الغريب؟! ولكن لماذا لا أفتح لها قلبي وأبوح بشيء من همومي التي أثقلت صدري فأخففُ عن نفسي قليلا، إن حكايتها تكاد تطابق حكايتي، ولكن هذا التطابق أثار قلقي، وسُرعان ما عدت إلى رشدي وأنا أتذكر كل ما صنعته بي حماقاتي السابقة، وأستحضر جلد الذات الذي أعايشه، وعهد الكتمان الذي قطعتُه على نفسي منذ أشهر، فأسرعت أقول:

– لأ.

ثم أكملت أسألها:

– وبعدين إيه اللي حصل عرفتِ تنسيه؟ حبيتِ بعده ولا لأ؟

– أيوة.

– احكي لي عنه طيب.

– مسيحي برضه.

فتسمرتْ رقبتي وتجمدتْ ملامحي من الدهشةِ معلقةً:

– مسيحي برضه! إزاي يعني!

– حبيته برضه وحبني وكان بيبص لي بإعجاب.

– بيبص لك بإعجاب.. طب ودا عرفتيه منين هو كمان!

– كان بيجي يشتري من الكشك بتاعنا.

– الكشك! زي الأولاني!

– أيوة.

نظرتْ إليَّ المرأةُ في صمتٍ مترقبٍ كأنها تنشدُ ردةَ فعلٍ مني، فتنهدتُ في ذهولٍ غير مصدقةٍ ثم عدتُ أسألها:

– طيب وبعدين بعد الشاب التاني دا حبيتي حد غيره؟

– آه.

– مين بقى.. احكي لي.

– مسيحي برضه.

شخصت عيناي ثم ساد الصمتُ بيننا لبرهة، وقد بدأ الخوف يدب في عروقي وأنا أتأمل عينيها الواسعتينِ تحدقان بي باهتمامٍ بالغٍ في ترقب لردةِ فعلي، فتيقنتُ أخيرًا أن هذه المرأة ليست من طلبةِ الجامعة لا انتظام ولا تنتساب، وهمستُ أحدث نفسي: «الست دي حد زاقها عليَّ أكيد!»

ورحتُ أتصنع المزاحَ معلّقةً:

– هو الكُشك بتاعكوا دا جنب كنيسة ولا انتِ اللي حظك نحس ولا إيه!

فكادت تقتلني ببرودها وهي تقول:

– لأ مش جنب كنيسة.. عادي.

«عادي» إذن! وفضّلتُ ألا أسألها عن الرابع فقد حفظتُ الإجابة، ولذا أنهيتُ الحوار بسلامٍ لطيف، ثم رحتُ أتمتمُ متنهدة:

«يعني يا حبيب ما لاقيتش أغبى من الست دي تبعتها لي عشان توقعني في الكلام!»

وتخيلتُ معالم وجهه حين تروي له الحوار كله، سينفجر فيها صارخًا:«يا أغبى خلق الله!» ورحتُ أضحك.

منذ ذلك الحين بدأت أشعر أنني أعيش في فيلمٍ بوليسي كبير، مواقفٌ غريبة إلى حد الطرافة، وأشخاصٌ لا أعرفهم يلاحقونني، ومفاجئاتٌ وحِيّلٌ تحاك لي عن بعد، وأكاد أجزم من هو هذا البطل المجنون المستتر وراء كل هذا!

***

في البيت اتكأت أمي على الأريكة وفي يديها كتاب تفسير الأحلام لابن سيرين، ثم راحت تنظر إليَّ في هدوءٍ قائلة:

– حلمت لك حلم إمبارح حلو أوي يا ليلى.

– خير يا ماما.

أمي وكتاب تفسير الأحلام

– حلمت خير اللهم اجعله خير إنك لابسة عقد جواهر جميل أوي.. ولما شفت تفسيره في الكتاب لاقيت مكتوب الجواهر سور من القرآن الكريم.

فتبسمتُ ثم قلت:

– أيوة ما أنا باحفظ قرآن يا ماما دلوقتي.

فتهللَ وجهُ أمي فرحًا وقالت:

– بجد والله! ما شاء الله.

– أيوه باحفظ مع محفظة من كلية الصيدلة بنت منقبة طيبة أوي يا ماما.. اسمها وفاء بتحفظني من غير فلوس وتصدقي بتفضِّي نفسها مخصوص عشاني.

– ما شاء الله.. دي أحسن حاجة عملتيها يا بنتي.. انتِ عارفة يا ريتني أشوف البنت دي والله كنت شكرتها بنفسي.

***

عن مستشفى الجامعة قررتُ أن أجري تقريري التلفزيوني الذي طلبه منا أستاذ مادة (المشروع)، فبهذا سيسهلُ على أخي مساعدتي في التصويرِ كعادته، وكذلك سأبدو أمام الجميع ولاسيما حبيب الذي لطالما آذاني مذيعة لامعة يتهافتُ الكل على التصوير معها، إنها فرصتي إذن لمزيدٍ من الزهو والتألق، بهذا حدثتني نفسي المسكينة وأنا غارقة في خيالاتي البلهاء لا أدري ما ينتظرني!

وجاء اليوم وحَلّ موعد التصوير، وراح أخي يثبّتُ حامل الكاميرا التي استأجرناها بالساعة في الأرض أمام مبنى المستشفى، ورحتُ أبحث عن طلبةِ الطب من الدفعاتِ الأخيرةِ لأسجلَّ آراءهم حول المستشفى، ففتشتُ عنهم ولكن لا حياة لمن تنادي، تهرب الكل من انتسابه للكلية، فلا وقت لديهم ولا مزاج يسمح لهم بالثرثرةِ مع طلبةِ الإعلام، ولا أحد منهم يريدُ تذكر المستشفى من الأساس، فصحتُ متململة أقول لأخي:

– هو فين طلبة رابعه وخامسه وسادسه، ما حدش منهم راضي يصور معانا ليه؟ ما هم عايشين في المستشفى ليل ونهار... إيه؟ اتبخروا كلهم،

فجأة!

فرد أخي مشمئزًا:

– الكل قرفان من المستشفى أساسًا.

– ليه مالها يعني.. ما هي ممتازة أهه.

– ممتازة! ممتازه ليه عشان فيها تكييف وكراسي بيضة بتحبي تقعدي عليها!

فصحتُ فيه:

– يوسف أنا مش ناقصاك!

– طب اخلصي بقى عشان باقي لي نص ساعة على المحاضرة!

وأخيرًا عثرنا على مصطفى، أظهر مصطفى تعاونه معنا رغم خجله وتلعثمه الشديد أمام الكاميرا، ولكنه في النهاية أدى المهمة، وشكرناه بشدةٍ ولكننا لم نزل بحاجةٍ لآراء أخرى ولو رأيٍ واحد على الأقل، لم يكن بوسعي التعامل مع أخي كضيفٍ فهو ليس من طلبةِ الدفعاتِ الأخيرةِ الدارسين في المستشفى وكذلك هو وحده من يدقنُ التعامل مع الكاميرا فلا يمكن لي استبداله بشخصٍ آخر.

وتعقد الأمر والوقت يمر، فرحتُ أكرر المحاولة لأطوفَ داخل المستشفى ومن حولها بسؤالٍ واحد متكرر: «حضرتك طب بشري»؟ لأجد الإجابة نفسها: «لأ»، فرآني مصطفى وحيدةً أفتش في حيرةٍ فراح يسألني:

– ما لاقيتوش حد لسه برضه!

– آه للأسف كلهم اختفوا فجأة.

– أصل انتِ عارفة الأيام دي بنستعد للامتحانات النهائية والكل مش فاضي وكدا.. مش عارف حبيب راح فين كان هنا من شوية.

تجاهلتُ عبارتَه الأخيرة، ورحتُ أردد:

– معقول دول كلهم مش طِب أمّال قاعدين هنا ليه!

فعاد يقول:

– طب ما تشوفوا حبيب طيب.. ما جربتيش تطلبي منه يصور معاكم؟

فعلقتُ بارتباكٍ:

– أصل... أنا... ما اعرفش حبيب فين بصراحة.

نظرَ مصطفى إلى ملامحي المرتبكةَ في تهربٍ، ثم قال:

– طب أنا هاروح أشوفه فين وأقول له يجي يصور معاكم.

ابتلعتُ ريقي في اضطرابٍ وسكتُّ، فعاد يسألني:

– هاروح أشوف حبيب فين.. طيب؟

ترددتُ لوهلةٍ ثم أجبته هامسة:

– طيب.

لم يكن أمامي في هذه اللحظة سوى هذه الإجابة، قلتها بعقلٍ مُشوشٍ عاجزٍ عن التفكير ثم شردتُ أفكر.. ربما آن الأوان لأحقق أمنيتي بلحظةِ صُلحٍ تتبعها كلمةُ وداع يا حبيب.. فليتخلص كلٌ منا من أوجاعِ خصومةٍ جثمت على أنفاسِه طويلًا.. فإذا كان قدرنا أن نفترق فلنفترق على الأقل أصدقاء لا أعداء.. بهذا حدثتني نفسي وأنا أخطو بعيدًا عن مصطفى، والدقائق العصيبةُ تدق دقّ الطبولِ مع خفقات قلبي المتسارعة.

لم تمض سوى دقائق حتى وجدت حبيب جالسًا على حافةِ مبنى المستشفى يتطلعُ إليّ منتظرًا أن أناديه، وأخي يقف بالكاميرا المثبةِ على الحاملِ على بعد أمتارٍ منا، لم يكن لدى من الوقت ما يسمح لي بالتفكير وما زال موقفُ دميانا الكاشف لكل الخواطر والمشاعر بيننا عالقًا في الأذهان، ولكن الوقت يمر ولم يبق لي غير حبيب وشابٍ غريبٍ يجلسُ حائلًا بيني وبينه فأدرتُ عينيَّ بينهما في حيرةٍ أسأل:

– طِب بشري؟

حب ممنوع

فنظر إلَّي حبيب صامتًا، ولكن عيناه لا تكفان عن الأسئلة. «أنا قدامك أهو ليه ما بتكلمنيش! أنا ساته طِب وانتِ عارفة.. اتكلمي.. قولي حاجة!»

لمحتُ كل هذه الأسئلة في عينيه ولكنه ظل صامتًا مترددًا، فلم يبق لي سوى هذا الشاب الجالس بيننا ولا يعرفنا.. رد الشاب فرحتُ أسأله أخيرًا، في حين بقي حبيب مثبتًا نظره عليّ بقوة، بينما تدورُ مقلتيّ بينهما في حيرةٍ شديدة، كان صوتُ العقل في داخلي يتمنى أن ينتهي الأمر بموافقةِ الشاب، بينما آخر أمنيات هذا القلب الجريح أن يتدخل حبيب بالحديث فجأةً فيهبني فرصةً أخيرة للوداع.

لم يسمع الشاب حديثي، فاضطُررت للاقتراب أكثر، والاضطراب أكثر، ولا يزال حبيب يحدقُ في ملامحي عن كثبٍ أكثر وأكثر، حتى راحَ الشاب الجالس بيننا يسألني ببرودِ أعصاب عن جدوى وفحوى هذا التقرير التلفزيوني، فبات الأمرُ أصعب، ولكنني استجمعتُ قواي أخيرًا، ورسمتُ ابتسامةً رقيقةً على وجهي، لأعرّفه بنفسي وبمشروعي الإعلامي الذي أصوره برفقةِ أخي، فراحَ الشابُ يسترسلُ في السؤالِ وكأنه وجدها فرصةً

للتعارفِ بينما لا يدركُ أن هذ الجالس خلفه يجلدني بنظراتِه المثبة عليَّ بلا رحمة، فلا عدتُ أعي أسئلته ولا أفهم أجوبتي حتى بدأ الشاب يمهدُ للإعتذار عن مشاركتنا الحوار، لكنه لم يتوقف عن الحديث فأدرتُ رأسي ببطء إلى حبيب بنظرةٍ حزينةٍ أخيرةٍ كان وقعها على قلبي كالسيف.

رأيتُ في عينيه بحر حنين لا ينتهي، كأنه لا يسمعُ صوتي أو يتأمل ملامحي فقط، بل يتنفسني تنفس الهواء، فلم أستطع تحمل هذه النظرة أبدًا، انتابني مزيجٌ من الألم والخوف والشعور بالذنب في بِضعِ ثوانٍ فأسرعتُ أشيحُ وجهي عنه هاربةً بنظري المضطرب إلى الأرض فورًا ثم قاطعتُ الشابَ بفجاجةٍ ملقيةً سلامي دون مبرر لأهربُ من الموقف كله فأهرعُ كالطفلةِ مسرعة إلى حيث يقف أخي.

ووقفتُ بجانب يوسف كأنما أحتمي فيه حتى يرحل حبيب، ولكنه لم يرحل، ظل جالسًا منتظرًا، ليتملكني الألم أكثر فأكثر كأنما يعزف على أوتار أعصابي لحنًا قاتلًا، فأمسكتُ بمشروبي أعضُّ على ماصته البلاستيكية بعصبيةٍ حتى جعدتُّها تحت أسناني، وأنا أتذكر كلماتِ يوسف: «كل اللي أنا عايزه إنك ما تكلميش الواد دا تاني أبدا!» لم يعد بإمكاني أن أدعي الآن أن أخي كان مخطئًا، إن قلبي هو المخطئ الوحيد في هذه الحكاية!

ظل حبيب على مرأى عيني جالسًا أراه من ظهرهِ كما تركتُه وأردد في سري بألم شديد: «امشي بقى!»

نظرَ إلي يوسف متأملًا غضبي المتقدِّ ورجلي المهتزة بعصبيةٍ على وتيرةٍ واحدةٍ ليقطعَ شرودي مرددًا:

– إيه مالك متنرفزة كدا ليه؟

فصحتُ والدماء تفورُ في عروقي:

– لأ ما فيش حاجة هاسقط في المادة بس! مش شايف ما حدش راضي يصور معانا!

فنظر إلي نظرةً ماكرةً يقول:

– بس في واحد هناك لسه ما سألتيهوش.

فأجبته:

– لا ما فيش.

فعاد يشير بعينيه صوبَ حبيب ليستدرجني في الحديث مرددًا:

– لا في واحد هناك أنا شايفه!

فانفجرتْ فيه غاضبة:

– قلت لك ما فيش.. ما فيش زفت!

ابتسم أخي وقد اطمأن أنني ما زلت على قطيعتي معه، بينما كدتُ أنا

أُشَلُّ غيظًا من الموقف كله حتى تملكني الضعفُ أخيرًا فرحتُ أقول:

– يوسف ما فيش قدامنا غير حبيب.. مضطرين بقى.. روح كلمه!

فنظرَ يوسف إلي بطرفِ عينه هامسًا:

– لأ.

فوقع الألم في قلبي كجلد السياط وأنا أهمس:

– ليه؟!

لم يجبني يوسف، ولم ينظر إليَّ من الأساس بل سكتَ برهةً ثم قال:

– أنا هاشوف حد من عندي.

مرت عليّ هذه الثواني وكأنها عملية انتزاعِ قلبٍ تجري في صدري دونما تخدير، كان ملخص حلمي لحظة وداعٍ فقط، لكنني لم أقوَ على انتزاعها وأنا محاصرة بين صوتِ ضميري ورقابة أخي وعيني حبيب بشوقهما المفضوح وهذا الشاب الغريب الذي لا يكف عن الثرثرة.

وأخيرًا أمسكَ حبيب بكتُبه بعصبيةٍ وولّى ذاهبًا، فتنفستُ الصعداء أخيرا، إنه ذلك اليأس الرحيم إذن، ثم أحضر أخي شابًا من معارفه وأكملنا المشروع وعدتُ إلى المنزل أكاد أنفجر قهرًا، ليصير سؤال أمي الشاغل في لهفة:

– كلمتوه.. كلمتِ حبيب في الآخر يعني ولا لأ؟!

– لأ.

– أحمدك يا رب!

– هو دا كل اللي همك يا ماما.. كلمته ولا لأ!

– أخوكِ اتصرف صح.

– بس حبيب كان عايز يكلمني، كان عمّال يبص لي، كا...

فقاطعتني بحدة مرددة:

– أحسن! عشان يعرف ويتأكد إنه لو حتى آخر واحد في الدنيا دي

برضه مش هتكلميه.

قالتها أمي بارتياحٍ بالغ بينما أتمزق أنا ألمًا، ودخلتُ غرفتي حائرةً أتساءل: لماذا لم يبادر أحدنا بحديث الآخر؟ لماذا بات حديثنا البسيط البريء بهذا القدر من التعقيد والمرارة؟ لقد كنا منذ أشهر نثرثر كالطفلين معا، والآن بات بيننا جدار هائل لا يُرى ولكنه أقوى من الحديد والصُلب. هل كانت صداقتنا في الحقيقة مرضًا خفِيًا؟! لم أشأ جرح مشاعره برفض أخي التصوير معه، ولم أتحمل نظرة الحنين هذه في عينيه من الأساس.

***

مر يومان وأنا في حيرتي ولم يبقِ سوى أسبوعين أو ثلاثة على تخرج دفعة حبيب حتى اتخذت قراري أخيرًا: سأشرح له كل ما جرى وأودعه، سأشرحُ له أنني لم أقصد استدعائه لمزيدٍ من الإهانة أو الإذلال، وأنني وقفتُ عاجزة أمام سؤال مصطفى وكذلك لم أتحمل إحراجه برفض أخي التصوير معه.. سأخبره بأنني لم أكن في الحقيقة أكرهه بل كنتُ أكره هذه المواقف الصعبة التي وضعني فيها، نعم، سأذهب.. لن أبوح بمشاعري ولكنني على الأقل سأودعه وداع الأصدقاء لا فراق الأعداء، بهذا حسمتُ أمري أخيرًا.

ومشت بي خطواتي إلى مستشفى الجامعة، حيثُ بات يجلس حبيب عادة مع زملائه، وفتحتُ البوابة الزجاجية بقوةٍ وانطلقت، وبالفعل رأيته عن بعدٍ ولكنه كان محاطًا بحلقةٍ من زملائه، يضحكُ بينهم كالطفل، إنها ضحكته الساحرة المميزة...

تأملتها فتذكرتُ ضحكه عليّ وأنا أنظر إلى ماركوا ببراءةٍ لا أفهم ما يقول، ثم تذكرتُ ضحكاته وهو يتمايل راقصًا بجواري على أغنية روبي، واستحضرتُ مسلسلًا كاملًا من الضحك جمع بيننا لعامٍ كامل.. عام لا يمكنني أن أنساه أبدًا، كم كانت ضحكاتنا مفرحةً موجعة، بسمة اغتالتها الدموع، تساءلت بعينين ترقبانِه من خلف أحد عمدان المستشفى:

«كيف لي أن أقحم نفسي بينهم إذن، أنا فتاة محجبة وهو قبطي مسيحيٌ معروفٌ بين دفعته، لن أتحمل من زملائه ما لاقيتُ من نظراتِ صديقيه، لن يتحملها قلبي للمرةِ ثانية. لماذا إذن أذبحُ هذه الضحكاتِ البريئة بدموع الوداع؟! فلأتركه وشأنه إذن.. فلترحل يا بهلواني العزيز ضاحكًا سعيدًا كما تعودتُ أن أراك، ولأستسلم أنا لدموعي لوهلةٍ ثم أمضي في صمت». بهذا حدثتني نفسي والدمعةُ تتولد في عيني على إثر صوتِ ضحكاته عن بُعد.. وأنا أودع هذه الضحكة التي أرداني الشوق إليها وداعًا أخيرًا..

مضت دقيقة صمتٍ حتى تنهدتُ فحركتُ رأسي بغتةً فوقع نظري على هذا الواقفِ أمامي حزينًا يتأملني وفي عينيه وجعٌ عميق فانتفضتُ مصدومةً.. إنه مصطفى يرقبني بأسىً صامتًا.. تمالكتُ نفسي وابتلعتُ ريقي بصعوبةٍ وأنا أراه يتأملُ بريق دموعي النابتة كزهورٍ ذبلت قبل أن تتفتح..

لو كان بإمكاننا العودة لقصِّ مشهدٍ من مشاهِد حياتنا لاخترتُ هذا المشهد من بينها بامتياز..

التزم مصطفى الصمت، وكم من صمتٍ أبلغُ من حديثٍ، بينما ذبحتني في عينيه نظرةُ شفقةٍ أليمةٍ لم أرها في عيون أحدٍ من قبل، فأغمضتُ عينيّ المتسعتينِ من الصدمةِ لوهلةٍ في حالةِ هروبٍ لا إراديةٍ، وأكملتُ أمثل دوري المعتاد، لأرسم قناع بسمةٍ عريضةٍ حاولتُ جاهدة أن أخفي بها بريق دموعي المتولدة، ولكن نظرة الحزنِ المطلةِ من عيني مصطفى لم تتغير قط، فأسرعتُ أردد بارتباك:

– إزيك يا مصطفى عامل إيه؟ أنا كنت جاية أشوف يوسف فين.. ما شفتهوش؟!

فرد:

– لأ.

ثم ظل يتأملني بأسىً وقد زاد تبريري المرتبك من نظرةِ الشفقة في عينيهِ

أكثر، ففهمتُ أني أصبحتُ واضحةً مقروءةً كقرصِ الشمس في وضحِ النهار فرحتُ أردد بصوتٍ متحشرج:

– كويس إني شفتك يا مصطفى، أنا كنت حابه أودعك قبل ما تسيب الجامعة، مش إنتوا خلاص كدا قربتوا تسيبوا الجامعة؟

أدرك مصطفى من بحة الألم في صوتي أنها كانت نظرة وداعٍ أخيرة فرد بألمٍ شديد:

– أيوة.

فابتلعتُ ريقي وابتسمتُ في وجهه ابتسامةً بريئةً أخيرةً، بينما عادت الدموع تلمعُ في عينيّ وتتولد في عينيه هو أيضًا ويدانا تمتدان بالمصافحة وأنا أهمس:

– ربنا يوفقك يا مصطفى، انت تستاهل كل خير باتمنى لك التوفيق من قلبي.

وتلامست يدانا وقد لمس كل منا جراح الآخر الدفينة، فلاحت في عيوننا الدموع كشمس يومٍ غائمٍ أشرقت على استحياء، ثم أسرعتُ إلى البوابة أدفع بها لأهرب من هذا الموقف كله في صمت.

ومضيتُ وبداخلي تتأجج مشاعرُ الحسرة والألم، أطرقُ هذا الرأس في الأرض خجلًا من نفسي، لأهمس بشفاهي مغمضةَ العينين:

«مش هيحكي.. مصطفى مش هيقول.. ماتحكيش يا مصطفى».

وبدأتُ أشعرُ أن أسوار الصمت قد حالت بيني وبين حبيب من كل اتجاه وإلى الأبد، فبيننا في الحقيقة مساحات شاسعة، ليست مجرد خطوات أو كلمات. فلتعد يا قلبي الصغير إلى غيبوبتك، إلى عالم أحلام اليقظة من جديد، إلى حيث الحب الذي اعتدته، الحب لا يجرح ولا يتركنا للألسنة تتلقفنا، لكنه لا يُسمن ولا يُغني من جوع. وعدتُ إلى المنزل لأرتمي في حضن الورق وأكتبُ قصيدتي التي عاشت بين طيات دفتري عُمرًا.

حب ممنوع..
حبك ليس من حقي
وممنوعٌ عنك حبي
وليس لي أن أنادي
وكيف لك أن تلبي
جُرمٌ أن أردد اسمك
خارجَ حدود قلبي
والشوقُ كأسٌ أحرقني
ومنه مُنتهى شُربي
تمرُّ الشهورُ ولا جدوى
يزيدُ البعدُ من قُربي
وطيفٌ وراءَ طيفٍ
وأطيافُك راحت بلبي
والبعدُ قرار ولا خيار
من استئنافٍ أو عَتَبِ
جرعاتُ الألمِ عقوبتي
والحبُ القانطُ ذنبي
والصمتُ صاحبَ ظلنا
وأنا الأسيرةُ في حربي
والشوقُ حطبٌ يوقدُ نارًا
تُشعَلُ في أرجاءِ دربي
فهل كتبتْ لنا الأقدارُ
لقاءً ما بين الركبِ
تتناجى فيه أعيننا
في صمتٍ من بعدِ تعب
أم قدرٌ هو أن أرتجي

النسيانَ من نِعِم ربي
هل لاحَ ببالك طيفي
أما زلتَ تتذكرُ قلبي
قلبي الذي افتديتُ بهِ
الأغلى عندي من حبي.

نعم إنه رضا الله تعالى الأسمى والأغلى من كل أنواعِ الحب. كان الإيمانُ سلاحي الأوحد في مواجهة هذا العدو الشرس القابعِ بين أضلعي، فحسمتها في نفسي.. لن أسمح لهذا القلب بإدخالي في قصة حبٍ محرمة، لن أقطع صلتي بربي، ولن أخذل أبي الأستاذ والشيخ الأزهري في ابنته الوحيدة، ولن ألطّخ الثقة التي منحتني أمي إياها في لحظةِ ضعف مهما يكن، حتى لو خدرتُ نفسي ببعض أحلام اليقظة، فقد اعتدتها، ولولاها لما احتملتُ سمومَ الغيرة التي بثها حبيب في دمي ليزيد عليّ ألم الفراق.

نعم أحلام اليقظة.. إن أجمل ما فيها أنها تسرقك من واقعك المرير في خفاء، تسرقك حتى من جراح من تحب، ولكن أقسى ما فيها أنها تضفي على بطلِ حكاياتك هالةً نورانيةً تشبهك أنت أكثر مما تشبهه، فتتغربُ عنه وتخشى بشدةٍ أن تعود للاقتراب منه في الواقع حتى ولو بنظرةٍ متبادلة، فلربما تصنع نسيانك أو مدّ يد الانتقام إليك ليحطمك إلى الأبد.

إنّ هذا النوع الغريب من الحب أشبه في طبيعته بحالةِ التصوفِ أو طقوس الرهبنة، يُسكنُ قلبك في بياتٍ شتوي جميلٍ طويلٍ تحسب أن لا نهاية له، وتظنه مرضًا جميلًا بلا أعراضٍ فاضحة، أو قرصًا مهدئًا بلا آثارٍ جانبية، ولكنه في الحقيقة ليس إلا رمال متحركةٌ تغوصُ بك بعيدًا عن الحياة.

***

على المائدة راحت أمي تحدّثُ يوسف قائلة:

– اوعى يا ابني تعلق البنت دي بيك.

– قصدك مين يا ماما هالة؟

– أيوة يا حبيبي هي أمورة وطيبة وبتنصحك وكله، إنما مسيحية وانت عارف دي لو كانت مسلمة كانت هتبقى أحسن واحدة ليك، بس انت عارف آخرتها.. ما احناش ناقصين وجع قلب خفف معاها من دلوقتي أحسن.

فضحكَ أخي قائلًا:

– تصدقي يا ماما هي قالت لي حاجة زي كدا من كام شهر.

– قالت لك إيه؟

ابتسم يوسف بخجلٍ وأكمل يقول:

– قالت لي: «مش لو كان اسمك يوسف أنطونيوس ولا يوسف ميخائيل كان زمانا مخطوبين دلوقتي» فضحكتْ وقلت لها: «لا أنا يوسف فريد محمد العربي بالرباعي أهو» وفضلنا نضحك.

– طيب شفت بقى!

فنظر إلى أمي وعاد يضحكُ مرددًا:

– يا ماما دي كانت بتبعت لي دلوقتي صور خطوبتها على شاب قبطي من أمريكا، وبتسألني عن الحياة برا عاملة إزاي، حتى بصي هاوريكي الصور أهه.

وأمسك يوسف باللاب توب وراح يريها الصور فتهللَّ وجهها فرحًا وقالت:

– ما شاء الله طالعة أمورة ربنا يسعدها، هي تستاهل كل خير الصراحة، وهتعيش فين في أمريكا يا يوسف؟

وأكملا حديثهما بينما شردت أنا أفكر: «لماذا لم يكن الأمر معي بهذه الطرافةِ والبساطة!»، لم تكن هالة سوى واحدة من الفتيات اللاتي يحادثهن أخي على المنتديات ومواقع التعارف، فلم يعد قلب يوسف يأمن التعلق بواحدة بعينها بعد طعنةِ عايدة، وها هو الآن حليقُ الذقنِ يضحك، وقد اكتسب بعضًا من الوزن منحه مزيدًا من الجاذبية والوسامةِ أمام الجنسِ الناعم، تغير يوسف وتحرر، بينما انغلقت أنا وتقوقعت، وعشتُ

في حالة جلدِ الذاتِ شهورًا بعد صفعةِ ماركو، ولكن يوسف لم يكن ليكفَّ للحظةٍ عن تحذيري من عالم المنتديات المختلط الغامض المخيف، فهو ببساطةٍ كما يقول يضمن نفسه، ولكنه لا يضمنُ أخلاق ونوايا غيره من الشباب، لم يكن الأمر ليعنيني آنذاك على كل حال، فلم تزل بيني وبين عالم الرجال خصومة، ولم يعد في قلبي مساحة لأحد بعد هذا الذي أمرضني بقصدٍ أو بغير قصد، فحتى شغفي الجنوني بمطربي المفضل بدأ يهدأ ويتوارى تدريجيًا.

في غرفتي بدأت أمارس بعض الحركاتِ الرياضية البسيطة، كانت تريحني بعض الشيء، وأنا أستمع لشرين عبد الوهاب تشدو: «إيه يعني غرامك ودعني.. إيه يعني فارقني ولا راجعلي..» لقد أعياني الحب النزاري المجنون، فأصبحت بحاجة ماسةٍ لهذه العبارة «إيه يعني!»

***

فوجئت بأنجيل تهرول باكيةً في ساحة الجامعة وقد بدت عليها آثار الصدمة، فاستوقفتها لأحدثها، فابتعدت ونأت بنفسها عني، فعدتُ أُلّحُ عليها علّي أهدئها قليلا، فصرختْ في وجهي تقول بصوتٍ مختنق من البكاء:

– وانت مالك بيا أصلا! من امتى وانتِ بتسألي عني!

– طب اهدي بس وفهميني فيه إيه!

– ما فيش حاجة.. ما لكيش دعوة بيا!

– حاجة في البيت ولا في الجامعة.. اهدي واحكي لي بس.. حاجه تخص خالد!

فصرخت في وجهي والدموع على وجنتيها:

– خالد خلاص هيسيبني وهيسيب الجامعة والبلد كلها وراجع فلسطين، ارتحتِ؟ ارتحتوا كلكوا!

– طب اهدي بس.. اهدي!

التقطتْ أنفاسَها وهي تتلفتُّ حولها ثم قالت بصوت متحشرج:

– هيتجوز قريبته هناك ومش راجع تاني أبدا.

فربّتُ على كتفها أواسيها مرددةً:

– معلش يا أنجيل انتِ عارفة موضوعكم دا صعب أوي.. يعني تقدري تقولي مستحيل.. أنا كنت عايزة أنصحك تبعدي من الأول بس..

فألقت بيدي وصاحتْ تقول:

– تنصحيني! مش لما تبقي تنصحي نفسك الأول، انتِ عمرك حكيتي لي حاجه عنك انتِ وحبيب!

فاتسعتْ عيناي من الصدمةِ لأردد:

– حبيب! ما فيش حاجة بيني وبين حبيب أصلا!

فنظرت إلي مغتاظةً تقول:

– لأ يا شيخة دا الشلة كلها مالهاش سيرة غيركم!

– شلة إيه وسيرة إيه؟ أنا مش فاهمة حاجة!

– انتِ بتستعبطي مش كدا! عمالين تشاغلوا بعض.. نظرات وضحك وحركات ومش عارفه إيه...

فقاطعتها معلقةً:

– حركات إيه ونشاغل إيه! ما حصلش! الكلام دا كله ما حصلش.. مين اللي قال لك كدا!

صمتت أنجيل لبرهةٍ ثم أخرجت من حقيبتها منديلًا وراحت تمسحُ آثار دموعها ثم أجابتني ببرودٍ:

– ليلى من الآخر كدا ما فيش داعي للإنكار.. يمكن لو كنتِ صريحة من الأول كنت قدرت أعذرك.. إنما انتِ من برا حاجة ومن جوا حاجه تانية خالص!

– أنا يا أنجيل؟! أنا!

– أيوة وهو كمان بيستهبل! مرتبط وبيبص لواحدة تانية ومش من دينه

دا إيه البجاحة دي! لا وإيه باعت لك مرات البواب بتاعهم عشان توقعك في الكلام.. أنا ماشفتش كدا بصراحة!

– مرات البواب! تهاني.. كنت حاسة.. اسمها تهاني مش كدا؟

– ما اعرفش اسمها إيه! هو حكى لماركو وماركو قال لميري واتخانقوا كلهم مع بعض في الآخر.

فأغمضتُ عينيّ هامسةً بمرارة:

– ماركو..

ثم أكملتُ:

– أنجيل.. أنا مش عارفة انتِ هتصدقيني ولا لأ.. إحنا جايز ما عادش ينفع نرجع صحاب تاني بس أنا عايزة أقول لك حاجة؛ أنا عمري ما كنت بوشين ولا عايزة أخطف حد من حد، أنا مش كدا والله.. يمكن كنت ساذجة جايز، أو على الأقل مش فاهمه اللي حواليا، لكن...

ابتلعتُ ريقي وحبستُ عبراتي لأكمل:

– أنا عارفة إن أنا اتفهمت غلط بس أنا مش كدا.. أنا...

فقاطعتني تقول:

– بصي صاحبتك دي اللي اسمها دميانا اللي حبيب بيدرِّس لها في الكنيسة.

– إيه!

– أيوة دي تبقى زميلة ميري في السيكشن وميري سألتها عن كل حاجة سمعتها من ماركو ودميانا أكدت لها نفس الكلام.

– دميانا.. امتى؟!

– لما ميري راحت تشتكي لماركو من حبيب وهي منهارة نفسيا، راح ماركو قالها إن حبيب ما بيبطلش كلام عنك من ساعة ما شافك انتِ ودميانا بتتكلموا عليه، دا حتى راح سأل دميانا عليكِ ولما ميري عرفت جابتها وشهدت قدامنا بكل حاجة.

- إيه حتى دميانا!

فأكملت تقول:

- دا ميري خلتها تحكي لأبونا في الكنيسة.

فاتسعت عيناي من الصدمةِ ورحتُ أردد:

- إيه.. ليه؟!

- وجات لنا تحلف إنها هتعمل وتسوي فيكِ!

فاستوقفتها أقول:

- أنجيل.. هي ميري تعرف ولد ضخم كدا اسمه ميشيل.. ميشيل اللي كان بيدايقك فاكراه؟

- أيوه دا زميلهم في الدفعة، ليه هو جالك؟ ما هو لما سمعها بتتكلم عنك قال لها سيبي لي البت دي وأنا هاتصرف معاها.. هو كلمك؟

فأومأتُ برأسي هامسةً:

- آه.. أنا كدا فهمت كل حاجة! عشان كدا جالي متنرفز وعمال يهدد وأنا قاعدة مع صاحبتي مش فاهمة حاجة.. دا كان بيراقبني كمان! وطبعًا بقيتوا تشوفوني في طريق تمشوا من الطريق التاني كل دا بسبب كلام ميري!

- ميري قالت كلام وحبيب قال كلام وأنا بصراحة ما بقيتش فاهمة الحكاية واستنيتك تيجي تفهميني ودلوقتي خلاص ماعدتش عايزة أسمع ولا أفهم.. إحنا زي ما انتِ قلتِ ما عادش ينفع نرجع صحاب، أنا لا عايزة أشوفك ولا عايزة أشوف حد فيكم كلكم من أساسه! مش عايزة أشوف حد من ريحة خالد، روحي لصحابك اللي بتحكي لهم أسرارك؛ لاميا وزمايلك اللي من كليتك، وخلي كل واحد بقى في كليته وسيبيني في حالي، مش عايزة أشوف حد فيكم كلكم!

بهذه العبارة أنهت أنجيل حديثها معي، وذهبتْ والدموع في عينيها، وعذرتها وتفهمتُ ما تمر به رغم أنها لم تعذرني بل ولم تعطني حتى مجالًا للدفاع عن نفسي، مثلها في ذلك مثل كرستين وباقي شلة الأقباط، وهمستُ

في نفسي أردد:

«يمكن يجي اليوم وتفهمي يا أنجيل إني ما كنتش وحشة كدا وإن الأنسان أوقات بيبان قدام الناس جاني وهو في الحقيقة الضحية»

امتصت أنجيل الصدمة وتزلزلت من الداخل مثلي، فلم تعد أنجيل التي أعرفها، ولكنها على عكسي بدأت تتحرر، لأرى هذا الوجه الطفولي البريء الذي لم تكن مستحضرات التجميل لتمسه وقد تلون بالألوان اللافتة، وشفتاها الناعمتان قد كساهما الأحمر القاني بلون الدم وفي عينيها رسمة كُحلٍ عجيبة، وتبدلت ملابسها المحتشمة تمامًا، وأصبحت تقهقه عاليًا بين معارفها الجدد بشكلٍ أغرب من غريب.. بشكلٍ لا ينم عن فرحةٍ أو سعادةٍ بقدر ما يدعو إلى الشفقة، تبدلت وبدلت كل أصدقائها، حتى فاطمة التي لطالما وصفتْ لي أنجيل بأنها توأم روحها، سألتها عنها فردت تقول بنظرةِ الأسد الجريح: «أنا ما أعرفش واحدة بالاسم دا» ومضت، لم تكن فاطمة لتستوعب صعوبة ما تمر به أنجيل كما استوعبتها أنا.

***

بدأ العد التنازلي ولم يبق سوى أيام على تخرج دفعة حبيب، وذهبتُ إلى المستشفى مع إحدى زميلاتي وجلسنا على الأريكة في مواجهته هو وزملائه المتسامرينَ على الأريكة الأخرى، كان كل منا يرمقُ الآخر بنظراتٍ خاطفة ويتصنع التجاهل في ذات الوقت حتى غادرت زميلتي المستشفى، بينما فضّلت أنا البقاء لدقائقٍ أملًا في فرصة وداعٍ أخيرة، فلربما يترك أصدقاءه ولو لدقائقٍ فأتمكنُ من توضيحِ الأمر له هذه المرة.

ولكن جُلّ ما كان يشغل بال حبيب وقتها أن يثبتَ لي أنه لا يزال صامدًا غير مبالٍ، وكأنما ظنّ أنني قصدتُ النيلَ من كرامتِه بأكبر قدرٍ من الألم، وما إن غادرتْ زميلتي حتى انطلقِ يضحكُ عاليًا، فاجتذبَ نظري لوهلةٍ فالتقت أعيننا، فأسرعتُ أطرق رأسي في كتابي، فعاد للضحك ولكن بصوتٍ أعلى، فلم أستطع تجاهل صوته وعدتُ أمرر نظري ناحيته حتى

تلاقت أعيننا مجددًا فبدا الحُزن على عينيهِ لحظتها فرحتُ أمررُ نظري في الفراغ سريعًا كأنني لا لم أره ثم دسستُ رأسي في الكتاب مجددًا، فعاد في الثالثةِ يقهقه كالمجنونِ بشكل هستيري حتى دوّى صوتُ ضحكاتِه في كل أركان المستشفى غير مبالٍ بالأطباءِ والطلبةِ والمرضى، أصبح حاله أقرب ما يكون لحالِ نزيلِ مستشفى أمراضٍ عقليةٍ يتبعني بنظراته أمام الناس بلا مبرر، حتى قُمتُ على الفورِ وأسرعتُ أغادرُ المستشفى هربًا من العيون.

وتذكرتُ نظرةَ الشوقِ الأليمة في عينيه منذ أيام فأيقنتُ أن هذا الفتى قد وقعَ فريسةَ مرضٍ نفسي ما بسببي تمامًا كما حدث معي بسببه ولكن كلانا لا يقوى على مواجهة الآخر، واستحضرتُ عبارته التي ردده‍ا على مسامعي وأنا أتساءل عن كسرٍ في ذراعه المجبورة ذات يومٍ ليجيبني بنظرة تحدٍ ثاقبة «حبيب ما يتكسرش أبدًا». لأتساءل في نفسي.. لماذا يستميتُ في التظاهر بالقوة أمامي كلما شعر بالجرح، لماذا لا يحاول أن يعذر ويفهمَ بدل أن يُؤلِمَ ويَتَألم؟

لكن جنون حبيب لم يتوقف عند هذا الحد، لقد فاق تصوري في آخرِ حِيَلهِ للوصول إليَّ، كان ذلك حين جاءتني دعاء، الفتاة التي وصفت نفسها بعبارة: «أنا اللي مربيَّة حبيب»، وراحت تدور في القاعة الخالية أمامي بقلقٍ واضطرابٍ شديدين، ثم أخبرتني أن حبيب أرسلَ إليها رسالةً باللغة العربية على هاتفها الجوال، برغم علمه أن هاتفها لا يستقبل اللغة العربية، فتعجبت، وتساءلتُ عن السبب فردت:

– غبي بقى هنعمل له إيه!

ثم أعطتني الهاتف وأرتني الرسالة، وهي تقول بتوتر:

– ليلى ممكن تديني موبايلك أكلمه من عندك دقيقة أصل رصيدي خلص وشكله موضوع مهم.

فاعتذرتُ قائلةً:

– معلش يا دعاء ما عنديش موبايل والله.

فتجلت على وجهها الصدمةُ ثم ردت بدهشة:

– ما عندكيش موبايل!

– أيوة هاجيب موبايل ليه؟ بيتي جنب الجامعة ومش محتاجاه في حاجة.

فكادت تنفطرُ غيظًا وهي تردد في غِل:

– غبي.. غبي!

وتركت لي الهاتف لدقائقٍ ومضت، ثم عادت تدور في القاعة أمامي في حيرةٍ من أمرها، فاقترحتُ عليها أن تحادثه من هاتف زميلةٍ أخرى ولكنها راحتْ تتمتمُ غاضبة:

– لأ خلاص بقى.. ما هو هو اللي غبي هاعمل له إيه!

ترددتُ لبرهةٍ ثم سألتها عن حالهِ وأخباره فقالت:

– هو إنتوا مش بتكلموا بعض؟

– لأ بقالي فترة ما باشوفهوش بصراحة.

– قصدك متخانقين.. ما هو حاكي لي كل حاجة.

فسكتُّ فلاحظتْ تشتتَ نظراتي فقالت:

– على فكرة هو نِفسه يسلم عليكِ قبل ما يسيب الجامعة، وبيقول لي إنه عايز يعتذر لك.

فصمتُّ لوهلةٍ ثم نظرتُ إليها بارتباكٍ أقول:

– دعاء.. هو حبيب كان عايز ياخد منك نمرة موبايلي؟

فارتبكت قليلًا ثم قالت:

– بصراحة.. آه.

فتبسمتُ بسخريةٍ وقلبتُ رأسي في عجبٍ أردد:

– تصدقي يا دعاء أنا بجد لو كان معايا موبايل كنت زماني اديتهولك تتكلمي منه ولا يخطر في بالي خالص إنه يوصل للمرحلة دي!

– أنا عارفة إنك مستغربة.. ليكِ حق بس أنا معذورة برضه هاعمل إيه بس! أنا هاحكي لك كل اللي حصل من يومين.

وراحت دعاء تروي لي تفاصيل الحوارِ الدائرِ بينها وبين حبيب وهما متكئين على إحدى السيارات لتتأملُ الدموع اللامعة في عينيه وتردد:

– حبيب، الموضوع مش مجرد اعتذار ما هو ما فيش واحد بيطلب من واحدة نمرة بنت عشان يعتذر لها، انت بتحبها يا حبيب وباين عليك على فكرة!

ليجيبها بصوتٍ مختنق:

– طيب ولو.. هي دي جريمة يعني!

– ما هو ما تدخلنيش أنا بقى في المصيبة دي.. انت بتقول إنك بتدرّس في الكنيسة ودي بنت محجبة وأخوها ملتحي يعني إيه اللي لم الشامي على المغربي.. هو إيه! كل فيوزاتك ضربت كدا مرة واحدة! والله ليها حق طنط تخاف عليك!

فنظر إليها حبيب مغتاظًا يقول:

– ماشي يا ستي مقبولة منك، بس برضه هتجيبي لي رقمها.

– لا حول ولا قوة إلا بالله، يا ابني هو انت إيه حكايتك بس فهمني، هو انت ناوي تغير دينك؟

– مين قال كدا بس!

– صبرني يا رب! طب ما تروح تكلمها انت وتخلصنا!

– أمّال أنا باقول لك إيه من الصبح.. باقول لك ما بترضاش تجيب عينها في عيني من أساسه.. لما بتشوفني بتودي وشها الناحية التانية!

– يا عم وأنا مالي أنا تودي وشها فين! انت عايز منها إيه فهمني؟ بص انت بتقول إنها بتحبك. طيب فرضنا يا سيدي؛ لازمته إيه تفضلوا تعذبوا في بعض؟ لو بتحبها بجد ابعد عنها أرحم لك وأرحم لها.

– انتِ كمان هتقولي لي نفس كلام مصطفى! كل اللي همه إني ما

أكلمهاش مع إنه هو بنفسه اللي قال لي إنها كانت بتبص عليَّ من بعيد والدموع في عينيها.. يعني كانت عايزة تودعني!

– الله يسامحك يا مصطفى، هو يحكي لك ويقول لك ما تكلمهاش وأنا اللي أتدبس في الآخر!

– من ساعتها وأنا هاتجنن! أنا عايز أودعها بس.

لتعلقَ ساخرةً:

– تودعها أيوة.. وتقول لها إنك بتحبها بالمرة!

– ما لكيش دعوة بقى هاقول لها إيه!

– ومش بعيد تطلب تقابلها كمان ما انت لاسع عادي يعني.. الله يعينك يا مدام إيفيلين! ابنك ناوي على فتنة طائفية في الجامعة. يسيب الجامعة من سُكات ليه! لازم يولّع فيها قبل ما يسيبها. وما لاقيتش حد غيري توسطه.. يا ابني دا أنا مكتوب كتابي بقالي أربع سنتين وفرحي آخر الشهر دا. داخله دنيا يعني وشكلي هاخرج منها على إيدك إن شاء الله.. والمصحف شكلك هتوديني في داهية!

– دا آخر طلب هاطلبه منك.. آخر طلب يا دعاء.. عشان خاطري لو ليا أي معزّة عندك وأوعدك مش هاعمل أي حاجة غلط هاودعها وبس صدقيني.

أنهت دعاءُ روايةَ ما دار بينهما، ونظرتْ لي تقول:

– أهو دا اللي حصل يا ستي، أنا عارفة إني غلطت لما طاوعته سامحيني معلش.. بس عايزة نصيحتي.. ابعدي يا ليلى أحسن.

نظرتُ إليها أهمس بعينين مفعمتينِ بالألمِ:

– عندك حق.. أنا أصلًا مش هاقدر أتحمّل موقف الوداع دا.

ثم أكملتُ أقول:

– وهو أكيد هيحس ويعرف من نظرة واحدة.. بلاش أحسن.

فردت:

- بالضبط.. بصي أنا طبعًا مش هاعرّفه الحوار اللي دار بينا دا. هاقول له إنك ما عندكيش موبايل أو مش عايزة تكلميه أصلا.. كدا أحسن ولو فضل بقى مُصِرّ يكلمك مش هيبقى قدامي حل غير إني أكلم مامته ما هي موصياني عليه.. ما أنا مش هاستنى لما يودي نفسه ويوديكِ في داهية معاه.

وألقت دعاء السلام ومضت بينما استسلمتُ أنا للصمت وأنا أسمعُ قرعِ نعالها في الأرض يكادُ يدكُّ حنايا قلبي دكًا، فأمسكتُ برأسي أخيرًا أحاول استجماع كل ما سمعته، ولكن بلا جدوى فلا ملاذ لي سوى الهروب والصمت.

وكان اليوم الأخير في الدراسة وتصادفنا في الطريق لكنني استشعرت الاطمئنان لبرهة فكلانا يرتدي نظارته السوداء، ولن يرى أيًا منا عين الآخر، حتى تسلل خيطٌ من شعاعِ الشمس إلى نظارتِه ليكشفَ لي عن نظرةِ حزنٍ عميقة كالبئرِ السحيق هوت بقلبي إلى القاعِ فأسرعتُ ألتفت، ومررنا مرور الأغراب كلٌ في طريق، هكذا خطت لنا الأقدار لقاءً وهكذا تمر الأيام بنا ونفترق.

ونفترق ثم نحترق وفي الأفق
يلوحُ لنا برق الوداع
تتعانقُ الأرواح ثم تنطلق
إلى دروبٍ من الضياع
مع كلِّ نبضةٍ فينا تدق
طبولُ الحيرةِ والصراع
لكلٍ طريق ولا يحق
له رجوعٌ أو امتناع
كم كناّ للنظرِ نسترق
ونعيشُ عمرًا من أوجاع
فيرقدُ في الجفونِ أرق

ونوباتُ ذكرى كالصداع
نتنفسُ من ذكرنا العبق
فالذكرى وحدها المستطاع.

إنه ذلك العبث الذي يصنعه فينا شبحُ الحب وكأنه قطار موتٍ يصعد بنا إلى السحاب ثم يهبط بقوةٍ لا تُضاهى فينطفئ معه وهج الحياة في قلوبنا طويلا.

***

حلت إجازة الصيف، وسافرنا إلى تورونتو في كندا، فاستقبلتنا عمتي بحفاوةٍ في المطار، وحملت معنا الحقائب إلى السيارة، كان أخي يجلسُ بجوار الشباكِ منبهرًا كعادته بكل تفصيلةٍ من تفاصيلِ البلد، ليستنشقُ النسيم البارد مرددًأ:

– شامة ريحة الهواء في كندا، حتى ريحة الهواء هنا مختلفة جميلة كدا تحسيها عامله زي ريحة الزرع وقت المطر.

ببسمةٍ باهتة رحتُ أكمل تأملي لملامحه الشاردة وهو في حالة هيامٍ شديدة، فهمستُ في نفسي: «هتفضل طول عمرك يا يوسف مغرم بكندا، مع إنك من جواك مصري أوي، تفكيرك، ثقافتك، حتى الأكل اللي بتحبه كله مصري».

ورحتُ أتأمل هذه المساحاتِ الخضراء الشاسعةِ من حولنا، فسأل أبي دارين بنبرة امتعاضٍ قائلًا:

– يعني يا دارين يا أختي جاية وعمالة تشيلي معانا الشنط التقيلة لوحدك، أمَّال جوزك فين يعني، مش النهاردا السبت المفروض عنده أجازة!

– آه صح.. بس هو نزل يتمشى مع جاكي شوية.

فسألتها أمي مندهشةً:

– جاكي مين دي يا دارين!

فقال أبي بنبرةٍ ساخرة:

– دي الكلبة الجديدة بتاعتهم يا ستي!

وراح يتنهدُ مستاء، فنظرت دارين إلى يوسف من مرآةِ السيارة ببشاشةٍ وقالت:

– وحشتني أوي يا يوسف، انت حلقت دقنك، شكلك كدا أحلى بكتير بقيت (Handsome) يا يوسف.

ابتسم يوسف سعيدًا بينما لم تعلق على مظهري ببنتِ شفة.

ووصلنا إلى المنزل العائلي، كان بيتًا جميلًا منزويًا وسط الخضرة، بعيدًا عن المواصلات والأسواق، وأتى كيفين ليلقي التحية وبصحبته ابنهما سامي، أو (سام) كما يُطلقان عليه، وتلقفنا الصغيرَ بالأحضان والقبلات، كان يشبه عمتي إلى حدٍ كبير، ولكنه أشقر كأبيه، ثم سمعنا صوت نباح جاكي يجلجلُ حتى جاءت تنظر إلينا باستغرابٍ وقد علا صوتُ نباحها أكثر، كأنما تتساءل في نفسها: «من يكون هؤلاء»؟ فرحنا نضحكُ متعجبين منها وقد بدا على أبي الرهبة قليلًا، فأسرع كيفين يهدئه قائلًا: «لا تقلق فهي طيبة جدًا»، وأمضينا الليلة نتسامر ونسترجع الذكريات ضاحكين، ثم راحت دارين تسألني على انفرادٍ ونحن نحضر العشاء في المطبخ:

– قولي لي ما حبتيش حد في الجامعة؟

فقطبت جبيني بحدةٍ وتمتمتُ في سري: «لن أكون مثلك أبدًا يا دارين.. لن أدعك تشمتين بي.. كفى ما فعلتيه بنا!» وأجبتها بحسم:

– لأ.

فنظرتْ إلي متعجبةً تقول:

– ليه ما فيش حد في الجامعة كلها يستاهل تفكري فيه يعني!

سمعتْ أمي نصف الحديث وهي على الباب فقالت:

– ليلى ما لهاش في الحب والكلام دا، ليلى مكتفية بكاظم الساهر

والعالم بتاعه بس.

فأمّنتُ على كلامها فاغتاظتْ دارين ونظرت إليَّ تقول:

– لحد دلوقتي وفي العمر دا ومش شايفة في الدنيا غير كاظم الساهر انتِ عارفة يا ليلى انتِ اللي زيك كدا بيحطوهم في مصحات نفسية عشان ما يأذوش نفسهم!

ومضت بينما تجرعتُ أنا مرارةَ حديثها، ومضيتُ إلى الحمام أغسل وجهي من أثر الدموعِ المحتقنة فيه حتى علا صوتُ العائلة يدعونني للحضور للعشاء، فتناولنا الطعام، ووعدتنا دارين بجولةٍ في الغد بالمزرعة المجاورة للمنزل.

وبالفعل ذهبنا في صباح اليوم التالي لنتجولَ في المزرعة ونقطفَ الثمار الطازجة، ثم رحنا نتناول الغداء في أحد المطاعم الصينية، وعلى المأدبةِ راحت أمي تسأل دارين:

– مش ناوية يا حبيبتي تخاوي ابنك؟

– (What does (khawy) means?)

– قصدي يعني تجيبي له أخ أو أخت قُرِيّب؟

– (No way)!

مش دلوقتي خالص، أنا لازم لو حملت وخلفت آخد أجازة ولو دا حصل مين هيدفع الفاتورات مع كيفين؟

فرد أبي قائلًا:

– جوزك هو اللي يدفع الفواتير، هو الراجل وانتِ مُلزمه منه شرعًا سواء أخدتِ أجازة ولا ماخدتيش هو اللي عليه يصرف.. المفروض تفهّميه الكلام دا.

فردتْ بارتباكٍ تقول:

– بس دا مش هنا في كندا ولا في أمريكا، الحياة هنا مش كدا الست

بتدفع النص.

فصاحَ أبي:

– حتى في الحمل والولاده كمان هتقولي لي النص. أمال فين النخوة فين الرجولة!

فأسرعتْ أمي تهدئه:

– خلاص يا فريد! خلاص!

بينما بدا الخوفُ على وجه دارين، فقامت إلى دورةِ المياه مسرعة.

فصاح أبي يقول:

– هو إيه! هي شغالة عنده! هيتحكم في شغلها وفلوسها كمان!

فردت أمي:

– يا فريد كل بلد وليها نظامها ما دام هم متفاهمين خلاص إحنا مالنا!

وعدنا إلى المنزلِ وقد علا صوتُ أبي في السيارةِ قائلًا:

– لعلمك بقى الراجل اللي انتِ متجوزاه دا ما عندوش ذرة شهامة، أنا أصلا ما ارتحتلهوش من زمان، لا سمعتِ كلامي ولا أخدتِ برأيي في جوازتك ولا كأن ليا وجود في حياتك من أساسه!

ووصلنا إلى المنزل أخيرًا، فخرجت عمتي من السيارة وصاحتْ تقول بالإنجليزية:

– لستُ بحاجةٍ لرأي أحد، إنني ناضجة بما يكفي لأتحمل مسؤولية قراراتي!

فخرجَ أبي من السيارةِ غاضبًا يكاد يهجم عليها فأمسكتْ به أمي تستجديهِ قائلة:

– أبوس إيدك إحنا هنا في كندا وجوزها أمريكاني غريب عننا ممكن يتصل بالبوليس مش ناقصين مصايب!

بقى أبي في الحديقة قليلًا مع أمي، وراح يوسف يحاول تهدئته كعادته، فلا أحد يستطيع القيام بهذه المهمة مثله، لما يتمتع به من حظوةٍ خاصةٍ عند أبي، بينما دخلتُ أنا إلى المنزل، فسمعتُ صوت عمتي تبكي في غرفتها، فطرقتُ الباب فسمحتْ لي بالدخول، وإذا بكيفين يمسكُ بأحد الألعاب لها ويلاعبها ليضاحكها، ولكنها لم تضحك، فربتُ على كتفها وهمست: «معلش انتِ عارفه بابا.. هو صحيح عصبي بس بيحبك أوي».

وعاد كيفين يكرر المحاولة لإضحاكها بلا ملل، فضحكتْ أخيرًا، فضمها إليه وأخذ يمسحُ على شعرها بكلماتٍ الحب ثم طبع قُبلةً على جبينها وذهب، فجلستُ إلى جوارها وقد سرني تحسنها أخيرًا، حتى أتت أمي تطرقُ الباب فسمحت لها عمتي بالدخول، فرأتْ آثار الدموع في عينيها فتنهدت ثم جلست تنظر إليها مرددة:

– ما انتِ عارفة أخوكِ يا حبيبتي بس هو بيحبك والله.

– أنا مش عارفة (What crime did I commit?) خلصت كليتي وعملت (Masters) وباشتغل.. اعتمدت على نفسي من وأنا صغيرة.. حتى لما بيبعت لي فلوس أنا باقول له: «مش محتاجة ما تبعتش» يزعق ويبعت برضه ويقول لي زيك زي ليلى، طب هو ليه بعد دا كله مش فرحان بيا؟ وبيعاملني كأني أنا عملت جريمة؟!

– إزاي بالعكس هو فرحان وفخور بيكي طبعا.

– (No).

كل دا عشان اتجوزت أجنبي مش كدا؟ يعني كان لازم أتجوز راجل عربي يضربني علقات كل يوم عشان أبقى كويسة ويحبني؟

– مش كل الرجالة العرب كدا.. مش عشان شوفتِ معارفنا أو صحابنا بيقولوا كدا يبقى خلاص ومش كل اللي شفتيه في الأفلام المصرية زمان دا بيحصل في الواقع.

– انتِ نفسك اتضربتي يا رقية ما تنكريش.. مش أنا بس.

– مش بانكر والله وأنا أول واحدة ضد الضرب وفريد بعد كبر في السن وقرب من ربنا أكتر ما بقاش يحط إيده عليَّ ونادر لو مد إيده على حد من العيال.. أنا مش بادافع عنه بس أخوكِ مهما كانت عيوبه في الآخر هو مستعد يضحي بعمره كله لو حس إن انتِ أو أنا أو حد من ولاده في خطر دي الحقيقة يا دارين.. انتِ مش أخت جوزي بس لا.. دا انتِ في حُكم بنتي اللي ربتها على إيدي.. الحب مش كلام حلو يا دارين الحب يا حبيبتي تضحية وصبر في المواقف الصعبة وبعدين دلوقتي كيفين مسلم خلاص.. ما عادش في مشكلة.

فنظرت إليها دارين بحزنٍ تقول:

– هو أنا زمان يعني عملت جريمة لما حبيت واحد دينه مختلف؟ هو مش كلنا بني آدمين! هو ليه بيفكر كدا؟! إحنا كنا زمايل في الجامعة وكنا بنحب بعض وما قدرناش نقول لبعض إلا بعد سنه بحالها عشان هو عارف إني مسلمه ومختلفة عنه.. وعمرنا ما عملنا حاجه غلط.

– يا حبيبتي أنا عارفة، دا أنا اللي مربياكِ.

– طب يعني كان لازم نسيب بعض عشان يرتاح!

شعرتُ بغصّة تجتاح حلقي وأنا أستمع لصوتها المختنقِ بالعبراتِ وعينيها المغرورقتين بالدموعِ كأنها تتحدثُ بلساني، فأسرعتُ أغادرُ الغرفةَ وأمي تردد:

– دي أيام وراحت لحالها خلاص.

وحلّ صباح اليوم التالي، وخرجتُ من الغرفةِ المخصصةِ لنا في المنزل فإذا بدارين على الباب تهمسُ لي بحدةٍ قائلة:

– خدي البسي الطرحة دي واقلعي اللي على راسك!

فنظرت إليها متعجبةً أقول:

– طب ليه دا إيشارب صغير أوي وشفاف هيبين شعري.

أنا وصراع الثقافات

فراحت تنظرُ إلي بغيظٍ شديد ثم أمسكت بطرحتي في يدها وخاطبتني بحدةٍ تقول:

– اقلعي البتاعة دي والبسي دا.. البسيه دلوقتي يلّا!

فحدقتُ فيها باندهاشٍ فأكملتْ تقول:

– أو بصي خليكِ في أوضتك أحسن ما تطلعيش منها عشر دقايق كدا؟

فاتسعت عيناي في عجبٍ حتى دقَّ جرسُ الباب ففتح كيفين يردد مرحّبًا:

– كيف حالك يا أمي؟ شكرًا لك على هذا الطعام. كيف حالك يا أبي؟ لماذا لم تأتِ مع أمي في إجازة نهاية الأسبوع الماضي كالعادة.. لقد انتظرناك...

وانخرطا في الحديث وقد بدأتُ أفهم سبب توتر عمتي، وهي تُحاول إخفائي بحجابي عنهما، ولكن حماتها على عكس ما تصورتُ احتفت بي ودعتني للمجيءِ وعرّفتني بنفسها قائلة:

– أنا مارجريت والدةُ كيفين.

– أهلا وسهلا أنا ليلى.

أهلا بكِ، لقد سمعتُ عنكِ أنت جميلةٌ حقًا.. سمعتُ أنك ترسمين فشكرتُها ببشاشةٍ وأحضرت لها بعضًا من لوحاتي، كانت من بينها لوحة لفتاةٍ بدويةٍ ترتدي حجابًا وفي يديها وعاء ماء خزفيّ، فأبدت مارجريت

إعجابها الشديد باللوحة، وراح جورج زوجها يردد:

– ما أروعها!

لتعلق زوجته:

– إنها تذكرني بلوحاتِ الكتاب المقدسِ يا جورج أليس كذلك؟

فرد جورج:

– انتِ على حق!

وكالعادة كان الأجانب أكثر احترامًا لحجابي من عمتي، فهم لا يدينون

بديننا، ولكنهم في النهاية؛ يدركون أن للحجاب أصل ومعنى في جميع الديانات.

ما أقسى أن تشعرَ بالاضطهاد ممن تحب فقط لأنك اخترتَ رضا الله تعالى، لماذا تعشقُ عمتي الغرب وتنتمي إليه بكلّ جوارحها، وتحسن معاملة الجميع حتى الملحدين والمثليّين، ولكنها تقفُ عاجزةً عن تقبلني بحجابي.. سؤالٌ لم أجد له إجابةً وأظنني لن أجدها أبدا!

وانصرف الزوار، وراحت أمي تساعدُ عمتي في المطبخ، فإذا بها تلقي بالطعام الذي أحضرته حماتها في سلةِ القمامة، فسألتها أمي عن السبب في دهشةٍ فأجابت:

– أصلها لحمة خنزير.

فصاحت أمي:

– إيه! ليه حماتك تجيب لك خنزير يا دارين؟ هي ما تعرفش إنه متحرم عندنا؟

– عارفة طبعا.. قلت لها كتير.. وكيفين أصلا ما بياكلوش، بس هي حماتي كدا.. أصلها بتعزني أوي! عشان كدا كل ما تعرف إني جاية عندهم بتعملهولي مخصوص!

تنهدت أمي وهي تقلبُ رأسها، وقالت:

– معلش ما هي أكيد يعني مش هتتقبل جوازكوا بالساهل.

– قصدك عشان أسلم؟ دا هو عمره ما كان بيروح الكنيسة غير في الأفراح بس، في أمريكان كتير كدا.

– الملح...؟

فتحت أمي دولاب المطبخ بحثًا عن الملح ثم أمسكت بإحدى الزجاجات صائحةً:

– إيه دا (wine).. خمرة!

فأسرعت دارين تهدئ من روعها مرددةً:

– دي بيستخدمها كيفين في الصوص اللي بيحطه على الأكل بيحط نقطه منها بس مش بيسكر يعني.. وانتِ عارفة أنا عمري ما شربتها.

فقالت أمي بصوتٍ مرتجفٍ وقد بدا عليها الهلع:

– نقطة إيه حتى لو نقطه برضه حرام يا دارين يا بنتي.. فهميه يا حبيبتي فهميه!

– حاضر ما تخافيش.

– وخبِّي الهبابة دي بعيد عن أخوكِ مش ناقصين مصايب يا حبيبتي!

في صباح يوم جديدٍ صحبتنا عمتي إلى السوقِ المفتوح، حيث كانت إحدى السيدات تعرض بعض التحف القديمة للبيع حين راح أبي يفاصلها كعادته في الثمن فنظرت إليه بتململٍ تقول:

– هذا هو ثمنها فلتشترها به أو لتذهب.. لقد جاءني منذ قليل أناسٌ من نفس نوعكم هذا وأضجروني بالفصالِ ولم يشتروا شيئًا في النهاية.

فنظر إليها أبي يقول:

– ماذا تقصدين بنفس نوعنا هذا نحن كنديون مثلكِ تمامًا.. أهذا تلميح عنصري؟!

فارتهبتْ المرأة وارتبكت ثم تداركت الأمر قائلةً:

– لا.. لا إني لم أقصد شيئًا!

سمعت عمتي بما جرى فقالت في أسفٍ:

– بعد (September 11) ناس كتير بقت بتبص للعرب والمسلمين كدا وطبعًا رقية وليلى لابسين طُرح!

فرد أبي منفعلا:

– أنا ما سكتلهاش واوعي تسكتي لحد، إحنا هنا مواطنين زينا زيهم.. فاهمة! اللي ينطق تقولي له في وشه دي عنصرية هيسكت ويخاف على

طول!

فعلقت تقول:

– آخر مرة لما رحنا أمريكا نزور قرايب كيفين كنت باتكلم معاهم عن قريبنا اللي مات في (September 11) لاقيت واحد منهم بص لي وقال لي: «وقريبكم دا مات ظُلم مع الناس البريئة، ولا كان من الإرهابيين اللي فجروا الطيارات!» كنت عايزة أقول له: (Go to hell).

فعلقت أمي:

– مش أنا حكيت لك يا فريد اللي حصل مع مرات أخويا كمان لما راحت البنك تقدم طلب اعتماد إمضاء وطنشوها ولما ألحت عليهم راح الراجل مزعق وقال:

«هاعتمدها لك حتى لو كنتِ كاتبة فيها إنك عايزة تقتلي رئيس أمريكا شخصيًا!»

وتعكر مزاجنا فاصطحبتنا عمتي إلى أحد المولات للنزهة ثم اشترت لي كراسة رسمٍ جديدة وعلبةً من ألوان الأكريلك الفاخرة ثم بدأت تعلمني كيف أستخدمها ففرحت كثيرًا، وكذلك اشترت ليوسف بعض السترات الأنيقة.

حل صباح اليوم الثالث وجلسنا على مائدة الغداء بينما كان أبي نائمًا، فراح كيفين يسأل عمتي باهتمام:

– دارين لقد علمتُ أنك سحبتِ بالأمس من حسابنا المشترك نقودًا ولم تعلميني!

فبدا الارتباك على دارين وقالت:

– فلنتحدث في الموضوع في وقت آخرٍ يا كيفين.

ولكن كيفين أصّر أن يحصل على إجابةٍ منها أمامنا فأخبرته بأمر هدايانا فنظرَ إليها يقول:

– كان عليكِ أن تستأذني أولًا قبل أن تسحبي شيئًا من الحساب.

بدا واضحًا أن كيفين يتعمد احراجنا، كان تدخله الماديّ واضحًا في كل مصروفاتِ عمتي التي يزيد دخلها السنوي عنه الضعف، وما إن حلّ المساء ورحنا نتسامر على المائدةِ كعادتنا حتى راح ينادي عليها من غرفته بإلحاحٍ ليصبح الأمر في غاية الإحراج حتى طلبت أمي منها اللحاق به فعلقت دارين تقول:

– أنا مش عارفة هو بيعمل كدا ليه! أنا باعامل أهله بذوق أوي وبيجوا لنا كل أسبوع وباتحمل حاجات كتير منهم، (I can't understand why)!

– معلش يا حبيبتي كل واحد وليه طبعه.. يلا روحي لجوزك إحنا كدا كدا داخلين ننام.

في حين بقى يوسف في الغرفة وعلى وجهه علامات الغضبِ حتى ألقى لأمي بعشرة دولاراتٍ غاضبًا يقول:

– اديها لدارين يا ماما الفلوس دي أنا مش عايزها.

فردت أمي متعجبة:

– إيه حكاية الفلوس دي يا ابني؟

– كيفين مديها لي عشان طلعت فوق البيت واتعلقت بالماسورة عشان أساعده، كنت على وشك أقع وأموت عشان أحمي دارين وما تضطرش تطلع معاه، وفي الآخر كرمش لي الفلوس دي في إيدي وادهالو. هو أنا باشتغل عنده يا ماما!

– معلش يا ابني دا أجنبي وما يعرفش طباعنا أنا هارجع لها الفلوس دي بنفسي.

لم تمضِ الليلة حتى دار بين أمي وأبي حوار هامس في الغرفةِ لتقول:

– قلت لك حسّيت وخلاص، ما تعدش كل شوية تقولي إيش عرفك.. باين على الراجل إنه بدأ يدايق ما هو دا بيته برضه وعايز ياخد راحته من حقه، خلينا نفطر ونمشي الصبح يا فريد.

فرد أبي غاضبًا:

– يعني أقطع المسافة دي كلها وتذاكر رايح جاي، والمدة دي كلها ماشوفتش أختي ولا شبعت من ابنها ومش مكلفهم ولا مليم، وجايب الشوبينج كله على حسابي وفي الآخر تقولي لي جوزها مش مرتاح.. ما عنُّه ما ارتاح!

علا صوتُه في جملتِه الأخيرةِ فأسرعت أمي تهمس:

– وطي صوتك، عشان خاطري يا سيدي ما تحرجناش.. يا بخت من زار وخفف وانت هتسلم عليها الصبح وهتشوف بنفسك مش هتقدر تمسك فينا، لو قالت لك خليك يا أخويا ساعتها يبقى لك الحق.

وبالفعل أخبر أبي دارين بنيتنا في مغادرةِ بيتها إلى بيت خالي في نيويورك ومن ثم العودة إلى مصر مبكرًا، فوافقت على الفور، فأحضر لها أبي هديتين من حقيبته وراح يقول:

– خدي يا دارين يا أختي دا منبه إلكتروني بيأدن ساعة الصلاة ظبطتهولك على مواعيد كندا.. ودا مصحف مترجم جبتهولك معايا من المدينة المنورة.. من جنب مسجد الرسول (صلى الله عليه وسلم) خلي الاتنين دول جنبك على طول.. ما حدش ضامن هنتقابل تاني امتى ولا هنقابل ولا لأ.

– فريد.. (please don't say that)!

– اسمعيني بس دي وصيتي ليكِ.. انتِ مش أختي الوحيدة بس انتِ وصية أبوية وأمي الله يرحمهم يعني زي بنتي. الدنيا دي في الآخر متاع زائل.. البيت اللي ما فيهوش ذكر الله ما فيهوش حياة مهما بان جميل أو عظيم.. صلّي يا دارين وعلمي جوزك وابنك الصلاة والقرآن.. مسؤوليتك دلوقتي أكبر بكتير يا حبيبتي وربنا يعينك وتبقي قدها.

وودعنا عمتي وعائلتها وكلبتها التي أمست صديقتَنا بالأحضان، لتهمس دارين في أذني كعادتها:

– ما تزعليش مني يا ليلى انتِ عارفة أن أنا بحبك وهافضل أحبك دايما.

– وأنا كمان.

وقضينا يومين سريعينِ في نيويورك ببيتِ خالي أكرم استعدادًا للرحيل. وفي طائرةِ العودة راحت أمي تنظر إلى أخي باندهاشٍ شديدٍ فوجهتُ نظري إليه فانتابني الشعور نفسه حين رأيتُه يعانق قسيسًا قبطيًا، حتى جاء فسألته أمي عما رأت، فقال لها مبتسمًا والدهشةُ في عينيه:

– ما اعرفش يا ماما، أنا لاقيته شايل شنط تقيله بصعوبة، فلما طلعتها له فوق لاقيته بيسألني: «هو انت معانا في الكنيسة يا ابني»، فقلت له: «لأ أنا مسلم» فابتسم وراح حاضني فجأة ما أعرفش ليه! دول يا دوبك كام شنطة ما عملتش حاجة يعني!

فربتت على كتفهِ مرددة:

– ربنا يبارك فيك يا ابني.

وعدنا إلى أرض الكنانةِ، إلى أرض ذكرياتي الجميلة بخليطٍ من الشجنِ والأمل، واستشعرت الاطمئنان أخيرا، فقد أعياني هذا الانبهار بالغرب الذي غالبًا ما تتبعه الصدمات.

***

– وحشتيني أوي وقررت أكلمك مهما حصل!

– مش غريبة عليك ما أنا عارفة إنك مجنون!

– إيه رأيك نرجع صحاب تاني ولو ساعة واحدة بس.. هيجرى إيه يعني؟

– ساعة واحدة.. ماشي اتفقنا.. بس بعدها نرجع نتخاصم؟

وعلت ضحكاتنا..

– خلاص اتفقنا.. هاعزمك في الساعة دي على كوباية قهوة.

– قهوة برضه.. بس شيماء اللي بتعملها ما عادتش موجودة.

– ما تقلقيش الجامعة مليانة كافيتريات.. المهم هتشربي معايا المرة دي ولا لأ.

– أشرب ليه لأ و«القعده تحلى بالشعر والقهوة».

وتجددت الضحكات...

– هتبقى أحلى كوباية قهوة في الدنيا يا ليلى.

ومضينا بين حشائش الجامعة... ثم علا صوتٌ من بعيد.

– ليلى.. ليلى.. يا ليلى!

– أيوة يا ماما!

– إيه يا بنتي.. عماله أنادي عليكِ.. انتِ سرحانة في إيه؟ هاتي الفنجان.. انتِ مش خلصتِ القهوة بتاعتك خلاص؟ قومي بقى شوفي مصلحتك وذاكري لك شوية.. دا انتِ في تالتة جامعة دلوقتي مانتِش عيلة صغيرة عشان أفضل أقول لك قومي ذاكري كل شوية!

– حاضر يا ماما حاضر.

كان هذا المشهد بيني وبين حبيب واحدًا من آلاف المشاهد الخيالية الجميلة التي كنت أعيشها، تمامًا كمن يتعاطى أقراصًا مهدئة أدمنها بمرور الوقت فلم يعد في دنياه ما يبهجه سواها، فمنذ أدخلت حبيب عالمي الخاص، عالم الخيال، لم أستطع بعدها إخراجه منه أبدًا، بات الشبح القديم الذي كان يطاردني طيفًا جميلًا يزورني كل يوم لساعات، ولا من سبيل لطردهِ من حياتي.

الحبُّ مرضٌ وابتلاء، هذا ما بدأت أفهمه في النهاية، ولكننا دائما ما نستشعر في نقمة الحب نعمة، وننسى أنه كأس خمرٍ كان مزاجها الشقاء.. ولو كان الحب بأيدينا لأحببتُ أنا مصطفى صاحب القلب الطيب، ولربما أحبت أنجيل حبيب، وأحب خالد لاميا ابنة أرضه ودينه، ولوجدتْ يارا ضالتها في شابٍ يمني مثلها، ولكنها الأقدار تمضي رياحها بسفنِنا إلى حيث لا نشتهي بل ولا نفهم أحيانًا.

وأدمنتُ مع مرور الوقت كل شيءٍ يذكرني بحبيب، القهوة التي اكتشفتُ متعةً في مذاقها المميز وتأثيرها الساحر فصارت عشقي الجديد، ومبنى إدارة الجامعة حيث كنا نضحكُ ونمرحُ بلا قيود، ومدادًا على الورق بخطّ

يده عاش معي في درجِ المكتبِ ليبقى الذكرى الوحيدة لي منه.

بِت أتفقد كل شيء، ولكن دون نظارةٍ سوداء أخيرًا، فلم تكن النظارة لتغطي عينيّ إلا في الأيام القليلةِ التي كان يأتي فيها لزياراتٍ دراسية، لتتحول خفقات قلبي إلى موسيقى مفرحةٍ مرعبةٍ في ذات الوقت، فرحة وخوف، سعادة وحزن، وكل شيء ونقيضه في نفس الوقت، كنتُ أنزوي بعيدًا بجلسةِ القرفصاء، أرتدي نظارتي السوداء هاربةً من الواقع كي لا تزل قدمي فيقودني الضعف إلى وداعٍ منشودٍ تفضحني فيه الدموع، فأهمس في نفسي: «دعيه يرحل.. ستكونين بخير.. أقسم أنك ستكونين بخير يا ليلى».

لم تكن سوى بسماتٍ وكلماتٍ وضحكات، دخلتُ بها قصتي كطفلةٍ جريحةٍ تبحثُ عن دواء، وخرجت منها بقلبٍ كلوح زجاجٍ محطم، وتفرقنا أنا وحبيب ليبقى كلٌ منا في حياة الآخر علامةً لا تنسى، ولا يمكن للزمن أن يردم آثارها أبدا..

بقى حبيب في ذاكرتي البهلوان الذي أبكاني، وخصمي اللدود الذي أدمنته وأدمنني بجنون حتى ولو لم تجمعنا قصةُ حبٍ تقليدية، لقد أمسى في ذاكرة قلبي تلك البسمة التي تمتزج لمعتها دائما بالدموع.

وعشتُ مع هذا المرض الذي لا يُرجى شفاؤه، الكل من حولي يرافق ويسامر، وتلك تُخطب وهذه تتزوج، وهذه تروي لي حكاية حبّها الجديد، أما أنا فقد علق شريط حياتي تمامًا، ولا أملك رفاهية البوح، أو حتى حق الصراخ والبكاء في لحظة يأس، لا أملك سوى الصمت.

مرّ عام على رحيل حبيب وأنا ما زلت أفتشُ في العيون عن عينيه، وفي الضحكاتِ عن ضحكته، فلا أجد سوى السراب أمامي فلا أبوح إلا للورقةِ والقلمِ لأكتب:

ورقة خريف..

أحقاً منذ عام رحلت
إذن لماذا لا أصدق!
إذن فيمن أنا فكرت
وكيف عشت أُحَلِّق!
من طيفٍ كورقةِ خريفٍ
تذكرني بربيعٍ مشرقٍ
من طيفٍ كفستانِ عروس
من مسرحِ عرائسٍ أغلق
من ذا الطيف أنا صنعتُ
قصصًا في روحي تتدفق
ونسيتُ أني أخطو
في البحرِ وسوف أغرق
وأن قناعًا أهواه
منذ عامٍ قد تمزق
على الترابِ قبضت
وبقيتُ فيه أستنشق
من ودعت عيني إذن
أيها القلب الأحمق؟!
ألفُ شمسٍ قد غربت
ألفُ جمعٍ قد فُرّق
أمضى شريطُ عمري
أم علقَ وما انفكَ يعلق؟!
من ودعتْ عيني إذن
أيها القلب الأحمق؟!
وتظلُّ مني تهرب
وتأبى أسفًا أن تنطق!

بقيتْ نسرين غريبة الأطوار بضحكتها المعهودة أنيستي الوحيدة، نأكل سويًا ونتجول سويًا، ونتشارك همومنا الدراسية بل وحتى مشروع تخرجنا نعمل فيه سويًا.

حتى جاء اليوم الذي بدأتُ فيه أفكر في الارتباط أخيرًا، فما عاد بإمكاني تحمل هذه الدوامة في صمت، لقد تعبت من هذا الحب الخيالي الواهم؛ ولأن الحب في الغالب لا يأتيك حين تبحث عنه وإنما يصيبك كفيروس غريبٍ لم تُكتشف أسبابه ولا أمصال الوقاية منه بعد، فلم أجد من حولي من يناسبني أو تتقبله نفسي ولو قليلًا، بل إنني رحت أتهربُ من تلميح هذا وذاك، فأتصنعُ البلاهةَ أمام غيرة زميلة كريم الصيرفي مني، ومحاولاته اليائسة في التلميح لي بالإعجاب، تماماً كما تصنعتُ الغباء أمام صديقي السوري الذي أشفقت على حاله ورحتُ أسدي إليه النصائحَ وأنا أستمع لحكاياته عن طليقته الأجنبية الخائنة، فمالَ قلبه لي هو أيضًا.

يظنونني مغرورة بينما أنا مسكينةٌ موصدةَ القلب، مفعمةٌ بالجراح، كنتُ فاشلةً في التعرفِ على من يناسبني بقدر مهارتي في تصنعِ البلاهةِ أمام من لا يناسبني، فأنا في الحقيقةِ فتاة خجولة، ولا خبرة لي بأساليبِ التعارف من الأساس.

«حظي نحس» كانت هذه عبارتي الدائمة وأنا أتناول طعام الغداء مع صديقتي المقربة، حتى جاء اليوم الذي جاءتني فيه إحدى زميلاتي تنصحني على انفرادٍ مرددة:

– ليلى انتِ بنت محترمة.. نصيحة مني ابعدي عن نسرين دي.. دي سمعتها مش كويسة.

فنظرت إليها مستاءة أقول:

– ليه مالها نسرين.. شفتي عليها حاجة غلط؟

– لا بس هي معروفة كدا وخلاص.

– إزاي كدا وخلاص؟!

- أنا نصحتك وانتِ حرة.

فانضمت لها صديقتها لتؤكد حديثها، فعلقت بردٍ واحدٍ حاسم:

- ما دام ما شفتوش عليها حاجة غلط ولا أنا عمري شفت يبقى ما ينفعش أصدق الكلام دا عليها.. دي صاحبتي الانتِم وما شفتش منها إلا كل خير.

حتى جاء ذلك اليوم الذي حمل لي الصفعة الجديدة، ولكن ما بجسدٍ ميتٍ إيلامُ!

كان فارس صديقي الفلسطيني شابًا خلوقًا مهذبًا لم أعهد عليه خُلُقًا سيئًا أبدًا، اعتبرته أخًا لي وكذلك اعتبرني هو، لم أنتقد فيه سوى التدخين وترك الصلاة، وكان يعرف ذلك جيدًا، وكذلك نسرين صديقتي التي تكاد لا تفارقني، لم أكن لأرى عليها ما يشين، ولكنني وُضعتُ في مفترق الطرق، كان ذلك حين رأيت الحيرة والخوف في عينيها فسألتها عن السببِ لتقول:

- بصراحة كدا أنا عايزة أقول لك على حاجة وخايفة.
- نسرين.. قولي واخلصي!
- فارس.
- ضايقك؟! دا أنا لسه معرفاكِ عليه من كام يوم.
- كنا بنتكلم في الموبايل.
- موبايل!
- استني بس.. راح بعدها قايل لي كلام مكسوفه أقولهولك.

وراحت تهمس في أذني بحديثٍ شديد السفالة، فنفرتُ منها وأسكتُّها قائلة:

- فارس ما يعملش كدا! فارس ولد محترم من ساعة ما عرفته.
- وهو أنا هاتبلى عليه يعني؟ ما انتِ عارفاني.. صدقيني دا اللي حصل.

ومضت إلى محاضرتها وصادفتُ أنا فارس وهويدا زميلة دفعته في الساحةِ، فسلمتُ عليهما ورحتُ أخرج دفتر أشعاري الجديد لأقرأ عليهما

ما كتبت كما العادةِ فنظر إليَّ فارس في حيرةٍ ثم راح يهمسُ لهويدا على بُعدٍ فاقتربت مني تقول:

– ليلى أنا عايزة أقول لك على حاجة.

– حاجة إيه؟

– حاجة حصلت من نسرين صاحبتك.

وروت لي نفس الحكاية هامسةً بنفس ذلك الحديث ولكن الحكاية هنا معكوسة، فنسرين فيها هي من تلفظت بالحديث الساقط، فرحتُ على الفور أردُّ غيبةَ صديقتي أيضًا:

– لا مش ممكن نسرين تعمل كدا دي صاحبتي وأنا عارفاها من مدة طويلة دي حتى محجبة كمان.. هي قالت عن فارس نفس الكلام بس أنا برضه ماصدقتش!

سمعنا فارس فأتى غاضبًا يقول:

– حكت عني نفس الحكي، هادي كذابة، وبنت ما هي محترمة. ليش ما رديتِ عليها! والله العظيم هي اللي حكت هذا الحكي ما هو أنا!

فأجبته:

– أنا رديت يا فارس وقلت لها فارس محترم وما يعملش كدا!

– خلاص يبقى تقطعي علاقتك بهاي البنت تماما!

– ما اقدرش.

ذُهل فارس سائلًا عن السبب فأجبت:

– ما ليش صحاب غيرها في الدفعة وبعدين إحنا زمايل مع بعض في مشروع التخرج كمان.

– غيّريها.. شوفي غيرها وعرّفي الأستاذ عادي.

– ما ينفعش إحنا عملنا كل حاجة مع بعض خلاص وهي الوحيدة اللي معايا في كل حاجة.

فصاح فارس يقول:

– لو بقيتِ معها كل الناس راح يقولوا عنك زيها بنت مش محترمة!

– الناس عارفين أخلاقي كويس يا فارس وانت كمان.

– أنا عارفك كويس بس بقية الناس راح يقولوا هادي بتمثل.. هادي زيها.. حتى أنا نفسي ماراح أحكي معك إذا ضليتي تمشي معها.

فأغمضتُ عيني ورفعتُ يدي بإشارةِ التوقفِ مرددةً:

– فارس ممكن تنسى كل اللي حصل دا كأنه ما حصلش، وأنا كأني ما سمعتش أي حاجة من أي حد كإني ما جيتش النهاردا أصلا.. أنا ظروفي النفسية ما تسمحليش إني أخسر صديقتي الانتِم. كفاية.. ما بقيتش قادرة أتحتمل أفارق حد، انت مش فاهم أنا تعبت.. تعبت من الحكاية دي!

قلتها وأنا أكاد أنهار فانفجر فارس في وجهي صائحًا:

– ما انتِ قادرة تتحملي تفارقي حدا.. ليش.. كل هدا ليش؟!

ثم راح يشير إلى دفتر أشعاري صارخًا:

– منشان قصة حب فاشلة مريتِ بها يعني! شو فيها؟! كلنا صار معنا هيك.. انسي.. اخرجي من هاي الحالة بقى فوقي... فوقي بقى!

تملكتني الصدمة وأنا أتأمله وهو يصيح في بهذه الفجاجة لأول مرة.. إنني لم أروِ له أو لغيره شيئا.. فكيف يتدخل في حياتي الشخصية على هذا النحو السافر! انعقد لساني بالصمت فأكمل غاضبًا:

– اختاري يا ليلى بينا وبينها.. وإذا ضليتِ معها انسي إنك تعرفينا أنا وهويدا.

وأمّنت هويدا على حديثه فورًا كأنما جاءتها الفرصة لتنفرد بصداقةِ فارس لغرضٍ في نفسِ يعقوب.

ومشيتُ إلى بيتي دامعة العينين، وصياح فارس يتردد في أذني: «منشان قصة حب فاشلة.. اخرجي من هاي الحالة... فوقي بقى!»

ألهذا الحد يا ليلى أصبحت مثارًا للشفقة؟ أهذا فارس الذي لطالما أغدقتي عليه بالنصح... «صلي يا فارس.. أنت مقدسي من أرض مقدسة إزاي ما تصليش! ضرب باباك ليك وأنت صغير مش عذر.. كفاياك تدخين.. حرام هتدمر صحتك».

لقد أصبحت في نظره متهمةً سلوكيًا فاشلةً عاطفيًا، همست في نفسي: «ماذا صنع بكِ قلبك يا ليلى! لماذا تخافين الفراق إلى هذا الحد؟ لماذا تعيشين أسيرة حبيب الذي لن يجئ أبدًا.. وحتى لو جاء زائرًا لن يتغير شيء صمتٌ قاتلٌ ومزيدٌ من التخدير فقط».

واخترتُ صديقتي.. نعم أخطأتُ في اتخاذ القرار الصائب هذه المرة.. عصّبتُ عينيَّ هاربةً من الفراق، كانت جراح قلبي أقوى من تحمل هذه العاصفة الجديدة في هذا التوقيت الحرج من حياتي، جبنت، فكل هؤلاء الناصحين ببساطةٍ لم يواسوني مثلها، لم يكن لدى أحد منهم متسعٌ من الوقت لتحمل حزني الغامض، وشرودي المبالغ فيه، أو اصطحابي لأول مرةٍ إلى مترو القاهرة وتعليمي الاعتماد على النفس واستقلال المواصلات وحدي كما فعلت معي نسرين، ليس لأحد منهم من ذكرياتٌ معي تمتد لما يقارب العامين، ما أسهل النصيحة حين تهديها لغيرك، وما أصعبها حين يُطلب منك تنفيذها.

وهكذا بينما كنتُ أنا غارقةً في خيالاتي وولهي أحلم بفرصة للنسيان، كانت نسرين تنصب شباكها من حولي كأنثى العنكبوت لتتصيد كل شابٍ تحدثه نفسه بالحديث معي دونما أشعر، لتتغير معاملة الناس معنا في النهاية دائمًا، فأشعر بنفور غريبٍ من بعضهم، ولكنني لم أكن لأشغل بالي للحظةٍ بالسبب، فأنا ببساطة في عين نفسي «منحوسة» مصابةٌ بمسٍ من شيطانِ الحُب، ولن أصادف الحب المشروع في حياتي إلا في الأحلام!

***

كنتُ في حافلةٍ صغيرةٍ حين سمعت نبأ وفاة شاب أعرفه، سمعتهم يقولون اسمه بالكامل، ويقولون أنه مات مختنقًا بالغاز، فشعرت بالأسف الشديد، ورحتُ أتساءل في نفسي، أيكون هو؟ سأسأل زميلتنا سُهير إذن أظنها تعرفه.. لقد رأيتها معه أكثر من مرة.. وبالفعل رأيتها على درج الكلية مع زميلتها فرحت أسألها على الفور دون مقدمات:

– سهير إزيك؟ بيقولوا في ولد سوري مات.. اسمه علاء عبد الكريم سالم تعرفيه؟

شخصت عينا سهير وفتحت فمها تنظر إليَّ فأكملتُ:

– بيقولوا إن زمايله كسروا عليه باب الحمام لما لقوه مخنوق من الغاز النهاردا.. هو دا الولد السوري اللي شفتك واقفه معاه كم مرة؟

صمتت والدهشة في عينيها فأردفت:

– اللي في طب أسنان اللي عرفتيني عليه انتِ وسمية.. فاكراه؟

بدا الذعر في عينيها ثم راحت تصرخ في وجهي بجنون:

– انتِ بتقول لي إيه.. بتقول لي إيه.. انتِ كدابة.. كدابة.. كدابة!

فراحت صديقتها تهدئها:

– اهدي شوية يا سهير.. اصبري بس لما نتأكد ما جايز مش هو يمكن حد تاني!

فصُدمت وقد أدركت من ردة فعلها كل شيء. لم يكن ليخطر في بالي مطلقًا أنني بما فعلت سأظل في حياة هذه الفتاة المسكينة نذير الشؤم وإلى الأبد ولكنه ما حدث، وراحت سهير تركض كالمجنونة لتتأكد من الخبر.

***

مرت أسابيع ورأيت سهير تجلس على الرصيف مع سمية، ترتدي حجابًا وعباءة لأول مرة، فلا شعرًا مصبوغًا ولا ملابس ملفتة ولا حمرة متوهجة، اختفى كل شيء، كانت تمسك بصورة صغيرة لعلاء وتبتسم له

وتغازله ضاحكة تردد: «حبيبي.. قمر والله قمر.. أنا عارفه إنك زعلان مني.. ما تقلقش هنتكلم بس لما تخلص محاضرتك.. هاجيلك ونقعد ناكل ونرغي سوا يا حبيبي».

فنزلت على الرصيف بجوار سمية ورحت أهامسها:

– هي حصل لها إيه؟ حالتها وصلت لكدا إزاي؟

فنظرت سمية إليّ باشمئزازٍ غاضبةً تردد:

– وصلت لكدا إزاي! ما انتِش عارفة انتِ عملتِ إيه! في حد يروح يبلغ بنت بخبر وفاة الشاب اللي بتحبه بالطريقة دي! انتِ إيه ما بتحسيش!

– والله ما أعرف إنها بتحبه!

– ما تعرفيش إزاي.. الناس كلها عارفة!

– أقسم بالله العظيم ما أعرف.. ولا خدت بالي أصلا!

علا صوتُ سهير وهي تردد:

– هاكبر لك صورتك يا روحي أنا اتفقت مع ستوديو التصوير خلاص وهأبروزها وأعلقها في الصالة...

فهمستُ لسمية:

– إزاي أهلها سايبينها كدا؟! البنت دي بتعاني.. لازم تشوف دكتور نفسي ضروري.

فعادت سمية تنظر إليَّ باشمئزازٍ وتهكمٍ مرددة:

– صعبانه عليكِ أوي يا اختي!

– أيوة صعبانة عليا وحاسة بيها طبعًا!

– لا واضح.. حاسه بيها أوي! وهتحسي بواحدة زيها إزاي.. هو انتِ عمرك حبيتِ حد وفارقتيه.. ابعدي خليها تنساكِ أحسن!

فقمت أمشي لتتبعني سمية مرددةً:

– على فكرة يا ليلى ابعدي عن البنت اللي اسمها رنا دي.

– رنا طِب بشري؟

– أيوة.

– مالها.. أنا اتعرفت عليها من فترة واتكلمنا كام مرة بس البنت طيبة أوي أبعد عنها ليه؟!

تبسمت سميةُ بسخريةٍ مرددة:

– طيبة.. انتِ اللي طيبة! البنت دي بتتكلم في ضهرك كلام مش كويس. إحنا صحيح مش صحاب وطباعنا مش متوافقة بس أنا عارفاكِ كويس وقلت أحذرك.

ما عدتُ أعرف من أحذر!... ومشيتُ إلى منزلتي مشوشة الفكر ولا تزال صورة سهير المسكينة في خاطري، يكاد ذلك الشعور بالذنب يقتلني، وفي خاطري جملة سمية: «وانتِ هتحسي بواحدة زيها إزاي أساسًا!» ثم لاحت لي ضحكات المسكينة وهي تصبر نفسها بالوهم تمامًا كما أفعلُ أنا بنفسي، فسالت الدمعة من عيني في صمت وقد وجدتُ من يعاني أكثر مني، كان من المفترض أن يهون هذا الشعور من ألمي ولكنني شعرتُ بنفسي شريكة دون قصد في ألمها، فشردت في سؤال وجودي حائر...

تُرى لماذا خلق الله الحب؟ وهل هذا الذي ينبض في الخوافق ذنبٌ يستحق العقاب أم أنه ابتلاء قدري يستحق الشفقة؟ أم إن عليّ بعد كل ما مررت به وعايشته من حولي أن أعيش في حالة الإنكار الأبدي هذه، فأنكر أن للحب وجودًا لأننا ببساطة تربينا على ذلك منذ الصغر؟، ثم تبادر إلى ذهني ما قالتله لي سمية عن رنا لتزول حيرتي وأنا أتذكر حواري الأخير مع رنا حين قالت:

– يعني أخوكِ دا مش ناوي يخطب أبدًا! ما يخطب ماهو في خامسة طب أهو وأديكِ شايفة البنات في كلية الطِب زي القمر أهو ولا هو مواصفاته إيه في العروسة اللي عايزها؟

– انتِ مركزة مع أخويا ليه يا رنا ما تسيبيك منه.. وبعدين الولاد دول كل

اللي يهمهم الشكل الجسم والهبل ده!

– إلا قولي لي.. إيه رأيك في جسمي يا ليلى مليانه أوي مش كدا؟

– بصراحة يعني لو خسيتيلك كام كيلو كدا هتبقي تمام.

– كام مثلا؟

– يعني عشرة.. خمستاشر كيلو كدا.

– إيه!

لم تكن صدمتي في رنا بغريبة فقد تعودت على صدماتٍ متوالية من الجميع منذ اجتزتُ بوابة هذه الجامعة ولكنني لم أكن لأتصور أن يصل الأمر بها إلى هذا الحد.

***

في مصلى كلية الصيدلة أنهيتُ تلاوتي لسورة (يس) فأثنت وفاء على تلاوتي ببشاشتها المعهودة، ولكن شيئًا من الحزن بدا من عينيها، وفهمتُ السبب حين ودعتني حتى تتفرغ لامتحاناتها النهائية قبل التخرج.. لن نلتقي ثانية إذن، سترحل عني وفاء أيضًا، ولكنها تركت لي نصيحة هامسة: «استمري يا ليلى ما توقفيش حفظ.. وربنا يوفقك»، ثم مضت.

ولكن وفاء لم تكن في حياتي مجرد مُحفِّظة، كانت رمزًا لثباتي يومًا من الأيام، وبفراقها بدأت مقاومتي لذلك الألم تتداعى تدريجيًا.

***

في قاعة المحاضرات ترددت على مسامعي عبارة قالتها سهير لسمية:

«أنا اتحجبت مع إني عارفه إني مش هالاقي شغل بسبب الحجاب وماما قالت لي كتير اقلعيه لحد ما تشتغلي بس أنا رفضت»

كان وقع هذه الجملة مريرًا على قلبي خاصة وأنا أسمها من سهير المكلومة في حبيبها، لأجد نفسي أواجه بها أستاذي أمام الطلبة جميعًا وهو يسأل كل منا عن الوظيفة التي يتمناها فأجبت:

– نِفسي أبقى مذيعة في التلفزيون لكن طبعًا ما ينفعش لأني محجبة عشان كدا ممكن أبقى معدة برامج.

كانت ردة فعل أستاذنا الذي أسأمنا بالحديث عن المصداقية والموضوعية وتعدد الآراء غريبةً للغاية حين صاح في وجهي بعصبيةٍ:

– قصدك إيه يعني؟ مين اللي قال كدا؟ وبعدين ما هو قنوات بتشترط الحجاب اشمعنى بقى!

ساد الصمت في القاعة رغم أنني أعلم جيدًا أن الجميع يوافقني الرأي، بل ويتهامسون بما قلتُ بينهم كل صباح، ولكن أحدهم لا يملك الجرأة للبوح بما قلت في كلية ندرس فيها أول ما ندرس حرية الرأي، واختتم الأستاذ بصيحةٍ قوية أطلقها في وجهي قائلًا: «اقعدي!» فجلست في صمتٍ مهين.

وعدتُ إلى المنزل لتحاول أمي تهدئتي بينما أدور أنا في الصالة بعصبيةٍ مرددة:

– هو أنا لازم أكذب يعني.. ليلى ما تشاركيش في المظاهرات.. ليلى دي الحقيقة بس ما ينفعش تتقال.. ليلى الناس هيتكلموا عليكِ.. ليلى انتِ كنتِ هتودي نفسك في داهية بسبب الواد دا، وصحابي اللي بيطلعوا من برا حاجه ومن جوا حاجه تانية خالص.. اللي بيمثل انه بيحبني وهو بيكرهني، واللي بيمثل انه بيكرهني وهو بيحبني... هو أنا ليه بيحصل معايا كدا! ليه! هو أنا اللي غلط يا ماما ولا الدنيا اللي ماشية غلط! فهميني.. أنا نفسي أفهم!

– اهدي يا بنتي بس صحابك دول كلهم هيتغيروا وهيبقى لك صحاب جداد لما تشتغلي وكل اللي انتِ بتسمعي عنه دلوقتي دا بكره هيتغير ولما تتخرجي هتلاقي قنوات دينية جديدة فتحت وهيبقى كلها محجبات.. دا كل يوم فنانة بتتحجب!

– وليه لازم استنى قنوات دينية تفتح.. ليه ما اشتغلش في أي قناة..

إذا كانوا المحجبات بيشتغلوا برا في القنوات الأجنبية نفسها.. مش إحنا بنقلدهم في كل حاجه اشمعنى دي يعني! ليه في بلدي اللي معظمها محجبات ما أقدرش أشتغل اللي أنا باحلم بيه ولحد دلوقتي واحنا في 2004 وبعدين هو انتِ فاكرة يا ماما إن المشكلة في الحجاب بس.. تفتكري يعني القنوات اللي انتِ بتقول لي عليها دي لو حتى فتحت هتعيِّن بنت زيي ماعندهاش واسطه لمجرد إنها موهوبة أو متفوقة!

– وليه لأ؟

– بكرة نشوف يا ماما.. بكرة نشوف.

***

لم يبق سوى أشهر قليلة على تخرجي، كان الكل من حولي يتوق للحظة التخرج حتى يستريح من هم المذاكرة إلا أنا، تمنيتُ لو بإمكاني أن أقضي كل سنيني القادمة في الجامعة رغم كل ما لاقيتُ فيها ورغم هذا المجهود المضني الذي أبذله في المذاكرة حتى أصل إلى التفوق، ولكن كل ذلك في النهاية يشعرني أن لي في هذه الحياة دورٌ وقيمة.

كانت الجامعة بالنسبة إليَّ نسمات الحرية والصداقة والإبداع التي حرمتها في طفولتي، كان شبح العودة إلى بيتنا الموصد في الخليج يطل عليّ من حين لآخرٍ لينافس طيف حبيب الذي لازال هذا القلب ينبض على إثره، هذا الطيف الذي يهمس لي بالوعود الواهمة ليل نهار.. «طيف الوعود».. هكذا أسميتها ليكون مطلعها:

تهاجر طيورٌ وتعود
وأدري بأنك لن تعود
وأنّي نصبتُ جراحي شراعًا
بسفينةِ بحرٍ بلا حدود
ويشرق فجرٌ، يهفُ غروب
يغردُ فرحٌ، تضيق قيود

وبرغم أنك لن تعود
أعيش على طيفِ الوعود...

***

على أنغام أغنية الفنان وديع الصافي «الليل يا ليلى يعاتبني ويقول لي سلم على ليلى» رحتُ أمسك بلوحةٍ رسمتها من خيالي لحبيب ألبستُه فيها وشاحًا فلسطينيًا، وسُترةً بيضاء تحمل صورة المسجد الأقصى.. نعم إنه مجرد خيالٍ كاذب، ولكنني أعشق الخيال، فهو مملكتي الخاصة، وفي الخيال كل شيء مباح، في الخيال سنظلُ صديقين إلى ما لا نهاية، نتشارك نفس الأفكار والمعتقدات ونعيش نفس الأحلام، ولن تعرف الخصومة سبيلًا إلينا أبدًا.

يقولون إن الفن جنون فلماذا لا أجنُّ للحظاتٍ في هذه الحياة الكئيبةِ الرتيبة.. ومضيتُ أحضر قلمًا لأكتب بعض الخواطر فتسلل صوت أمي إلى مسامعي وهي تهامس أخي على الأريكة ليرد بحدةٍ:

– بتسألي ليه يا ماما عن صحابي اللي خاطب واللي مش خاطب؟! أنا مالي أصلا!

فردت أمي بارتباكٍ هامسة:

– أنا باقول يعني يمكن حد فيهم ينفع لأختك.. يعني ممكن نعزم حد منهم تشوفه كويس ومحتر...

فقاطعها أخي بغضبٍ قائلا:

– صحابي إيه اللي حد فيهم هينفع لأختي! إيه اللي انتِ بتقول ليه دا يا ماما!

– طب سليم ما هو سليم صاحبك من أيام المدرسة.. وشاب محترم وعارفين أهله.

– سليم! ما هو شافها قبل كدا.. وبعدين سليم ناوي يخطب أساسًا.. ريِّحي دماغك يا ماما أنا صحابي كلهم ياخاطبين يا بتوع بنات.. خلاص!

تنهدت أمي بمرارة وقالت:

– خلاص يا ابني خلاص.

وعدت إلى غرفتي وقد تسلل الألم إلى نفسي، فسيرة زواج أخي أو ارتباطه تُفتح في بيتنا كل يومٍ بأسماء ومقترحات جديدة، فتُسر لها الوجوة ونضحكُ لها حتى النواجز، ولكن سيرة ارتباطي أنا غالبًا ما يتبعها تجهمُ أخي أو كلماتٍ أليمةٍ من أبي: «جواز إيه.. انتِ عايزة تفقديها.. ما كفاية عمتها!»

وتملكني القهر فأغلقتُ المذياع وألقيتُ بالقلم بعيدًا، وخبأت اللوحةَ في خزانة اللوحات، ثم زفرت بقوةٍ هامسة:

«لا أنا مش هاعيش عمري كله كدا.. كفاية.. كفاية شعر.. كفاية رسم.. كفاية وهم بقى.. حبيب راح يا ليلى ومش راجع تاني.. مش راجع تاني أبدًا.. فوقي بقى.. فوقي زي ما فارس قالك.. فوقي! أنا لازم أتخطب.. لازم أتعرف على أي حد.. أي حد.. أي شاب مسلم وبأي شكل قبل ما اتجنن وأمشي أكلم نفسي زي سهير المسكينة!»

***

مرت بي الأيام وأنا بين الجامعة ومقاهي الإنترنت أبحثُ عن أي شابٍ في المنتدياتِ ومواقع التعارف، شابٌ لا يعرفني ولا أعرفه حتى أكسر حاجز الخجل، كان مطلبي واضحًا للجميع، فأنا لا أريد التعارفَ للتسلية بل أرغب في محادثةٍ عبر الإنترنت ولكن مع شابٍ جادٍ يبحث عن الزواج، ليمر الوقت المخصص لي وقد اكتشفتُ أن هذا في الثامنة عشر من عمره وذاك متزوجٌ ولكنه لا يمانع في أخرى، والآخر يتسلى من خلفِ الشاشةِ مغازلا، وآخرٌ ساقه الفضول للحديث معي وهو في الحقيقة ليس إلا ساعي المقهى الذي أرتاده كل يوم، حتى اختتمتُ بمايكل الذي سمى نفسه آدم وراح يتسلّى بالحديث معي قبل أن يصارحني ضاحكًا باسمه الحقيقي لأهبّ فيه أكاد أقتله من خلف الشاشة وهو لا يفهم شيئًا، وأغلقتُ حسابي أخيرًا حزينةً

بائسةً ككل يوم.

***

في صباحِ اليوم التالي التقيتُ نسرين كعادتي وانخرطنا في الحديث لتقول ضاحكة:

– ما هو أنا نفسي أفهم بس انتِ مين اللي في بالك.. كل ما نتعرف على حد بالصدفة تقولي لي لأ دا ما ينفعش.. دا مش اللي في بالي.. دا دمه تقيل يلطش.. دا قصير أقصر مني بكتير.. طب يعني نجيب لك واحد تفصيل مثلا!

– لأ مش للدرجادي.. صحيح هو كل ما نتعرف على حد ما باشوفهوش تاني أبدًا ليه يا نسرين؟ سالم مثلًا اختفى خالص بعد ما شفتك واقفه معاه آخر مرة.

بدا الارتباك على نسرين وراحت تتلجلجُ في الحديث فقاطعتها أردد:

– ولا أقول لك.. سيبك.. أهو دا كمان ما ينفعليش مش ستايلي.

– أيوة.. أيوة فعلا هو مش ستايلك خالص.. أنا بس نفسي أعرف بس مين هو استايلك؟!

***

في قاعة المحاضرات أنهى أستاذ النقد محاضرته قائلًا:

«يا شباب لازم تعرفوا حاجة كدا وبصراحة بما إن انتو داخلين على تخرج بناء على رغبة إدارة الجامعة إحنا نزلناكم في الدرجات السنة دي».

عمّ الضجيجُ في القاعةِ وبدأ الطلبةُ يتساءلون فأكملَ يقول:

«دا قرار شامل كل الدفعة؛ لأن إدارة الجامعة شايفة إنها مش محتاجة لمعيدين السنة الجاية.. وطبعا القرار دا إحنا كأساتذة ما لناش دخل بيه.. أنا حبيت بس أعرفكم من باب الأمانة».

كانت هذه أول مرة أشعرُ فيها بمعنى الظلم العلنيّ في وطني، الظلم العام المبرر، والصمت تحت مظلة الذل، فالمساواة في الظلم عدلٌ عند معظم من رأيت وصادفت، فلتصمت إذن فالكل صامت فلماذا تتحمل أنت وحدك عاقبة الرفض! إنها ثقافة الخضوع والمنطق المِعْوَج الذي اكتشفت فيما بعد أنه يولدُ ويعيشُ معنا لنبقى دائمًا وأبدًا في أذيالِ الأمم.

ليصبح تقديري العام رغم كل ما قاسيته طوال سنوات الجامعة، ورغم هذا الظلم العلني (جيد جدًا) مع مرتبة الشرف، كان من حقي أن أحلم أن أصبح معيدة وأنا الطالبة النجيبة الموهوبة المحبوبة بين أساتذتي، وبالفعلِ قدَّمت أوراقي للتعيين وقُوبلت بالرفضِ الصريح، على الرغم أن كليتي كلها ليس فيها سوى معيدين إثنين يقومان في الغالب بأعمال إداريةٍ لا علاقةَ لها بالتدريس، وكلاهما عُين بالواسطة جهرًا.

واستلمتُ شهادتي وانتهت رحلتي الطويلة في البحثِ عن أصدقاء، الرحلة التي أورثتني الألم والخيبة، وأرتني أصنافًا من البشرِ لم أعهدهم في حياتي، يختلفون في الملامحِ والطباعِ ولكنهم جميعًا يشتركون في شيء واحد، فكلهم يرى ليلى متهمةً بلا جريمة، وكلهم يطعنها برمحِه حتى النهاية.

لم يبق لي سوى نسرين، التي كانت أشدهم خطرًا من حيث لا أدري، كانت نسرين مندوبة مبيعات لشركاتٍ متعددة، علمتني كيف أعتمدُ على نفسي في رحلتي للبحث عن الماجستير والعمل، كنا نتبادل الزياراتِ ونتشارك الحديث والضحك رغم اعتراض أخي الصارخ عليها، ولكن ما الجديد؟ فلم يكن يوسف ليقتنعَ يومًا بأحدٍ من أصدقائي.

***

ومر عام.. عام كامل على تخرجي، وأنا على الوسادةِ شاردة والدمعةُ في عيني أضعُ سماعاتِ الأذن لأستمع للساهر وهو يردد شاديًا:

«علمني حبك يا سيدتي ما الهذيان

علمني كيف يمرُّ العمر

ولا تأتي بنت السلطان
أدخلني حبك سيدتي مدنَ الأحزان
وأنا من قبلك لم أدخل مُدنَ الأحزان
لم أعرف أبدًا أن الدمعَ هو الإنسان
أن الإنسانَ بلا حُزنٍ ذكرى إنسان...»

ترقرقتُ الدمعةُ على خدّي فأسرعتُ أمسحها وأرفع سماعاتِ الأذن وقد بدت لي أمي تفتحُ الباب على مهلٍ قائلة:

– ليلى.. انتِ لسه صاحية! دا إحنا قربنا على الفجر.. ما تفضليش تفكري وتحملي الهم ربنا المعين نامي يا حبيبتي بكرة ورانا يوم طويل.

– حاضر يا ماما هانام ما تقلقيش.

مضت أمي ثم عادتْ تلتفتُ لي هامسة:

– انت اتفقتِ مع سيف خلاص ولا في تغيير في أي حاجة؟

فهمستُ أقول:

– لا يا ماما كله تمام.. وهييجوا بكرة كلهم وهنتقابل في المعاد زي ما اتفقنا.

فتنهدتْ تقول:

– طيب يا بنتي ربنا العالم بالحال.. تصبحي على خير.

***

وأشرق صباح يومٍ جديد، ونبضاتُ قلبي تتسارع كجوادٍ أسودٍ يركضُ في الصحراء، بينما أكاد أسمع أصداءُ صوت أبي تترددُ من الماضي البعيدِ وهو يقول: «اوعديني يا بنتي ما تعمليش زي عمتك»، وردي الذي لا أنساه يرِنُ في أذني مرارًا: «أوعدك يا بابا».

فأقفتُ من شرودي على صوتِ أمي صادرًا من الغرفة:

– يلا يا بنتي البسي عشان نجهز المفروض ننزل من هنا بعد نص ساعة!

ثلاثون دقيقة تبقتْ لي إذن، كانت كل دقيقةٍ تمر تحملُ لي بين طيَّاتها مشهدًا من مشاهدِ عام كاملٍ منصرمٍ بعد تخرجي، عام مضى سارقًا مني كل أحلامي وآمالي العريضة.

فتحتُ دولابي وبحثتُ عن بذلةٍ أو فستانٍ يصلح لمناسبة هامة، ولم أجد سوى إثنين، ولكن كلاهما هديةً من أبي، فماذا أرتدي إذن، «هذا هو الأنسب»، قلتها في بالي، ونظرتُ إليه وأنا أستحضر الذكريات، إنه صوت أبي فرحًا يناديني وأنا في السادسة عشر من عمري:

«ليلى.. ليلى يا حبيبتي جبت لك فستان التخرج أهو.. انتِ نايمة.. أنا قلت أصحيكِ عشان ما تناميش زعلانه.. ما تخافيش يا حبيبتي هتروحي المدرسة بكره وهتحضري الحفلة بالبدلة السواريه دي»، فصحوتُ فرحةً أنتفض من سعادتي فراحَ يقول لي باسمًا:

«شوفي بقى حاجة فخمة وحشمة إزاي وهتبقي أشيك بنت في المدرسة كلها.. هاتي بوسة بقى لبابا».

فقفزت من على السريرِ لأحتضنه وأقبله وأمسكتُ بالبذلةِ أجرها أمام المرآة...

وأفقتُ من شرودي وأنا بنتُ الواحدة والعشرين عامًا أمسكُ بنفس البذلةِ أمام المرآة ولكن بعينينِ محتقنتين بالدموع ذابلتين من الحزن، كانت البذلةُ سُكريّةُ اللونِ من الشيفونِ الخالص، منمقةً بأزرارٍ لامعةٍ كالجواهر، مطعمةً بماساتٍ برّاقةٍ وتطريزٍ رقيقٍ على الأكمام تواري بذيلها الشفافِ بنطالًا بنفس القماشة واللون، بدوت فيها كالملاكِ الأبيض، كان نقاء لونها يناسبني أكثر حينما كنت هذه الطفلة آنذاك.

مرّ عقربُ الدقائق، والساعة تبدو لي معكوسةً من سطح المرآة، أكاد أسمع في قلبي صوتُ دقاتها يدوي، فرحتُ أضعُ كريم الأساس على وجهي الشاحب من سهر ليالٍ طويلة، هل تنتهي مأساتي اليوم إذن أم تبدأ؟

وشردتُ أتذكر مشهدًا دار بيني وبين أمي.

كانت لحظة انهيارٍ تامة صحبها بكاءٌ عنيف، اعترفتُ فيها لأمي بكل مشاعري تجاه زميلي القبطي أخيرًا، فراحت تحاول تهدئتي، ثم خرجتُ أتفقد بعضًا من الراحةِ عند ابنة الجيران لبعضٍ من الوقت، لتظل هذه الجملة: «حاولت بس مش قادرة أنساه!» جملتي التي فجرتها كقنبلةٍ أمام أمي فظلت عالقة في خيالها تدقُّ كل نواقيص الخطر.

وانتهى المشهد من خيالي وأنا التقط فرشة ألوان الجفون، وأظللُ بالرمادي جفنيّ، لون داكنٌ تمامًا كذلك اليوم الذي تلقيتُ فيه خبر رسوبي في امتحان قبول الماجستير بجامعة القاهرة، لأصيح في الردهة وأنا أدور حول نفسي:

– أنا هاتجنن إزاي وليه! إزاي امتحان قبول للماجستير المفروض إنه لطلبة كلية الإعلام قسم عربي.. والامتحان ما لوش أي علاقة بالإعلام خالص وكله إنجليزي ومعمول لقياس سرعة البديهة هو أنا رايحة أقدم على ماجستير ولا رايحة ألعب (بلاي إستيشن)!

لتخفت أصداء صياحي تدريجيًا من ذاكرتي، وأنا ألتقط قلم الكحل لأرسم به بعض الخطوط حول أهدابي لعلّي أضفي بها إشراقةً زائفة على هذه المُقَل، بينما يمر عقربُ الدقائق فيراودني مشهدٌ جديدٌ لأمي وهي تريحُ خدها على قبضةِ يدها بحاجبينِ مرفوعين في خيبةِ أملٍ واضحة لأسألها متعجبة:

– مالك يا ماما في حاجة؟

فردت متنهدة:

– محسن ابن خالك.

– ماله يا ماما؟

– هيخطب.. خطوبته الأسبوع الجاي.

فجلستُ على الأريكة صامتةً لبرهةٍ ثم رحتُ أقول متنهدةً:

– ما أنا قلت لك يا ماما كلها إشاعات ومش هيتقدم أصلًا.

لتعلق أمي بحدةٍ:

– إزاي بس! دي ناهد بنت عمتي مأكدة لي إنه كان عايز يتقدم لك.. بس أكيد في سبب منعه.. أيوة.. جايز خاف ليترفض.. ولا يمكن تلاقيه...

فقاطعتُها أردد:

– ماما صدقيني كله كلام.. كلام بيتقال في العيلة وخلاص!

لترد أمي بحُرقةٍ:

– دي بتقول لي إنه واخدها عن حب كمان! حب امتى.. لأ واللي ضايقني أكتر إني لاقيتها بتقول لي يا رقية خلي بنتك تقلع الحجاب يمكن ربنا يرزقها بعريس.. تقلعي الحجاب فرض ربنا.. إزاي وليه! وهو يعني انتِ وحشة! دا انتِ لسه يا دوبك مكملة الواحد وعشرين سنة.

لأستشيطَ في غضبي مرددة:

– أنا مش هاقلع الحجاب عشان العرسان أنا لابساه عشان ربنا واللي مش عاجبه يشرب من البحر!

واستفقتُ من شرودي على صورتي في المرآة، ما زالت أهدابي ذابلةً من أثر السهر والحزن، رحت أغمرها ببعضٍ من كحلِ الرموشِ علّي أظهرها قليلًا، بينما توقفتُ لوهلةٍ وقد وقعت عيني في المرآة على دفترِ أشعاري الأخير، فتذكرت آخر قصائدي: (واسطة من الوزير) لتأخذني ذكرى القصيدة إلى مشهدٍ لا يُنسى بيني وبين حارسٍ من حراسِ أبواب مدينة الإنتاج الإعلامي وهو ينظر إليّ والشفقة في عينيه قائلًا:

– يا آنسة بعد إذنك معلش ما تضايقيش من كلامي.. انتِ زي بنتي.. أنا ملاحظ إنك بقالك كام يوم راحة جاية تقدمي على شغل هنا في القنوات.

– أيوة ليه في مشكلة؟

– ما فيش.. أنا بس يا بنتي مش عايزك تعذبي نفسك على الفاضي لازم يبقى معاكِ واسطة.

– واسطة ليه.. أنا تقديري جيد جدًا مع مرتبة الشرف ومعايه كورسات إنجليزي و...

ليقاطعني بزفرةٍ قائلًا:

– حتى لو معاكي دكتوراه.. الشغل هنا مش بالشهادات ولا بالكورسات.

– بس أنا موهوبة وأسلوبي حلو في الكتابة.. دا أنا حتى واخدة جوايز في..

فعاد يقاطعني بتململٍ قائلًا:

– يا آنسة صدقيني والله أنا فاهم.. إحنا كل يوم بييجي لنا شباب زيك كتير.. أنا بس بانصحك وأجري على الله.. لازم لك واسطة وواسطة جامدة كمان.. يعني من وزير أو رئيس قطاع.. حاجة زي كدا.

ففتحتُ فمي واتسعتْ عيناي في ذهولٍ لأردد:

– وزير.. واسطة من الوزير!

– أيوة واسطة من وزير.

لم يكن ذلك الموقف ببعيد عن ذاك الذي مر بي حين ذهبنا أنا ونسرين نسأل عن تدريبٍ في نفس القناة التي تتدرب فيها زميلتنا مع خالتها المعدة، فتعاملت معنا مديرةُ القناة بتكبرٍ وتعالٍ حتى كادت تطردنا ثم أسرعت تحتفي بمذيع القناة الذي بالكاد يفقه حديثًا، ثم مبنى ماسبيرو الذي لم يُسمح لنا بدخوله من الأساس، وكأنه مبنىً استخباراتيوو، ليرد علينا حارسه كالإنسان الآلي قائلًا:

«ما فيش تدريب.. أبناء العاملين فقط». أبناء العاملين إذن جهرةً وعلانيةً!

وهكذا وكالعادةِ لم أجد أمامي سوى الورقة والقلم لأبث حسرتي فأكتب ساخرة:

واسطة من الوزير..
قالوا لي عايزة تشتغلي
هاتيلك واسطة من الوزير
قولتلهم هو فايق لي
دا البلد فيها مني كتير
***
يا ناس دا أنا تقديري عالي
لكن لا عمة ولا حتى خالي
من اسيادنا أصحاب المعالي
قالوا لي اسرحي بلفة جرجير
***
قالوا لي يا حلوة يحنن
خليكي في بيتك أحسن
لحد ما ربك يأذن
ويجي العريس الأمير
***
أقرع بقى ولا مهووس
المهم معاه فلوس
حد لاقي يا شيخه عريس
ولا غلبه ولا تفكير
***
وأحلامي أعمل فيها إيه؟
وكنت بتدرس السنين دي ليه؟
قالولي «وسعي لبنت البيه»
وطردوني وندهوا الغفير
***

صعبت على الغفير دموعي
ودوّبت الحسرة ضلوعي
قلت له انطفت شموعي
قال لي صبرك دا لسه كتير!

***

قال لي يا واسطة يا إما رشوة
باقول لك يعني من باب الأخوة
لا مسكنه ولا حتى قوة
ما هُو هُوَ أصله موال كبير!

وهمستُ بابتسامةٍ حزينة أمام المرآة: «ما هُو هُوَ أصله موال كبير!»، ثم استدرت أنظر إلى ملفِّ السيرة الذاتية الحافلِ بالشهاداتِ وكلماتِ الإطراء من أساتذتي، وكأن الملف ينظر إليَّ حزينًا منزويا من على رفِّ المكتب، فاسترجعت بتنهيدةٍ آخر مرة أمسكتُ فيها به متجهة إلى مدير القسم الفني في إحدى الصحفِ الشهيرة، لم أكن لأنسى أبدًا نظرة الاشمئزازِ التي ألقاها عليّ المدير من رأسي حتى قدمي وهو ينفثُ دخان سيجارتِه في وجهي قائلًا:

– لا.. معلش أصل إحنا عندنا المظهر مهم وانتِ كدا مظهرك مش مناسب بصراحة.

فجالت التساؤلاتُ الحائرة في ذهني.. إنني أرتدي أجمل ما أملك من ملابسٍ على آخر صيحاتِ الموضة في عالم المحجبات.. فما المشكلة إذن؟ ورددتُ قائلة:

– مظهري.. لِبسي يعني!

فنطقَ أخيرًا:

– مش بس اللبس لازم يكون عندك شبكة علاقات.. بعد إذنك بقى مش هينفع عندنا شغل.

شعرتُ بالصدمةِ حتى أدرتُ وجهي عنه فاستدرتُ وألقيت نظرةً خاطفةً

على صحفياتِ القسم، كن مكشوفاتِ الأذرعِ والسيقان، هذه تهمسُ ضاحكةً وشعرها الناعم ينسابُ على كتفها العاري، وتلك تقرأ المقالَ برجلٍ على رجل، وساقيها اللامعتين كأنهما منحوتتين من العاج في خفٍ ذهبي لامع، فهمستُ في نفسي بخيبة أملٍ أقول: «طبعًا طبيعي يبقى مظهري مش مناسب!»

وتنهدتُ أمام المرآة وأنا أنظر لطرحتي البيضاءَ أمامي على المنضدة، ثم استحضرتُ أعين رئيس تحرير تلك الصحيفةِ المغمورةِ التي تدربت فيها لأسابيعٍ قليلة، كانت نظراتُ الإعجابِ المنبعثةِ من عينيه اللتينِ طوقتهما التجاعيدُ الكثيفةُ واضحةً وضوح الشمس، بعدما ذهبت السكرتيرة لتصنع له القهوة فأصرّ عليّ بالجلوس كما العادةِ ليهمس لي بالمديح متنحنحًا بنعومةٍ وقد بدت لي من فمه أسنانٌ أكلت عقود الدهر عليها وشربت، ولكنه لا يأبه بسنه، فيلاطفني بينما يصرخُ في وجه زملائي الرجال بوقاحةٍ لم أجد لها نظيرًا، ليصبح الأمر جليًا لا يقبل مزيدا من الاحتمال، فتركتُ له الجريدة كلها وذهبت.

مضت خمسة عشر دقيقة، فماذا تبقى لي الآن؟ الحُمرة.. نعم إنها الحُمرة، التقطتُ الحمرةَ الجديدة التي اشتريتها منذ أشهر من أحد المحالِ وأنا في جولتي المعتادةِ مع جارتي المعلمة تلك التي تحملت الكثير من المشاقِ لتصطحبني في جولتها على كل المدارس التي تعرفها ولا تعرفها، لعل أحدهم يقبل بي كمعلمة، لأسألها في حيرةٍ وأنا ألهثُ من المشي:

– بس أنا عمري ما فكرت أبقى مُدرسة.. يعني أقصد مش حلمي ولا حتى مجالي.. مش عارفة ليه ماما مصرة تخليني أقدم على أي وظيفة وخلاص!

فنظرت إليَّ مستاءةً تقول:

– بس انتِ ادعي بس إنهم يوافقوا أساسا يعينوكِ وانتِ ماعندكيش خبرة.. هو انتِ فاكرة إن في حد في البلد دي بيشتغل بشهادته.. لا يا حبيبتي فوقي! انتِ هنا في مصر مش في الخليج ولا في كندا عندكوا هناك.. حتى

لو الشغل مش عاجبك دلوقتي لازم برضه تنزلي وتشتغلي.. انتِ زي أختي الصغيرة وأنا بانصحك.. لازم تشتغلي أي شُغل لو ما كانش عشان الفلوس والخبرة على الأقل عشان تتشافي ويجي لك ابن الحلال.

تعجبتُ من هذه النظرة الغريبة لفكرة الارتباط والزواج، وهل في الزواجِ عرضٌ وطلبٌ وتنافسٌ وتثابر أيعقل أن يكون للحب والزواج في هذا البلد طابور انتظار أيضا.. يا له من زمنٍ عجيب! تنهدتُ ثم سألتها:

– طيب والمرتب؟ سألوني في الورقة عنه فكتبت ألف وخمسمية.. إيه رأيك قُليل صح؟

لتستوقفني في الشارعِ صائحةً:

– نعم! ألف وإيه! ليه هو انتِ فاكرة نفسك بتقدمي في الخارجية! دي مدرسة يا حبيبتي مدرسة!

– بس خاصة.. يعني الطالب الواحد بيتدفع له سبع أو ثمن آلاف جنيه في السنة!

– إن شا الله يكون الطالب بيدفع عشرين ألف في السنة انتِ كمدرسة آخرك خمسمية.. ستمية.. ما تحلميش بأكتر من كدا! هو نظام التعليم عندنا كدا.. نظام فاشل والدنيا كلها عارفه إنه فاشل.. أمّال بندي دروس خصوصية ليه!

رحتُ أردد الرقم بذهولٍ ثم علقت أقول:

– بس دا ما يجيش حتى قد مصروفي دلوقتي! وأنا مش معقول هادي دروس لأطفال في كي جي!

فابتسمت ساخرةً تردد:

– خلاص يا حبيبتي خليكِ قاعدة في بيتكوا وباباكِ يديكِ المصروف أريح!

– لا.. لأ.. خلاص.. خمسمية.. أهو أرحم من قعدة البيت!

وتنهدتُ بعمق وأنا أتذكر رفض كل المدارس لي، حكومية وخاصة، لأردد وأنا أربطُ طرحتي البيضاء بالدبوس: «رضينا بالهم والهم مش راضي بينا!»

وأفقتُ من ذكرياتي فلمحتْ عيني المذياع وبجواره مجموعةً من شرائط الساهر، ككؤوس خمرٍ معتقٍ تغمرك حتى الثُمالة، لأستحضر ضجيجِ حفلة الساهر التي حضرتها لأحقق حلمي برؤيته على أرضِ الواقع ولو عن بعد، كنتُ ليلتَها مع فريدة ابنة خالي حين تعانقنا فسلمتُ عليها لتنظر لوجهي المصدومِ في عجبٍ قائلة:

– مالك يا حبيبتي في إيه؟!

– نسيتهم!

– نسيتِ إيه؟

– الورد والدبدوب نسيتهم في التاكسي من لبختي!

فراحت تضحكُ ثم نظرتْ إلي تقول:

– قصدك من فرحتك! انتِ جايبة له ورد ودبدوب كمان.. يا عيني يا عيني.. يا بختك يا عم كاظم ولا تزعّلي نفسك يا جميل زمان السواق بيهادي بيهم مراته وعياله دلوقتي رزقهم بقى وأهو ينوبك ثواب برضه!

تعرفتُ في الحفلة على إحدى مجنوناتِ الساهر، وأعطتني رقم هاتف المختص بإدارة شئونه، فكدتُ أطير من فرحتي، لقد اقتربتُ من تحقيق حلمي القديم إذن، وربما يشدوا الساهر ببعضٍ من أبياتي عما قريب، ليتلاشى جناحاي المحلقان فجأة فأهوي إلى قاع الواقعِ المرير على أصداءِ ضحكاتِ الرجلِ وهو يعلق على تشبيهاتِ أبياتي متعجبًا ثم يبتلع ريقه ويختمُ قائلًا: «والله كاظم مشغول كثير ماكو أي فرصة حتى يشوف قصايدك».

ليقطع شرودي هذه المرة صوت أمي وهي تقول:

– ليلى.. كلمتوا المأذون.. سيف اتأكد خلاص من العنوان ولا لسه؟

– أيوة يا ماما لسه مكلماه من ساعة كدا وقال لي على العنوان وهنتقابل كلنا هناك ما تقلقيش.

عمّ السكون القاتل غرفتي فلم يِشُبهُ سوى صوتُ دقات الساعةِ المتواليةِ كأنها تضربُ على أوتار أعصابي بريشةٍ من حديد، لأستحضر

حديثي البارحة مع المأذون وهو يقول لي:

- ما دمتِ فوق الواحد وعشرين سنة حتى ولو بشهر ولا شهرين مش مشكلة.. انتِ قانونًا من حقك تجوزي نفسك بنفسك.. هو صحيح زي ما بتقول لي معظم المأذونين مش بيرضوا بكدا.. بس أنا بقى باخالفهم في الرأي من باب حماية الشباب من الوقوع في الحرام.. لكن ما دامت والدتك موافقة وحتحضر كمان يبقى أنا شايف إنها تبقى هي الولي أفضل.

فأجبتُ في ذهول:

- إيه! تبقى الولي إزاي! هو ينفع الولي يبقى واحدة ست؟!

- هو شرعًا المفروض إن الذكورة شرط من شروط الولاية ولكن في رأي نادر وضعيف بيقول إنه يجوز والرأي دا هيخلي موقفك أقوى من الناحية الشرعية؛ لأن الوحيد اللي أفتى بصحة زواج البنت بدون ولي هو الإمام أبو حنيفة من وسط باقي الأئمة الأربعة.

نظرتُ إلى المرآةِ ولا يزال وجهي شاحبًا، فرحتُ أوّرده ببعض من أحمرِ الخدود علّي أضفي عليه شيئًا من الحيوية، ثم نظرتُ إلى صورتي في المرآة لأخاطبها في سري: «إيه.. مش مبسوطه ليه؟ أخيرًا هترتبطي بحد زيك من دينك.. بحد بيحبك.. بيحبك قدام الدنيا والناس كلها.. مش خايف ولا مرعوب ولا عايز ينتقم منك لمجرد إنه حبّك..أخيرا هيبقى في حياتك حب حلال.. حب صح.. حب مسموح زي بقية البنات.. دا حقك.. افرحي بقى يا ليلى.. افرحي ولو للحظة من نِفسك!»

واستحضرتُ ذلك اليوم الذي التقيتُ فيه سيف، ذلك العريس الذي سيصبح بعد دقائق زوجي، لم يكن بيتنا قد تحول إلى جحيمٍ مستعرٍ بعد، لا صياح ولا وعيد ولا تهديد، لم يكن هذا اليوم ببعيد، لقد كان كان لقاؤنا الأول منذ شهر وبضع أيام فقط..

كان سيف مدرسًا للغة الإنجليزية في دورةٍ تعليميةٍ التحقتُ بها ليومٍ واحدٍ في مركزٍ تابع للجامعة الأمريكية، قبل أن أكتشف مركزًا آخر أقرب

للمنزل فألغي انضمامي للأول، كانت دورةً للمحادثة، وكان على كلٍ منا أن يتحدث عن نفسِه وعن علاقتِه باللغة الإنجليزية وأسباب التحاقه بالدورةِ باستفاضة، فتحدثتُ عن نفسي وعن كندا التي وُلدت فيها وأحملُ جنسيتَها، وتحدثتُ عن سعي الحثيثِ للبحثِ عن عمل، بدا سيف شديد الاهتمام بحكايتي، وبخاصةٍ ما قلته عن كندا التي كانت الهجرة إليها أغلى أمانيه، ولكن مساعيه باءت بالفشل أخيرًا، ولم يمضِ سوى يومان حتى تلقيت اتصالًا هاتفيًا من سيف الذي حصل على رقمي من أوراق التقديم، واتصل يقدّمُ نفسه لي ليعلنَ عن رغبتِه في التقدمِ لخطبتي. ليأتيني صوت سيف المتوهجِ بالفرحةِ بعد أيامٍ وهو يقول:

– يعني والدك وافق إننا نتكلم ونتعرف؟

– أيوة.. وافق وقال لي اتعرفوا على بعض أكتر عشان تعرفوا إذا كنتوا هترتاحوا لبعض ولا لأ.. قول لي يا سيف.. هو انت إيه اللي خلاك تفكر تتقدم لي بالسرعة دي وانت ما تعرفنيش؟

– بصراحه كدا أنا من ساعة ما شفتك حسيت بحاجة غريبة كدا.. حسيت كأني أعرفك من سنين.. كأن في حاجة بتقول لي إن انتِ البنت هي اللي هتجوزها.. اتعلقت بيكِ أوي من أول نظرة.

كان سيف شابًا مقبول المظهر ولكنه لم يلفت نظري في أي شئ مطلقًا، لم يكن ليشبه تلك الصورة الأسطورية التي رسمتها لمطربي المفضل، ولا كان يشبه حبيب في شيء مطلقًا، ولكنني تيقنت أنني بعد حبيب أصبحت كمريض زكامٍ لا يعرف لشئ طعمًا، وكان عليّ أن أستبسل في مقاومة مرضي هذا بأي شكل، بذلك ألمحت لي أمي وهي تقول:

– الحمد لله يا بنتي الشاب دا باين عليه محترم وخلوق ودخل البيت من بابه.

– بس أنا مش حاسة تجاهه بأي انجذاب يا ماما.. بالعكس أنا حتى مش متقبلاه.. ما هواش بالمواصفات اللي في بالي ولا قادرة أستلطفه خالص!

– آه ما أنا عارفه! عشان مش الشاب الوسيم اللي معجب بروحه وطول

النهار يضحك ويهزأ ولامم البنات حواليه.. يا بنتي النوعية دي من الناس من جوا فاضيين.. زي المعدن الفالصو يلمع بس مالوش قيمة.. تتفرجي عليهم من بعيد آه.. إنما القرب منهم ما يجيبش غير وجع القلب وبس.. صدقيني يا بنتي المهم هو الدين والأخلاق وبعدين مش هو قال لك إنه حبك من أول نظرة.. يعني الشاب شاريكِ وعارف قيمتك وعنده وظيفته ومركز محترم والمثل بيقول لك خد اللي بيحبك ولا تاخدش اللي بتحبه.. إدي لنفسك فرصة يا بنتي وانتِ هتتعلقي بيه مع الوقت أكيد.

وبالفعل صار صوتُ سيف الذي لم أكن لأتقبله مع الأيام قشة الغريق بالنسبة إلي، تعلقتُ بوجوده تعلق الظمآن بجرعةِ الماءِ المتاحة، كان سيف بوابتي الأخيرة للهروب، الهروب من ذكريات حب ممنوع، والهروب من واقع مرير لوطنٍ يضّنُ عليَّ بتحقيق أبسطِ أحلامي، والهروب من شبحِ العودةِ الإجباريةِ لسجنِ منزلنا في الخليج لتعاودني ذكرى كوابيسِ المدرسةِ من جديد.

في المرآةِ حدّقتُ طويلًا في عيني اللتينِ ملأتهما حمرةُ الإرهاقِ والتعب، ثم رحتُ أتساءلُ في نفسي: «يا ترى هتندمي في يوم من الأيام يا ليلى على القرار دا»؟ فعلا صوت أمي فجأة لتقول: «يلا يا ليلى خلصتِ؟ عايزين نلحق نرجع بدري عشان أخوكِ راجع على المغرب.. ربنا يعيننا ويسترها معانا يا بنتي».

فأجبتها: «عندك حق يا ماما ماحناش ناقصين.. ربنا يستر».

ورحتُ أدسُّ أدوات التجميل والمناديلِ في حقيبتي كالعادةِ بينما تسلل إلى خاطري صوت صياح أخي وهو يقول:

– أنا قلت لك دا عايزك عشان يهاجر كندا وباين أوي.. وشفت حلم وحكيتهولك.. قلت لك الشيخ عبد الله يرحمه اللي طول عمر بابا كان بيزوره بعد حلقات الذكر جالي في المنام.. ودا راجل ميت.. جالي مخصوص عشان يقول لي أنا مش عايز أختك تتجوز سيف!

– أحلام.. هنمشّي حياتنا كلها على أحلامك يعني.. ليه هو انت ولي ولا

نبي! وبعدين هو هيتقدم لي عشان السفر ليه؟ هو أنا ورقة تأشيرة.. مفيش فيا أي ميزة تانية في وجهة نظرك؟

– لأ .. عشان هبلة!

– آه هبلة طبعا بالنسبة لك! مش قادر تصدق إني ممكن أتخطب وأتجوز زي بقية الناس.. اشمعنى انت من حقك تحب زميلتك وتفكر تتقدم لها عادي والكل يبقى معاك! وبعدين دا وظيفته كويسة ودخله كويس مش واقع يعني ولا مش لاقي عشان يتجوز واحدة ويربط حياته كلها بيها عشان يسافر.. انت اللي دماغك تعبانه ولازم تتعالج قال أحلام.. أحلام إيه وتخاريف إيه!

– لا أنا كدا فعلا بدأت أشك إن حد عامل لك عمل.. ما هو يا معمول لك حاجة يا إما اتجننتِ.

لتصيح أمي:

– عمل إيه يا ابني! اللي انت بتقوله دا هو اللي مش طبيعي!

– ماما.. ليلى عمرها ما كانت بتفكر في الجواز أصلا عشان تتجنن على الجواز كدا ومن واحد ما تعرفهوش إلا من كام يوم! يبقى مين فينا اللي مش طبيعي أنا ولا هي!

لأنتفض في وجهه صائحة:

– انت طبعًا.. انت اللي مش طبيعي!

فاقترب منيّ صارخًا:

– وطي صوتك دا فاهمة.. وطِّيه أحسن لك!

– ولو ما وطيتهوش هتعمل إيه يعني! ها.. هتعمل إيه!

لتصيح أمي:

– كفاية بقى فرجتوا الجيران علينا كل يوم.. قلت لك ما لكش دعوة انت بالموضوع دا.. موضوع جوازها دا يخصني أنا وأبوك وبس.

– أيوة.. أديكِ قلتِ يخص بابا وأنا بقى هاكلم بابا دلوقتي حالًا عشان

يخليها توقّف كلام معاه.

ليُمسك بهاتفهِ المحمول فيضغطُ على الأزرارِ بعصبيةٍ شديدةٍ وأنا أصرخ فيه غاضبة:

– مش هيحصل!

فانتفضَ أمامي صائحًا:

– هيحصل.. وإلا هافصل سلك التليفون عن البيت بنفسي!

لتتنهدَ أمي بمرارةٍ مرددة:

– لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.. ارفع مقتك وغضبك عنا يا رب!

لم أكن واقعةً تحت تأثير السحر ولا جننت كما ظن أخي، أخي الذي استبدَ به العندُ فلم يحاول ولو للحظةٍ أن يقترب مني كأختٍ ولو قليلًا، ولو اقترب مني يوسف لرأى خلف هذه الحنجرةِ الصارخةِ ما تعجزُ عن البوحِ به، إنه ذلك البحر العميق من الألم.

وتغذى عِنادي على عِناد أخي، وكأنني أنتقم من كل شيء وأي شيء من حولي، ربما حتى من نفسي، كالقطارِ كنت أدهسُ كل من يعترض طريقي، أصرخُ في وجهِ أخي وفي صدري أصداءُ صوتٍ عميقٍ يردد.. لن تستطيعَ التحكم في حياتي هذه المرة يا يوسف.. لن يجد أحدكم من حجةٍ ليكتمَ بها أنفاس هذا القلب مجددًا.. سأدافع عنه حتى ولو تمردتُ على الجميع.. لن أرضخَ لقوانين هذا المجتمع الذكوري معصّبةَ الفم والأعين.. ولن أعيش بقية عمري مولّهةً تجتر الذكريات.. سأتنفس.. سأحب.. سأعيش مثلك يا يوسف ومثل حبيب وميري ومثل كل من رأى نظرةَ القهرِ في عيني فابتسم أو مصمص شفاههُ شفقةً على حالي، لقد كرهتُ صمتي القاتل، ولن أقبلَ بدور الضحية بعد اليوم، ستتحررُ ليلى أخيرًا..

لحظات من العناد

جلستُ على كرسي المنضدةِ أمام المرآة متنهدةً وقد انتهت الثلاثون دقيقة، ولكن هذا الألم القابع في قلبي لم ينتهِ، لأستحضرَ صوت أمي وهي تحدثُ أبي في الهاتف قائلة:

– يعني إيه ما تكلمهوش تاني.. انت مش سمحت لها تكلمه من أسبوعين فاتوا.. إيه اللي جرى؟

– هو كدا.. يوسف حلم بالشيخ عبد الله وحكى لي عن مقابلته للعريس وقال لي إنه ما ارتحش.. خليها توقف كلام معاه نهائيًا.. أنا باقول لك أهو.

– طب إديها فرصة تعرفه الأول.. ونعمل قراية فاتحة بس لما تجي.

– قلت لك دا قرار نهائي وما فيهوش نقاش.

فتدخلتُ أحاوره مرددةً:

– إزاي.. يعني.. ليه؟!

– هو كدا أنا قلت كدا وخلاص.. كلام أخوكِ كله صح.

فأمسكتْ أمي بالهاتف وراحت تقول:

– طب تعالى بس شوفه بنفسك.. وبعدين ابقى احكم.

– لا مش جاي ومش نازل مصر من أساسه.. أنا أبوها ومش سامح لها تتكلم معاه.. انتهينا.

كان رد فعل أبي صادمًا بلا أي مبرر منطقي بالنسبة إلينا سوى غيرته الأبوية المفرطة، وكذلك رأيتُ هذا جليًا في أخي، فقارنت تلقائيًا بين موقفهما المحتفي بعايدة وبين موقفهما من عريسي الأول الذي شعرت به مظلومًا لا يملك سبيلًا حتى للدفاع عن نفسه ليردد لي سيف قائلًا:

«والله هم لو يعرفوني كانوا حبوني جدا.. أنا ما اعرفش ليه بيعملوا معايا كدا مع إني ارتحت لأخوكِ جدا ومامتك ست طيبة أوي بتفكرني بماما.. معلش هم بس لو يدوني فرصة.. ربنا يسامحهم أنا مسامحهم».

ولكن سيف لم يلبث في حالته طويلا، فتارةً يحدثني عن هذه الفتاة التي

امتنعت عن الطعام والشراب لتحظى بالزواج ممن تحب، وتارة يتضجرُ من تساؤلاتِ أبي قائلًا:

– يعني انتو مناسبين جورج ومارجريت في كندا هناك وجايين تسألوا على أهلي أنا هنا! على الأقل أنا أهلي مسلمين!

لتتملكني الصدمةُ وأنا أجيبه غاضبة:

– قصدك إيه يعني مش فاهمة! إذا كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) خير الخلق زوجاته صحيح كانوا مسلمات بس نسايبه كانوا من كل الديانات.. إيه المشكلة يعني.. يا ريت توضح لي!

وسُرعان ما اعتذر سيف بشدة، ولكن حديثه هذا دقّ على مسامعي أول ناقوص خطر لم أعبأ به في خضم معركتي الشرسة للدفاع عنه وعن حقي في الارتباط، لم يكن لدي من الوقت ما يكفيني لأعي أو أفهم أو حتى أنام بشكل طبيعي كسائر البشر، لقد عصمت قلبي وعيني عن الحرام فأصبحت كالأرض الجرداء المتشققة من العطش لكلمة حب لا يتبعها وعيد أو شعورٌ بالذنب، ولكن أحدهم لا يشعر بي ولن يشعر، فأنا أنثى ولا يحق للأنثى في مجتمعاتنا أن تتحدث عن الحب، لتبوح بعذابِ حبٍ قديم أو تتماثل للشفاء بحبٍ جديد.

هذا ما طاف ببالي وأنا أمسكُ بهاتفي المحمول لأضعه في حقيبتي قبل أن أنصرف مع أمي، ليطالعني هذا الخدش العميق في شاشتِه، وكأنما كان هذا الخدش يتوسط حنايا قلبي ليجر عليّ الذكرى المريرة أيضًا... إنه يوم الذكريات إذن!

لاح لي هذا المشهد ويوسف يعطيني هاتفي لأتحدث منه مع أبي بالإجبار ليُملي أبي أوامره عليّ بالامتناع نهائيًا عن الحديث مع سيف، ليصيح يوسف قائلًا:

– حلّفها يا بابا.. حلّفها!

فصرختُ منهارةً أبكي:

– كفاية بقى! سيبوني في حالي.. مش عايزة أكلم حد.. أنا عملت لكم إيه! انتو بتعملوا معايا كدا ليه! حرام عليكم.. أنا من حقي أتنفس.. من حقي أعيش.. من حقي أتحب من حقي أتجوز.... أنا ما عملتش حاجه غلط في حياتي! أنا عمري ما عملت حاجه حرام.. سيبوني في حالي بقى.. سيبوني!

ليصيحَ أخي في وجهي وشرارةُ الغضب في عينيه قائلًا:

– باقول لك بابا بيتكلم أهو اسمعيه.. اسمعي بيقول إيه!

فألقيتُ بالهاتف على الأرض بقوةٍ وصرخت:

– مش عايزة أسمع ابعد عني بقى.. كفاية بقى.. كفاية.. كفايه.. كفاية!

واستسلمت لفيضٍ من بكاءٍ وعويلٍ مرير، وابتعد أخي أخيرًا بطلبٍ من أبي الذي اعتصر صوته بالدموع وهو ينهي مكالمته مع أخي ليوصيه بتركي وشأني حتى أهدأ، وبالفعلِ فعل أخي ولكن ليس قبل أن يفجر في وجهي عبارته التي كانت بالنسبة إلي بمثابة حكم الإعدام المنتظر قائلًا لأمي:

– ماما.. خدي بنتك وسافروا لبابا هي خلاص ما عادلهاش سبب تقعد عشانه هنا.. هترجعي الخليج تاني يا ليلى اعملي حسابك على كدا!

بيتنا في الخليج.. لم يكن أخي ليدرك عمق تأثير هذه العبارة الصادمة عليَّ، ألقاها ببساطة ومضى، ليقتلني بعدها أزيز تلك المخاوف المتهامسة في عقلي كفوجِ دبابيرٍ هب في وجهي كالطوفان.. سيُقنع أبي باصطحابي إلى بيتنا في الخليج.. وسأبقى تحت الرقابة الأبدية هناك حيث لا أصدقاءَ ولا معارضَ فنية ولا أنشطة متاحة ولا عملًا سيسمح أبي لي به ولا حُب ولا زواج ولا حياة، ليتني لم أتفوق في الدراسة، ليتني رسبتُ سنين الكلية كلها، سيؤول بي الأمر إلى الانتحار، ثم إلى جهنم. لأتخذ قراري الفوري المشترك مع أمي، فيدور الحوار بعد أيام بيني وبين سيف وهو يتعجب من بحثي الحثيث عن المأذونين قائلًا:

– هو انتِ ملهوفة على الجواز بسرعة كدا ليه؟! غريبه يعني!

– ملهوفه ليه! هو مش انت قلت لي إنك بقالك تلات أيام لا بتاكل وبتشرب ولا عارف تنام ومش قادر تتخيل انك تعيش من غيري!

ليرتبك قائلا:

– آه دا حقيقي.. بس أصل أنا مستغرب يعني أي حد يشوفك مصرة على الجواز بالسرعة دي رغم تهرب المآذين من الجواز بدون ولي هيقول في باله هي البنت دي عاملة كدا ليه.. هي مالها بالضبط!

كانت هذه الجملة المريرة بوقعها المقزز على نفسي، وبكل ما تحمله من سوء ظن لا نظير له كافيةً لإنهاءِ بحثي واستفاقتي في آخرِ لحظةٍ قبل عقد القرآن بيوم واحد، ولكن قد سبق السيف العذل، لقد كنت تمامًا كالمستجير من الرمضاءِ بالنار، لقد مضى القطار وتصاعد الدخان، ولم يعد في وسعي سوى الركض.. الركض في اتجاه واحد إلى آخر المدى، حتى ولو كان آخره كومةُ رمالٍ متحركة تنتظرني لتبتلعني بكل ما أحمل من أوجاعٍ وآمالٍ، لا تشغلُ بال من يحاصرونني بمفاتيحٍ وأقفال.. بهذا تمتمتُ في نفسي وأنا أحدد موعدًا مع المأذون الوحيد الذي وافق على عقد القرآن بالرأي الحنفي المعروف.

وألقيتُ النظرة الأخيرة على نفسي في المرآة لأتذكر طفولتي البائسة، وفني الممنوع المحرم في مدرستي، وحبي المحرم الممنوع في جامعتي، وأحلامي الممنوعة في وطني، وزواجي الممنوع في بيتي، أصبحت حياتي كلها مجموعةَ ممنوعات، فلجأت إلى ربي أستجير به:

«يا رب.. انت العالم بحالي.. انت العالم إني مضطرة.. يا رب بابا يسامحني ويتفهم.. يا رب احميني أنا لجأت لك لا ترد بابك عني.. احميني.. ساعدني.. عوضني.. انت العالم إني ما عملتش حاجة غلط في حياتي.. أنا طالبة الحلال.. وانت الخبير العليم».

شعرتُ بغصةٍ في حلقي وارتسمَ الشجن في عينيّ وأنا أتأملُ صورة أبي المعلقة على الحائط في حزنٍ، لتنظر إليَّ أمي متنهدة فتربتُ على كتفي بأسىً

قائلة:

– يلا يا بنتي.. هنتأخر كدا.

– تفتكري يا ماما إحنا أخدنا القرار الصح ولا لأ.

– ما قدمناش غير كدا.. ما فيش في إيدينا حل تاني.. أبوكِ وأخوكِ الغيرة مجنناهم ومش هيقبلوا بدخول حد تاني البيت.. أبوكِ رفض حتى يجي يشوفه مع إني قلت له «لو ما جيتش أنا هاكتب كتابها» بس ماتقلقيش أنا معاكِ وهأمّنك.. بعد ما أستلم منهم مهرك وفلوس شبكتك زي ما اتفقنا هتبقى في شروط لازم يمضي عليها.

– شروط إيه؟ إحنا ماتفقناش على أي شروط.

– لا.. لازم دا شرطي للجواز لازم تتحط شروط في القسيمة بإن من حقك حرية العمل والسفر واستكمال التعليم.

– هو دا أصلا ينفع في القسيمة.

– أيوة أنا متأكدة ما تقلقيش.

– طب ليه؟

– لازم أعمل كدا عشان أحفظ لك حقوقك.. انتِ بنتي الوحيدة وربنا هيسألني عليكِ.

– مش خايفه من رد فعل بابا يا ماما؟

تنهدتْ أمي بمرارةٍ ثم قالت:

– أنا مش هاسيب بنتي تتظلم وتتقهر وهي في عز شبابها تتقهري ليه؟ انتِ ما أذنبتيش في حاجة.. أبوكِ بكره هيسامح ويفهم.. أبوكِ طيب صدقيني بس هي الغيرة اللي عاملة فيه كدا. غيرته عليكِ مخلياه عايز يقفل عليكِ.. متصور إنه كدا بيحميكِ من الدنيا كلها. وأخوكِ شاب ولسه صغير مش فاهم.. أنا ما اقدرش أتخلى عنك وأفضل أتفرج عليكِ وانتِ بتتعذبي.. هم اللي اضطرونا لكدا.. اتكلي على الله يا بنتي وفوضي أمرك دايما ليه وقولي يا رب.

– يا رب.

وغامرت أمي بكل شيء، غامرت حتى بحياتها الزوجية من أجلي، واستقللنا سيارةَ أجرةٍ ورحتُ أدعو فيها وأبتهل إلى ربي، كان دعائي لله طمعًا في رضاه وعوضه لمن اتقى وصبر، وكان وعد الله حقًّا ولكن الإنسان خُلق عجولا.

حضر سيف مع والده ووالدته، لم تبدُ عليهما الفرحةُ بهذه الطريقةِ الغريبةِ في الزواج، كان سيف بأصوله القرويةِ الريفية في حقيقة الأمر يرى في فِعلتنا هذه تجرأً غريبًا على الأعراف والتقاليد، ولكنه تظاهر كمعظمِ الرجال الشرقيين بالتحررِ والتمدين واحترام حقوق المرأة، وظل هكذا حتى أنهى المأذون صيغة عقد القران التي عارض وجادل في شروطها بضراوة إلى أن رضخ لها في آخر الأمر بعدما هدأه والده أخيرًا، بينما لم يكن ليشغل رأسي حينها سوى صداعٍ كقرعِ الطبول يحمل لي كل لحظة فوجًا حائرًا من الأسئلة وأنا أمسك بالقلم.. هل أفعل الصواب أم الخطأ.. هل أحب هذا الشاب حقًّا أم أنني ما زلت لا أعرفه من الأساس؟ إنني لم أره سوى مرتين أو ثلاثة وما زلت حتى هذه اللحظة لم أحفظ ملامحه بعد! هل أنا في طريقي إلى الجنة أم الجحيم؟ إلى الحرية أم إلى سجن جديد؟

وكأن هذه الحرب الضروس التي عشتها لسنواتٍ بين عقلي وقلبي قد أفضت أخيرًا إلى انتحار كليهما معًا في لحظة رهيبةٍ من التشويش.

وفرغ المأذون من العقدِ وعلت زغاريد والدته فدب الرعب في صدري حتى ألبسني سيف محبس الخِطبة، لأجد نفسي بعدها في مواجهة مع شخصٍ غريبٍ لا أعرفه بثقافةٍ غريبةٍ لا أفقه عنها شيئًا.

وتحول سيف إلى (سي السيد) فجأةً دون مقدمات، وكأنه أصبح يخشى تمردي عليه أيضًا، فأظهر لي العين الحمراء مبكرًا، فلم يمضِ على عقد قراننا سوى ساعاتٍ مضى كل فيها إلى بيته، وخبأت محبس الخطبة في خزانةِ ملابسي، ثم اتصلت به وتحدثنا لبضعِ دقائقٍ هرعتُ بعدها باكية لأمي فانتابتها الصدمة وراحت تسألني عن السبب:

بداية الدوامة

– مالك يا بنتي في إيه؟

فأجبتها بصوتٍ مختنقٍ من البكاء:

– تصدقي يا ماما في يوم زي دا.. يوم كتب كتابنا، اليوم اللي المفروض نكون فيه بنحتفل أخيرًا.

– حصل إيه.. قولي على طول! بتعيطي ليه!

– لأول مرة يزعق لي وينكد عليا بالشكل دا، كأنه واحد تاني يا ماما، كإنه مش هو خالص! وكل دا ليه! عشان نسيت في عزّ الهم والمشاكل والخناق اللي في البيت ليل ونهار نسيت أقول له إني هابتدي دراسة في معهد البحوث عشان دبلومة الماجستير اللي أنا كنت مقدمة عليها أساسا من قبل ما أعرفه. تصدقي إنه زعق لي يا ماما، وصوته اتغير تمامًا، وقال لي أنا النظام دا ما ينفعش معايا! دا أنا افتكرته هيفرح لي يا ماما!

– معلش يا بنتي.. معلش.

وأدركت من يومها أنني قد ضللتُ طريقي، ولكنني لم أعد أملك خيار الرجوع.

***

لم تمر سوى بضع أيام حتى جاءنا أبي زائرًا ولكن متأخرًا، فلقد نفذت أمي ما أنذرت به ولم يلقِ له بالًا، كنتُ أنا في ذاك اليوم مع نسرين ننهي بعض الأوراق الأخيرة في زيارةٍ للجامعة، فراحت نسرين تسألني بلهفة:

– يعني انتِ اتقرت فاتحتك.

– آه بس ما تتكلميش في الموضوع دا قدام أخويا؛ لأنه مش موافق.

– غريبه أوي ما كلمتنيش عنه قبل كدا يعني.. نفسي أشوفه.

– أكيد هيجي يوم وتشوفيه.

وذهبت نسرين تشتري شيئًا من الكافتيريا بينما طافت عيناي في أركانِ الكلية في شجنٍ عميقٍ حتى لمحتُ سهير تقف أمام الشباك وتحادث شابًا في هاتفها المحمول بابتسامةٍ ناعمة، ثم أنهت المكالمة فرأيتُ في يدها محبس

الخطبة الذهبي يعلوه خاتمٌ جميل فسررتُ كثيرًا، واقتربت منها في حذر، فما إن رأتني حتى انتفضت رعبًا دون وعي، ولكنني تفهمتُ ما شعرت به، وبادرتها بابتسامةٍ ناعمة وتبادلنا السلام ثم سألتها:

– انتِ اتخطبتي يا سهير؟

نظرت إلي وما زال الخوف في عينيها ثم قالت متلعثمة:

– أيوة... آه... هو... هو قريبي.

فنظرتُ في عينيها بابتسامتي الصافية أردد:

– ربنا يسعدك يا سهير.. ألف ألف مبروك يا حبيبتي.. انتِ تستاهلي كل خير.. ربنا يتمم لك على خير ويجعل أيامك كلها سعيدة يا رب.

حملت بسمتي وكلماتي الودودة لسهير اعتذارًا مغلفًا عن كل أوجاعِ الماضي التي عاشتها منذ صدمة الخبر الذي نقلته لها بقسوةٍ دون قصد، فردت ببسمةٍ أخيرا:

– شكرا ربنا يخليكِ وانتِ كمان يا رب.

حمدتُ الله أن أهداني هذه الفرصة الغالية لأكفّر عن خطئي مع هذه الفتاة المسكينة، وأرى هذه البسمة على شفتيها أخيرًا فأستبشر بفرجٍ ممن جعل لنا مع العُسرِ يُسرًا، لعل هذه البسمة تزورني أنا أيضًا عمّا قريب.

وطلب أبي لقاء سيف وبالفعل جاءنا سيف زائرًا في البيت، وبعد حديثٍ طويلٍ من الدردشة انصرف سيف ليعلن أبي بعدها عن عدم ارتياحه له، فوقعتُ أنا بين شقى الرحى، وقد بدا لي أن أبي يسترضي أخي بهذا التصرف، ليكون لقاؤه بسيفٍ من باب تحصيل الحاصل ليس أكثر، حسم أبي موقفه بشدة بينما لا يعلم أنني الآن أصبحتُ زوجة لهذا الشابِ مع إيقافِ التنفيذ، فتملكني الاضطراب والخوف والغضب، فرحتُ ألّحُ على أبي بعصبيةٍ واضحةٍ فصاح في وجهي قائلًا:

– هي كلمة واحدة.. أنا قلت مش هتتجوزيه يعني مش هتتجوزيه والله ما

هتتجوزيه!

فانفجرتُ أصيح وقد نفذ صبري:

– والله ما هاتجوز غيره!

وإذا بالغضب يستبدُ بأبي لينهض من مكانه فيصفعني على وجهي صفعةً قويةً راحت تصرخ على إثرها أمي، بينما بدأ أخي يحاول إنقاذ الموقف حتى دق جرس الباب ليحضر الجيران في محاولةٍ للتهدئة، في حين ركضتُ أنا إلى غرفتي لأبكي بمرارةٍ لا مثيل لها.

***

مرت الأيام.. كانت أيامًا قليلة، ولكنها كانت من أسوأ أيام عمري، ممزقةٌ كنت فيها بين ذكور عائلتي وهذا الذكر الجديد، وكأنني أسيرة يتصارعُ الأسيادُ على رقِّها، فيؤنبني سيف بلا رحمة أو هوادة، وقد تبخر كلامه المعسول، وولت عبارات الحبِّ إلى غير رجعة، ليحل محلها الغضب والتذمر والتوبيخ المستمر على كلّ موقفٍ يتخذه أبي أو أخي تجاهه، وإذ بنا وقد صرنا فجأةً كمن تزوجا كرهًا منذ ثلاثين عامًا، شجار وصياح يتبعه بكاء، لأعود إلى منزلي فيتكرر الأمر نفسه، جدالٌ مريرٌ وصياحٌ لا ينتهي بين أبي وأمي وثالثهما أخي، فأحاول الاختلاء بنفسي للحظاتٍ حتى لا أنهار، ولكن بلا جدوى، فعليَّ أن أتماثل أمام هذه المحكمة اليومية ليقتص الكل من ليلى.. ليلى التي أوقعتها الأقدار في هاويةٍ لا سبيل لها للخلاص منها، فعلى قلبها أمست تصوّب جميع السهام.

بالكاد عرفتُ طعمًا للطعام وبالكاد ذقتُ غفوةً من نوم، وظل هذا حالي حتى لطفَ بي الله ومنّ عليَّ فخلصني من عذابي بعد ما يقاربُ الأسبوعينِ من عقد قراني.

كان ذلك حين قررت أمي أن تختلي بأبي فتخبره أخيرًا بأمر عقد القران الذي أتممناه، ليصمت أبي لبرهةٍ ثم ينظر إليها بأسىً قائلًا:

– والله يا رقية أنا كنت حاسس إن في حاجة انتِ مخبياها عليَّ، ليه؟ ليه كدا بس يا رقية؟ ليه ترمي بنتك الرمية دي لأول واحد يتقدم لها؟ ليه؟ اتجننتِ خلاص! فقدتِ عقلك! هو أنا مُت خلاص عشان تجوزي بنتي من ورايا!

– ما كانش قدامي حل تاني.. البنت نفسيتها اتدمرت.. أسيبها لما تنهار قدامي يعني! كل الأبواب اتسددت في وشها، لا شغل ولا حتى الماجستير في الجامعة اللي كانت بتتمناها.. ولا أي حاجة خالص!

فصاح أبي غاضبًا يقول:

– شغل إيه وماجستير إيه! وهي محتاجة شغل! إيه لازمته دا كله!

فقاطعته أمي مرددة:

– بنتك كانت بتحب ولد زميلها مسيحي..

ذُهِل أبي مصدومًا، ثم راح يردد:

– مسيحي.. ولد مسيحي! بنتي أنا من وسط الجامعة دي كلها ما لاقيتش غير واحد مسيحي تحبه.. ليه اتجننت!

فأسرعت أمي تقول:

– النصيب بقى.. نصيبنا كدا هنعمل إيه! ما تقلقش ما حصلش بينهم كلام حب ولا غيره. كانوا زمايل صحاب وبس، والولد اتخرج خلاص وما عادش بيروح الجامعة من أساسه.. بس تقدر تقول كدا إنه دمر لها نفسيتها.

– ولد مين دا.. وعرفته إزاي أنا عايز أفهم!

– اصبر بس وأنا هاحكي لك الحكاية...

راحت أمي تروي لأبي حكايتي في حين كنتُ أنا مع سيف على قارعة الطريق نتشاجر كعادتنا، لأتلقى اتصالًا على هاتفي المحمول، فنظرتُ إلى الشاشة في رعبٍ أقول:

– دا بابا.. أعمل إيه دلوقتي.. هيقول لي انتِ فين.. قلت لك بلاش أتأخر.

فصاحَ يقول مغتاظًا:

– تتأخري.. هو إحنا اتأخرنا أصلا وبعدين انتِ خايفة منه كدا ليه.. اشمعنى خايفه منه هو وأنا مش مهم!

راح أبي يعيد الاتصال، فلم أجد بدًا من إجابته هذه المرة ليتسلل إلى مسامعي صوتُه المتحشرج من الدموع قائلا:

– مبروك يا بنتي.

تملكني الذهولُ وأنا أكاد لا أفهم شيئًا، فعاد يكرر جملته وقد بدا لي صوته المختنق بالبكاءِ أشد وضوحًا، فانهالت الدموع من عينيّ كالسيلِ الغزير وعشنا لبرهةٍ في حالة من البكاء الصامتِ حتى ناداني يتساءل:

– ليلى.. ليلى.

ابتلعتُ ريقي بصعوبةٍ وأجبته بصوت خافتٍ متقطعٍ:

– ايوة يا بابا.

– سامعاني يا بنتي.

– أيوة سامعاك.

– سامحيني يا بنتي.

فاشتد بي البكاءُ ورددتُ قائلة:

– أنا... أنا يا بابا... أنا اللي أسامحك! سامحني انت يا بابا.. سامحني انت.

طغى البكاء على أصواتنا حتى أنهينا المكالمة، وقد شعرتُ أنني قد تحررت أخيرًا من همٍ أثقل من حِمل الجبال، كانت بسمتي أقرب لبسمةِ طفلةٍ رضيعةٍ هلعت إلى حضن أمها لتنجو من هلاكٍ محتوم، لتنهال الدموع كالفيضِ على وجنتيَّ وأنا أتذكر هذا العهد القديم الذي أخلفته بينما راح سيف ينظر لي بضيقٍ شديد مستغربًا هذه المشاعر الفياضة التي انتابتني فجأةً تجاه أبي وأنا أردد بصوتٍ متقطع من البكاء:

– بابا سامحني، تصدق! سامحني وبارك لي كمان!

فقال متجهمًا:

– وبتعيطي ليه.. المفروض تفرحي؟

– عشان حاسه إني جرحته من غير أقصد، أنا وعدته زمان بس.. بس...!

وعدتُ للبكاء لينظر إليّ سيف بحدةٍ صائحًا:

– انت كل اللي همك كلامك مع باباكِ وإنه سامحك وأنا آخر اهتماماتك، أتحرق أنا عادي يعني!

فشردتُ أهمسُ وأنا أكادُ لا أسمعه:

– أشكرك وأحمد فضلك يا رب.. أشكرك وأحمد فضلك يا أكرم من سُئل!

فعلق سيف متعجبًا:

– وأنا؟ إيه.. مش مهم طبعا!

– لا مش كدا أنا قصدي...

– خايفه منه، زعلانة عشانه، فرحانة إنه سامحك وأنا فين من العيلة دي أنا عايز أفهم!

– لا طبعًا إزاي، أنا قصدي...

– أنا فين من كل دا ما تردي! طبعًا هتردي تقولي إيه! فجأة بقيت أنا الشرير يعني!

– لا مش كدا، أنا، أنا أقصد يعن...

– آه طبعًا.. طُز فيا مش خايفة مني لا خايفة منه.. مش زعلانة عليّ أنا اللي المفروض جوزك لأ زعلانه عشانه هو.. أيوة دي الحقيقة.. أنا اللي غلطان.. أنا اللي أستاهل كل اللي يجرى لي والله.. أنا اللي أستاهل!

وانخرط سيف في الصياح والتأنيب كعادته ولكنني لم أعبأ هذه المرة بأي شيء فلقد اغتسلتُ لتوّي بهذه الدموعِ من مسلسل آلامٍ طويلةٍ عشتها.

وصعدتُ درج المنزل لاهثةً أردد على كل عتبةٍ من عتباتهِ الدعاءَ الذي علمتْنِيهِ أمي منذ الصِغَرِ وهي تقول: «دا دعاء الاستغاثه يا ليلى افتكريه زي اسمك» فرحت أردد:

«يا ودود يا ودود، يا ذا العرش المجيد، يا مبدئ يا معيد يا فعالًا لما يريد. أسألك بنور وجهك الذي ملأ أركان عرشك، وأسالك بقدرتك التي قدرت بها على جميع خلقك، وأسألك برحمتك التي وسعت كل شيء لا إله إلا أنت.. اللهم يا مغيث أغثني.. يا مغيث أغثني.. يا مغيث أغثني».

وفتحتُ الباب ودخلتُ وقد بدا الغضبُ الشديد على أخي، بينما استسلم أبي لصمتٍ رهيبٍ شاردا تائهًا على غير عادته، وردت أمي سلامي، فتوجهتُ إلى الغرفةِ فسمعتُ أبي وهو يؤنِّب أمي وأنا أضعُ ثيابي قائلًا:

– ليه كدا بس يا رقية؟ ليه.. ليه؟!

فردت أمي بتنهيدةٍ عليه:

– ما أنا حكيت لك على زميلها اللي كانت بتحبه يا فريد.. أهو على الأقل دا مسلم.

– هو دا اللي ربنا قدرك عليه؟ على الأقل دا مسلم، من قِلة المسلمين يعني!

فشعرتُ بالصدمةِ وقد علمتُ أن أمي قد حكت كل شيء، ورحتُ أحدث نفسي: «كيف سأظهر بينهم الآن وكيف يمكنني أن أتوارى من أعينهم» فخرجتُ متسللة في وجلٍ وما إن رأى أخي وجهي حتى صاح يقول:

– أنا قلت لك إنها بتحب الواد دا.. قلت لك إنها كانت بتحب حبيب دا وانتِ ماصدقتنيش!

ونظر إليَّ مغتاظًا في كمدٍ بينما كان لصمتِ أبي الحزين الشارد وقعٌ أشد إيلامًا وتعذيبًا من الصمت.

***

وهكذا لم تمر سوى خمس سنوات على قدومي إلى مصر لأجد نفسي وقد وقعتُ في نفس أخطاء عمتي، وكأن الأقدار تهامسني في أذني باسمةً:

«ستقعين في نفس ذلك الفخ مهما هربتِ بل وحتى لو غيرتِ الأرض أو بدلتِ اللغة!»

ها أنا ذا أحببت شابًا على غير ديني، وعقدتُ قرآني على آخر بدون رضا والدي، فأخلفت العهد القديم، ولكن عزائي في النهايةِ أنني صمدتُ وقاومتُ التيار إلى أقصى حد، وعزائي الأخير أيضًا أن أبي قد سمع قصتي وفهمها واستشعر هذا الوجع العميق الذي عايشته في صمتٍ طويل.

سامحني أبي وسامحتُ أنا عمتي بعدما تصالحتُ مع نفسي أخيرًا، ولكن يوسف لم يكن ليتفهم ببساطةٍ أو يسامح، ظل هذا الجرح باقٍ بيننا رغم عودتنا للحديثِ معًا بمرور الأيام، فلستُ أملك هذه الشجاعة ولا الجرأة لأروي له كل تفاصيلِ معاناتي قبل أن ألقي بنفسي في هذا المصير.

ربما يأتي اليوم ويفهم يوسف ولو متأخرًا، فيدرك أننا نحن النساء أيضًا نشعر ونتألم مثل الرجال تمامًا، بل وتقع قلوبنا في أسر العذابِ طويلًا في حين يتنقل بعضهم من هوًى لعشقٍ ومن عشقٍ لزواج.

ومن هنا تصورتُ أنني بدأت أطوي صفحات الماضي الأليم لأكتب صفحةً مشرقةً جديدةً في حياتي، صفحة كانت في الحقيقة بداية دوامتي الكبرى، دوامة الهروب التي وقعت فيها، فقادتني وقادت معي أخي إلى صُدفٍ وأقدار لم نكن لنتصورها أبدا، إنها الدنيا تدور بنا إلى حيث تشاء الأقدار.

*** *** ***

استمعت منى إلى حكايتي، وعرفت أخيرًا قصة قصيدة (حب ممنوع) فوضعت طبق الفطائر المحلاة جانبًا ثم راحت تسألني بشغف:

– طب وبعدين؟

أنا ومحبس الخطبة

– بعد كام يوم صحيت على حلم غريب.. شفت فيه نفسي في جنينه جميلة كلها شجر وورد ونافورة جميلة.. دا الظاهر قدامي.. لكن لما دخلتها وقعدت على حافة النافورة بتاعتها اتفاجأت بنمل صغير أوي بأعداد مهولة.. نمل ما كنتش شايفاه ومحاوطني من كل حته.. شفته ماشي حتى تحت الميه فاكتشفت في الاخر ان المكان دا ما ينفعش اقعد فيه أبدا.

شردَتْ منى متعجبةً ثم قالت:

– يااه.. غريبه بجد!

وصمتت تفكر ثم سألتني:

– طب بس انتِ ما قلتيش في النهاية إيه اللي حصل مع حبيب؟

– ما اعرفش عنه حاجة خالص.. حبيب اختفى من حياتي زي ما ظهر بالضبط.

فغلبتها الحيرةُ فقالتْ:

– أيوة بس ما اعرفش ليه أنا عايزة أعرف برضه حصل معاه إيه!

فأجبتها متبسمة:

– أكيد مش هيترهبن يعني.. تلاقيه اتجوز وخلف وزمانه بيطلع عين عياله دلوقتي زي ما كان بيقول!

تبادلنا الضحكة ثم شردت برهة وعادت تسألني:

– طيب قدرتي تنسيه في الآخر يعني؟

فأجبتها بتنهيدةٍ عميقةٍ ولا تزال البسمةُ الناعمةُ على وجهي:

– حبيب صحيح انتهى بالنسبة لي في أرض الواقع بس تأثيره ما راحش.. فِضِل عايش معايا في عالم الخيال.. حاجة كدا عاملة زي عفريت المصباح السحري.. فِضِل الفقرة الجميلة المضحكة في حياتي.. الفقرة اللي بحب استحضرها أوقات.. أضحك شوية.. أدمع شوية.. بس في الفترة دي بالذات بعد كتب كتابي على سيف ما كنتش قادرة لا أفكر ولا أسرح ولا حتى أكتب

وأرسم، مش من سعادتي لأ.. من اللي شفته. كنت باتمنى بس اليوم يعدي عليا بسلام عشان أعرف أنام، ما هو أوقات الهم بينسيكِ حتى نفسك.

– آه والله عندك حق.. حبيب وسيف.. أمّال هتحكي عن جوزك امتى طيب؟!

فضحكتُ مرددةً:

– ما تقلقيش لسه القصة طويلة مش قلت لك في جزء بعده.. مستعجله ليه دا حتى اللي جاي أغرب.

– أغرب من كدا!

– هو انتِ لسه شفتِ حاجة!

– ما تقولي ليش هتحبي واحد يهودي المرة دي!

فرحتُ أضحك قائلة:

– لا مش للدرجادي.. هتسمعيه ولا مش هتسمعيه؟

– هاسمعه يا ستّي.. لما نشوف آخرة مسلسلاتك دي إيه!

رنَّ هاتف منى فجأة برسالةٍ فراحت تقرؤها مرددة:

– دي سوزي باعته تقول إنها هتقابلنا في البارك الساعة ستة بس هتسيب بيتر ابنها مع باباه.

– بجد أخيرًا هنتجمع تاني.. رائع!

– أيوة وجايبة لنا معاها طعمية صيامي.. هاموت على الطعمية بصراحى.

– آه والله وأنا أكتر، كتر خيرها.. بافكر أعمل لها أنا كمان حاجة.. ممكن تشيز كيك بس بعد الكريسماس بأسبوع كدا يكونوا عيّدوا بقى.. إيه رأيك!

– آاااه يا سلام.. بس خليها دايت بقى والنبي.. سكر دايت مع جبنة لايت عشان الرجيم.

– هو أنا هاعملهالها هي ولا هاعملهالك انتِ!

– لا ما هو أنا هآخد نصها على الماشي.. دا شيء أساسي يعني ما فيش كلام.

فرحنا نضحك حتى صاحت فجأةً تقول:

– الولاد! معاد استلام الولاد! الحقي الكلام أخدنا.

فنظرتُ إلى ساعةِ الحائطِ أقول:

– آه.. صحيح دا الساعة اتنين وربع.. دا إحنا يا دوبك نلحق نجري على المدرسة حالا.

ورحنا نهرولُ على السلالم، بينما يتسلل النسيم البارد إلى أجسادنا، لنحكم ربط معاطِفِنا وننطلقُ إلى الفضاءِ الأبيضِ المثلجِ ضاحكين.

إلى اللقاء في الجزء الثاني من ليلى والحب المستحيل..

للتواصل

للتواصل مع الكاتبة ولمزيد من الاطلاع على أعمالها:

هاشتاج:

#ليلى_والحب_المستحيل

رابط قناة الكاتبة على اليوتيوب بعنوان

(قصائد أمل الروبي):

https://www.youtube.com/channel/UCGNGXBd-p-LM_
SHbB1w6w5g?view_as=subscriber

رابط الحساب العام للكاتبة وصفحتها على الفيس بوك:

https://www.facebook.com/amal.elrouby.79

رابط حساب الكاتبة الخاص على الفيس بوك:

https://www.facebook.com/yamamah.amal